

معاني النجوى

الجزء الثالث

الدكتور فاضل صالح السيف

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع





مَعَايِي النِّجْوَى

رقم التخصيف : 415
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 1999/12/2268
المؤلف ومن هو في حكمه : فاضل السامرائي
عنوان الكتاب : معاني النحو ج 3
الموضوع الرئيسي : 1 - قواعد اللغة العربية - النحو
2 -
بيانات النشر : عمان - دار الفكر
• تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(ردمك) ISBN 9957-07-094-0

حقوق الطبع محفوظة للنشر

الطبعة الاولى

1420 هـ - 2000 م



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

سوق البتراء (الحجيري) - هاتف ٤٦٢١٩٣٨

فاكس ٤٦٥٤٧٦١ ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

Hussein Mosque

Tel. : 4621938 Fax: 4654761

P.O.Box: 183520 - Amman - 11118 Jordan

حروف الجر

وتسمى ايضاً حروف الاضافة، قالوا سميت بذلك، لأنها تضيف معاني الافعال الى الاسماء أي توصلها اليها، ويسمونها الكوفيون ايضاً حروف الصفات لأنها تحدث صفة في الاسم كالظرفية^(١)، والبعضية والاستعلاء ونحوها من الصفات.

قالوا وانما سميت حروف الجر لأنها تجر معاني الافعال الى الاسماء، أي توصلها اليها^(٢). والأظهر أنها سميت بذلك، لأن الاسماء تأتي بعدها مجرورة كما سميت حروف النصب والجزم لأن الافعال تأتي بعدها منصوبة أو مجزومة^(٣).

ومعنى الجر هو جر الفك الاسفل الى اسفل، إذ من المعلوم أن تسمية الحركات الضمة والفتحة، والكسرة، وتسمية حالاتها لإعرابية، من رفع، ونصب، وجر، إنما هو قائم على أوصاف حركات الفم.

فالضمة إنما سميت كذلك لأنها تكون بانضمام الشفتين، وسميت الحالة رفعاً لأنك اذا ضمنت الشفتين ارتفعتا.

وأما الفتحة فسميت كذلك لأنها تحدث بفتح الفم، وسميت الحالة نصباً، لان الانتصاب هو القيام والوقوف، وبحصول هذه الحركة ينتصب الفم، أي يقف.

وأما الجر فهو جر الفك الاسفل الى اسفل، وتسمى الحركة كسرة.

وأما السكون فهو عدم الحركة، فاذا قطعت الحركة كان الحرف ساكناً، وسميت الحالة الاعرابية جزماً، لان الجزم هو القطع لأنك بتسكينك الحرف تقطع الحركة عنه.

(١) انظر ابن يعيش ٧/٨، «الرضي على الكافية» ٣٥٤/٢، «التصريح» ٢/٢.

(٢) «الرضي» ٣٥٤/٢، «حاشية التصريح» ٢/٢، «الصبان» ٢٠٣/٢.

(٣) «الرضي» ٣٥٤/٢، «حاشية التصريح» ٢/٢، «الصبان» ٢٠٣/٢.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وإنما قيل لعلم الفاعل رفع، لأنك اذا ضمنت الشفتين لإخراج هذه الحركة، ارتفعتا عن مكانهما، فالرفع من لوازم مثل هذا الضم وتوابعه،... وكذلك نصب الفم تابع لفتحها، كأن الفم كان شيئاً ساقطاً فنصبته، أي أقمته بفتحك إياه، فسمي حركة البناء فتحاً وحركة الاعراب نصباً.

وأما جر الفك الأسفل الى أسفل وخفضه، فهو ككسر الشيء، اذ المكسور يسقط ويهوي الى اسفل فسمى حركة الاعراب جرّاً، أو خفضاً، وحركة البناء كسراً... ثم الجزم بمعنى القطع، والوقف والسكون بمعنى واحد، والحرف الجازم كالشيء القاطع للحركة أو الحرف فسمى الاعرابي جزماً، والبنائي وقفاً أو سكوناً^(١).

فالجر إذن هو جر الفك الاسفل الى اسفل وسميت حروف الجر كذلك، لأن الاسم يأتي بعدها مجروراً، ويسمى الكوفيون حروف الخفض، وهي المعنى نفسه فإن هذا خفض الفك الاسفل.

وعلى أية حال فهو اصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

نيابة حروف الجر بعضها عن بعض

ذهب جمهور الكوفيين الى إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، فقد تأتي (من) بمعنى (على)، كقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ [الأنبياء: ٧٧] وقد تأتي بمعنى (عن)، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [ق: ٢٢].

وقد تأتي (الباء) بمعنى (عن)، كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وقد تأتي بمعنى (من)، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الانسان: ٦].

وقد تأتي (على) بمعنى (في)، كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥]. وقد تأتي بمعنى (عن) كقول الشاعر:

إذا رضيت عليّ بنو قشير
لعمر الله أعجبنني رضاها
الى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

ومذهب جمهور البصريين أنّ حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض، إلا شذوذاً أما قياساً فلا. وما أوهم ذلك فهو مؤول، أما على التضمنين، أو على المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَلَّيْتُمْ فِي جُدُوعِ التَّحْلِ﴾ [طه: ٧١]. فإن الكوفيين ذهبوا الى أنّ (في) بمعنى (على)، وذهب البصريون الى أنه ليس بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء فهو من باب المجاز.

وأما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى^(١).

قالوا ولا تصح إنابة حرف عن حرف كما لا تنوب حروف النصب والجزم عن بعضها^(٢).

ثم لو كان ذلك قياساً لصحّ أن تقول (سرت الى زيد)، وأنت تريد (معه)، وأن تقول (زيد في الفرس) وأنت تريد عليه، وأن تقول (رويت الحديث بزيد) وأنت تريد عنه، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش^(٣).

والحق أنّ الاصل في حروف الجر أنّ لا ينوب بعضها عن بعض، بل الأصل أنّ لكل حرف معناه واستعماله، ولكن قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف. فتتعاور الحروف على هذا المعنى.

وايضاح ذلك أنّ حرف الجر في العربية قد يستعمل لأكثر من معنى، (من) مثلاً تستعمل لابتداء الغاية، وللتبويض، وليبان الجنس، وللتعليل وغيرها.

(١) انظر المغني ١/١١١، التصريح ٢/٤-٦، حاشية الخضري ١/٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المغني ١/١١١، حاشية الخضري ١/٢٢٨.

(٣) الخصائص ٢/٣٠٨ وانظر الفروق اللغوية ١٣-١٤، ابن يعيش ٨/١٥.

و(الباء) تستعمل للالصاق، والاستعانة والتعويض، والتعليل وغيرها.

و(اللام) للملك والاستحقاق، ولانتهاء الغاية، والتعليل وغيرها.

و(في) للظرفية والتعليل، وغير ذلك من المعاني.

وقد تقترب المعاني من بعضها، أو يتوسع في استعمال المعنى، فيستعمل بعضها في معنى بعض، أو قريب منه، فمثلاً قد يتوسع في معنى الالصاق بالباء، فيستعمل للظرفية فتقول: أقمت بالبلد وفي البلد، ولكن يبقى لكل حرف معناه واستعماله المتفرد به، ولا يتمثلان تماماً.

وقد يتسع المتكلم في كلامه العادي غير المتعمّل، أو المقصود، فيوقع الحروف بعضها موقع بعض من دون قصد إلى معنى معين، أو اختلاف ما، فنحن نقول في الدارجة (رحت له) و(رحت عليه)، وهو محض أداء معنى عام، لا يقصد المتكلم فرقاً بين له، وعليه.

ونقول في الدارجة (رحت عَ الشط) أي على الشط أي النهر، و(رحت للشط)، ولا فرق بينهما في ذهن المتكلم سوى أداء المعنى العام.

ونقول في الدارجة (جه عليّ وكلمني)، ونقول (جاني) والمعنى جاء اليّ، وجاءني، ولا يقصد المتكلم فرقاً بين الاستعمالين.

فالمتكلم غير المتعمّل يتكلم غالباً بأقرب شيء إلى لسانه، مما يؤدي المعنى.

فالحروف كما نرى في العامية قد ينوب بعضها عن بعض، في الاستعمال، فنستعمل (على) لانتهاء الغاية، وكذلك اللام و(الى) بلا نظر الى فرق في المعنى.

ولا يصح أن نقول انه لو كانت (على) تنوب عن (الى) أو تستعمل بمعنى (الى) لصحت نيابتها عنها دوماً، فنقول (وضعت الكتاب الى الرف) بمعنى: على الرف، فإنّ اللغة العامية، وإن كانت توقع الحروف بعضها موقع بعض، أو تستعمل للمعنى الواحد أكثر من حرف واحد، لا توقع الحرف موقع الحرف الآخر باطراد، فإنّه يبقى

لعلّ استعمالها ولد (الى) استعمالها، وللام استعمالها الخاص بها، وهكذا بقية الحروف كما قلنا في (وضعت الكتاب ع الرف) ولا يقولون الى الرف، وللف.

وهكذا شأن المتكلمين العرب الاوائل، فإنّ المتكلم غير المتعمّل قد يوقع حرفاً موقع حرف آخر في معنى ما، فيقول ذهبت له، واليه، ومررت به، وعليه، كما نقول الآن في لغتنا الدارجة (مرّيت بيه)، و(مرّيت عليه)، بمعنى (مررت به) أو عليه، من دون نظر الى معنى معين، أو الى فرق معين بين التعبيرين.

ومن هنا نرى استعمال الحرف لأكثر من معنى، وأداء المعنى الواحد بأكثر من حرف. والشاعر أيضاً قد يضطّره شعره فيستعمل هذا الاستعمال من دونما حرج، أو نظر الى فرق بين استعمال حرف دون حرف آخر فإن هذا سائغ دائر في بيئته.

ثم أنّ النيابة قياسية عند المتكلم بها في معنى معيّن يتعاور عليه حرفان أو أكثر، لا في استعمال الحرف مكان حرف آخر على وجه العموم.

ومن هنا يتبين لنا أنه لا مكان للردّ الذي ردّ به قسم من النحاة، أنه لو كان يستعمل الحرف مكان حرف آخر لصح أن يقال (سرت الى زيد) وأنت تريد معه، وأن تقول (زيد في الفرس) وأنت تريد عليه، جاء في (الأصول): «واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض اذا تقاربت المعاني، فمن ذلك (الباء) تقول: (فلان بمكة وفي مكة) وانما جازا معاً لأنك اذا قلت: فلان بموضع كذا وكذا، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، واذا قلت في موضع كذا فقد خبرت بـ (في) عن احتوائه إياه واحاطته به. فاذا تقارب الحرفان، فإنّ هذا التقارب يصلح للمعاقبة واذا تباين معناها لم يجز. ألا ترى أنّ رجلاً لو قال مررت في زيد، أو كتبت الى القلم، لم يكن هذا يلتبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز»^(١).

وجاء في (الخصائص) في (باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض): «وذلك انهم يقولون إن (الى) تكون بمعنى (مع) ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه: ﴿مَنْ أَنْصَارِيَّ إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي: مع الله، ويقولون إن (في) تكون بمعنى (على) يحتجون بقوله عز اسمه ﴿وَلَا صَلْبَيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي عليها... وغير ذلك مما يوردونه.

ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكننا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الاحوال الداعية اليه والمسوغة له، فأما في كل موضع، وعلى كل حال فلا. ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلاً، هكذا لا مقيداً لزمك عليه أن تقول (سرت الى زيد) وأنت تريد معه، وأن تقول: (زيد في الفرس) وأنت تريد عليه، و(زيد في عمرو) وأنت تريد عليه في العداوة، وأن تقول: (رويت الحديث بزيد) وأنت تريد عنه ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش^(١).

فالامر كما ذكره ابن جني وكما أوضحناه، ليس المقصود به النيابة المطلقة.

وهذا كله في الكلام الفصيح.

غير أن هناك بعض اختلاف في الكلام الذي يتعمله صاحبه، ويتفنن فيه، فانه في الكلام الفني قد يختار المتكلم حرفاً على حرف، أو لفظاً على لفظ، لأداء معنى معين، أو لدلالة معينة، وربما لم يستعمل الحرفين في معنى واحد، كما يستعمل المتحدثون في امورهم اليومية، أو قد يكون المعنى الذي يستعمله في حرف، مختلفاً عن مشابهه الذي يستعمله في حرف آخر، فالظرفية التي يستعملها بالباء تختلف عن الظرفية التي يستعملها بـ (في) والتعليل الذي يستعمله باللام، يختلف عن التعليل الذي يستعمله بالياء، وهكذا.

أو قد يخص الحرف باستعمال معين أو بدلالة معينة، مما استعملته اللغة وهذا واضح في الاستعمال القرآني، فقد يخص اللفظ باستعمال معين، فانه مثلاً خص لفظ (العيون) بالعيون الجارية و(الأعين) خصها بمعنى الباصرة، أو بمعنى الرعاية، قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وخص لفظ (الصوم) بمعنى الصمت، و(الصيام) بالعبادة المعروفة وغير ذلك من الاختصاصات.

وهذا الاستعمال الفني هو الذي يدفع اللغة إلى امام فيجعلها أكثر دقة، وتخصصاً، وغناء ونماء لا الاستعمال العامي الساذج غير المخصص ولا الدقيق.

ونعود الى نيابة الحروف، فنقول ما سبق أن قلناه: إنّ الاصل ألا تنوب حروف الجر بعضها عن بعض، بل إبقاؤها على أصل معناها ما أمكن، فان لم يكن ذلك ففي الاتساع وعدم التكلف مندوحة، جاء في (شرح الرضي على الكافية): «واعلى أنه اذا امكن في كل حرف يتوهم خروجه عن أصله، وكونه بمعنى كلمة أخرى أو زيادته أن يبقى على اصل معناه الموضوع هو له، ويضمن فعله المعدى به معنى من المعاني، يستقيم به الكلام فهو الأولى بل الواجب»^(١).

التضمين

ذكرنا أنه قد ينوب حرفٌ عن حرفٍ لأداء معنى معين، ولكن الأصل عدم النيابة بل إبقاء الحرف على أصل معناه.

ولسنا نذهب مذهب من يجعل نيابة الحروف عن بعضها هي الأصل، وأن الحرف الواحد يقع بمعنى عدة حروف بصورة مطردة.

ف (من) مثلاً تأتي عندهم بمعنى على، وبمعنى عن، وبمعنى في، وبمعنى الباء، وبمعنى عند.

و(الباء) تأتي بمعنى من، وبمعنى عن، وبمعنى على، وبمعنى الى، وبمعنى مع.

و(الى) تأتي بمعنى اللام، وفي، ومن، وعند، وغير ذلك.

والصواب أن كثيراً منه أو أكثره خارج على التضمين.

ومعنى (التضمين) إشراب لفظ معنى لفظ فيعطونه حكمه، وفائدته أن تؤدى كلمة مؤدّى كلمتين، كقولهم (سمع الله لمن حمده) أي استجاب فعدي (يسمع) باللام وإنما اصله أن يتعدى بنفسه مثل ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ٤٢]، وكقول الفرزدق:

كيف تراني قالباً مجنّي قد قتل الله زياداً عني
أي صرفه عني بالقتل^(١).

وجاء في (حاشية السيد الجرجاني على الكشف): «التضمين أن تقصد بلفظ فعل معناه الحقيقي ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه، ويدل عليه بذكر شيء من متعلقاته، كقوله (أحمد اليك فلانا) لاحظت فيه مع الحمد معنى الانهاء، ودلت عليه بذكر صلتته، أعني (إلى) أي أنهى حمده اليك.

(١) انظر المغني ٦٨٦/٢-٦٨٦.

وفائدة التضمين اعطاء مجموع المعنيين فالفعلان مقصودان معاً قصداً وتبعاً^(١).

وجاء في الكشف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]: «يقال عداه إذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره... وإنما عدّي بـ(عن) لتضمن (عدا) معنى (نبا) و(علا) في قولك نبئت عنه عينه، وعلت عنه عينه، إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فان قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلاً قيل: ولا تعدهم عينك، أو لا تعل عينك عنهم؟.

قلت: الغرض فيه اعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ، ألا ترى كيف رجع المعنى الى قولك ولا تقتحمهم عينك مجاوزين الى غيرهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي ولا تضموها اليها آكلين لها^(٢).

وجاء في (الخصائص): «اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيداناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك كقول الله عز اسمه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأنت لا تقول رفثت الى المرأة، وإنما تقول رفثت بها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الافضاء وكنت تعدي أفضيت بـ (إلى)، كقولك (أفضيت الى المرأة)، جئت بـ (إلى) مع الرفث، إيداناً وإشعاراً إنه بمعنى»^(٣).

وجاء في (امالي ابن الشجري) في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] أن الجاري على الستهم ظفرت به وأظفرتني الله به، ولكن جاء أظفركم عليهم محمولاً على أظفركم عليهم^(٤).

(١) حاشية الجرجاني (٩٧/١).

(٢) «الكشاف» (٢٥٧/٢).

(٣) الخصائص (٣٠٨/٢).

(٤) امالي ابن الشجري (١٤٨/١).

فللتضمين غرض بلاغي لطيف، وهو الجمع بين معنيين بأخصر أسلوب، وذلك بذكر فعل وذكر حرف جر يستعمل مع فعل آخر، فنكسب بذلك معنيين: معنى الفعل الأول ومعنى الفعل الثاني، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ [الأنبياء: ٧٧]. فقد ذهب قوم إلى أن (من) ههنا بمعنى (على)، وهذا فيه نظر، فإن هناك فرقاً في المعنى بين قولك (نصره منه) و(نصره عليه) فالنصر عليه يعني التمكن منه والاستعلاء عليه والغلبة، قال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ وَيُصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي مكنا منهم، وليس هذا معنى نصره منه.

أما (نصرناه منهم) فانه بمعنى نجّيناه منهم، أو منعناه منهم، قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَّصُورِي مِّنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ﴾ [هود: ٣٠] فليس المعنى من ينصروني على الله، بل من ينجيني ويمنعني منه؟.

وقد تقول: ما الفرق بين قولنا ﴿ونجّيناه من القوم﴾ وقولنا ﴿نصرناه من القوم﴾؟ والجواب أن التنجية تتعلق بالناجي فقط، فعندما تقول ﴿نجّيته منهم﴾ كان المعنى أنك خلّصته منهم، ولم تذكر أنك تعرضت للآخرين بشيء، كما تقول (أنجّيته من الغرق) ولا تقول (نصرته من الغرق)، لأن الغرق ليس شيئاً يُتصّف منه.

أما النصر منه ففيه جانبان في الغالب: جانب الناجي، وجانب الذين نُجّي منهم، فعندما تقول (نصرته منهم) كان المعنى أنك نجّيته وعاقبت أولئك، أو أخذت له حقّه منهم.

وهذه فائدة التضمين ففيه كسب معنيين في تعبير واحد معنى الفعل المذكور والفعل المحذوف الذي ذكر شيء من متعلقاته.

وللتضمين صور أخرى، فقد يضمن فعل متعدّد معنى فعل لازم كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] فَإِنَّ (خالف) فعل متعدّد يقال: (خالفت أمره) ولا يقال: (خالفت عن أمره) ولكن ضمّن معنى الابتعاد والخروج والانحراف، كأنه قال: فليحذر الذين يتعدون عن أمره، أو ينحرفون عن أمره.

وقد يضمن فعل لازم معنى فعل متعدّد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عَقْدَةَ الزَّكَاجِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] لأنّ (عزم) فعل لازم، وقد ضُمّن معنى (ولا تنوا)^(١).

والعدول الى طريقة ما في التعبير بأقصر طريق، ظاهرة من ظواهر العربية، من ذلك ما مرّ في المفعول المطلق من ذكر فعل وذكر مصدر فعل آخر، يلاقيه في الاشتقاق معه، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] فقد جمع معني: التبتّل والتبتيل، أي التدرج والكثرة في آن واحد، ومنه ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] فقد كسبنا باستعمال المصدر بدلاً من اسم الفاعل معنى الحالية، والمفعول لأجله، والمفعولية المطلقة، بخلاف ما لو قال (أدعوه خائفين) فإنّه ليس فيه إلّا معنى الحالية، كما مرّ ذكر ذلك مفصلاً.

أمّا من حيث قياسية التضمن وعدمها، فأمثل ما نذكره في هذا الباب قرار المجمع اللغوي القاهري في دور انعقاده الأول وهو:

«التضمن أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدّى فعل آخر، أو ما في معناه فيعطى حكمه في التعدية وال لزوم.

ومجمع اللغة العربية يرى أنه قياسي لا سماعي، بشروط ثلاثة:

الأول: تحقيق المناسبة بين الفعلين.

الثاني: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.

الثالث: ملائمة التضمن للذوق العربي.

ويوصي المجمع ألاّ يلجأ الى التضمن إلّا لغرض بلاغي^(٢).

(١) «انظر شرح الرضي» (٣٠٢/٢)، المغني (٥٢١/٢).

(٢) «النحو الوافي» (٤٦٣/٢).

معاني حروف الجر

الى

الأصل في (الى) أن تكون لإنهاء الغاية، تقول: (جئت اليك) أي نهاية مجيئي إليك. قال تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ [النمل: ٣٣] أي منته اليك قال سيويه: وأما الى فمتهى الابتداء الغاية تقول من كذا الى كذا^(١).

وجاء في (المقتضب): «وأما الى فانما هي للمتهى ألا ترى أنك تقول: ذهبت الى زيد، وسرت الى عبدالله ووكلتك الى الله»^(٢).

وإذا دلت قرينة على عدم دخول ما بعدها فيما قبلها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فَإِنَّ اللَّيْلَ لا يدخل في الصيام، أو على الدخول كقولك (قرأت القرآن من أوله الى آخره) فَإِنَّ آخر القرآن داخل في القراءة، وكقولك (صمت رمضان من أوله الى آخره) فان آخره داخل في الصيام، فهو كذلك والآ فَإِنَّ الاكثر عدم دخول ما بعدها فيما قبلها، لأنّ الاكثر عدم الدخول فيما دلت عليه القرائن^(٣).

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «والاكثر عدم دخول حدي الابتداء والانتها في المحدود، فاذا قلت: اشتريت من هذا الموضع الى ذلك الموضع، فالموضعان لا يدخلان ظاهراً في الشرى. ويجوز دخولهما فيه مع القرينة»^(٤).

وذكر النحاة لها معاني ترجع في حقيقتها الى معنى الانتهاء منها:

الصعية: وقد جعلوا منها قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]

(١) «كتاب سيويه» (٣١٠/٢).

(٢) «المقتضب» (١٣٩/٤).

(٣) المغني (٧٤/١).

(٤) «شرح الرضي» (٣٥٩/٢).

والتحقيق إنها بمعنى الانتهاء، أي من يضيف نصرته إيتي الى نصرته الله^(١)، تقول: (من ينصرني إلى خالد) أي من يضيف نصرته الى نصرته خالد، وهي قريبة المعنى من (مع) غير أنها تختلف عنها، فأنت تقول (من ينصرني مع خالد) وقد تريد بذلك من يضيف نصرته الى نصرته خالد، أي أن يتصاحبا في نصرتي، أو تريد أن خالداً مطلوب أن ينصر معك، والمعنى من ينصرني وخالداً، أي من ينصرني وينصر خالداً؟.

ويحتمل قولك (من ينصرني إلى خالد) معنى آخر هو (من ينصرني حتى أصل الى خالد) كما تقول (من ينجيني إلى خالد؟) و(من يمنني إلى خالد؟) أي ينتهي المنع الى خالد.

وعلى هذا يكون معنى الآية: من أنصاري حتى ننتهي الى الله؟ وتحتمل معنى آخر هو (من أنصاري في دعوتي إلى الله).

وذكر أنها تكون بمعنى (في) وجعلوا منه قوله:

فلا تتركني بالوعيد كأنتني إلى الناس مطلّي به القار أجرب أي في الناس.

قيل والأولى أن تكون على بابها على تضمين معنى مبغض الى الناس. قيل: ولو صح مجيء (إلى) بمعنى (في) لجاز (زيد الى الكوفة^(٢)) بمعنى في الكوفة.

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «والوجه أنها بمعناها وذلك لأن معنى (مطلّي به القار أجرب) مكره مبغض، والتكره يعدي بـ (الى). قال تعالى: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ [الحجرات: ٧] حملاً على التحبيب المضمن معنى الإمالة. قال تعالى: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ﴾ [الحجرات: ٧]^(٣).

(١) «شرح الدماميني على المغني» (١٦٢/١) وانظر الخصائص ٣٠٩/٢.

(٢) المغني (٧٥/١).

(٣) «شرح الرضي» (٣٥٩/٢).

وهو أولى من الرأي الاول، فإنّ هناك فرقاً بين قولك: (كأنني في الناس مطلىّ به القار أجرب)، وقولك (كأنني الى الناس مطليّ به القار أجرب) ف (في) لا تدلّ إلاّ على أنّه بينهم على هذه الحال، أما الثانية فمعناها انني ابدو اليهم كأنني كذلك، وينظرون اليّ كأنني كذلك، ففيها معنى النفرة. فأنت تقول (هي فيهن فحمة) بمعنى انها بينهن كالفحمة وليس فيه أتهن يبغضنها، فاذا قلت: (هي اليهن فحمة) كان المعنى انها تبدو لهن كالفحمة، أي يرينها غير جميلة، أو بمعنى انها بالنسبة اليهن كالفحمة، أي إذا قيست اليهن كانت كالفحمة، وكذلك قولك (هي اليه شمس) أي تبدو اليه كذلك أي يراها جميلة أو على معنى أنها اذا قيست اليه كانت كالشمس.

قيل وقد تأتي بمعنى (من) كقوله:

تقول وقد عاليت بالكور فوقها
أيسقى فلا يروى اليّ ابن أحمر
أي مني^(١).

وقيل بل المعنى (فلا يروى ظمؤه اليّ)^(٢) أي يبقى ظامناً إليها فلا يروى، وهو أولى وذلك أنك تقول (هو لا يروى من هذا الماء) أي أنه لا يرويه بمعنى أنه مهما شرب منه فلا يزال غير مرتو. أما قولك (هو لا يروى الى هذا الماء) ففيه معنى الشوق اليه. تقول (هو لا يروى من ماء البحر) بمعنى أنّ ماء البحر لا يروي الظمآن، وأنه كلما شرب منه ازداد ظمأ وطلباً للماء، ولا تقول (هو لا يروى إلى ماء البحر) لان المعنى عند ذاك يكون: هو لهفّ الى هذا الماء متشوّق إليه، لا ينقطع ظمؤه إليه ولا لهفته له.

وأصل المعنى هو الانتهاء، تقول (ملّت اليه) و(ملّت منه) ففي الأول يكون المعنى نهاية الميل إليه أي أحببته، وتقول (ملّت الى هذا المكان) أي عرّجت عليه.

أما (ملت منه) فمعناه أنّ مبتدأ الميل كان منه، وملت عنه أي انحرفت عنه.

(١) المغني ٧٥/١.

(٢) «شرح الدماميني على المغني» (١/١٦٣).

وتقول (ظمئت إليه) أي كان الظماً منتهياً إليه بمعنى أردته. وتقول: (لا أظماً إليه) أي أريده و(لا أظماً منه) أي يأتي منه ظماً إليّ كما تقول: أنا لا أظماً من الطعام الملح، ولا أظماً من السمك، أي لا يكون سبباً في ظمئي.

وهكذا بقية معاني هذا الحرف، فأنها لا تكاد تخرج عن معنى الانتهاء، والأولى كما ذكرنا إبقاء الحرف على أصل معناه ما أمكن.

الباء

معنى الباء الرئيس هو اللصاق، وما ذكر لها من معان أخرى تحمل هذا المعنى، قال سيبويه: «وباء الجر إنّما هي للالزاق والاختلاط، وذلك قولك خرجت بزيد ودخلت به وضربته بالسوط، ألزقت ضربك أياه بالسوط.

فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله»^(١).

قيل: ولا يفارقها هذا المعنى^(٢).

واللصاق حقيقي ومجازي، فمن اللصاق الحقيقي. قولك (أمسكت بمحمد) إذا قبضت على شيء من جسمه، أو على ما يحبسه من يد، أو ثوب، أو نحوه.

ولو قلت (أمسكته) إحتمل ذلك، وأن تكون منعته من التصرف^(٣).

ومنه قولك تعلقت به، وتشبثت به، والتصقت به.

ومن اللصاق المجازي قولك (بخل به) أي إلتصق بخله به، وتعلق به إذا كان التعلق معنوياً، ورأفت به أي ألتصقت رأفتك به.

(١) «كتاب سيبويه» (٢/٣٠٤).

(٢) المغني (١/١٠١).

(٣) المغني ١/١٠١، «شرح ابن يعيش» (٢/٢٢٢).

ومن التوسع في الالتصاق قولك (مررت به) بمعنى الصقت مروري بمكان يقرب منه^(١)، وليس على معنى أنك الصقت نفسك به في مرورك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المطففين: ٣٠] أي قريباً منهم.

ومن معانيها الاستعانة، نحو قطعت بالسكين وكتبت بالقلم^(٢)، ومنه قوله تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وفيها معنى الالتصاق كما هو بين.

ومنها المصاحبة، كقوله تعالى: ﴿دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١]، واشترى الدار بالآتھا، وفيها معنى الالتصاق والاختلاط ومنه قوله تعالى: ﴿أَهِيْطْ بِسَلْتِمِ﴾ [هود: ٤٨]^(٣).

قالوا وللتعدية نحو ذهب به، ودخلت به، وخرجت به، قالوا هي في معنى أذهبته وأدخلته، وأخرجته^(٤).

وذهب قوم الى أن بين التعديتين فرقاً، فإنك إذا قلت (ذهب بزيد) كنت مصاحباً له في الذهاب^(٥).

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: أي فرق بين تعدية (ذهب) بالباء وبينها بالهمزة؟»

قلت: اذا عدي بالباء فمعناه الاخذ والاستصحاب، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥] وأما الازهاب فكا لإزالة^(٦).

(١) أنظر المغني (١/١٠١).

(٢) «الاصول» (١/٥٣)، «المقتضب» (١/٣٩)، «شرح ابن يعيش» (٢/٢٢).

(٣) المغني (١/١٠٣)، «شرح الرضي» (٢/٣٦٣)، «شرح ابن يعيش» (٢/٢٢).

(٤) المغني (١/١٠٢).

(٥) المغني (١/١٠٢).

(٦) «الكشاف» (١/٣٨٨) «وانظر التفسير الكبير» (٢/٧٦).

وهو الصواب فيما نرى، فإنك اذا قلت (أدخلت محمداً على الامير) جاز أنك دخلت معه وجاز أنك لم تدخل معه، وأما قولك: (دخلت به) ففيها معنى المصاحبة، ومنه قول الاستاذ (أدخلت الطالب الصف) أو (أخرجته منه) فهو يحتمل الدخول معه، وعدم الدخول، وأما قولك (دخلت به) و(خرجت به)، فليس فيه إلا معنى المصاحبة.

ومنها الظرفية^(١) كقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١-٢]، وقوله ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الانفال: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنَّيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] وقوله: ﴿بَجَنَّتْهُمْ بَسَحْرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وفيها معنى الالتصاق كما سنوضح ذلك في الفرق بين ظرفية الباء وظرفية (في).

ومنها المقابلة، والعوض، كقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] ونحو (اشتريته به) و(بدلته به)، وقوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، واشتريته بألف^(٢).

وتكون الباء مع الذهاب، وفيها معنى الالتصاق كأن الذي هو خير كان معهم فأخذوا مكانه الذي هو أدنى، ونحوه قولك (اشتريته بمائة) فالشئ كان معك فدفعت وأخذت بدله ما اشتريته، وقوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦] فكان الآخرة كانت معهم قريبة منهم، وفي متناول أيديهم، ولكن أعطوها واشتروا بها الدنيا، وفيها كلها معنى الالتصاق واضح.

ومنها البدل كقوله:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا
شئوا الاغارة فرساناً وركبانا

(١) المغني (١/١٠٤)، «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦٣).

(٢) المغني (١/١٠٤). «شرح الرضي» (٢/٣٦٣).

وقوله ﷺ: «ما يسرني بها حمر النعم» أي بدلها^(١).

وهو قريب من المعنى السابق.

ومنها السببية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤]^(٢)، وقوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وسنبحث معنى السببية بالباء واللام وغيرهما في مكان لاحق من هذا الباب.

قالوا ومن معانيها المجاوزة، كـ (عن) وجعلوا منه قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] بدليل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٠] قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

جاء في (المخصص): «فهما رأيت الباء بعدما سألت، أو ساءلت، أو ما تصرف منهما فاعلم أنها موضوعة موضع عن»^(٣).

وجعلوا منه في غير السؤال قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]^(٤) وانكر البصريون هذا المعنى.

أما ما قاله صاحب المخصص من أن كلّ باء بعد سأل وما تصرف منه بمعنى (عن) ففيه نظر، فقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ليس بمعنى عن عذاب، فهناك فرق بين سأل به وسأل عنه، ولا مجال للاستدلال بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٠] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات: ٤٢] ونحو ذلك فإن المعنى مختلف.

(١) المغني (١/١٠٤).

(٢) المغني (١/١٠٣).

(٣) «المخصص» (١٤/٦٥).

(٤) أنظر المغني (١/١٠٤)، «شرح ابن عقيل» (١/١٣١)، «الهمع» (٢/٢٢).

فان السائل في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ لم يسأل عن العذاب وموعده كما سأل عن الساعة وعن الانباء، وسبب نزول الآية أنّ النضر بن الحارث قال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَحَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنِينَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]^(١) فانزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا بالعذاب لنفسه، وطلبه لها، ولم يسأل عن العذاب وموعده. ف (سأل به) معناه (دعا به وطلبه). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «ضُمِّن (سأل) معنى (دعا) فعُدِّي تعديته كأنه قيل دعا داع بعذاب واقع من قولك: دعا بكذا اذا استدعاه وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْكَهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]^(٢).

وأما سأل عنه فمعناه بحث عنه، جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]: «فسأل به كقوله إهتم به واعتني به واشتغل به، وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه ونقّر عنه»^(٣).

وأما قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ فيحتمل أنّ المعنى فاسأل خبيراً به، أي سل «عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته»^(٤).

وأما قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فليس على معنى المجاوزة والله أعلم لأنّ معنى (عن أيمانهم) مبتعد عن أيمانهم، وليس هناك دليل عليه في هذه الآية، بل الاقرب، أنّ النور قريب من اليمين أو مختلط باليمين، لا مبتعد عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٧].

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّ﴾ [الفرقان: ٢٥] فليس على المجاوزة ايضاً والله أعلم. فإنّ هناك فرقاً بين قولك (انشقت التربة عن النبتة) و(انشقت التربة بالنبتة)

(١) «الكشاف» (٣/٢٦٧).

(٢) «الكشاف» (٣/٢٦٧).

(٣) «الكشاف» (٢/٤١٣).

(٤) «الكشاف» (٢/٤١٣).

فمعنى الاول، أنها انكشفت عن النبتة، ومعنى الثاني أنها انشقت بسببها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَّاعًا﴾ [ق: ٤٤] أي تنكشف عنهم فانهم كانوا تحتها فتشقق عنهم، وليس ذلك معنى (تشقق بهم) فأنت إذا قلت (تشقق بهم) فهو إما بسببهم، وإما أن تنشق وهم بها، تقول (انشقت به الأرض) و(انشقت عنه الأرض) فانشقت عنه إذا كان تحتها، وانشقت به إذا كان عليها، فقولك (تشقق السماء عن الغمام) معناه: أن الغمام كان داخلاً في السماء، وكانت السماء تغطيه وتحجبه، كما تقول (انشقت عنه الأرض)، وأما قولك (انشقت به السماء) فمعناه أن الغمام عليها وتشقق بوجوده، كما تقول انشقت به الأرض، والمعنى -والله أعلم- أنها تشقق ممتلئة بالغمام، وذهب الزمخشري إلى أنها بمنزلتها في شققت السنام بالشفرة على أن الغمام جعل كالآلة التي يشق بها^(١). والمعنى ما ذكرته والله أعلم.

قالوا وتكون بمعنى على وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿مَنْ لَنْ تَأْمَنَهُ يَنْظَارِ﴾ [آل عمران: ٧٥] بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤] وقول الشاعر:

أربّ يبول الثعلبان برأسه.

بدليل تمامه:

لقد هان من بالت عليه الثعالب^(٢).

والحق أن المعنى مختلف، فقولك (امنته به) يختلف عن قولك (امنته عليه) فقولك (لا آمنه عليك) معناه لا آمنه أن يحيف عليك أو يهجم عليك أو يتعدى عليك وما الى ذلك ففيه معنى الاستعلاء والتسلط والعدوان.

(١) المغني (١/١٠٤)، «وانظر الكشف» (٢/٤٠٦).

(٢) المغني (١/١٠٤-١٠٥).

وأما قولك (لا آمنه بدرهم) فمعناه لا آمنه من أن يتصرف به، أو يعبث به، لأن (على) تفيد الاستعلاء، و(الباء) تفيد الالتصاق، والمعنى أنه لا يلتصق آمنه بدرهم، بل ستفارقه أمانته ويتصرف به.

فأمنه عليه تستعمل للهجوم والاعتداء، وأمنه به تستعمل للتصرف كما ذكرنا، تقول: لا آمنُ عليك الذئب، ولا آمنُ عليك غوائل الطريق، ولا تقول: لا آمن بك الذئب.

ولذلك، -والله أعلم- استعمل القرآن (أمنه عليه) مع الأشخاص، و(أمنه به) مع الأموال. فقال: ﴿قَالُوا يٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١] وقال ﴿هَلْءَ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]. وقال في الأموال ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] لأن في الاولى معنى العدوان، وفي الثانية معنى التصرف، وإن كان يجوز أن يقال (لا آمنه على هذا المال) بمعنى التسلط عليه والاستحواذ، وقيل إن معنى قولك أمتك بدينار، أي وثقت بك فيه، وقولك: (أمنت عليه) أي جعلتك أمينا عليه، وحافظاً له^(١).

وأما البيت فانه كما ذكرنا قد يوقع الشاعر حرفاً موقع حرف آخر، ومع ذلك فالمعنى محتمل المغايرة فقوله (أرب يبول الثعلبان برأسه) كأنه جعل رأسه وعاء بال فيه. وقوله (لقد هان من بالت عليه الثعالب) معناه: من علت الثعالب ببولها من فوق الى اسفل فكسته إياه.

قالوا وللتبعض بمعنى (من) وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الانسان: ٦]^(٢) أي: منها، وقيل بل ضمن شرب معنى روي^(٣).

(١) «التفسير الكبير» (٨/١٠٠).

(٢) المغني (١/١٠٥)، الهمع (٢/٢١).

(٣) المغني (١/١٠٥).

وفيها معنى آخر، وهو أَنَّ الباء تفيد الالتصاق، فقولك (يشربون بالعين) معناه أَنَّهُمْ يكونون بها، كما تقول (أقمنا بالعين وأكلنا وشربنا بها) أي هم قرييون من العين يشربون منها، بخلاف قولك (يشربون منها) فإنه ليس فيه نص على معنى القرب من العين، فقولك (أكلت من تفاح بستانك) لا يدلّ دلالة قاطعة على أنك كنت بالبستان، بل ربما حمل اليك.

فقوله (يشرب بها) يدل على أَنَّهُمْ نازلون بالعين، يشربون منها، فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الاولى، جاء في (البرهان) ان «العين ههنا اشارة الى المكان الذي ينبع منه الماء لا الى الماء نفسه نحو (نزلت بعين) فصار كقوله: مكانا يشرب به»^(١).

قالوا: وقد تأتي للغاية بمعنى الى، نحو قوله تعالى ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ﴾ [يوسف: ١٠٠]. قالوا: هي بمعنى إليّ، وقيل بل ضمن (أحسن) معنى (لطف) أي لطف بي^(٢).

وثمة فرق بين أحسن اليه، واحسن به، فإن معنى (أحسن اليه) قدم اليه إحساناً، أو صنع له إحساناً، اما (أحسن به) فمعناه وضع إحسانه به، ومن ذلك أنك تقول: أحسنت بهذا الامر وأحسنت بعملك أي الصقّت إحسانك بعملك ووضعت به، ولا تقول: أحسنت الى عملك، ولا احسنت إلى هذا الأمر الآ على معنى آخر، وهو أنك قدمت اليه إحساناً وهو معنى مجازي.

فإنّ الاحسان في (أحسن به) ألصق إذ إنّ فيه معنى الرعاية واللفظ، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وقال على لسان سيدنا يوسف (ع): ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ﴾ [يوسف: ١٠٠] ففي الثانية إحسان خاص يختلف عن الاول، فإن الآية الاولى في عموم الخلق، واحسان الله الى الخلق إحسان عام يشترك فيه سيدنا يوسف

(١) «البرهان» (٣/٣٣٨-٣٣٩).

(٢) المغني (١/١٠٦).

وبقية الخلق، أما قوله (وقد احسن بي) فإن فيه إحساناً خالصاً ألصق من الاول اذ أخرجه من السجن وبوأه مكانة عالية وجاء اليه بأهله وما الى ذلك من العناية الربانية واللفظ.

وتأتي للقسم قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُورِ﴾ [الواقعة: ٧٥] وللقسم موضع خاص به نبخته فيه باذن الله.

وتأتي للتجريد نحو قولهم (رأيت بمحمد أسداً) قالوا: أي برؤيته^(١).

جاء في (جواهر الأدب) ان الباء تأتي للتجريد وهي التي تثبت لمدخولها صفة عظيمة، أما مدحاً أو ذماً نحو (لقيت يزيد بحراً) وبعمرو أسداً وبخالد سفيهاً، ومنه قوله:

لقيت به يوم العريكة فارساً على أدهم كالليل صبحه الفجر

كأن الباء تجرد مصحوبها عن غير هذه الصفة، مثبتة لها إياها كأنه منطبع، ومنجبل عليها أي ليست صفته إلا البحرية في الجود، والفروسية في الشجاعة^(٢).

وفي (شرح الدماميني على المغني) أن في باء التجريد قولين أحدهما أنها للسببية كما قال المصنف فجردت من زيد أسداً مبالغة في كمال شجاعته، حيث بلغ أن ينتزع منه أسد... والثاني أنها للظرفية، أي لقيت في زيد الاسد كذا قال الشيخ بهاء الدين السبكي قلت وقد عدوا مثل قوله:

وشوهاً تعدو بي الى صارخ الوغى بمستلثم مثل العتيق المرجل

من التجريد والباء فيه للمصاحبة^(٣).

وكونها للظرفية أظهر فيما يبدو لي، وذلك أن قولك (رأيت بخالد أسداً) معناه حلّ به أسد، كما تقول حلّ بالمكان ونزل به، فقد جردت خالداً من شخصه وجعلت بدله أسداً، وهي على معنى الالتصاق.

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٣٦٣/٢).

(٢) «جواهر الادب» (١٩).

(٣) «شرح الدماميني على المغني» (٢١٦/١).

وتأتي زائدة وذكروا لها موطن، ومن موطن زيادتها، زيادتها في:

فاعل فعل التعجب نحو: أكرم بخالد، وهذه فيها خلاف، وموطنها التعجب وستبحث في موطنها.

ومنها زيادتها في فاعل (كفى) نحو: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] و﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وهذه الزيادة غالبية، قال الزجاج: «دخلت لتضمن كفى معنى اكتف، وهو من الحسن بمكان... ويوجب قولهم: (كفى بهند) بترك التاء... ولا تزداد في فاعل كفى التي بمعنى أجزاء، أو أغنى، ولا التي بمعنى وقى.

والاولى متعدية لواحد كقوله:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

والثانية متعدية لاثنين، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]^(١).

وعلى هذا هي لا تزداد في فاعل كفى باطراد، فلا تزداد في نحو قولك (يكفيني قليل من الماء)، ولا في نحو (كفاني محمد هذا الامر)، ولا نحو (كفاك علم محمد)، وإنما تزداد لتضمن كفى معنى اكتف، كما قال الزجاج على معنى هو يكفيك عن غيره.

واكثر ما يكون ذلك لدلالة على التعجب، نحو (كفى به فارساً) و(كفى به شاعراً). والتعجب قد يؤتي معه بالباء نحو: أكرم به ونحو: ناهيك به رجلاً، بمعنى هو يكفيك عن غيره، وللمدح والذم نحو: (كفاك به رجلاً) وفيه معنى التعجب، جاء في (معاني القرآن) للفراء: وانما يجوز دخول الباء في المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه، ألا ترى أنك تقول: كفاك به، ونهاك به، وأكرم به رجلاً، وبش به رجلاً، ونعم به رجلاً، وطاب بطعامك طعاماً، وجاد بثوبك ثوباً، ولو لم يكن مدحاً أو ذماً لم يجز دخولها، ألا ترى أن الذي يقول: قام أخوك أو قعد أخوك لا يجوز له أن يقول:

(١) المعني (١/١٠٦-١٠٧).

قام بأخيك ولا قعد بأخيك الا ان يريد قام به غيره وقعد به»^(١).

وزيدت في مفعول كفى للدلالة على هذه المعاني، نحو (كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع) أي ليكتف بهذا الاثم، وكقول الشاعر:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنيا أن يكنّ أمانيا

ومن مواطن زيادتها زيادتها في المبتدأ، وذلك نحو (ناهيك بمحمد) فـ (محمد) مبتدأ والمعنى: ينهاك محمد عن طلب غيره لما فيه من الكفاية.

جاء في (حاشية التصريح): «قال الدنوشري: من المبتدأ المقرون بالحرف الزائد قولهم (ناهيك بزيد) فزيد مبتدأ مؤخر، وناهيك خبر مقدم، والمعنى أن زيدا ناهيك عن غيره لما فيه من الكفاية»^(٢).

وهذا المعنى قريب من المعنى السابق الذي ذكرناه في كفى.

قالوا: ومن زيادتها في المبتدأ، نحو قولهم: (خرجت فاذا بمحمد) وهو المبتدأ الواقع بعد اذا الفجائية^(٣).

والحق أنها ليست زائدة، وليس دخولها كخروجها، فهناك فرق بين قولك (خرجت واذا بمحمد) وقولك (خرجت واذا محمد)، وقولك (خرجت واذا بأخيك يركض) و(خرجت واذا أخوك يركض).

فإن أصل الجملة الأولى فيما أرى: خرجت واذا أنا بمحمد، وخرجت واذا أنا بأخيك يركض، فهي ليست زائدة، والخبر محذوف، وتقدير الكلام: واذا أنا أبصر بمحمد أو بأخيك، أو افجأ به، أو ملق به ونحو ذلك.

(١) «معاني القرآن» (٢/١١٩-١٢٠).

(٢) «حاشية التصريح» (١/١٥٦).

(٣) المغني (١/١٠٩).

وتقول: (خرجت واذا بدويّ عظيم) تقدير الكلام واذا أنا بدويّ، والخبر محذوف وتقديره واذا أنا افاجاً بدويّ، أو محسنّ بدويّ، ونحو ذلك.

جاء في (التطور النحوي): «وقد يدخل على الاسم التالي لا ذا الباء نحو (بينما هو يسير إذا برهج) ومعنى الباء هنا يتضح من مثل (فلما توسطت الدرب، إذا أنا بصوت عظيم) أي أنا شاعر بصوت عظيم، غير أنه لا لزوم لتقدير ضمير في (إذا برهج) بل معناه إذا شعور برهج، فهي من اشباه الجملة ايضاً، ليست جملة كاملة»^(١).

قالوا ومنها زيادتها في المبتدأ الواقع بعد (كيف)، نحو: كيف بك إذا كان كذا؟^(٢) وعلى هذا يكون المعنى: كيف أنت؟.

والحق انها ليست زائدة ايضاً، تقول: كيف بك اذا نجح الطلاب وأنت راسب؟.

وتقدير الكلام: كيف تبصر بنفسك، وكيف تحسن بنفسك، وكيف تشعر بنفسك، وكيف يبلغ بك الامر؟ وما الى ذلك من معان، ألا ترى أنه لا يحسن أن تقول: كيف بك؟ وتسكت حتى تذكر أمراً بعده، في حين تقول: كيف أنت؟ وتسكت. فالمعنى مختلف وهي ليست زائدة.

جاء في (التطور النحوي): «ومن الروابط بين المبتدأ والخبر الباء، وهي تلحق بالخبر وأكثر ذلك عند النفي، نحو ﴿وَمَارُبُّكَ يَظْلَمُ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقد تلحق بالمبتدأ نحو كيف به، أي كيف هو، غير أنّ بين الاثنين فرقاً والتقدير الاقرب الى معنى (كيف به) هو كيف به الحال، فيظهر أن (كيف به) ليست في الاصل بجملة اسمية كاملة مبتدؤها ضمير الغائب، بل هي من اشباه الجمل المذكورة آنفاً»^(٣).

ومنها زيادتها في الخبر المنفي، نحو (ما أخوك بحاضر) و﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وهي تفيد توكيد النفي، وقد مرّ ذكرها في (كان وأخواتها).

(١) «التطور النحوي» (٨٢).

(٢) المغني ١/ ١٠٩.

(٣) «التطور النحوي» (٨٩).

ومنها زيادتها في التوكيد بالنفس والعين^(١)، تقول: أقبل محمد نفسه، وأقبل محمد بنفسه، ولها دلالة لا تظهر في الحذف تقول (أقبل الرجل نفسه) و(أقبل الرجل بنفسه) فقولك (أقبل الرجل نفسه) معناه أنه هو الذي جاء وليس غيره، وأما قولك (أقبل الرجل بنفسه) فهو- وإن كان فيه الدلالة على انه هو الذي جاء- يحمل معنى آخر وهو أنه لم يُنبأ أحداً عنه وقد كان متوقعاً أن ينب عنه أحد غلمانه مثلاً، ففيه معنى الاهتمام والتعظيم للرجل.

وتقول (فعليه رئيس النجارين بنفسه) على معنى انه لم يكلف أحد صناعه، ففيه الدلالة على الاهتمام والتعظيم.

وتقول (جاءني الأمير نفسه) و(جاءني الأمير بنفسه) وتقول (لا افعله حتى يأتي سعيد بنفسه) وذلك إذا كان ينذر حضوره، بأن تكون له منزلة ومكانة، أو لغير ذلك، أو لأن الامر مهم يستدعي حضوره بنفسه.

وعلى هذا فالباء يؤتى بها للاهتمام والتعظيم، فقولك (اشتريت السوار بنفسه) فيه الدلالة على تعظيمك الامر والاهتمام به.

ونستعمل معها في العامة تعبيرات أخرى تحمل الدلالة نفسها، فنقول مثلاً: (لا افعله حتى يأتي برجله) وفيها كلها معنى الاهتمام، وأحسبها في الفصيحة كذلك.

وسأتي في شأنها مزيد بحث في باب التوكيد إن شاء الله.

ومنها زيادتها في المفعول، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقيل بل ضَمَّنَ (تُلْقُوا) معنى (تَفْضُوا) وقيل «المراد (ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة بأيديكم) فحذف المفعول به، والباء للآلة، كما في قولك (كتبت بالقلم) أو المراد بسبب أيديكم، كما يقال لا تفسد أمرك برأيك»^(٢).

(١) المغني (١/١١٠-١١١).

(٢) المغني (١/١٠٩).

وكل ذلك أولى من جعلها زائدة.

قيل: «وتزاد قياساً في مفعول علمت، وعرفت، وجهلت، وسمعت، وتيقنت، وأحسست وقولهم (سمعت بزيد وعلمت به) أي بحال زيد على حذف المضاف»^(١).

قيل ومنه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّقِيَهُ أَتَقِيَهُ أَمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]^(٢).

والصواب أن هناك فرقاً بين قولك علمته، وعلمت به، فقولك (علمته) معنى علمت الامر نفسه، أما (علمت به) فالمعنى علمت بحاله، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّقِيَهُ أَتَقِيَهُ أَمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لا يطابق (الم يعلم أن الله يرى) فمعنى الثانية ألم يعلم رؤية الله، ومعنى الاولى ألم يعلم بهذا الامر؟ ألم يخبر به؟ ألم يسمع بهذا الامر سماع علم ونحو ذلك.

جاء في (درة التنزيل) للخطيب الاسكافي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الانعام: ١١٧] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

للسائل أن يسأل عن الفرق بين اللفظين وحذف الباء وإثباتها، وهل كان يصح اللفظ الذي ههنا، هناك، وإن الذي هناك هنا؟.

والجواب أن يقال: إن مكان كل واحد يقتضي ما وقع فيه، وبين اللفظين فرق في المعنى يوجب اختصاص اللفظ الذي جاء له، فقوله (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) معناه: الله يعلم أي المأمورين يضل عن سبيله، أزيد أم عمرو؟ وهذا المعنى يقتضيه ما تقدم هذه الآية وما جاء بعدها مما تعلق بها، فالذي قبلها ﴿وَلَنْ تُطِيعَ أَكْثَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، أي: إن تطع الكفار يضلوك عن طاعة الله وعبادته. ثم أخبر أنه يعلم من الذي يغوونه ويضلونه، ومن الذي لا يتمكنون من اضلاله...

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦٣).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٨/٢٤).

وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فمعناه عنى معنى ما في الآية الأولى أي: الله أعلم باحوال من ضل كيف كان ابتداء ضلاله، وما يكون من مآله أيصر على باطله، أم يرجع عنه إلى حقه^(١).

وعلى هذا فهي ليست زائدة تؤدي معنى زائداً، فقولك (عرفت أخاك) يختلف عن قولك (عرفت بأخيك) فعرفت أخاك معناه عرفت شخصه أو حقيقته.

و(عرفت بأخيك) معناه أنك عرفت حاله، كأن يكون هناك أمر حصل له من ربح أو خسارة أو مرض أو تقدم وما إلى ذلك، وليس معناه أنك عرفت شخصه.

وكذلك قولك (سمعت) و(سمعت به)، فقولك (سمعت خالداً) يتعلق بالمسموع من صوته وحرسته، واما (سمعت به) فمعناه أنك سمعت بحاله من تقدم وتأخر، أو كسب وخسارة، أو هدى وضلال، وما إلى ذلك.

وهكذا بقية ما يذكره النحاة، والاصل أنه أدى إذا الحرف معنى زائداً لا يفهم من حذفه فليس زائداً.

التاء

التاء حرف قسم وهو مختص بلفظ الله تعالى، ولا يكاد يذكر مع غيره إلا نادراً، قال تعالى ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمُ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقال: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسُ﴾ [يوسف: ٨٥] وفيها معنى التعجب، جاء في (الكتاب):

«والحلف تأكيد وقد تقول تالله وفيها معنى التعجب»^(٢).

وجاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣]: «تالله قسم فيه معنى التعجب، مما اضيف اليهم»^(٣).

(١) «درة التنزيل» (١٢٨-١٢٩).

(٢) «كتاب سيبويه» (١٤٤/٢) وانظر «المقنضب» (١٧٥/٤)، و«شرح ابن يعيش» (٣٤/٨).

(٣) «الكشاف» (١٤٧/٢).

وجاء فيه في قوله تعالى: ﴿وَتَأَلَّلَ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]: «إنَّ التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده. وتأنيته، لأنَّ ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره»^(١).

وللقسم موطن خاص يعالج فيه باذن الله.

حتى

حتى حرف غاية وتكون حرف جر، ومجرورها على ضربين:

الضرب الاول: أن يكون مجرورها داخلاً في حكم ما قبلها، أي يكون مشاركاً لما قبلها في الحكم، كقولك (ضربت القوم حتى خالد) فخالد مضروب، وكقولك (قرأت القرآن حتى سورة الناس) فسورة الناس مقروءة، وهي هنا بمعنى العاطفة، ولذا يصح العطف بها فتقول (ضربت القوم حتى خالدًا) و(قرأت القرآن حتى سورة الناس) بالنصب.

والضرب الثاني: أن لا يكون مجرورها داخلاً في حكم ما قبلها، بل ينتهي الامر عنده كأن تقول (صمت رمضان حتى يوم الفطر) فيوم الفطر ليس داخلاً في الصوم، بل انتهى الامر عنده، وهذا الضرب لا يجوز فيه العطف، فلا تقول (صمت رمضان حتى يوم الفطر) لأنه لم يشاركه في الحكم فكيف تعطفه عليه^(٢)؟.

واكثر ما يكون مجرورها مذكوراً لتحقير أو تعظيم، أو قوة أضعف، فقولك مثلاً (ضربت القوم حتى خالد) لا بد فيه أن يكون خالد أرفعهم أو أضعفهم، والآ فلا معنى لذكره، جاء في (الاصول) وانما يذكر - يعني مجرورها - لتحقير أو تعظيم، أو قوة أو ضعف، وذلك قولك (ضربت القوم حتى زيد) فزيد من القوم وانتهى الضرب به، فهو مضروب مفعول، ولا يخلو أن يكون أحقر من ضربت، أو أعظمهم شأنًا، وإلا فلا معنى لذكره^(٣).

(١) الكشف (٣٣١/٢).

(٢) انظر الأصول (٥١٦/١-٥١٩).

(٣) الأصول ٥١٦/١ وانظر «شرح ابن يعيش» (١٦/٨).

فان لم يكن مجرورها كذلك، اي لا يفيد تعظيماً أو تحقيراً وجب كونه آخر الاجزاء حساً أو ملاقياً له^(١)، وذلك قولك (قرأت القرآن حتى سورة الناس) فسورة الناس آخر القرآن وهي آخر ما قرأ، و(صمت رمضان حتى يوم الفطر) يوم الفطر ملاقي للآخر.

وهي حرف غاية، إلا ان استعمالها في الغاية يختلف عن (إلى) فإن (إلى) أمكن^(٢). في الغاية من (حتى) وأعم، وايضاح ذلك أن (إلى) تستعمل لعموم الغايات، سواء كانت آخر جزء من الشيء أم لا. فتقول: (نمت الى آخر الليل، ونمت الى الصباح، ونمت الى ثلث الليل، ونمت الى منتصف الليل) و(قرأت الكتاب الى آخره، وقرأته الى نصفه، وقرأته الى ثلثه).

وأما (حتى) فلا تستعمل إلا لما كان آخرأ أو متصلاً به، فتقول: (نمت حتى آخر الليل) و(نمت حتى الصباح) لأن آخر الليل هو آخر جزء من الليل، والصباح ملاقي لآخره، أي متصل بآخره، ولا يجوز أن تقول (نمت حتى منتصف الليل) و(نمت حتى ثلثه) لأن منتصف الليل ليس آخر الليل وكذلك ثلثه. ف (حتى) تستعمل غاية لآخر الامر، ولفظها يوحي بهذا المعنى، فإن لفظها يبدو أنها من (الحت) ومعنى (الحت) الاستئصال والازالة والخلوص الى النهاية، أي الوصول الى نهاية الامر، جاء في (لسان العرب) الحتّ فركك الشيء اليبس عن الثوب ونحوه، يحته حتّاً فركه وقشره فانحت وتحات... وفي الحديث أنه قال لامرأة سألته عن الدم يصيب ثوبها فقال: حتّيه ولو بضلع، معناه حكّيه وأزيله... والحتّ والقشر سواء... قال شمر: (تركتهم حتّاً فتاً بتاً) اذا استأصلتهم... وحتّ الله ما له حتّاً، أذهبه فأفقره على المثل...

وقال بعضهم: (حتى) (فَعَلَى) من الحتّ وهو الفراغ من الشيء، مثل (شَتَى) من الشتّ. قال الازهري: وليس هذا القول مما يعرّج عليه، لأنّها لو كانت فعلى من الحتّ كانت الامالة جائزة، ولكنها حرف اداة وليست باسم ولا فعل.

(١) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦١).

(٢) «الهمع» (٢/٢٢).

وقال الجوهري: حتّى فعلى^(١).

أما قول الازهري انها لو كانت (فعلى) من الحث كانت الامالة جائزة فهو مردود، فإن امالتها محكية^(٢). ويمكن أن يقال إنها اخذت من الحث فجمدت، فكانت حرفاً أو كالحرف فلا تمال، وواضح ان بين اللفظتين (حتى) والحث تقارباً لفظياً ومعنوياً.

ويترجح عندي أنها من لفظ (الحث) ثم جمدت، مثل (على) أصلها من لفظ العلو ثم جمدت.

والاختلاف الآخر بين استعمال (إلى) و(حتى) في الغاية، أن (حتى) تفيد تقضي الفعل قبلها شيئاً فشيئاً الى الغاية- وهذا معنى الحث- و(إلى) ليست كذلك، ولذا يجوز أن تقول (كتبت الى زيد) ولا يجوز أن تقول: (كتبت حتى زيد)^(٣)، لأن الكتابة لا تتقضى شيئاً فشيئاً حتى تصل الى زيد، ويقال: انا الى عمرو ولا يقال: أنا حتى عمرو، لما ذكرنا^(٤).

والاختلاف الآخر بينهما أن (حتى) لا يقابل بها ابتداء الغاية، يقال (سرت من البصرة حتى الكوفة) بل يقال: الى الكوفة. قالوا: وذلك لضعف (حتى) في الغاية^(٥).

فـ (إلى) اوسع وأعم في استعمال الغاية من (حتى) ولذا تستعمل في عموم الغايات بخلاف (حتى). جاء في (كتاب سيبويه): ويقول الرجل: إنما انا اليك، أي انما أنت غاييتي ولا تكون (حتى) ههنا فهذا أمر (إلى) وأصله وان اتسعت.

وهي أعم في الكلام من (حتى) تقول: (قمت اليه) فجعلته متهاك من مكانك ولا تقول: حتاه^(٦).

(١) «لسان العرب» (٢/٣٢٦-٣٢٨).

(٢) «الهمع» (٢/٢٣)، «شرح الاشموني» (٤/٢٣٢)، «حاشية الخصري» (٢/١٨٢).

(٣) المغني (١/١٢٤) وانظر «الهمع» (٢/٢٢).

(٤) المغني (١/١٢٤).

(٥) المغني (١/١٢٤)، الهمع (٢/٢٢-٢٣).

(٦) «كتاب سيبويه» (٢/٣١٠).

أما دخول ما بعدها في حكم ما قبلها فالاكثر فيه الدخول إلا اذا كانت هناك قرينة تدل على خلاف ذلك^(١) فقولك (أكلت السمكة حتى رأسها) الرأس مأكول، وقولك (انه ليصوم الايام حتى يوم الفطر) يوم الفطر غير داخل في الصوم.

رُبَّ

ذهب سيبويه الى أنّ (ربّ) بمعنى (كم) الخبرية، أي انها تفيد التكثير، جاء في (الكتاب): واعلم أن (كم) في الخبر بمنزلة اسم يتصرف في الكلام غير منون... والمعنى معنى (ربّ) وذلك قولك (كم غلام لك قد ذهب)... واعلم أنّ (كم) في الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه (ربّ) لأنّ المعنى واحد، إلا أنّ (كم) اسم و(ربّ) غير اسم بمنزلة من^(٢).

وذهب اكثر النحاة الى أنّها حرف يفيد التقليل، جاء في (المقتضب): «وربّ معناها الشيء يقع قليلاً»^(٣).

وذهب آخرون إلى أنّها تفيد التكثير كثيراً، والتقليل قليلاً، جاء في (المغني): وليس معناها التقليل دائماً خلافاً للأكثرين، ولا التكثير دائماً خلافاً لابن درستويه وجماعة بل ترد للتكثير كثيراً، وللتقليل قليلاً.

فمن الاول ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] وفي الحديث (يارب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة)...

ومن الثاني قول ابي طالب في النبي ﷺ:

(١) المغني (١/١٢٤)، «الهمع» (٢/٢٢).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٢٩٣، ٢٩١).

(٣) «المقتضب» (٤/١٣٩) وانظر «الاصول» (١/٥٠٧)، «شرح ابن يعيش» (٨/٢٦)، «المغني» (١/١٣٤).

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل^(١)

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): ووضع (ربّ) للتقليل، تقول في جواب من قال (ما لقيت رجلاً): (ربّ رجل لقيت) أي لا تنكر لقائي للرجال بالمرة فاني لقيت منهم شيئاً وإن كان قليلاً...

هذا الذي ذكرنا من التقليل أصلها، ثم تستعمل في معنى التكثير، حتى صارت في معنى التكثير كالحقيقة، وفي التقليل كالمجاز المحتاج الى القرينة، وذلك نحو قوله:

ربّ هيزل لجب لففت بهيزل

وقوله:

ماويّ ياربّتما غارة شعواء كاللذعة بالميسم^(٢)

ويبدو لي أنها لفظة وضعت أول ما وضعت للدلالة على الجماعة، قليلة كانت أو كثيرة، ثم كثر استعمالها في التقليل، بل في أقل القليل ايضاً، وهو الواحد وقد تستعمل للتكثير ايضاً، والذي يدل على ذلك لفظها، فهي كما يبدو لي مأخوذة من الرُبّة، والرُبّة الفرقة من الناس، قيل هي عشرة آلاف ونحوها، والجمع ربب... الرّبة وهي الجماعة^(٣).

ويتضح معناها من القرائن، فمن استعمالها في التكثير قوله ﷺ: (يا ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) وذلك لان اهل الضلال اكثر من اهل الحق قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال: ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. ومن استعمالها في الواحد قول الشاعر:

ألا ربّ مولود وليس له أب وذبي ولد لم يَلده أبوان

(١) المغني (١/١٣٤-١٣٥).

(٢) «شرح الرضي» (٢/٣٦٥).

(٣) لسان العرب (١/٣٩١-٣٩٢).

والاول هو عيسى، والثاني هو آدم، عليهما السلام.

ونظيرها في دلالة اللفظ الواحد على معنيين متقابلين (فذ) الداخلة على المضارع فأصلها للدلالة على التقليل، كقولك (قد يشفى المريض)، و(قد يصدق الكذوب)، وقد تدل على التحقيق، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الاحزاب: ١٨] وقوله ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلْتُمْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ويميز بينهما القرائن.

قالوا وهي جواب لكلام ظاهر او مقدر، فانت لا تقول ابتداء (ربّ رجل أكرمت) وانما هو ردّ على كلام قيل لك (ما أكرمت رجلاً) او قدّرت ذلك، أي كأنه قيل لك ذلك، قال ابن السراج: والنحويون كالمجتمعين على أن (ربّ) جواب، انما تقول (ربّ رجل عالم) لمن قال [ما]^(١) رأيت رجلاً عالماً، او قدّرت ذلك فيه، فتقول (ربّ رجل عالم) تريد: ربّ رجل عالم قد رأيت... وكذلك اذا قال (ربّ رجل جاءني فأكرمته وأكرمته) فههنا فعل ايضاً محذوف، فكأنه قال له قائل: ما جاءك رجلٌ فأكرمته وأكرمته، أي قد كنت فعلت ذاك... فاذا قال: ما أحسنت اليّ. قلت: ربّ احسان قد تقدم اليك مني^(٢).

وليست كذلك دوماً فيما أرى، بل قد ترد لمجرد ذكر الامر من غير ردّ أو تقدير ردّ، وذلك كقوله (ربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه) و(ربّ مبلغ او على من سامع) و(ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) و(ربّ هيجا هي خير من دعه).

ويارب أم وطفل حين بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان

(١) سقطت (ما) من الكتاب المحقق ويدل عليها ما بعدها وكلام النحاة الآخرين. انظر شرح ابن يعيش (٢٧/٨)، «شرح الرضي على الكافية» (٣٦٥/٢).

(٢) «الاصول» (٥٠٨/١)، وانظر «شرح ابن يعيش» (٢٧/٨)، «شرح الرضي» (٣٦٥/٢).

ربه:

قد تدخل العرب (ربّ) على ضمير الغيبة وتفسره بالتمييز، فتقول (ربه رجلاً أكرمت). وهذا الضمير عند الجمهور لا يكون إلا مفرداً مذكراً مفسراً بتمييز مطابق للمعنى، فتقول (ربه رجلين أكرمت) و(ربه رجلاً أكرمت) و(ربه امرأة أكرمت) و(ربه نساء أكرمت) قال الشاعر:

ربه فتية دعوت الى ما يورث المجد دائماً فأجابوا

وأجاز الكوفيون مطابقة الضمير للتمييز فتقول (ربه رجلاً) و(ربهما رجلين) و(ربههم رجلاً) و(ربهما امرأة) و(ربهن نساء) وغير ذلك^(١).

قال ابن السراج: «من وحد فلأنه كناية عن مجهول، ومن لم يوحد فلأنه رد كلام، كأنه قال: مالك جوار؟ فقال: ربهن جوار قد ملكت»^(٢).

وهذا الضمير يؤتى عند ارادة التفخيم والتعظيم، فيضمرون قبل الذكر، قال ابن يعيش: «وهذا انما يفعلونه عند ارادة تعظيم الامر وتفخيمه، فيكون عن الاسم قبل جري ذكره ثم يفسرونه بظاهر بعد البيان»^(٣).

وجاء في (الهمع) ان قولك (ربه رجلاً) «بمنزلة ربّ رجل عظيم لا أقدر على وصفه»^(٤).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية) ان هذا الضمير انما يؤتى به في الاغلب «فيما فيه معنى المبالغة والتفخيم كمواضع التعجب، نحو ياله رجلاً، ويالها قصة، ويا لك ليلاً». ومن هذا الباب أي الذي فيه التفخيم (ربه رجلاً لقيته) إذ هو جواب في التقدير لمن قال (ما لقيت رجلاً) فكأنه قيل: لقيت رجلاً وائي رجل رداً عليه^(٥).

(١) «الاصول» (٥١٥/١)، «الهمع» (٢٧/٢).

(٢) «الاصول» (٥١٥/١).

(٣) «شرح ابن يعيش» (٢٨/٨).

(٤) «الهمع» (٢٧/٢).

(٥) «شرح الرضي» (٢٣٧/١).

ونحوه أن تقول: (ربّه رجلاً أنقذت) إذا كان الشخص الذي انقذته له مكانة كبيرة فانقاذ قائد الجيش في ساحة القتال مثلاً اكبر من انقاذ جندي، ففي الحالة الاولى تقول (ربّه أنقذت)، وفي الثانية تقول: (ربّ رجل انقذت).

او تكون الحالة التي انقذته فيها تستدعي مثل هذا التفخيم، فانك اذا كنت في برية مثلاً ومعك من الماء والزاد ما يكفي ورأيت رجلاً يقتله الظماً فسقيته مما عندك من الماء، فانك انقذته ولا شك.

واذا مررت بدار تحيط بها النار من جوانبها وسمعت اصوات استغاثة في داخلها والناس وقوف لا يعرفون ما يصنعون، ثم أنت اقتحمت النار وأخرجت من فيها، فهذا انقاذ ايضاً، ولكن هناك فرق بين الإنقاذين، فإنّ في الثانية مجازفة بحياتك ما ليس في الاولى، فتقول في الحالة الاولى (ربّ رجل انقذت) وتقول في الثانية: (ربّه رجلاً أنقذت) وهكذا.

حذفها:

يذكر النحاة أن (ربّ) تحذف بعد الواو، والفاء، وبل، وحذفها بعد الواو اكثر كقوله:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليلتي

وبعد الفاء اقل نحو:

فمثلك جبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

وبعد بل أقل نحو:

بل بلدٍ ملء الفجاج قتمه لا يُشترى كتانه وجهرمه

وبغير ذلك نادر نحو:

رسم دار وقفت في طلله كدت أقضي الحياة من جلله

وعند البصريين أنّ الواو للعطف، والجَرّ بـ (ربّ) محذوفة لا بالواو، قال سيبويه: وحذفوه- يعني حرف الجر- تخفيفاً وهم ينوونه كما حذف (ربّ) في قوله:

وجدّاء ما يُرجى بها ذو قرابة لعطف وما يخشى السماء ربيها
انما يريدون ربّ جداء^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأما الواو فللعطف أيضاً عند سيبويه وليس بجارة، فان لم تكن في أول القصيدة والرجز كقوله:

وليلةٍ نحسّ يصطلي القوس ربّها وأقطعه اللاتي بها يتنبّل
فكونها للعطف ظاهر، وان كانت في اولهما كقوله:

وقاتم الاعماق خاوي المخترق

فانه يقدر معطوفاً عليه كأنه قال: «ربّ هول اقدمت عليه وقاتم الاعماق» وعند الكوفيين والمبرد انها كانت حرف عطف ثم صارت قائمة مقام (ربّ) جارة بنفسها لصيرورتها بمعنى (ربّ)... ولو كانت للعطف لجاز اظهار (ربّ) بعدها، كما جاز بعد الفاء وبل، فهذه الواو عندهم كانت حرف عطف قياساً على الفاء، وبل، ولكنها صارت بمعنى ربّ فجرت كما تجر، ومع ذلك لا يجوز دخول حرف العطف عليها في وسط الكلام نحو ووليلة نحس، ولا فوليلة نحس اعتباراً لاصلها، بخلاف واو القسم فانّها لم تكن في الاصل واو العطف، فلذا جاز دخول واو العطف، والفاء، وثم نحو ووالله، وفوالله وثم والله^(٢).

وجاء في «الاصول»: «وقال بعض النحويين إنّ الواو التي تكون في النكرات ليست بخلف من (ربّ) ولا (كم)، وانّما تكون مع حروف الاستفهام فتقول: وكم قد رأيت وكيف تكفرون، يدل على التعجب، ثم تسقط (كم) وتترك الواو ولا تدخل مع ربّ.

(١) «كتاب سيبويه» (٢/١٤٤)، «وانظر الاصول» (١/٥١٣).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦٩-٣٧٠).

ولو كانت خلفاً من (كم) لجاز أن يدخل عليها النسق، كما فعل بواو اليمين، وهي عندي واو العطف وهذا أيضاً ممّا يدل على أنّ ربّ جواب وعطف على كلام^(١).

والذي يبدو من استعمالها أنها لا تطابق (ربّ)، وإنّ الجرّ ليس بـ (ربّ) المحذوفة ولا هي عاطفة، بل هي حرف خاص له استعماله ويدل على ذلك أمور منها:

١- إنّها لا يصح إبدالها بـ (ربّ) أو اظهار (ربّ) معها، فانك تحس أنّ المعنى يختلف وذلك نحو قول الشاعر:

ألا ربّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

فلا يحسن أن يقال فيه (ويوم لك منهن صالح) وكذلك نحو قوله (ربّ مبلغ أوعى من سامع) وقوله (ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) و(ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه) و(ربّ أخ لك لم تلده أمك) و(ربّ صائم ليس له من صيامه الآ الجوع والعطش) فأنّ ترى أنّه لا يصح ابدالها بـ (رب) فلا تقول:

(وكا سية في الدنيا عارية يوم القيامة) ولا (وحامل فقه) الى آخره، ولو كانت بمعناها، أو خلفاً منها لصح ابدالها بها.

٢- قد يراد بمجرور (ربّ) العموم، ولا يدل على شيء معيّن، وأمّا المجرور بعد الواو فلا بدّ فيه أن يكون مخصوصاً، فقوله (ربّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) لا يدلّ على كاسية معينة، بل هو دالّ على العموم، وقوله:

(ربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه) لا يراد به حامل فقه معيّن، وإنّما يدل على العموم، ومثله (ربّ مبلغ أوعى من سامع) و(ربّ أخ لك لم تلده أمك) بخلاف الواو فانها تدل على أمر معيّن حصل، فقوله:

(ودار ندامى عطلوها وأدلجوا) الكلام فيه على دار معيّنة.

وقوله:

(وصدر أراح الليل عازب همّه) يعني فيه صدره.

وقوله:

(واطلّس عسّال وما كان صاحباً) يصف به ذئباً معيّنًا.

وقوله:

(وبيضة خدر لا يرام خباؤها) يريد به امرأة معيّنة.

فأنت تذكر مع الواو أمراً معيّنًا بخلاف (ربّ) التي قد يراد بها العموم.

ولو صح في النثر أن تقول (ومبلّغ أوعى من سامع)^(١) كما قيل: (ربّ مبلّغ أوعى من سامع) لكان المعنى أنّك تقصد مبلّغا معيّنًا والكلام لم يتم بعد.

ولو صحّ القول (وكاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) لكان المعنى أنّك تقصد به امرأة معيّنة بخلاف (ربّ)، وكذلك لو صحّ أن تقول (وأخ لك لم تلده أملك) لكنت تقصد به شخصاً معيّنًا، ثم تحس أن الكلام لم يتم بعد، فكأن المعنى بالواو: أخبرك عن دار، وأخبرك عن أطلّس عسّال، وأذكر لك كذا.

وقد لمح هذا المعنى برجشتراسر فقال: «الواو قد تعمل الجر أيضاً وهي واو (ربّ) نحو: وكأس شربت أي ربّ كأس شربت. غير أنّ معناها ليس معنى ربّ في كثير من الحالات، نحو: وتاجر فاجر جاء الإله به، أي اعرف تاجراً فاجراً أو أذكره. وأصل هذه الواو غامض جداً^(٢)».

(١) ان هذه الواو لم ترد إلا في الشعر بخلاف (ربّ) فإنها وردت كثيراً في الشعر والنثر - انظر الرضي (٣٦٩/٢).

(٢) «التطور النحوي» (٨٥-٨٦).

٣- ربّ في الغالب تدل على التقليل، وقد يراد بها الكثير كما مرّ بنا، في حين أنّ الواو تدل على واحد، وحتى اذا كانت ربّ تفيد الواحد، يبقى المعنى مختلفاً، فقول الشاعر:

ألا ربّ مولود وليس له أب وذو ولد لم يلد له أبوان
لا يصح فيه إبدال الواو بها فنقول (ومولود ليس له أب) فنحن نحس أنّ الكلام غير تام ولا بد أنّ نذكر شيئاً آخر يتعلق بهما.

٤- ليس الكلام مع الواو ردّاً على كلام، ولا تقديراً له بل هو اخبار ابتدائي بخلاف (ربّ) فإنّ الكثير منها أن تكون ردّاً على كلام كما ذكرنا، فقوله:
وأطلس عسّال وما كان صاحباً دعوت بناري موهناً فأتاني
اخبار ابتدائي وكذلك قوله:

وصدر اراح الليل عازب همّه

٥- ثم إنّ هذه الواو ليست عاطفة، كما ذهب اليه البصريون، ولا اصلها عاطفة، كما ذهب اليه الكوفيون لانها قد يبتدأ الشعر بها كقوله:

وقاتم الاعماق خاوي المخترق

وقوله:

وليل كأن الصبح في اخرياته

أما قولهم إنه يقدر معطوف عليه كأنه قال (ربّ هول اقدمت عليه وقاتم الاعماق) فهو تكلف، لأنّ الامر يتعلق بذكر أمر معيّن وحده، وربّما لم يقع قبله مثله، فمن المحتمل أنّه لم يقع قبل الحادثة التي وصفها الشاعر بقوله:

ودار ندامي عطّلوها وأدلجوا

ما يصح عطفه عليها فالعطف تكلف ظاهر، ثم إنه لا يصح العطف على كلام مقدر ليس عليه دليل، فلا يصح أن تقول ابتداء (ولا أعود) على تقدير (سأسافر ولا أعود).

وأما قول الرضي أنها إن لم تكن في أول القصيدة فكونها للعطف ظاهر، فليس الامر فيه كذلك، بل قد يؤتى بها في اثناء القصيدة وليس هناك أثر للعطف كقوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

فهذا ليس معطوفاً على كلام سابق، وهو مما يؤيد ما ذهبنا اليه، ولو كانت لم تقع في اثناء القصيدة إلا معطوفة على كلام فيه (رب) لكان لهم فيه حجة.

أما قولهم إنها لو لم تكن عاطفة لجاز دخول حرف العطف عليها كواو القسم، فنحن نقول ووالله، وفوالله، وثم والله فهذا مردود، فإن ثمة أكثر من واو لا تدخل عليها حروف العطف، مع انها ليست عاطفة، منها واو الاستئناف، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكقولك (بضاعتك رديئة وهي عليك مردودة)، وواو الاعتراض كقوله:

إن الثمانين وبُغْتها قد أحوجت سمعي الى ترجمان

و واو المعية في نحو (سرت والجدار)، وواو الحال (نحو رأيتك وأنت مسرع).

فهي إذن حرف خاص ذو دلالة معينة، يختلف عن حرف العطف، وعن (رب) وليس بمعنى واحد منهما كما ذكرنا.

٦- قد يكون فيها معنى التعجب، والتفخيم كما ذهب اليه قسم من النحويين كقوله:

وليل يقول الناس من ظلماته سواءً صحيحاتُ العيون وغورها
وقوله:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطعه اللاتي بها يتنبل

إن هذه الواو تعطي الجملة معنى لا يؤدي بالحذف، فلو حذفت الواو من قوله:

وصدر أراح الليل عازب همّه تداعى عليه الهمّ من كلّ جانب

وقلت: (صدر أراح عازب همّه) لتغير المعنى، وصار الكلام مبهماً عاماً غير مراد منه صدر معين، ويصبح الكلام لا فائدة فيه، وكذلك وقوله: (وأطلس عسّال) وقوله: (وليلة نحس يصطلي القوس ربّها) فلو قلت: (ليلة نحس يصطلي القوس ربّها) لكان الكلام عاماً، فالواو تؤدّي معنى خاصاً لا يؤدّي بحذفها كما ذكرت.

وأما الفاء، وبل، فالأظهر أنّ بعدهما (ربّ) محذوفة، ولذا يصح إظهار (ربّ) بعدهما^(١) والمعنى لا يتغير وذلك كقوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فأنه يصح القول (رب مثلك حبلى قد طرقت ومرضع)

وقد تكون الفاء هذه واقعة في جواب الشرط كقوله:

وان اهْلِكَ فذِي حَنْقٍ لظَاهِ عَلِيٍّ يَكَادُ يَلْتَهَبُ التَّهَابُ
والمعنى: فربّ ذي حنق.

وكذلك (بل) قال الرضي: «وأما الفاء وبل فلا خلاف عندهم أن الجرّ ليس بهما بل بـ (ربّ) المقدّرة بعدهما، لأن (بل) حرف عطف بها على ما قبلها، والفاء جواب الشرط^(٢)». يعني في البيت السابق.

على

على، للاستعلاء، حقيقياً كان أم مجازياً، ولفظها يدل على ذلك، فهي من العلو. جاء في (المقتضب): «على تكون حرف خفض على حدّ قولك: (على زيد درهم)، وتكون فعلاً نحو قولك: (علا زيد الدابة) و(على زيد ثوب) و(علا زيداً ثوب) والمعنى قريب^(٣)».

(١) «الرضي» (٣٦٩/٢).

(٢) «شرح الرضي» (٣٦٩/٢).

(٣) «المقتضب» (٤٢٦/٤).

فمن الاستعلاء الحقيقي قولك: (هو على الجبل) و(حمله على ظهره). ومن الاستعلاء المجازي قولهم: (عليه دين) كأن الدين علاه وركبه، ولذا تقول العرب: ركبني ديون «كأنه يحمل ثقل الدين على عنقه أو على ظهره، ومنه عليّ قضاء الصلاة وعليه القصاص لان الحقوق كأنها راكبة لمن تلزمه^(١).

وتقول: (هو عليهم أمير) لاستعلائه عليهم من جهة الامر^(٢)، فأن أمره أعلى وأنقذ من أمرهم.

جاء في (كتاب سيبويه): «أما (على) فاستعلاء الشيء تقول: هذا على ظهر الجبل وهي على رأسه... وتقول عليه مال، وهذا كالمثل كما يثبت الشيء على المكان كذلك يثبت هذا عليه فقد يتسع هذا في الكلام ويجيء كالمثل^(٣).

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] أي يتولَّون أمرهن، وفيه معنى الاستعلاء فأن العرب تقول: (قام عليه) بمعنى تولَّى أمره، وتقول (قام به) بمعنى فعله. قال تعالى ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] وتقول (قام له) أي لأجله. قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨]، وتقول (قام عنه) بمعنى إنصرف عنه، وتقول (قام اليه) بمعنى (قام ذاهباً اليه) ففي (على) معنى الاستعلاء.

وتقول العرب (أنتَ على ضلال) و(أنت في ضلال)، فمعنى (في ضلال) أنه ساقط في الضلال سقوطه في اللجة، أو أن الضلال احتواه احتواء الظرف على ما في داخله. ومعنى (على ضلال) انه اتخذ الضلال مركباً يقوده الى كل سوء.

جاء في (تفسير الرازي) في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] «معنى الاستعلاء في قوله (على هدى) بيان لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه حيث شبَّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونظيره (فلان على الحق أو على الحق

(١) «شرح الرضي» (٣٧٩/٢) «وانظر المقتضب» (٤٦/١).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٣٧/٨).

(٣) «كتاب سيبويه» (٣١٠/٢).

أو على الباطل) وقد صرحوا به في قوله: جعل الغواية مركباً، وامتنطى الجهل^(١).

وتستعمل العرب (على) للافعال الشاقة المستقلة، قال ابن جني: «وقد يستعمل (على) في الافعال الشاقة المستقلة، تقول قد سرنا عشرا وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقيت عليّ منه سورتان... وإنما اطردت (على) في هذه الافعال من حيث كانت (على) في الاصل للاستعلاء. والتفرع، فلما كانت هذه الاحوال كُلفاً ومشاق تخفض الانسان وتضعه وتعلوه وتفرعه، حتى يخنع لها ويخضع لما يتسدها، كان ذلك من مواضع (على). ألا تراهـم يقولون: هذا لك وهذا عليك، فتستعمل اللام تؤثره و(على) فيما تكرهه»^(٢).

قالوا: وقد تأتي لمعانٍ أخرى، منها:

المصاحبة كـ (مع) نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى آلَمَّا لَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي مع حب المال، ونحو (فلان على جلالته يقول كذا) أي معها^(٣).

والظاهر أنها للاستعلاء، وليست بمعنى (مع) تماماً، فقوله (على حبه) قد يفيد أنه مستعلٍ على حبه أو أنه يؤتي المال مع إنطواء قلبه على حبه، فحب المال في القلب، والقلب منطوٍ عليه وهي حالة تختلف عن المصاحبة، فانطواء القلب على الشيء أنشد من مصاحبته له.

ونقول (هو ينفق على شحه) و(هو ينفق مع شحه) والمعنى مختلف، فمعنى (على شحه) قد يفيد أنه مستعلٍ على شحه، أو على معنى أنه ينفق مع إنطواء قلبه على الشح وهو غير المصاحبة.

وأما قولهم (هو على جلالته) فمعناه «أنه يلزمها لزوم الراكب لمركوبه من قولهم: ركبته الديون أي لزمته»^(٤).

(١) «التفسير الكبير» (٣٣/٢).

(٢) «لسان العرب» (٣٢١/١٩).

(٣) «المغني» (١٤٣/١)، «شرح الرضي» (٣٧٩/٢).

(٤) «شرح الرضي» (٣٧٩/٢).

والمجاورة كمن كقوله:

إذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

«أي عني. ويحتمل أنّ (رضي) ضمن معنى (عطف)... وقال:

في ليلة لا نرى بها أحدا يحكي علينا الآكوابها

أي عنا وقد يقال ضمن يحكي معنى ينم^(١).

قالوا ومن إستعمالها في المجاورة أنها «تختص بتعدية بعد، وخفي، وتعذر، واستحال، وغضب، ورضي، وحرّم ونحوها. قال في الاغراب لذلك إشتراك هي وعن في تعدية كثير من هذا الباب»^(٢).

والحق أنّها تختلف في ذلك عن (عن) فقولك (بعد عنه) يختلف عن قولك (بعد عليه)، فقولك (بعد خالد عنا) معناه أنّه ابتعد بشخصه عنا، وأما (بعد عليه) ففيه معنى المشقة عليه. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢] فقد يكون الشيء بعيداً عنك وليس بعيداً عليك، وتقول (بعدت عليه الطريق) بمعنى أنّه من الصعوبة أن يصل إليه كما تقول: عسر عليه، وصعب عليه، فهو من الافعال الشاقة التي اشار اليها ابن جني.

وتقول: ليس عليك ببعيد أن تفعل كذا، وليس على الله ببعيد أن يغير الامور، ولا تقول في نحو هذا بعيد عنه.

وكذلك خفي عليه وخفي عنه، فخفي عنه يستعمل في الامور المادية، قال الشاعر:

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

(١) المغني (١/١٤٣).

(٢) «جواهر الأدب» (٢٢٢).

وتقول: خفيت عنا المدينة.

وأما (خفي عليه) فيستعمل في الأمور المعنوية، تقول (لا يخفى عليك هذا الأمر) بمعنى أنت مطلع عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] أي لا يندّ عنه.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]. وأما تعذر عليه واستحال عليه فلما فيهما من معنى الكلفة والمشقة، أي: يشق عليه ويصعب.

وأما غضب عليه فليس فيه مجاوزة، بل معناه انه أنزل غضبه عليه وأحلّ غضبه عليه، والعرب تقول: صبّ جام غضبه عليه. و(رضي عليه) بمعنى عطف عليه، أو بمعنى أحلّ عليه رضوانه، كما جاء في الاثر (فاليوم أحلّ عليهم رضواني) وأما رضي عنه فمعناه تجاوز عنه بالرضا.

وأما حرّمه، عليه فلما فيه من معنى العهد والالتزام كما تقول: عليّ عهد الله وعليّ يمين الله، وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا)^(١). ثم أنّ فيه استعلاء، فإنّ الذي بيده التحريم مستعلٍ، لأنّه بيده ذلك الأمر.

وللتعليل كـ (اللام) نحو ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: لهدايته إياكم^(٢). وسنبحث التعليل في موطن لاحق.

وللظرفية كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥] وقولهم: كان ذلك على عهد فلان، أي في عهده^(٣). وسنبحث ذلك في موطن لاحق.

ولموافقة (من)، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿إِذَا أَكَاَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾

(١) صحيح مسلم (باب تحريم الظلم ١٧/٨).

(٢) المغني (١/١٤٣).

(٣) المغني (١/١٤٤)، لسان العرب (١٩/٣٢٢-٣٢٣).

[المطففين: ٢] ^(١)، وقيل بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي تسلطوا عليهم بالاكتيال ^(٢).

والظاهر انه هو الصواب، لأن هناك فرقاً بين قولك: اكتال منه، واكتال عليه، فاكتال منه لا يفيد أنه ظلمه حقه، وهضمه ماله، بخلاف اكتال عليه، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا في المطففين قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣] فهم إذا اخذوا منهم، اخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه اذن معنى التحكم، والجور، والظلم، وهو أبلغ من (من) هنا، وليست بمعنى (من) ولا تفيد (من) هذا المعنى.

ثم انظر الى التعبير اللطيف الآخر بعده، وهو قوله: (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ولم يقل كالوا لهم أو وزنوا لهم، وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره قالوا، وذلك أن اللام تفيد الاستحقاق، وهم لم يعطوهم حقهم فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة الى أنهم منعوهم حقوقهم.

وتأتي للاستدراك والاضراب كقولك: فلان لا يدخل الجنة لسوء صنيعه على انه لا يأس من رحمة الله... وقوله:

بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد
ثم قال:

على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذى ود ^(٣)

وتأتي اسماً بمعنى فوق اذا دخلت عليها (من) كقولك سقط من على السطح.

(١) المغني (١/١٤٥).

(٢) انظر شرح الدماميني على المغني (١/٢٨٩).

(٣) المغني (١/١٤٥).

قال الشاعر:

غدت من عليه تنفض الطل بعدما رأيت حاجب الشمس استوى فترفعاً^(١)

وليست هي بمعنى (فوق) تماماً وإنما هي قريبة من معناها، فأنت تقول: (سقطت الصورة من على الحائط) وليست هي فوق الحائط، وإنما هي معلقة عليه.

وتقول: سقط من عليه الثوب، والثوب ليس فوقه وإنما هو محتويه، فإن قلت سقط من فوقه احتمال أن يكون الثوب فوق رأسه فسقط واحتمل أن يكون في مكان أعلى من رأسه فسقط.

وتقول: أمرت يدي فوق المنضدة، ولا يشترط في ذلك أنك لامست المنضدة، فقد تكون لامستها، وربما لم تكن لامستها. وتقول: أمرت يدي على المنضدة ومن على المنضدة، ومعنى ذلك أنك لامستها.

عن

عن تفيد المجاوزة، ومعنى المجاوزة الابتعاد. تقول: إنصرف عنه أي تركه بخلاف انصرف إليه، فإن معناه ذهب إليه، و(وضعه عنه) بمعنى رفعه عنه بعد أن كان عليه. قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف: ١٥٧] بخلاف وضعه عليه، وتقول انتقل عنه، وابتعد عنه، ونأى عنه، وانحرف عنه، كلها تفيد المجاوزة، وتقول عدل عنه، ومال عنه، أي ابتعد عنه بخلاف عدل إليه، ومال إليه، وتقول: (رغبت عنه) إذا ابتعدت رغبتك عنه وجاوزته. وتقول (رغبت فيه) إذا حلت رغبتك فيه، أي أردته.

(١) «شرح ابن يعيش» (٣٨/٨-٣٩).

وتقول (جلس عن يمينه) بمعنى جلس مبتعداً عن بدنه من جهة اليمين، أي لم يلتصق ببدنه جاء في (الكتاب): وتقول جلس عن يمينه فجعله متراخياً عن بدنه وجعله في المكان الذي بحيال يمينه^(١).

ويحتمل قولنا (جلس عن يمينه) معنى آخر فقد تقول (جلس يمينه) و(جلس عن يمينه) فقولنا (جلس يمينه) بمعنى جلس في جهة اليمين، وأما جلس عن يمينه فيحتمل أن يكون معناه أنه منحرف عن جهة اليمين، فلو قعد جماعة كل منهم عن جهة اليمين كان الجلوس قوساً أو منحرفاً الى جهة أخرى، ولو قلت (جلسوا يمينه) لكان المعنى انهم جلسوا في خط مستقيم من جهة اليمين.

جاء في (الكتاب): «وأما عن، فلما عدا الشيء، وذلك قولك:

أطعمه عن جوع، جعل الجوع منصرفاً تاركاً له، قد جاوزه. وقال قد سقاه عن العيمة وكساه عن العري، جعلهما قد تراخيا عنه... وتقول اخذت عنه حديثاً أي عدا منه إلي حديث. وقد تقع (من) موقعها أيضاً تقول: أطعمه من جوع، وكساه من عري، وسقاه من العيمة»^(٢).

والحق أن المعنى مختلف، بين قولك أطعمه عن جوع وأطعمه من جوع، فقولك (أطعمه عن جوع) بمعنى أبعد الجوع عنه بالطعام، وقولك كساه من عري معناه أبعد العري عنه بالكسوة، وأما قولك (أطعمه من جوع) فمعناه أن ابتداء الاطعام كان من الجوع جاء في (شرح ابن يعيش): وتقول (أطعمه من جوع، وعن جوع) فإذا جئت بـ (من) كانت لابتداء الغاية، لأن الجوع ابتداء الاطعام، وإذا جئت بـ (عن) فالمعنى أن الاطعام صرف الجوع لان (عن) لما عدا الشيء»^(٣).

(١) «كتاب سيويه» (٣٠٨/٢) وانظر التفسير الكبير للرازي (٤٢/١٤) قوله تعالى: ﴿وَعَنْ أَيْمَنِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾.

(٢) «كتاب سيويه» (٣٠٨/٢).

(٣) «شرح ابن يعيش» (٤١/٨-٤٢).

فمعنى (اطعمه من جوع) أنه كان جائعاً فأطعمه، وليس معناه أنما أبعد الجوع عنه، فقد يكون أطعمه ولم يشبعه أي لم يبعد الجوع عنه، وسقاه ولم يروه، أي لم يبعد الظمأ عنه، ولكن المعنى انه كان ظامئاً فسقاه، أي: ابتداء السقي كان من حالة الظمأ، أي اول ما نزل الماء نزل على ظمأ، فالظمأ كان ابتداء للسقي وليس معناه أبعد الظمأ عنه.

وذكروا لها معاني أخرى، منها:

البدل، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. وفي الحديث (صومي عن أمك)^(١) وتقول: تكلم خالد عن القوم، أي: بدلهم.

وفي هذا معنى المجاوزة أيضاً فمعنى الحديث: ارفعي الصوم عن أمك بصيامك، اذ إن أمها كانت مدينة لله بصوم فقال: ارفعي هذا الدين عنها. وكذلك الآية فإن معناها انه لا يحتمل أحد عن أحد شيئاً من الوزر، أو العذاب أي لا يبعده عنه، وكذلك قولك (تكلم خالد عن القوم) فإن معناه أبعد الكلام عنهم وتكلم هو، ففيها معنى المجاوزة.

والاستعلاء نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨] أي على نفسه، وقيل بل هي على بابها والمعنى يبعد الخير عن نفسه بالبخل^(٢).

وهو أولى وذلك أن ثمة فرقاً بين قولك (يبخل على نفسه) و(يبخل عن نفسه)، فقولك (يبخل على نفسه) معناه أن عاقبة بخله تعود عليه، كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] لما كانت العاقبة سوء جيء به (على)، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

ويحتمل معنى آخر، هو أنه لا يتفق على نفسه، أي يثقلها بالبخل، فكان البخل حمل يعلوه، وأما بخله عن نفسه فمعناه أنه يبخل منصرفاً عن نفسه، أي منصرفاً عن مصلحة نفسه مبتعداً عنها فإن البخل في الحقيقة ابتعاد عن مصلحة النفس، فكانه يبتعد عن نفسه بالبخل بخلاف الانفاق فانه لها.

(١) المغني (١/١٤٧).

(٢) «التصريح» (٢/١٥).

قيل ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] أي قدمته عليه، وقيل هي على بابها وتعلقها بحال محذوفة، أي منصرفاً عن ذكر ربي^(١).

والتعليل نحو: ﴿وَمَا كَأَنْتَ أَسْتَغْفَرُ لِزَهْرِهِمْ لِأَيْسِهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ونحو ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] ويجوز أن يكون حالاً... أي ما نتركها صادرين عن قولك^(٢).

ومرادفة بعد نحو: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]^(٣). وفيها معنى المجاوزة، أي بعد مرور وقت قليل.

والظرفية كقوله:

وَأَسْ سِرَاةَ الْحَيِّ حَيْثُ لَقِيْتَهُمْ وَلَا تَكْ عَنْ حَمْلِ الرِّبَاعَةِ وَإِنِّي
الرباعية نجوم الحملالة، قيل لأن (ونى) لا يتعدى الآب (في) بدليل: ﴿وَلَا نُنْيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

والظاهر أن معنى (ونى عن) جاوزه ولم يدخل فيه، وونى فيه دخل فيه وفتر^(٤).

ومرادفة الباء نحو: ﴿وَمَا يَطْلُقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] والظاهر أنها على حقيقتها، وإنَّ المعنى: وما يصدر قوله عن هوى^(٥).

قالوا: وتأتي اسماً بمعنى جانب وذلك إذا دخلت عليها (من) كقولك: (جئته من عن يمينه)^(٦) والمعنى جئته من جانب يمينه أو من جهة يمينه.

(١) «المغني» (١/١٤٧).

(٢) «المغني» (١/١٤٨).

(٣) «المغني» (١/١٤٨).

(٤) «المغني» (١/١٤٨).

(٥) «المغني» (١/١٤٨).

(٦) «كتاب سيبويه» (٢/٣٠٩)، «المغني» (١/١٤٩)، «ابن يعيش» (٨/٤١).

والحقيقة أنَّ معنى (جثته من عن يمينه) أنَّ مبتدأ المجرى كان منحرفاً عن اليمين بخلاف قولك: (جثته عن يمينه) فإنَّ معناه أنَّ المجرى كان منحرفاً عن اليمين، وليس معناه ان مبتدأ المجرى كان منحرفاً عن جهة اليمين، فقد يكون مبتدأ المجرى من جهة اليمين ثم انحرفت.

فنحن نقول: جثته عن يمينه وجثته من يمينه وجثته من عن يمينه. فمعنى (جثته عن يمينه) أنك جئت منحرفاً عن يمينه.

ومعنى (جثته من يمينه) أنَّك جئت من هذه الجهة، وأنَّ ابتداء مجيئك كان من جهة اليمين.

و(جثته من عن يمينه) معناه أنَّ ابتداء مجيئك، كان منحرفاً عن جهة اليمين.

فليست (عن) الاسمى بمعنى (جانب) بل هي الجانب المنحرف.

وقولك (جلست عن يمينه) معناه جلست متراخياً عن بدنه.

و(جلست من عن يمينه) معناه أنَّ جلوسى كان من الجهة المنحرفة عن يمينه.

و(جلست يمينه) معناه جلست في جهة يمينه.

في

(في) تفيد الظرفية، مكانية أو زمانية، فمن الظرفية المكانية قولهم: (الدراهم في الكيس) و(هو في الدار)، ومن الظرفية الزمانية قولك: (جئت في يوم الجمعة). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].

وهذه الظرفية حقيقية، وقد تكون الظرفية مجازية، نحو (سأمشي في حاجتك) و(سأنظر في أمرك) جعلت الحاجة مكاناً للمشى والأمر محلاً للنظر.

جاء في (كتاب سيبويه): وأما (في) فهي للوعاء تقول: (هو في الجراب) و(في الكيس) و(هو في بطن أمه) وكذلك هو في الغُلِّ، لانه جعله إذ أدخله فيه كالوعاء له وكذلك هو في الغُلِّ، لانه جعله إذ أدخله فيه كالوعاء له، وكذلك هو في القبة، وفي الدار. وإن اتسعت في الكلام فهي على هذا، وإنما تكون كالمثل يجاء به يقارب الشيء، وليس مثله^(١).

وجاء في (المقتضب): وأما (في) فهي للوعاء نحو زيد في الدار... وقد يتسع القول في هذه الحروف، وإن كان ما بدأنا به الاصل نحو قولك: زيد ينظر في العلم فصيرت العلم بمنزلة المتضمن، وإنما هو كقولك: قد دخل عبدالله في العلم وخرج مما يملك. ومثل ذلك (في يد زيد الضيعة النفيسة) وإنما قيل ذلك لأن ما كان محيطاً به ملكه بمنزلة ما أحيطت به يده^(٢).

فمعنى (في) الظرفية وإن اتسعت في الكلام فهي على ذلك كما ذكر سيبويه. وقد ذكروا لها معاني هي في الحقيقة توسع في معنى الظرفية، منها أن تكون: بمعنى الباء كقوله:

ويركب يوم الروع منا فوارس بصيرون في طعن الأباهر واللى^(٣)

قيل: والأولى أن يكون بمعناها أي لهم بصارة وحذق في هذا الشأن^(٤) ونحو قوله:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب في أثمانها ونقامر

قيل: والأولى أن تكون بمعناها ايضاً، وذلك أن الشاعر جعل أثمانها ظرفاً للشرب والقمار مجازاً^(٥).

(١) «كتاب سيبويه» (٣٠٨/٢) وانظر «الاصول» (٥٠٣/١).

(٢) «المقتضب» (١٣٩/٤).

(٣) «المغني» (١٦٨/١).

(٤) «شرح الرضي على الكافية» (٣٦٢/٢).

(٥) نفس المصدر (٣٦٣/٢).

وبمعنى (مع) نحو قوله ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مع أمم.

وقيل: بل التقدير ادخلوا في جملة أمم فحذف المضاف^(١).

وهو أولى، فهناك فرق بين قوله دخل معهم، ودخل فيهم، فمعنى (دخل فيهم) أنه أصبح من جملتهم، ومعنى (دخل معهم) أنه مصاحب لهم، وليس منهم.

يقال (اذهب في الناس وتسمع الخبر) أي: ادخل فيهم.

ثم ألا ترى أنك تقول (ذهب خالد مع القوم) وإن كان منعزلاً عنهم غير مختلط بهم، ولا تقول (ذهب فيهم) إلا إذا دخل في جملتهم، وانغمز في مجموعهم؟.

والدليل على أنها بمعناها وليست بمعنى (مع) أنه لا يصح أن تقول (اذهب في خالد) ولا (ادخل فيه) كما تقول (اذهب مع خالد وادخل معه) لأنّ خالداً لا يكون ظرفاً لك بخلاف (اذهب في القوم وادخل فيهم) فإنّ القوم يكونون كالظرف له يحتوونه.

وبمعنى (إلى)، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] قالوا هي بمعنى إلى^(٢).

وقيل بل الأولى أن تكون بمعناها والمراد التمكن^(٣).

وبمعنى (على) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقد مرّ القول فيها.

والتعليل نحو قوله تعالى: ﴿لَمَسْكُوفٍ مَّا أَفْضَرُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

وفي الحديث (إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي اطعمتها ولا هي تركتها تاكل من خشاش الارض)^(٤).

(١) المغني (١/١٦٨).

(٢) المغني (١/١٦٩).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦٢).

(٤) المغني (١/١٦٨).

الكاف

الكاف تفيد التشبيه نحو: (هو كالبحر جوداً) وهي (كالبدن)، وما ذكر لها من معان أخرى ترجع في حقيقتها الى معنى التشبيه. فما ذكر لها من معان:

التعليل: واستدل مثبتو ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] قالوا أي لهدايته اياكم، وانكره الاكثرون^(١).

وهي للتشبيه فيما أرى، ونحن نستعمل مثل هذا التعبير في كلامنا الدارج فنقول (أحسن الى فلان مثلما أحسن إليك) و(اصنع له خيراً مثل ما صنع اليك) و(اذكره مثلما ذكرك) أي اصنع مثل فعله، وقابله بمثل ما فعل، واعمل مشابهاً لعمله، ونحو ذلك.

والاستعلاء: مثل قولهم: (كن كما أنت) والمعنى كن على ما أنت عليه. وكونها للتشبيه ظاهر، أي كن مثلما أنت عليه الآن لا تغتير، أي لتشبه حالتك في المستقبل حالتك الآن^(٢).

وزائدة تفيد التوكيد، وجعلوا منه قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] قال الاكثرون: «التقدير ليس شيء مثله اذ لو لم تقدر زائدة صار المعنى ليس شيء مثل مثله فيلزم المحال وهو اثبات المثل، وإنما زيدت لتوكيد نفى المثل^(٣)».

وجاء في (شرح الرضي على الكافية) انه «يحكم بزيادتها عند دخولها على (مثل) في نحو (ليس كمثله شيء) أو دخول مثل عليه كقوله (فأصبحوا مثل كعصف مأكول) اذ الغرض انه لا يشبه بالمشبه، فلا بد من زيادة احدى أداتي التشبيه، وزيادة ما هو حرف اولي^(٤)».

(١) المغني (١/١٧٦).

(٢) المغني (١/١٧٦) وانظر حاشية الصبان (٢/٢٢٥).

(٣) المغني (١/١٧٩) وانظر لسان العرب (١٤/١٣٢)، «المقتضب» (٤/٤١٨).

(٤) «شرح الرضي» (٢/٣٨٠).

وذهب قوم الى أنها ليست زائدة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ بل هي نفي الشيء بنفي ملازمه، كقولهم (على لا حب لا يهتدي بمناره) أي ليس له منار فيهتدي به وليس معناه أن له مناراً لا يهتدي به، وقولهم: (ولا ترى الضب بها ينجحر) أي ليس بها ضب فينجحر، وعلى هذا يكون معنى الآية: ليس له مثل فيشبهه به، جاء في (شرح الرضي على الكافية): ويجوز في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أن لا يحكم بزيادة الكاف، بل تكون على طريقة قوله: (ولا ترى الضب بها ينجحر)، وقولك: (ليس لأخي زيد أخ) أعني نفي الشيء بنفي لازمه، لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم، فأخو زيد ملزوم والاخ لازمه لانه لا بد لأخي زيد من أخ هو زيد، فنفيت هذا اللازم، والمراد نفي الملزوم أي ليس لزيد أخ، اذ لو كان أخ لكان لذلك الاخ أخ، هو زيد، فكذا ههنا نفيت أن يكون لمثل الله مثل، والمراد نفي مثله تعالى، اذ لو كان له مثل، لكان هو تعالى مثله^(١).

وذهب قوم في تخريج الآية الى تلمس فرق بين كاف التشبيه ومثل.

جاء في (الفروق اللغوية): الفرق بين كاف التشبيه وبين المثل، أن الشيء يشبه بالشيء من وجه واحد لا يكون مثله في الحقيقة، إلا اذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته، فكان قوله تعالى لما قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أفاد أنه لا شبه له ولا مثل، ولو كان قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفياً أن يكون لمثله مثيل لكان قولنا (ليس كمثل زيد رجل) مناقضة، لأن زيدا مثل من هو مثله، والتشبيه بالكاف يفيد تشبيه الصفات بعضها ببعض وبالمثل يفيد تشبيه الذوات بعضها ببعض، تقول (ليس كزيد رجل) أي في بعض صفاته لأن كل أحد مثله في الذات، وفلان كالاسد في الشجاعة دون الهيئة، وغيرها من صفاته. وتقول السواد عرض كالبياض ولا تقول مثل البياض^(٢).

(١) «شرح الرضي» (٢/٣٨٠-٣٨١).

(٢) الفروق اللغوية (١٢٨).

ويبدو أن كلام أبي هلال ليس دقيقاً، فالتشبيه بمثل يكون في الذات والصفات فانك تقول (ليس مثل المتنبي شاعر) ولا شك أن كل الشعراء مثله في ذاته، وتقول: ليس كالمتنبي شاعر. والعرب تقول هي مثل الشمس، ومثل البدر. قال الشاعر.

مه عاذلي فهائما لن ابرحا بمثل أو أحسن من شمس الضحى

ولا شك أن ذات الانسان لا تماثل ذات الشمس، وإنما هو تشبيه بصفة الحسن والجمال. غير أن التشبيه بمثل أقرب من الكاف فقولك (هي مثل البدر) أقرب في الشبه من (هي كالبدر) لأنك في الاولى تدعى المماثلة، والمماثلة أقرب من عموم الشبه.

وعلى هذا يمكن أن يقال إنه جاء بالكاف ومثل، لنفي المماثلة والشبه كليهما ولو جاء بالكاف وحده لكان نفيًا للمشابهة فقط، ولو جاء بمثل لكان نفيًا للمماثلة فجاء بهما لنفي المشابهة القريبة والبعيدة.

والذي يبدو لي أن الكاف ليست زائدة، بل هي على معناها، وايضاح ذلك أنك تقول (هي مثل البدر) و(هي كمثل البدر) فقولك (هي مثل البدر) أقرب في الشبه الى البدر من كمثل البدر، وذلك لمجيتك في الثانية بأداتي تشبيه: الكاف ومثل، واذا حذفت اداة التشبيه كان الشبه اقرب. فلو قلت (هي البدر) لكان أقرب كما هو معلوم لانك تدعي انها البدر وليست شبيهة به.

فقولك (هي البدر) أقرب في الشبه من (هي كالبدر أو مثل البدر).

وقولك (هي مثل البدر) أقرب الى الشبه من قولك (هي كمثل البدر) فأنك في الاخيرة ابعدت الشبه بذكر اداتين للتشبيه، فلو قال تعالى (ليس مثله شيء) لكان ينفي ذا الشبه القريب أو المثل القريب. ولكنه قال (ليس كمثله شيء) مريداً بذلك نفي المشابهة ولو من وجه بعيد على معنى انه لا يشبهه شيء ولو من وجه بعيد.

ولا يقال إن ذلك يثبت المثل فأتنا نقول في كلامنا (ليس كمثـل خالد رجل) على معنى لا يشبهه رجل، ولو كان ذلك يثبت المثل، لكان قولنا متناقضاً، كما قال أبو هلال العسكري لأن خالداً مثل من يشبهه، فكيف نفـي وجود مثله وهو موجود؟.

وإنما الأمر كما ذكرنا والله أعلم، أراد بذلك نفـي الشبه من جميع الوجوه، ولو كان من وجه بعيد.

وأما قول الرضي إنه يحكم بزيادتها عند دخولها على (مثل) أو دخول (مثل) عليها فليس الامر فيه كما ذكر، وإنما هو لقصد تبعيد المشبه عن المشبه به.

ونحوه ما ذكر في قول الشاعر (فأصبحوا مثل كعصف مأكول) فإن الكاف فيه ليست زائدة، وإنما تشبيه بمشبه وإيضاح ذلك- إذا لم نقل إنه جاء بالكاف ومثل لاقامة الوزن- انه لم يرد أن يقول (فأصبحوا مثل عصف مأكول) وإنما يريد أن يشبههم بحالة من شبه بالعصف المأكول، وهم أصحاب الفيل، فأصحاب الفيل كما أخبر ربنا جعلهم كعصف مأكول، وحالة هؤلاء الذين ذكرهم الشاعر أصبحت كحالة اولئك فقال (مثل كعصف مأكول).

وجعلوا من زيادتها قول الشاعر (لواحق الاقرب فيها كالمقق)^(١).

والمقق هو الطول لأننا نقول فيها طول ولا نقول: فيها كالطول. وهذه الزيادة سماعية عند النحاة.

والذي أراه انها ليست زائدة بل هي على معناها أيضاً، ونحن نستعمل هذا في لغتنا الدارجة فنقول: هذا القميص بيه مثل الطول وأرى بيه مثل القصر، والمعنى انه ليس فيه طول واضح أو قصر واضح، وإنما هو كأنما فيه طول.

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٣٨٠).

وتأتي الكاف اسماً بمعنى مثل كما في قوله :

أنتهون ولن ينهى ذوي شطط كالطعن يهلك فيه الزيت والفتل

للاسناد اليه، وقوله : (يضحكن عن كالبرد المنهم) لدخول حرف الجر عليه^(١).

وهي ليست بمعنى (مثل) تماماً، وإنما هي أقل منها درجة في التشبيه، فقولك (يضحكن عن مثل البرد) أقرب إلى المشبه به من الكاف كما ذكرنا فكذلك حالها في الاسمية.

اللام

معنى اللام الاختصاص، اما بالملكية نحو الدار لخالده، أو بغيرها نحو الجلّ للفرس^(٢). وذكر سيبويه أنّ معناها الملك والاستحقاق^(٣) وفصل المتأخرون فذكروا لها معاني يرجع أكثرها إلى الاختصاص أو الاستحقاق، فما ذكر لها من معان :

الملك نحو : له دار ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وشبه الملك نحو (الباب للدار) و(الغلاف للكتاب) لأن الكتاب والدار لا يملكان.

والتملك نحو (وهبت لك مالا).

وشبه التملك نحو ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] لان الولي وهو الولد

لا يملك حقيقة، وكلها تفيد الاختصاص.

(١) «شرح الرضي» (٣٨٠/٢) وانظر المغني (١٨٠/١)، «شرح ابن يعيش» ٤٢/٨-٤٣.

(٢) «شرح الرضي» (٣٦٤/٢).

(٣) «كتاب سيبويه» (٣٠٤/٢)، وانظر «شرح ابن يعيش» (٢٥/٨).

وان تكون بمعنى مَنْ، نحو (سمعت له صراخاً)^(١). والظاهر أنها للاختصاص.

والتبليغ وهي الجارة لاسم السامع لقول أو ما في معناه، نحو قلت له وأذنت له وفُسرَت له^(٢). وهي للاختصاص ايضاً.

والتعليل: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الانسان: ٩] وجئت للاستفادة، وهي تفيد الاختصاص ايضاً اذ الاطعام مختص بذلك، والمجيء مختص بذلك^(٣).

وموافقة الى نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] والظاهر انها للاختصاص ايضاً، ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [ابراهيم: ٤٢] وهو للتعليل كما تقول (أنا أعدك لذلك اليوم)، وأدخرك له، أي لاجله.

وذكروا منه قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

والظاهر ان ما ورد باللام يفيد التعليل، بمعنى كل يجري لبلوغ الاجل، أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف ولبلوغه. وأما ما جاء بـ (الى) فهو يفيد الانتهاء. جاء في (درة التنزيل): قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقال في سورة الزمر: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان، بقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وما سواه انما هو ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

(١) انظر المغني (١/٢٠٨-٢٠٩، ٢١٣).

(٢) المغني (١/٢١٣).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٦٤).

والجواب أن يقال: إن معنى قوله ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى. وقوله ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه لا يزال جارياً، حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له.

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام، تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الاجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والاعادة، فقبلها ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ وبعدها ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس، وتنكدر فيه النجوم، كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الاخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السماوات والارض وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢-١٣] فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها^(١).

وبمعنى على نحو قوله: ﴿يَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الاسراء: ١٠٧] وقوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الاسراء: ٧]^(٢).

(١) «درة التزليل» (٣٧٤-٣٧٥).

(٢) المغني (٢١٢/١).

أما قوله (يَخْرُونَ للأذقان) فليس المعنى -والله أعلم- على الأذقان لأنَّ هناك فرقاً بين قولك خرَّ على وجهه وخرَّ لوجهه، فخرَّ على وجهه معناه سقط على وجهه، وأما خرَّ لذقنه فمعناه: أنه خرَّ حتى بلغ في ذلك الذقن. أو الاختصاص، أي: حتى خصَّ ذقنه بذلك.

وقوله (وإنَّ اسأتم فلها) معناه انكم لم تسيئوا لأحدٍ وإنَّما اساءتكم أي خصصتم أنفسكم بالاساءة، جاء في (الكشاف) في تفسير هذه الآية: أي الاحسان والاساءة كلاهما مختص بانفسكم لا يتعدى النفع والضرر الى غيركم. وعن علي رضي الله عنه: ما احسنت الى أحد ولا أسأت اليه وتلاها^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنبَيْهِ﴾ [يونس: ١٢] قالوا بمعنى على جنبه.

ولا أرى أنَّها بمعنى (على) بل هي للاختصاص، وايضاح ذلك أنَّ (على) وردت في القرآن مع الجنب مرتين قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣] فجاء بلفظ (على) في هاتين الآيتين.

وجاء باللام في هذه الآية: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢].

وسرَّ ذلك والله أعلم، أنه اذا مس الانسان الضر دعا ربه ملازماً لجنبه، أو قاعداً أو قائماً، فإن الانسان إذا مسه الضر اكثر ما يلزم جنبه، ثم القعود، ثم القيام، فذكر هذه الحالات بحسب الترتيب فقال (لجنبه أو قاعداً أو قائماً). في حين آخر ذكر الجنب في غير هؤلاء فقال ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]،

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فقدّم القيام في حالة العافية، ثم القعود ثم الاضطجاع، على الجنب فخالف بين حالتي الضر والعافية، فقدّم الجنب في حالة الضر وآخر القيام، وقدّم القيام في حالة العافية وآخر الاضطجاع على الجنب.

وجاء باللام الدالة على الاختصاص في حالة الضر، بمعنى ملازمًا لجنبه، وجاء بـ (على) الدالة على الاستعلاء في حالة العافية بمعنى مضطجع على جنبه.

وبمعنى (في) نحو قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والراجع انها للتعليل، أي لأجل ذلك اليوم أو للاختصاص، ونحو قولهم (مضى لسبيله)^(١) قالوا: أي في سبيله.

ويبدو أنّ هناك فرقاً بين قولنا: مضى لسبيله ومضى في سبيله، فان قولك مضيت في سبيلي وامض في سبيلك معناه سر في الطريق التي أنت سائر فيها. وأما قولك (امض لسبيلك) فمعناه: امض للطريق التي تريدها كما تقول: اذهب، له وامض لعملك أي لأجله.

وبمعنى (عند) كقولهم (كتبته لخمس خلون)^(٢) أي عند خمس وهي ليست كذلك اذ إنه لم يكتبها عند هذه الخمس بل عند مضيتها وقيل هي بمعنى بعد^(٣).

وهو أولى، غير أنّ هناك فرقاً بين قولك (لخمس خلون) و(بعد خمس) فقولك بعد خمس لا يتعين فيه أنه اليوم السادس، بل ما بعد الخمس يحتمل السادس والسابع والعاشر وغيرهن، لأنّ ذلك كله بعده كما تقول: تعال بعد منتصف الشهر، وتعال بعد العيد، وتعال بعد رمضان. كل ذلك يحتمل المباشرة وغيرها. فنحن نقول (محمد بعد عيسى) وبينهما قرون.

(١) «المغني» (١/٢١٢-٢١٣).

(٢) «المغني» (١/٢١٣).

(٣) «شرح الرضي» (٢/٣٦٥).

وأما قوله (لخمس خلون) فيتعين أنه كتب بعدهن بلا فاصل أي في اليوم السادس، وهي للاختصاص كما يبدو.

وكذلك قوله (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) فإنها ليست بمعنى (بعد) تماماً، كما يقول النحاة^(١)، فإن كلمة (بعد) تحتل المدة القصيرة والطويلة بخلاف اللام.

فالظاهر أنها للاختصاص. جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وقيل تجيء بمعنى في، وبمعنى بعد، وبمعنى قبل في قوله تعالى ﴿جَاءَ النَّاسُ يَوْمَ﴾ [آل عمران: ٩]، أي في يوم وكتبته لثلاث خلون، أي بعد ثلاث ولثلاث بقين، أي قبل. والاولى بقاء الثلاثة على الاختصاص»^(٢).

والصيرورة وتسمى لام العاقبة والمآل نحو ﴿فَالْفَقْطَةُ﴾ آلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا [القصص: ٨] فإنهم لم يلتقطوه لذلك وإنما آل الامر الى ذلك، وأنكر البصريون هذه اللام^(٣). وقال الزمخشري إنَّ التعليل فيها وارد على طريق المجاز جاء في (الكشاف) في تفسيره هذه الآية «ليكون هي لام (كي) التي معناها التعليل كقولك (جتك لتكرمني) سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، لأنه لم يكن داعيهم الى الالتقاط أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا ولكن المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل لاجله وهو الاكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب، الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأدب. وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الاسد، حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الاسد لمن يشبه الاسد»^(٤).

(١) المغني (٢١٣/١).

(٢) «شرح الرضي» (٣٦٥/٢) وانظر حاشية الشمني على الغني (٣١/٢).

(٣) المغني (٢١٤/١).

(٤) الكشاف (٤٦٦/٢).

وقال الرضي إنها فرع لام الاختصاص^(١).

والتعجب، نحو يا للماء ويا للعشب إذا تعجبوا من كثرتهم، ونحو: لله درّه فارساً^(٢).

وقد يكون مع التعجب القسم، نحو (الله لا يؤخر الاجل) ويعنون بذلك الأمر العظيم الذي يستحق أن يتعجب منه فلا يقال: لله لقد قام زيد، بل يستعمل في الامور العظام نحو لله لتبعثن^(٣).

وزائدة وهي أنواع منها:

اللام المعترضة بين الفعل المتعدي ومفعوله كقوله:

وملكت ما بين العراق ويشرب ملكاً أجار لمسلم ومعاهد^(٤)

والمعنى أجار مسلماً ومعاهداً، وهي ليست قياسية فليس لك أن تقول: ضربت لخالد وأكرمت لمحمد، وهي زائدة للاختصاص.

واختلف في اللام في نحو ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ونحو: ﴿وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْأَعْلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] ف قيل زائدة داخلة على مفعول الارادة والامر، والمعنى يريد الله أن يبين لكم، وأمرنا أن نسلم لرب العالمين.

وقيل: بل اللام في نحو هذا للتعليل. والتقدير مثلاً يريد الله انزال هذه الآيات ليعين لكم.

وعند سيويه والخليل أن التقدير ارادتي للتبيين أي ان المجرور باللام خبر لمبتدأ هو مصدر مقدر من الفعل^(٥). جاء في (كتاب سيويه): «وسألته عن معنى قوله: أريد لأن

(١) «شرح الرضي» (٣٦٤/٢).

(٢) المغني (٢١٤-٢١٥/١).

(٣) «شرح الرضي» (٣٦٥/٢).

(٤) المغني (٢١٥/١).

(٥) انظر المغني (٢١٦/١)، «المقتضب» (٣٦/٢)، «التفسير الكبير» (٦٦/١٠) قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ﴾.

تفعل فقال: انما يريد أن يقول ارادتي لهذا كما قال عز وجل ﴿وَأَمَرْتُ لَأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢] انما هو أمرت لهذا^(١).

والراجح فيما أرى ان اللام في نحو هذا داخلة على المفعول وهي زائدة زيادة قياسية في مفعول هذين الفعلين، والغرض منها تأكيد الاختصاص، ودخول اللام على المفعول له نظائر في الساميات كما سنذكر في خاتمة هذا الحرف.

تقول: (أريد لأنسى ذكرها) بمعنى أريد أن أنسى ذكرها، وتقول: (أريد لأذهب إليه) على معنى أريد أن أذهب اليه. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال في سورة التوبة أيضاً: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

فجاء في الآية الاولى باللام (ليعذبهم بها) ولم يأت به في الآية الثانية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾. وزيادة اللام في الاولى يقتضيها السياق، وذلك أنها في سياق إنفاق الاموال والخطاب للمنافقين. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم...، وبعدها: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، وبعدها ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾.

فالسباق في إنفاق الاموال والكلام على المنافقين وأموالهم، ثم وجه الخطاب للرسول قائلاً: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ فزاد (لا) النافية تأكيداً (فلا) تعجبك أموالهم ولا أولادهم) وزاد اللام في (ليعذبهم) لزيادة الاختصاص وتوكيده.

(١) «كتاب سيبويه» (١/٤٧٩).

في حين أن السياق مختلف في الآية الأخرى. قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعْتَذَرُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

فسياق الآيات الأولى في انفاق الاموال، فأكد ذلك بزيادة (لا) واللام. ولما اختلف السياق في الآيات الأخرى خالف في التعبير، فلم يذكر (لا) ولا اللام، لأن المقام لا يقتضي التوكيد ههنا.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشْعَرَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقوله في سورة الصف: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

فقال في آية التوبة (يريدون أن يطفئوا) وقال في آية الصف (يريدون ليطفئوا) بزيادة اللام في المفعول للتوكيد، وذلك أن السياق مختلف في الآيتين، فالسياق في سورة الصف في تكذيب النصارى للبشارات بمجيء محمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورَةِ وَمُبَشِّرًا رَسُولِي إِلَيَّ مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحمدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف: ٦-٨].

ونور الله هو الاسلام فتكذيب النصارى للبشارة الواردة في كتبهم، القصد منه إطفاء نور الله فجاء باللام الدالة على التوكيد.

وأما في آية التوبة فالسياق مختلف، وقد ذكرت الآية في سياق آخر لا يحتاج الى مثل هذا التوكيد قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ

اللَّهُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِي قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَفَّ يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴿[التوبة: ٣٠-٣٢].

فالسباق في آيات الصف متجه الى النبوة ومحاولة تكذيبها فجاء باللام، والسباق في آيات التوبة في النعي على معتقدات اليهود والنصارى في عزيز والمسيح والاحبار والرهبان، فجاء باللام الزائدة في الآية الاولى لأن الكلام على نبوة محمد والاسلام ولم يأت بها في الآية الثانية لأن السياق مختلف.

ثم ألا ترى من ناحية ثانية أنه في موطن الرد على اليهود والنصارى في شركهم بالله جاء باللام، لأن الأمر يقتضي التوكيد فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

فانظر كيف جاء باللام الزائدة للاختصاص في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، وقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لأن السياق يقتضي ذلك وحذفها في الموطن الذي لا يقتضيه؟.

ومن اللام الزائدة اللام التي يسميها النحاة لام التقوية «وهي المزيده لتقوية عامل ضعف اما بتأخره نحو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٤] ونحو ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّعْثَةِ يَا قَوْمُ﴾ [يوسف: ٤٣] أو يكون فرعاً في العمل نحو ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ﴿نَزَاعَةً لِلنَّسْوَى﴾ [المعارج: ١٦] (١).

فهم يرون أنها لتقوية العامل الذي ضعف بتأخره، لأن أقوى حالات العمل أن يتقدم العامل، أو ضعف بكونه فرعاً لانهم يرون أن الاصل أقوى من الفرع، كأن يكون اسم فاعل أو صيغة مبالغة.

(١) المغني (١/٢١٧)، «شرح الرضي» (٢/٣٦٤).

وهذا فيما أرى كلام لا حقيقة تحته، فإن اللام للتقوية ولكن ليست لتقوية العامل الضعيف بل لتقوية الاختصاص وتوكيده. فانك تقول (أكرمت محمداً) فإذا أردت التخصيص قلت (محمداً أكرمت) بتقديم المفعول، فإذا أردت زيادة التخصيص وتوكيده جئت باللام الدالة على الاختصاص، فتقول (لمحمد أكرمت). قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخشونه بالرهبة. وذهب بعضهم الى انها لام التعليل^(١). وهو أقرب من القول بأنها مقوية للعامل.

وأما دخولها على مفعول اسم الفاعل، نحو (وهو الحق مصداقاً لما معهم) فيبدو أن دخولها لمعنى آخر، وذلك إن قولك (أنا مكرمٌ محمداً) يدل على الحال أو الاستقبال، فإن اسم الفاعل اذا نصب مفعولاً كان دالاً على الحال أو الاستقبال، قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢] فهو لم يخلقه بعد لانه قال: (فاذا سويته) فاذا أدخلت اللام فقلت (أنا مكرم لمحمد) كان ذلك يفيد الاطلاق وليس مختصاً بالحال أو الاستقبال، كما تقول (أنت مهين لسعيد) أي أنت تهينه وقد أهانه قبل القول بخلاف (أنت مهينٌ سعيداً).

وأما دخولها على مفعول اسم المبالغة فللاختصاص أيضاً، نحو (مناع للخير) و(نزاعة للشوى) و(فعال لما يريد) فهو يخص منعه بالخير وكذلك ما بعده.

أن دخول اللام على المفعول ظاهرة في بعض من اللغات السامية كالعبرية والآرامية والحبشية. جاء في (التطور النحوي): «واللام للمفعول كثيراً في العبرية والآرامية وخصوصاً في الحبشية مثال ذلك Ua-la-hedan tegazreu أي فاختنوا الولد. ومثل هذا نادر جداً في العربية مثاله من القرآن الكريم ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّجَالِ يَاقَافُوتَ﴾، واقتصرت اللام للمفعول في العربية غالباً على مفعول المصدر و(فاعل) وأخواتها، فوضعت العربية قواعد تحدد الحالات التي يجوز فيها استعمال اللام. ومن خصائص العربية أنها قد تعمل بعض الأوصاف المتعلقة بالعمل غير (فاعل) وأخواتها عمل (فاعل) أيضاً ونادراً ما

(١) «تفسير فتح القدير» (٢/ ٢٣٨) قوله تعالى ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ينصب مفعولها نحو (ان الله سميع دعاء من دعاه) وكثيراً ما تدخل عليه اللام نحو ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤٢] أو أمقته الناس للشرع^(١).

فهذه الظاهرة ليست مختصة بالعربية بل ربما كانت سامية قديمة احتفظت بها العربية. ولا يمنع أن تكون العربية خصت اللام في نحو هذا بمعنى كالاختصاص. فإن العربية خصت كثيراً من الظواهر السامية بمعان^(٢).

من

لـ (من) معانٍ أشهرها: ابتداء الغاية نحو سافرت من بغداد الى الموصل. فبغداد ابتداء السفر. وتقول: «إذا كتبت كتاباً: من فلان الى فلان»^(٣).

ومنه قولك: (هو أفضل من زيد) فقد جعلت زيداً الموضع الذي ارتفع منه، أو سفل منه في قولك: شرٌّ من زيد»^(٤).

والأحسن أن يقال هي للابتداء لا لابتداء الغاية، لأن ابتداء الغاية معناه أن الحدث ممتد الى غاية معينة كقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الاسراء: ١] ونحو: (جئت من داري) فإن الاسراء امتد من المسجد الحرام وانتهى بالمسجد الأقصى، فالمسجد الأقصى هو الغاية. جاء في (شرح الرضي على الكافية): «كثيراً ما يجري في كلامهم أن (من) لابتداء الغاية و(إلى) لانتهاء الغاية، ولفظ الغاية يستعمل بمعنى النهاية وبمعنى المدى... والمراد بالغاية في قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية جميع المسافة، إذ لا معنى لابتداء النهاية وانتهاء النهاية»^(٥).

(١) التطور النحوي «١٠٢-١٠٣».

(٢) أنظر التطور النحوي «١٠٥».

(٣) كتاب سيويه «٣٠٧/٢» وانظر المقتضب «١٣٦-١٣٧/٤».

(٤) كتاب سيويه «٣٠٧/٢».

(٥) شرح الرضي «٣٥٥/٢».

و(من) تستعمل فيما هو أعمّ من ذلك، إذ تستعمل للابتداء عموماً، سواء كان الحدث ممتداً أم لا، نحو: (إشترت الكتاب من خالد) فخالد مبتدأ الشراء، وهو ليس حدثاً ممتداً، ونحو (أخرجت الدراهم من الكيس) و(أخذت الكتاب من المنضدة) و(شربت الماء من الكأس) و(رأيت الهلال من داري) و(سمعت صوتك من داخل غرفتي).

فهذه كلها لا تفيد ابتداء الغاية، بل تفيد ابتداء وقوع الحدث، فإنّ الحدث ليس ممتداً كالأسراء والمجيء ونحوهما.

وعند سيبويه والبصريين انها لا تكون لابتداء غاية الزمان، فلا يصح أن تقول: (سافرت من يوم الخميس)، وعند الكوفيين وجماعة انها تكون لابتداء غاية الزمان وغيره واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] ^(١).

وفي الحديث (فمطرنا من الجمعة الى الجمعة) ^(٢) والبصريون يتأولون ذلك. والأرجح انها تكون للزمان وغيره. جاء في (شرح الرضي على الكافية): و(من) للابتداء في غير الزمان عند البصرية... وأجاز الكوفيون استعمالها في الزمان أيضاً استدلالاً بقوله تعالى: (من أول يوم)، وقوله تعالى ﴿تُودَىٰ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]، وقوله:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن شهر

وأنا لا أرى في الآيتين معنى الابتداء، إذ المقصود من معنى الابتداء في (من) أن يكون الفعل المتعدي بـ (من) الابتدائية شيئاً ممتداً كالسير والمشي ونحوه، ويكون المجرور بـ (من) الشيء الذي منه ابتداء ذلك الفعل نحو: سرت من البصرة، ويكون الفعل المتعدي بها أصلاً للشيء الممتد، نحو (بدأت من فلان الى فلان) وكذا خرجت من الدار، لان الخروج ليس شيئاً ممتداً إذ يقال (خرجت من الدار) إذا انفصلت منها،

(١) «شرح الرضي» (٣٥٥/٢)، «شرح ابن عيش» (١٠/٨).

(٢) «التصريح» (٨/٢).

ولو بأقل خطوة وليس التأسيس والنداء حدثين ممتدين، ولا أصليين للمعنى الممتد، بل هما حدثان واقعان فيما بعد من، وهذا معنى (في)، ف (من) في الآيتين بمعنى (في) ذلك لأن (من) في الظروف كثيراً ما تقع بمعنى (في) نحو جئت من قبل زيد ومن بعده ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وكنت من قدامك...

وكذا الاقواء لم يتدّى من الحجج، بل المعنى من أجل مرور حجج وشهر، والظاهر مذهب الكوفيين اذ لا منع من مثل قولك (نمت من أول الليل الى آخره) و(صمت من أول الشهر الى آخره) وهو كثير الاستعمال^(١).

وفي هذا الكلام نظر، فنحن نخالفه في أنّ المقصود من معنى الابتداء في (من) أن يكون الفعل شيئاً ممتداً أو يكون أصلاً للممتد، فإنّ ذلك في ابتداء الغاية وليس في عموم الابتداء كما ذكرنا، فقوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨]، (من) فيه للابتداء فبدء التأسيس على التقوى أول يوم فهي لابتداء وقوع الحدث.

وأما ما ذهب اليه في معنى (من) الداخلة على الظروف، فقد ذكرناه في بحث الظرف ورجحنا أنها للابتداء، ف (من) في الآية ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] ليست بمعنى (في) وإنما هي للابتداء، جاء في (الكشاف) في تفسير هذه الآية: «فان قلت؛ هل لزيادة (من) في قوله (من بيننا وبينك حجاب) فائدة؟»

قلت: نعم، لأنّه لو قيل بيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أنّ حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى أن حجاباً ابتدأ منا، وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها^(٢).

ومعنى الابتداء هو الغالب على (من)، حتى ادّعى جماعة أنّ سائر معانيها راجعة اليه^(٣).

(١) «شرح الرضي» (٢/٣٥٥-٣٥٦).

(٢) «الكشاف» (٣/٦٤).

(٣) المغني (١/٣١٨).

الغاية وهو غير ابتداء الغاية، تقول: (رأيت محمداً من داره) فقد جعلته غاية رؤيتك فأنت لم تكن في داره، وإنما هو كان في داره فجعلته غاية رؤيتك.

جاء في (كتاب سيويه): «وتقول: رأيت من ذلك الموضع فجعلته غاية رؤيتك كما جعلته غاية، حيث أردت الابتداء والمنتهى»^(١).

وجاء في (الاصول) لابن السراج: «وحقيقة هذه المسألة انك اذا قلت: رأيت الهلال من موضعي. ف (من) لك. واذا قلت (رأيت الهلال من خلال السحاب) ف (من) للهلال والهلال غاية لرؤيتك. فكذلك جعل سيويه (من) غاية، في قولك (رأيت من ذلك الموضع). وهي عنده ابتداء غاية اذا كانت (الى) معها مذكورة او منوية، فاذا استغنى الكلام عن (الى) ولم يكن يقتضيها جعلها غاية وبدل على ذلك قوله: (ما رأيت مذ يومين)، فجعلتها غاية كما قلت (اخذته من ذلك المكان) فجعلته غاية ولم ترد منتهى، أي لم ترد ابتداء له منتهى، أي استغنى الكلام دون ذكر المنتهى. وهذا المعنى أراد، والله أعلم.

وهذه المسألة ونحوها إنما تكون في الافعال المتعدية، نحو رأيت، وسمعت، وشممت واخذت، تقول (سمعت من بلادي الرعد من السماء) و(رأيت من موضعي البرق من السحاب) و(شممت من داري الريحان من الطريق) ف (من) الاولى للفاعل، و(من) الثانية للمفعول، وعلى هذا جميع الباب لا يجوز عندي غيره، إنما جاز هذا لأن للمفعول حصة من الفعل كما للفاعل^(٢).

التبويض نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤] وذهب بعضهم الى أن كونها للتبويض راجع الى ابتداء الغاية^(٣).

(١) «كتاب سيويه» (٣٠٨/٢) وانظر المغني (٣٢٢/١).

(٢) «الاصول» (٥٠١-٥٠٢).

(٣) «المقتضب» (٤٤/١).

جاء في (شرح ابن يعيش): «فاذا قلت: اخذت من الدراهم درهماً، فانك ابتدأت بالدراهم ولم تنته الى آخر الدراهم، فالدرهم ابتداء الاخذ الى أن لا يبقى منه شيء ففي كل تبويض معنى الابتداء»^(١).

بيان الجنس: نحو قولك: عندي خاتم من ذهب وباب من ساج اي جنس الخاتم ذهب وجنس الباب ساج، ونحو (أخذت عشرين من الدراهم) فإذا كنت أشرت بالدراهم الى دراهم معينة أكثر من عشرين، فمن مبعضة لأن العشرين بعضها، وإذا كانت الدراهم عشرين فهي مبينة، لأنك قصدت بالدراهم الجنس^(٢).

ورجعه بعض النحاة الى معنى الابتداء^(٣)، ورجعه سيبويه الى معنى التبويض، قال: «وكذلك ويحه من رجل، انما أراد ان يجعل التعجب من بعض الرجال، وكذلك لي ملؤه من غسل»^(٤).

وهذا المعنى يمكن رجعه الى الابتداء، فقولك (عندي باب من ساج) معناه ابتداء الاخذ من الساج، كما يمكن رجعه الى التبويض كما ذكر سيبويه.

التعليل كقوله تعالى ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾ [النحل: ٥٩] وقوله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَنَاعِرُ فَوْا مِنْ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

البدل كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] وقوله: ﴿مَنْ يَكْلُؤْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الانبياء: ٤٢] أي: بدل الرحمن.

«وأنكر قوم مجيء (من) للبدل فقالوا: التقدير في ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ اي بدلاً منها. فالمفيد للبدلية متعلقها المحذوف، واما هي فللا ابتداء»^(٥).

(١) «شرح ابن يعيش» (١٣/٨).

(٢) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٣٥٧/٢).

(٣) «شرح ابن يعيش» (١٣/٨).

(٤) «كتاب سيبويه» (٣٠٧/٢).

(٥) المغني (١/٣٢٠-٣٢١).

المجاورة بمعنى عن: وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ أَقْدَمَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٩٧]^(١) بدليل قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقيل هي فيهما ابتدائية.

والراجح أنها في الآية الاولى للتعليل «أي من أجل ذكر الله، لانه اذا ذكر قست قلوبهم»^(٢). وهي كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وقوله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] فذكر الله سبب لاشمئزازهم.

وأما الآية الثانية فليست بمعنى (عن) والله أعلم، فإن ثمة فرقاً بين الآيتين، فقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] يفيد أن الغفلة عارضة و(عن) للمجاورة، وذلك أن هؤلاء في ساحة القتال، وهم متهيئون له، معهم أسلحتهم وأمتعتهم ولكن يود الذين كفروا غفلة عن الاسلحة والامتعة فيميلون عليهم.

وأما الغفلة في قوله تعالى ﴿يَتَوَلَّوْنَ أَقْدَمَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [الانبياء: ٩٧] فهي غفلة ابتدائية لازمة لا عارضة، أي هم في غفلة دائمة، فلم يستعدوا للآخرة كما استعد أولئك للقتال، فغفلة هؤلاء غفلة ابتدائية ملازمة، ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ولم يقل (عن هذا) لأن الانسان في غفلة من عالم الغيب ملازمة له من حين ولادته الى أن يموت، فينكشف عنه عند ذاك الغطاء وتزول الحجب فيبصر ما لم يكن يبصر، ويرى ما لم يكن يرى، فالغفلة ابتدائية وذلك أن بينهما حجاباً، ابتداء من هذا الأمر، أو ذاك.

وقيل: هي في هذه الآية للابتداء، لتفيد أن ما بعد ذلك من العذاب أشد، كأن هذا

(١) المغني (١/٣٢١).

(٢) المغني (١/٣٢١).

القائل يعلق معناها بويل مثل: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] ^(١).

مرادفة الباء نحو قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] قاله يونس والظاهر انها للابتداء ^(٢).

ويترجح عندي أنها للتبعيض، أي ينظرون ببعض طرفهم، وهو المناسب لمشهد الذل الذي هم فيه. ومثله في حياتنا اليومية أن يغضب أب على ابنه. في فعلة، فينهره ويغلظ عليه والابن لا يستطيع مواجهة أبيه بكل طرفه، بل ينظر اليه ببعض طرفه.

موافقة على وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وقيل هي على التضمين، أي منعناه بالنصر ^(٣).

وهو أرجح بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ﴾ [هود: ٣٠]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، ولا يصح أن تكونا بمعنى على. وقد ذكرنا ذلك في موطن سابق.

زائدة نحو (ما جاءني من رجل) و(ما رأيت من أحد) وهي تفيد الاستغراق والتوكيد. فقولك (ما جاءني رجل) يحتمل أنه لم يأتك أحد من الجنس، ويحتمل أنه لم يأتك رجل واحد بل أكثر من ذلك ^(٤).

فاذا قلت (ما جاءني من رجل) نفيت أن يكون جاءك أحد من الجنس، وصار النفي نصاً في الجنس. جاء في (المقتضب): «وذلك قولك (ما جاءني رجل) فيجوز أن تعني رجلاً واحداً... فاذا قلت: (ما جاءني من رجل)، لم يقع ذلك إلا للجنس كله» ^(٥).

(١) المغني (٣٢١/١).

(٢) المغني (٣٢١/١).

(٣) المغني (٣٢٢/١).

(٤) «كتاب سيبويه» (٢٧/١)، «المقتضب» (٤٢٠/٤)، «الاصول» (١٠٩/١)، «شرح الرضي» (٣٥٨/٢).

(٥) «المقتضب» (٤٢٠/٤)، «الاصول» (١٠٥/١).

ولذا يصح أن تقول: ما جاءني رجل بل رجلاً، ويمتنع أن تقول ما جاءني من رجل بل رجلاً^(١).

وهي عند سيبويه كأنها مأخوذة من معنى التبعض قال: «وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيماً، ولكنها تؤكد بمنزلة (ما)، إلا أنها تعجز لأنها حرف إضافة وذلك قولك (ما أتاني من رجل) و(ما رأيت من أحد)، لو أخرجت (من) كان الكلام حسناً ولكنه أكد بمن لأن هذا موضع تبعض فأراد أنه لم يأت بعض الرجال والناس^(٢).

وذهب بعضهم إلى أنها في هذا المعنى للابتداء، جاء في (شرح ابن يعيش): «واما زيادتها لاستغراق الجنس في قولك (ما جاءني من رجل) فانما جعلت الرجل ابتداء غاية نفي المجيء إلى آخر الرجال، ومن ههنا دخلها معنى استغراق الجنس»^(٣).

وذهب بعضهم إلى أنها ليست زائدة، لأنها تفيد معنى وهو الاستغراق^(٤).

وعلى كل، فإن الذين يقولون بزيادتها، والذين لا يقولون بها، متفقون على أنها تفيد معنى الاستغراق والتوكيد، فإن معنى الزيادة عندهم دخولها على مجرور يطلبه العامل بدونها^(٥)، فقولك (ما جاءني من رجل) دخلت فيه على الفاعل، وقولك ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣] دخلت فيه على المبتدأ وليست زائدة في المعنى.

ولزيادتها شروط هي:

١- أن يتقدم عليها نفي أو شبهه، وشبه النفي هو النهي والاستفهام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]،

(١) المغني (٣٢٢/١).

(٢) «كتاب سيبويه» (٣٠٧/٢).

(٣) «شرح ابن يعيش» (١٣/٨).

(٤) انظر «المقتضب» (٤٥/١).

(٥) «التصريح» (٨/٢).

وقوله: ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ١٢٧] و(لا تضرب من أحد).

٢- أن يكون مجرورها نكرة كما مثلنا.

٣- أن يكون مجرورها فاعلاً، أو نائب فاعل، أو مفعولاً به، أو مبتدأ، وقيل مفعولاً مطلقاً ايضاً^(١).

وذكر أنه أجاز الكوفيون زيادتها في الإيجاب، بشرط تنكير مجرورها مستدلين بما حكى عن بعض العرب (قد كان من مطر): «وأجيب بأنه على سبيل الحكاية كأنه سئل هل كان من مطر؟».

فأجيب (قد كان من مطر) فزيدت لاجل حكاية المزيادة في غير الموجب، كما قال: دعني من تمرتان^(٢).

ثم قيل إنَّ المعنى يأباه في الموجب، فإنَّ قولك (جاءني من رجل) معناه جاءك جميع جنس الرجال وهو محال، جاء في (شرح ابن يعيش): ولذلك لا يرى سيويه زيادة (من) في الواجب لا تقول (جاءني من رجل) كما لا تقول (جاءني من أحد)، لأنَّ استغراق الجنس في الواجب محال، إذ لا يتصور مجيء جميع الناس، ويتصور ذلك في طرف النفي^(٣).

وأجاز الاخفش زيادتها في الواجب، كما أجاز دخولها على المعارف مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] و﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] بدليل أنه ورد في آية أخرى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] و﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] من دون (من). والحق انهما للتبويض. قال ابن يعيش: «وأما قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فان (من) للتبويض أيضاً لأن الله

(١) انظر المغني (١/٣٢٣).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٣٥٨).

(٣) «شرح ابن يعيش» (٨/١٣).

عزّ وجلّ وعد على عمل ليس فيه التوبة، ولا اجتناب الكبائر تكفير بعض السيئات، وعلى عمل فيه توبة واجتناب الكبائر تمحيص جميع السيئات، يدلّ على ذلك قوله تعالى في الآية الاخرى ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَأَبْدُؤُا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فجاء به (من) ههنا، وفي قوله ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] لم يأت به (من) لأنه سبحانه وعد باجتناب الكبائر تكفير جميع السيئات، ووعد باخراج الصدقة على ما حد فيها، تكفير بعض السيئات^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ فهي للتبويض ايضاً وليست بمعنى (يغفر لكم ذنوبكم)، فإنّ الموطن مختلف فهي في الاولى في قوم نوح، والثانية في الأمة المحمدية^(٢).

وأرى أنه لا يصح القول بأنّ هذه اللفظة بمعنى تلك بالاستدلال بأية على أخرى، حتى يتمثل الموطنان والسياقان، فإنّ القرآن دقيق غاية الدقة في المخالفة بين التعابير والالفاظ لاختلاف الموطن والسياق.

مند ومذ

هذا الحرفان لفظاهما متقاربان، فقد تضمن (مند) حرفي (مذ) مع زيادة النون، ولذلك قالوا بأنّ احدهما اصل للآخر، فقد قالوا إنّ اصل مذ مند، وذلك لتقارب لفظيهما، كما ذكرنا ولأنّك اذا اضطررت فحركت الذال من (مند) حركتها بالضم، فتقول (ما رأيته مذّ اليوم)، فترجعها الى الاصل، ولأنّك اذا صغرت (مند) قلت (منيذ) واذا كسرتها قلت (أمناذ)^(٣) فرجعت النون في التصغير، والتكسير.

(١) «شرح ابن يعيش» (٣١/٨).

(٢) حاشية الخضري على ابن عقيل (٢٢٩/١).

(٣) انظر «كتاب سيبويه» (١٢٢/٢)، اسرار العربية ٢٧٠، «شرح ابن يعيش» (٤٦/٨).

ويذكر النحاة أنَّ (مذ) لغة أهل الحجاز، وأما (مذ) فلغة بني تميم، وغيرهم، ويشاركهم فيها أهل الحجاز^(١).

وأكثر العرب يجزّون ما بعد (مذ) مطلقاً وأما (مذ) فيجزّون بعدها الحاضر، ويرفعون بعدها الماضي فيقولون مثلاً:

ما رأيته منذ يوم الجمعة.

وما رأيته منذ يومنا- بالجـر، ويقولون في (مذ):

ما رأيته مذ يومان- بالرفع في الماضي.

وما رأيته مذ يومنا- بالجـر في الحاضر، أي في يومنا.

وهناك لغات أخرى، إلا أن هذه لغة أكثر العرب، جاء في (المغني): «وأكثر العرب على وجوب جرهما للحاضر، وعلى ترجيح جر (مذ) للماضي على رفعه، وترجيح رفع (مذ) للماضي على جره»^(٢).

فهم لم يستعملوهما متماثلين، بل خصّوا (مذ) باستعمال و(مذ) باستعمال، ثم أنّهم جعلوا (مذ) إذا رفع ما بعدها لمعنى، وإذا جرّ ما بعدها لمعنى آخر، وهو الموافق لطبيعة العربية في التخصيص، جاء في (المقتضب): «أما (مذ) فيقع الاسم بعدها مرفوعاً على معنى، ومخفوضاً على معنى، فإذا رفعت فهي اسم مبتدأ وما بعدها خبره، غير أنّها لا تقع إلا في الابتداء لقلّة تمكّنها، وإنها لا معنى لها في غيره، وذلك قونك (لم آت مذ يومان)، وأنا اعرفه مذ ثلاثون سنة، وكلمتك مذ خمسة أيام.

والمعنى إذا قلت: (لم آت مذ يومان) أنك قلت: لم أراه، ثم خبرت بالمقدار والحقيقة والغاية فكأنك قلت: مدة ذلك يومان.

(١) «شرح الرضي على الكافية» (١٣٢/٢).

(٢) المغني (٣٣٥/١) وانظر الجمل للزجاجي (١٥٠-١٥١)، «شرح الرضي على الكافية» (١٣٢/٢)، لسان العرب (٤٦/٥).

والتفسير: بيني وبينه رؤية هذا المقدار، فكل موضع يرتفع فيه ما بعدها فهذا معناه.

وأما الموضع الذي ينخفض ما بعدها فأن تقع في معنى (في) ونحوها، فيكون حرف خفض، وذلك قولك (أنت عندي مذ اليوم) ومذ الليلة، وأنا أراك مذ اليوم يافتى، لأنَّ المعنى في اليوم أو في الليلة، وليس المعنى أن بيني وبين رؤيتك مسافة، وكذلك: رأيت زيداً مذ يوم الجمعة يمدحك، وأنا أراك مذ سنة تتكلم في حاجة زيد لانك تريد: أنا في حال رؤيتك مذ سنة، فإن أردت رأيتك مذ سنة، أي غاية المسافة الى هذه الرؤية سنة، رفعت، لانك لو قلت رأيتك، ثم قلت: بيني وبين ذلك سنة، فالمعنى انك رأيته ثم غبرت سنة لا تراه.

واذا قال: أنا أراك مذ سنة، فإنما المعنى انك في حال رؤية لم تنقص، وأن اولها مذ سنة، فلذلك قلت: أراك، لانك تخبر عن حال لم تنقطع^(١).

ومن هذا يتبين أن هناك فرقاً في المعنى بين الرفع والجبر في (مذ) عند أكثر العرب فهي اذا جرت كانت للحاضر، واذا رفع ما بعدها كانت للمضي، فقولك (أنا أمشي في حاجتك مذ شهر) بالجبر، معناه انك لا تزال تمشي، وقولك (مشيت في حاجتك مذ شهر) بالرفع، معناه انك مشيت من ذلك الحين، وانقطعت عن المشي.

وكذلك قولك: (انا مكرمه مذ شهر) بالجبر، معناه انك لا تزال تكرمه، وقولك (أنا مكرمه مذ شهر) بالرفع، معناه انك اكرمته في ذلك الوقت وانقطع الاكرام.

ونحوه أن تقول: (هو مُعانٌ مذ سنة) بالجبر (هو مُعانٌ مذ سنة) بالرفع، فمعنى الجبر انه لا يزال يُعان منذ سنة، ومعنى الرفع انه أُعِين منذ سنة ثم انقطعت الاعانة.

قالوا وهذان الحرفان لابتداء الغاية، بمعنى (من) اذا كان الزمان ماضياً نحو: (ما رأيته منذ يوم الخميس)، وبمعنى (في) اذا كان الزمان حاضراً نحو: (ما رأيته منذ يومنا)، وبمعنى (من) و(الى) جميعاً إن كان معدوداً، نحو (ما رأيته منذ ثلاثة ايام)^(٢).

(١) «المقتضب» (٣/٣٠).

(٢) المغني (١/٣٣٥).

والحق إنّ (إلى) مفهومة منهما مطلقاً، اذا كان الزمان ماضياً، فقولك: (ما رأيته منذ يوم الخميس) معناه الى الآن.

ولا يجوز وقوعهما للاستقبال،^(١) فلا تقول سأسافر منذ غد، ولا سأنقطع عن العمل منذ غد.

والنحاة يفرقون بينهما اذا وقع بعدهما الاسم مرفوعاً، او مجروراً، فهما اسمان ظرفان، اذا وقع بعدهما الاسم مرفوعاً، وحرفا جر اذا وقع بعدهما الاسم مجروراً.

ويعربونهما مبتدأ، وما بعدهما خبراً، في نحو (ما رأيته منذ يومان) على معنى أمد ذلك يومان، أو خبرين لما بعدهما، مقدمين على معنى بيني وبين رؤيته يومان، وقيل: هما ظرفان مضافان الى جملة حذف فعلها وبقي فاعله، والاصل مذ كان يومان^(٢).

وينبني على ذلك أمر آخر، وهو أنه اذا جاء الاسم بعدهما مجروراً، فالكلام جملة واحدة، واذا وقع بعدهما الاسم مرفوعاً فالكلام جملتان، فقولك: (ما رأيته منذ يومين) جملة واحدة، وقولك: (ما رأيته مذ يومان) جملتان، الاولى (ما رأيته)، والثانية (مذ يومان)^(٣)، ومعنى ذلك انك اخبرت بنفي الرؤية أولاً، ثم بدا لك أن تخبر اخباراً ثانياً عن المدة فقلت: أمد ذلك يومان، قالوا وهي كالمفسرة، وقال السيرافي هي حالة أي متقدماً^(٤).

والصواب إنها استئنافية.

واذا كانا حرفي جر، فمعنى ذلك أنك اخبرت أخباراً واحداً، وجعلت الكلام سرّداً واحداً.

(١) انظر «شرح الرضي» (١٣٢/٢)، «الاشموني» (١٠٧/٢).

(٢) انظر المغني (٣٣٥/١)، «شرح الرضي على الكافية» (١٣٦/٢)، «شرح ابن يعيش» (٤٦/٨).

(٣) «شرح ابن يعيش» (٤٤/٨)، «شرح الرضي» (١٣٧/٢)، «جواهر الأدب» (٢٢٥).

(٤) «شرح الرضي على الكافية» (١٣٧/٢).

ويترجح عندي أنهما اسمان مطلقاً^(١) سواء ورد بعدهما الاسم مجروراً، أم مرفوعاً، وسواء وقع بعدهما اسم أم فعل، وهما مضافان الى ما بعدهما، والله أعلم.

الواو

ونعني بها واو القسم، وهي حرف جر يدخل على الاسماء الظاهرة، نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يَفْعُؤْنَ﴾ [الليل: ١] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ولا يدخل على الضمير، ولا يذكر معه فعل القسم، فلا تقول: أقسم والله كما تقول: أقسم بالله، ولا يتلقى بها القسم الاستعطافي والطلبي، فلا تقول: (والله هل فعلت) ولا (والله لا تفعل) كما في الباء، فانك تقول فيه: (بربك هل فعلت) و(بربك لا تفعل).

المعاني المشتركة

تبين مما تقدم أن هناك معاني مشتركة تؤديها طائفة من حروف الجر، كالتعليل، والظرفية والبديلية، والاستعلاء، وغيرها.

فالتعليل مثلاً يؤدي باللام، و بـ (من) والباء، و (في)، وغيرها.

والظرفية تؤدي بـ (في)، والباء، و(على)، وغيرها، ونحو ذلك.

فهل يكون المعنى المشترك متماثلاً في هذه الاحرف؟ هل التعليل باللام، والباء، و(من) واحد؟ وهل الظرفية بالباء، و(في)، و(على) واحدة؟ وقل مثل ذلك في سائر المعاني. وقد ذكرنا قسمًا من هذه المعاني في مواطنها، وذكرنا فيها رأينا، والآن نذكر أشهر ما بقي منها.

(١) «شرح ابن يعيش» (٤٥/٨).

التعليل:

يؤدّي التعليل باللام كقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] وقوله ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] وقوله ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١٨-١٩].

ويؤدّي بالباء، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وقوله: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

ويؤدّي بـ (من)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الانعام: ١٥١] وقوله ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

ويؤدّي بـ (في)، نحو قوله تعالى: ﴿لَسْتُ كُفِي مَا أَفْضَلُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وقوله (ص) (دخلت امرأة النار في هرة حبستها...) وغير ذلك، فهل معنى التعليل في هذه الاحرف متماثل؟.

الحق أنّه غير متماثل، وإن كان المعنى العام واحدًا، فالتعليل بالباء غيره باللام غيره بـ (من) و(في). فإنّ لكل حرف من حروف التعليل معنى خاصًا، وإن كانت كلها تفيد التعليل، ولذا لا يصح ابدال حرف مكان آخر دومًا، فلا يصح مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠] أن تقول: (واذ استسقى موسى بقومه أو في قومه أو على قومه) لأداء المعنى نفسه، ولا يصح في قوله تعالى ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] أن تقول: (سخرها بكم أو فيكم أو منكم)، ولا يصح في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] أن تقول (والارض وضعها على الأنام أو في الانام أو بالانام أو من الانام) لارادة معنى التعليل، ولو كانت المعاني متماثلة لصح ابدال حرف بآخر.

إنّ التعليل بالباء إنّما هو بمقابل شيء حصل، تقول: (عاقبته بذنبه) فالعقاب مقابل الذنب الذي اقترفه صاحبه، وهو كأنّه عوض عنه أو ثمن له جرى عليه بسببه،

قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨]، فاللعنة مقابل الكفر، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] فالعذاب مقابل كذبهم، وقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٥] أي مقابل ذلك، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. فان ظهور الفساد مقابل ما فعله الناس.

وليست اللام كذلك، فإن اللام تفيد سبب حدوث الفعل، وليست مقابلاً لشيء حصل فأنت تقول: (جئت للاستفادة) فالاستفادة ليست مقابل شيء، وتقول: (أرسلته لاختباره) فلاختبار ليس مقابلاً لشيء، وإنما ذكرت سبب المجيء والارسال، وتقول: (أرسلته لتجربته) و(ارسلته بتجربته) فقد أفادت الاولى أنه ارسله ليجربه، والثانية أرسله لأنه مجرب أي مقابل تجربته التي حدثت قبل إرساله.

إنّ التعليل باللام يختلف عن التعليل بالباء، وذلك إنّ العلة المقترنة بالباء تكون حاصلة قبل حدوث الفعل في الغالب، وإنّ الفعل حصل مقابلاً لها. أما العلة المقترنة باللام فقد تكون حاصلة قبل الفعل، وقد تكون مراداً تحصيلها. قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨]، فاللعن مقابل الكفر، والكفر حاصل قبل اللعن. وتقول: (جئت للاطلاع) فلاطلاع غير حاصل في اثناء المجيء وإنما يطلب تحصيله، وتقول: (جئت لمعالجة فلان) فالمعالجة هي السبب الداعي للمجيء وهي غير حاصلة في اثناء المجيء، بل يراد تحصيلها، وقد يكون السبب موجوداً وهو الدافع للفعل، كقولك (عاقبته لاسأته الى فلان) و(رسب لاهماله) فالأساءة هي سبب العقوبة وهي موجودة قبل العقاب، وكذلك الاهمال.

ولذا لا يصح تعاقب الحرفين دوماً. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] ولا تقول بذكري وقال: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الانسان: ٩]، ولا تقول بوجه الله، وقال: ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الزَّيْتُونَ وَالزَّرْعُ﴾ [النحل: ١١] ولا تقول: (ينبت بكم به الزرع).

إنّ التعليل بالباء يفيد المقابلة، والثنى، بخلاف اللام التي تفيد الاختصاص والاستحقاق.

وأما التعليل بـ (من) ففيه معنى الابتداء، فعندما تقول (قتله من إملاق) يكون المعنى أنّ القتل صدر من الإملاق، وحصل منه فهو مبدأ الفعل، ونحوه: (بكى من الألم) و(عضّ أصبعه من الندم) بمعنى حصل البكاء من الألم وصدر منه، وحصل العض من الندم وصدر منه، فالندم أسبق من العض، ومنه حصل العض، والألم أسبق من البكاء ومنه صدر البكاء، فالعلة بـ (من) أسبق وجوداً من الحدث.

ف (من) التعليلية تفيد الابتداء، والباء تفيد المقابلة، واللام تفيد الاستحقاق والاختصاص.

تبين ممّا سبق أنّ العلة المسبوبة بالباء و(من) موجودة قبل الحدث، أمّا العلة المسبوبة باللام فقد تكون واقعة قبل الحدث، وقد تكون مراداً تحصيلها.

وتبين لنا أنّ التعليل بالباء و(من) مختلفان، فالتعليل بالباء يفيد العوض والمقابلة، وأمّا التعليل بـ (من) فيفيد الابتداء، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ﴾ لا يصح فيه أن نقول باملاق، وقولنا (عضّ أصبعه من الندم) لا يصحّ أن نقول فيه بالندم. وقولنا (قعد من الجبن) لا يصحّ أن نقول فيه قعد بالجبن، لانه ليس مقابلاً للقعود، وإنّما حصل منه القعود ونشأ منه.

قال تعالى ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فما حصل هو مقابل كفرهم.

وقد تحسن معاقبة الباء و(من) في تعبير واحد، وكل على تقدير معنى، فمثلاً قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] المعنى فيه أنّ الماء دخل عليهم من خطيئاتهم، أي جاءهم من هذا المكان، كأن الخطيئات ثغرة دخل منها الماء، فهي للابتداء، ولو قلت: (بخطيئاتهم أغرقوا) لكان المعنى أنّ الغرق مقابل للخطيئات، كأنّهم أدوا ثمن الخطيئات وهو الغرق، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] أي هذا مقابل ذاك، فالصاعقة ثمن الظلم، ولو قال (من ظلمهم) لكان المعنى أنّ الصاعقة جاءتهم من موطن الظلم، فالباء تفيد المقابلة والعوض، و(من) تفيد الابتداء.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وقد تجيء - لا يعني من - للتعليل نحو (لم آتكم من سوء أدبكم) أي من أجله، وكأنها ابتدائية لأن ترك الاتيان حصل من سوء الادب»^(١).

وأما التعليل بـ (على) ففيه معنى الاستعلاء، فإذا قلت: (كافأته على إحسانه) كان المعنى كأنك وضعت المكافأة على الاحسان، وإذا قلت (عاقبته على إساءته) كان المعنى كأنك جعلت العقوبة على الاساءة، أي وضعتها عليها، قال تعالى ﴿وَلْيَكْفُرُوا بِاللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْنٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي يكون التكبير على الهداية، كما تقول (كبر على النصر) جعل النصر شيئاً يكبر عليه، كما يكون التكبير على الذبيحة ونحوها.

وأما (في) فتفيد الظرفية، فقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] معناه أنه جعل العذاب في الإفاضة فكأن هذه الافاضة ظرف في داخله العذاب، ونحوه أن تقول (عذبت في فعلته) فكأن الفعللة فصلت فيها العذاب، وقد تضمنته واحتوته احتواء الظرف على ما في داخله، قال ﷺ: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي اطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض) والمعنى دخلت امرأة النار في هذه الفعللة على معنى أن هذه الفعللة ظرف احتوى المرأة وادخلها النار.

وقد تتعاقب الحروف كلها في تعبير واحد، وكل منها على تقدير معنى، فمثلاً نحن نقول: اخذته الصاعقة لظلمه وبظلمه ومن ظلمه وعلى ظلمه وفي ظلمه، وكل له معنى. فأما اخذته الصاعقة لظلمه، فمعناه أن ظلمه سبب استحقاق العذاب، أي استحق العذاب لهذا.

وأما (بظلمه) فمعناه انه مقابل ظلمه.

وأما (من ظلمه) فكأن الصاعقة أخذته من ذلك المكان، أي جاءته ودخلت عليه من الظلم.

وأما (على ظلمه) فكأن الصاعقة وقعت على ظلمه.

وأما (في ظلمه) فمعناه أن الظلم تضمن الصاعقة واحتواها. والله أعلم.

الظرفية:

تستعمل (في) للظرفية نحو (محمد في الدار) و(الزيت في القارورة) ونحو قوله تعالى: ﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَنٍ﴾ [فصلت: ١٦].

ويستعمل الباء للظرفية، أيضا نحو (ولد بالبصرة)، ونحو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقوله: ﴿مَنْ يَكْلُؤْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وقالوا: قد تستعمل (على) لذلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥] أي في حين غفلة، ونحو قولنا (كان ذلك على عهد الوثاق) و(جمع المصحف على عهد أبي بكر).

فما معنى الظرفية في كل حرف من هذه الاحرف؟ وهل هي ظرفية متمائلة؟

إنَّ ظرفية (في) ظرفية تضمن واحتواء، وظرفية الباء ظرفية ملاصقة واقتران، نقول: (الماء في الحب) و(الزيت في القارورة) ولا نقول (الماء بالحب) ولا (الزيت بالقارورة) لأنَّ الحب يحتوي الماء والقارورة تحتوي الزيت، ونقول (دفن في القبر) لان القبر تضمنته واحتواه. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠] ونقول (كان في السفينة). قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس: ٢٢]، لان الفلك تضمنت من فيها ولا نقول (بالسفينة).

ونقول (أقام بالبصرة) على معنى الملاصقة والاقتران، فإن قلت (اقام فيها) فعل معنى تضمنته واحتوته، وتقول (ذهب في الناس) أي دخل فيهم، فهم احتواه وتضمنوه، ولا نقول: (دخل بهم) على هذا المعنى.

ونقول (أدخلت الخاتم في اصبعي، والقلنسوة في رأسي) ولا نقول (باصبعي) (برأسي). جاء في (الاصول): «واعلم ان العرب تتسع فيها- أي في حروف الجر- فتقيم بعضها مقام بعض اذا تقاربت المعاني، فمن ذلك الباء، تقول: فلان بمكة وفي

مكة، وانما جازا معاً، لأنتك اذا قلت (فلان بموضع كذا وكذا) فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، واذا قلت (في موضع كذا) فقد خبر بـ (في) عن احتوائه إياه وإحاطته به^(١).

فالباء للملاصقة والاقتران، و(في) للاحتواء، قال تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ٢٧٤] وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الانعام: ٦٠] فجاء بالباء لأنّ الانفاق مقترن بوقت الليل والنهار، وكذلك التوفي، بخلاف قوله تعالى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] فانه جاء بـ (في) لارادة التضمّن والاحتواء والدخول، فقد جعل النهار ظرفاً لليل، والليل ظرفاً للنهار كأنه يحتويه، أي يدخل فيه فلما كان كذلك جاء بـ (في) بخلاف ما مرّ فإنّ التوفي لا يدخل في الليل، ولا الانفاق، وانما يقترن الفعل بهذا الوقت، فجاء بالباء لإرادة المصاحبة والاقتران وجاء بـ (في) للتضمّن والاحتواء.

ونقول (نزل بالبر) و(نزل في البر)، فالاولى على معنى انه نزل بقربها كما تقول: أكلنا بالعين وشربنا بها أي أقمنا بقربها، فإن أردت النزول في داخلها فلا تقول الآ (نزل في البر) فالباء للملاصقة و(في) للاحتواء.

ونقول (هو ينفق المال بالليل) و(هو ينفق المال في الليالي الحمراء) فإن معنى الاولى أنّ وقت الانفاق هو الليل، أي يقترن الحدث بهذا الوقت وبصاحبه، وأمّا الثانية فعلى معنى أنه يذهب في الفسوق، فجعل الليالي وعاء يرمي فيه المال.

فـ (في) تفيد الولوج والتضمن، وأمّا الباء فللاقتران والمصاحبة والملاصقة.

وأما (على) فقد جاءت للظرفية في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥] أي في حين غفلة كما يقول النحاة.

والحق انها ليست بمعنى (في) تماماً، فإن ثمة فرقاً بين قولنا (جاءنا على غفلة)، و(جاءنا في غفلة) ألا ترى إننا نقول (هاجمه في وقت الغفلة)، ولا نقول (هاجمه على وقت الغفلة)، ونقول (دخل المدينة في وقت العصر)، ولا نقول (على وقت العصر)؟ ولو كانت بمعناها لصح ذلك.

الذي يبدو أن قولنا (هاجمه في غفلة) معناه أنه هاجمه وهو داخل في الغفلة، وكذلك (جاءه في غفلة) أي جاءه وهو داخل في الغفلة، وإنما كان عليها أي لم تحتوه ولم تتضمنه، فقولك (هاجمه على غفلة) معناه انه انتهز فرصة غفلة عرضت له وهاجمه.

ومثله ما نقوله في الدراجة (جئت على أولها) و(جئت في أولها) و(جئت على أول الصلاة) و(جئت في أولها) فمعنى (جئت في أولها) انك جئت وهم داخلون في أولها، وأما (جئت على أولها) فالمعنى انك استعليت على أولها وشاهدته، فالمجيء أسبق.

وتقول (جئت على حين قتل إسماعيل) و(جئت في حين قتل إسماعيل) فمعنى الأولى إنك جئت مستعياً على الوقت، وشاهدت الفعل، ومعنى الثانية إنك جئت وقد دخلت في هذا الوقت، فالمجيء الأول أسبق، وربما لم تشاهد الفعل في الثانية، ومما يوضح هذا أنك تقول (جئت على سفر محمد) و(جئت في سفر محمد) فمعنى الأولى انك جئت وهو متهيئ للسفر فشاهدت سفره، وأما قولك (جئت في سفر محمد) فمعناه أنك جئت وهو مسافر ولم تشاهده.

وتقول: (دخلت الموصل في حين غرق بغداد) أي دخلتها في هذا الوقت، ولم تشاهد غرق بغداد، وأما (جئت على غرق بغداد) فمعناه انك شاهدته.

فـ (في) تفيد الدخول و(على) تفيد الاستعلاء، وليس معناها الدخول.

وأما قولهم (كان ذلك على عهد فلان) فالظاهر، إنه يختلف عن قولهم، كان ذلك في عهده.

فالذي يبدو أنّ قولهم (كان ذلك على عهده) معناه أنّ الحدث مختص بأمر من أمور الدولة، أو بما هو من شأنها، كأن تقول (جمع المصحف على عهد أبي بكر) و (بنيت البصرة على عهد عمر) و(فتحت عمورية على عهد المعتصم) كأنّ العهد حمل هذه الاعمال، وقام بها، ولا تقول (بنيت داراً على عهد الواصل) ولا (سافرت الى البصرة على عهد المتوكل) لان ذلك ليس من شأن الدولة.

وأما (في) فهي لعموم الظرفية، فتقول (بنيت داراً في زمن المتوكل) و(تزوجت في عهد فلان) و(انتصر الروم على الفرس في عهد الرسول وفي زمن الرسول) لأن الحدث ثم في ذلك الوقت، ولا تقول على عهده لانه لم يفعله وهو ليس من شأن حكومته ﷺ فإنّ عهده لم يتحمل هذه المسألة.

ف (على) للاستعلاء وذلك انها تفيد أن الحكم إضطلع بالامر أو هو من شأنه أن يفعله والله أعلم.

زيادة (ما)

تزداد (ما) بعد طائفة من حروف الجر، وزيادتها على ضربين:

١- كافة عن الجر نحو: ربما سعت الى حتفك وأنت لا تعلم.

٢- غير كافة، نحو قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

ما الكافة:

وتدخل على رب، والكاف، نحو قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] ونحو (كن كما أنت) ونحو قوله:

وأعلم أنني وأبا حميد كما النشوان والرجل الحليم

وقوله:

أخ ماجد لم يخزني يوم مشهد كما سيفُ عمرو لم تخنه مضاربه^(١)

ونحو قوله ﷺ (صلّوا كما رأيتموني أصلي) وهي في الحديث ليست مصدرية «فإنه لم يقع التشبيه بالرؤية، وأنت لو صرحت بالمصدر ههنا، لم يكن كلاماً صحيحاً فإنه لو قيل: صلّوا كرؤيتكم صلاتي، لم يكن مطابقاً للمعنى المقصود»^(٢).

ونحو قوله تعالى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الاعراف: ١٣٨]. قيل: وقد تدخل على (من) والباء نحو (اني مما افعل ذاك) ونحو قوله:

وانا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه تلقى اللسان من الفم
وقوله:

فلئن صرت لا تحير جواباً ليما قد ترى وأنت خطيب
ويحتملان غير ذلك^(٣).

والغرض من زيادة (ما) هذه أن تهتئ الحرف للدخول على مالم يكن يدخل عليه فيدخل على الافعال وعلى الجمل الاسمية، فهي توسع دائرة استعمال الحرف، بعد أن كان منحصراً في دائرة معينة، ف (رب) مثلاً مختصة بالاسماء الظاهرة النكرة، فإذا دخلت عليها (ما) هذه، وسّعت دائرة استعمالها، فأصبحت تدخل على الاسماء الظاهرة والمضمرة، على النكرات والمعارف، على الافعال والاسماء تقول (رب كلمة تهوي بصاحبها في النار) ولا يصح أن نقول (رب الكلمة) ولا (رب تهوي) فإن أدخلت عليها (ما) هذه صح كل ذلك فتقول: (ربما ألفت الكلمة صاحبها في النار) و(ربما الكلمة عادت على صاحبها بالوبال)، قال الشاعر:

(١) المغني (١/١٧٨، ٣٠٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/١٤٤).

(٣) انظر «كتاب سيبويه» (١/٤٧٦)، المغني (١/٣١٠).

ربما الجامل المؤمل فيهم وعناجيج بينهن المهار

فقد وسعت (ما) معنى التقليل والتكثير في (ربّ)، وقد التفت القدامي الى وظيفة (ما) هذه، جاء في (تفسير الرازي): والنحويون يسمّون (ما) هذه الكافة يريدون انها بدخولها كَفَّت الحرف عن العمل الذي كان له، واذا حصل هذا الكف فحيثذ تنهياً للدخول على ما لم تكن تدخل عليه، ألا ترى أنّ (ربّ) انما تدخل على الاسم المفرد نحو (رب رجل يقول ذاك) ولا تدخل على الفعل فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية^(١)، يعني قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢].

وجاء في (لسان العرب): والفرق بين (ربّما) و(ربّ) أن (ربّ) لا يليه غير الاسم، وأما (ربّما) فانه زيدت ما مع (ربّ) ليلها الفعل، تقول (ربّ رجل جاءني) و(ربّما جاءني زيد) و(ربّ يوم بكرت فيه) و(ربّ خمرة شربتها) ويقال (ربّما جاءني فلان) و(ربّما حضرني زيد)^(٢).

وجاء في (شرح الكافية) للرضي: «واما (ما) التي بعد (ربّ)... فهي تكفيها عن العمل فلا تطلب متعلقا... وتبقى (ربّ) للتقليل، أي لتقليل النسبة التي في الجملة الواقعة بعدها»^(٣).

ومثلها الكاف، فإنّ الكاف لتشبيه مفرد بمفرد ظاهر، فتقول (هو كالبحر) (وهي كاللؤلؤة) ولا تدخل على المضمّر، ولا على فعل، فإنّ جئت بـ (ما) اتسع التشبيه بها، وصارت تدخل على الظاهر والمضمّر، وعلى الاسماء والافعال، وتستعمل لتشبيه مفرد بمفرد، ولتشبيه مضمون جملة بأخرى^(٤) وذلك نحو (كن كما أنت) فقد دخلت على

(١) التفسير الكبير (١٥٢/١٩) وانظر المغني (١/١٣٧)، «جواهر الادب» (٢١٩)، «بدائع الفوائد» (١٤٤/١).

(٢) «لسان العرب» (٣٩٣/١).

(٣) «شرح الرضي» (٣٨١-٣٨٢/٢).

(٤) «أنظر شرح الرضي» (٣٨١/٢).

الضمير، ونحو (كما تكونون يولّى عليكم) و(صلوا كما رأيتموني أصلي) ﴿وَجَعَلْنَا لَهَا نُفُسًا كَمَا هُمْ لِإِلَهِهِمْ﴾ [الاعراف: ١٣٨] فقد وسّعت (ما) دائرة التشبيه بالكاف.

وقيل إنّ (كما) تفيد التشبيه والمماثلة الحقيقية، بخلاف (كأنّ) تقول: (اضربه كما ضربك) والمعنى اضربه ضرباً مماثلاً لضربه لك، بخلاف قولك (اضربه كأنّ قد ضربك) فانه لا يفيد أنّه ضربك، وتقول (إمدحه كما مدحك) والمعنى إمدحه مدحاً مماثلاً لمدحه لك، والمعنى أنّه مدحك. ولو قلت (امدحه كأنّه مدحك) لكان المعنى أنّه لم يمدحك. جاء في (التطور النحوي): «وكانّ وكانّ تفيدان فرض كون الشيء غير ما هو عليه في الحقيقة، و(كما) تفيد التشبيه والتمثيل الحقيقي، مثال ذلك ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلٌّ﴾ [الاعراف: ١٧١] والجبل لم يكن ظلة أو مثل ظلة، بل كان ضدها في المتانة والرسو، والمعنى لو كان الجبل كظلة، لكان نتقه، ورفع، وزلزله قريباً من الاحتمال فلأنّه لم يكن كظلة، كان نتقه من المعجزات.

و(كما) مثل (آمنا كما آمن الناس) يعني إيماننا مثل إيمانهم^(١). وذكروا (كما) معاني أخرى غير هذه منها:

المبادرة نحو (سلم كما تدخل) أي بادر الدخول بالسلام، ونحو: (صلّ كما يدخل الوقت)، بمعنى بادر بالصلاة عند دخول الوقت.

ومنها أن تكون بمعنى قران الفعلين في الوجود نحو قولك: (كما قام زيد قعد عمرو) فقد اقترن الفعلان في الوجود وفيها معنى المبادرة.

قالوا: وقد تكون بمعنى (لعل) نحو (انتظرني كما آتيك) أي: لعلما آتيك. قال رؤية: (لا تشتم الناس كما لا تشتم) فيكون قد تغير معنى الكلمة بالتركيب^(٢).

(١) «التطور النحوي» (١٢٧).

(٢) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٣٨١)، المغني (١/ ١٧٩).

ويحتمل أن يكون معنى قول رؤية (لا تشتم الناس كما لاتحب أن تشتم) وعلى اية حال فوظيفة (ما) هذه توسيع دائرة الاستعمال، سواء أكانت مع حروف الجر أم مع غيرها، وذلك كما في الاحرف المشبهة بالفعل، فانها اذا دخلت عليها (وما) هذه وسّعت استعمالها فصارت تدخل على الافعال والاسماء، بعد أن كانت مختصة بالدخول على الاسماء، وكما في (بعد) و(بين) فهما مختصتان بالاضافة الى الاسماء، فاذا دخلت عليهما (ما) هذه صح دخولها عن الجمل الفعلية والاسمية، تقول (بعد ما كان ملكا اصبح سوقة) قال الشاعر:

أعلاقة أم الوليد بعدما افنان رأسك كالثغام المخلص
وقيل (ما) مصدرية، ونحوه:

بينما نحن بالأراك معا اذ أتى راكب على جملة
وتقول: (بينما كنت سائرا، اذ طلع علي رجل مهيب الطلعة).

وكما في (طال) و(كثر) و(قل) فهي مختصة بالاسماء، تقول (طال السفر وقلّ الزاد) فان دخلت عليها (ما) هيأتها للدخول على الافعال، تقول (طالما اجتمعنا وقلّما اتفقتنا).
وقيل هي مصدرية^(١).

ما غير الكافة:

تراد (ما) غير كافة بعد طائفة من حروف الجر، وذلك بعد (من) و(عن) والباء و(رب) والكاف فيبقى لها اختصاصها، كما كان وذلك نحو قوله تعالى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصِِحْنَ نَذِيرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وقوله ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ يَمِثُّهُمْ لَعْنُهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله: ﴿يَمَّا خَطَّيْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَاذْخُلُوا تَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وقول الشاعر:

ريما ضربة بسيف صقيل بين بصري وطعنة نجلاء

(١) انظر «شرح الرضي» (٢/٣٨٢)، المغني (١/٣١١).

وقوله:

ماوَيَّ يَارَبِّمَا غَارَةً شعواء كاللذعة بالميسم

وقوله:

وننصر مولانا ونعلم أنه كما الناس مجرومٌ عليه وجارمٌ^(١)

وهي في هذا الموطن مؤكدة، قال تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ فأكد أنه بعد قليل سيندمون، ألا ترى كيف قرن نون التوكيد معها لزيادة التوكيد كما قرنها معها في غير هذا الموطن، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] فجمع بين (ما) ونون التوكيد لزيادة التوكيد وكما يجمع بين اللام و(ان) نحو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ أَلْعَابٍ وَإِنَّكُمْ لَفُغُورٌ رَجِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وكما يجمع بين القسم و(إن) لزيادة التوكيد نحو (والله انك لمؤتمن)، قال سيويه: وأما قوله عز وجل: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ فانما جاء لانه ليس (ما) معنى سوى ما كان قبل أن تجيء به إلا التوكيد، ثمن ثم جاء ذلك اذا لم ترد به اكثر من هذا^(٢).

وجاء في (لسان العرب): وتجيء (ما) صلة يريد بها التوكيد كقول الله عز وجل ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ المعنى: فبنقضهم ميثاقهم.. وقال ابن الأنباري في قوله عز وجل (عمل قليل ليصبح نادمين) قال يجوز ان يكون معناه: عن قليل و(ما) توكيد، ويجوز أن يكون المعنى: عن شيء قليل وعن وقت قليل فيصبر (ما) اسما غير توكيد^(٣).

وهي تفيد التوكيد ايضاً اذا زيدت في غير هذا الموطن، وذلك نحو ما ذكرنا من زيادتها بعد أدوات الشرط نحو ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَتِي مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الاسراء: ٢٨]

(١) «شرح ابن عقيل» (٢٣٤/١)، جواهر الادب (٢٢٠)، «شرح الرضي على الكافية ٣٦٨/٢.

(٢) «كتاب سيويه» (٩٢/١).

(٣) لسان العرب (٣٦٣/٢٠) وانظر المغني (٣١٦/١)، «شرح ابن يعيش» (٣٠/٨).

ولذلك يكثر وصل نون التوكيد بالفعل بعدها، ونحو: ﴿أَيُّمَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الاسراء: ١١٠] وكزيادتها بعد الاحرف المشبهة بالفعل، اذا لم تكن كافة نحو (ليتما محمد معنا)، جاء في (كتاب سيبويه): وتكون توكيداً لغوياً وذلك قوله (متى ما تأتني آتاك)، وقولك (غضبت من غير ما جرم) وقال عز وجل: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ فهي لغو في انها لم تحدث اذا جاءت شيئاً، لم يكن قبل أن تجيء من العمل وهي توكيد للكلام^(١).

وذهب الزمخشري في (الكشاف) الى أنها تفيد القصر زيادة على معنى التوكيد فقد جاء فيه في قوله تعالى ﴿فِيمَا رَحِمَهُم مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ لَآتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ما: مزيدة للتوكيد والدلالة على ان لينة لهم ما كان الآ برحمة الله ونحوه (فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم)^(٢).

وجاء فيه في قوله تعالى: ﴿يَمَّا خَطَّيْنَاهُمْ أَغْرَقُوا﴾ [نوح: ٢٥]: «ليبان ان لم يكن اغراقهم بالطوفان فادخالهم النار الا من أجل خطيئاتهم وأكد هذا المعنى بزيادة (ما)^(٣).

وذهب هذا المذهب جماعة، منهم ابن القيم، فقد جاء في (بدائع الفوائد): «قول (فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم) أي ما لعناهم الآ بنقضهم ميثاقهم، ونحو (فيما رحمة من الله لنت لهم) أي: ما لنت لهم الآ برحمة من الله. ولا تسمع قول من يقول من النحاة ان (ما) زائدة في هذا الموضع فإنه صادر عن عدم تأمل...»

فاذا عرفت أن زيادتها مع (إن) واتصالها بها اقتضى هذا النفي والايجاب، فانقل هذا المعنى الى اتصالها بحرف الجر مع قوله تعالى ﴿فِيمَا رَحِمَهُم مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ لَآتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ و(فيما نقضهم ميثاقهم) وتأمل كيف تجد الفرق بين هذا التركيب، وبين أن يقال (برحمة من الله)

(١) «كتاب سيبويه» (٢/٣٠٥).

(٢) الكشاف (١/٣٥٧) وانظر (١/٤٣٥).

(٣) الكشاف ٢٣٧/٣.

و(بنقضهم ميثاقهم) وأنت تفهم من تركيب الآية: ما لنت لهم إلا برحمة من الله، وما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم^(١).

والحق أنها لا تفيد القصر هنا، بل هي مؤكدة، أما معنى القصر الذي ذكر فهو متأت من التقديم، لا من زيادة (ما). قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] فقدّم نقض الميثاق والكفر بآيات الله، وقتل الانبياء لافادة الحصر، والتقديم يفيد القصر، كما مرّ في كثير من المواطن.

أما (ما) فهي للتوكيد وناسب زيادتها ههنا أنّ الكلام قبل هذه الآية على الميثاق. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٤-١٥٥] فلما تقدم الكلام على الميثاق، وأخذ الميثاق الغليظ منهم، ناسب ذلك زيادة (ما) لتوكيد النقص، كما ناسب تقديمه على بقية الاسباب للاهتمام به في هذا المواطن.

ونحوها قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣] فالقصر متأت من التقديم لا من (ما)، أما (ما) فهي للتوكيد، وناسب زيادتها أنّ السياق هو في الكلام على الميثاق كآية النساء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّهُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٢-١٤].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٠-١٥١).

فالكلام، كما ترى، على الميثاق، فناسب ذلك زيادة (ما) لتوكيد نقض الميثاق، وكذا الكلام في آية نوح، وهو قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] فَإِنَّ الْقَصْر فِيهَا مَتَاتٌ مِنَ التَّقْدِيمِ.

أما ما قاله ابن القيم فيمن قال من النحاة إنها زائدة فغلو عليهم، فهم لا يقولون بأنها زائدة لا فائدة منها، وإنما يقولون هي زائدة مؤكدة، فهي واردة لتأدية معنى، لا لغير معنى.

وأما ما ذكره من أنها نظيرة (أَنَّ) فَإِنَّ زِيَادَتَهَا مَعَ إِنَّ اقْتَضَى مَعْنَى النَفْيِ وَالْإِجَابِ - يعني القصر - فانقل هذا المعنى الى اتصالها بحرف الجر، فهذا مردود بأن التي تفيد القصر هي الكافة فقط، أما غير الكافة فلا تفيده.

ويؤيد ما ذهبنا اليه في أَنَّ (ما) غير الكافة المزيدة بعد حروف الجر، لا تفيد القصر بل التوكيد.

١- إِنَّ (ما) اذا زيدت غير كافة في الاحرف المشبهة بالفعل، كانت مؤكدة نحو (انما محمداً قائم) واذا زيدت كافة فهي للقصر، وللهيئة للدخول على ما لم تكن تدخل عليه. جاء في (شرح ابن يعيش): وقيل (انما) زيدا منطلق) فيجوز في (أَنَّ) لإعمال والإلغاء فمن ألغى ورفع، وقال (انما زيداً منطلق) كانت (ما) كافة، . . . ومن أعملها وقال (انما زيدا منطلق) كانت ملغاة والمراد بها التأكيد^(١).

٢- إِنَّ (ما) غير الكافة الداخلة على الشرط أو غيره لا تفيد معنى القصر، وذلك نحو (واما تخافن من قوم خيانة)، ونحو (غضبت من غير ما جرم) بل تفيد التوكيد.

٣- ليس هناك نصوص تقطع بأنَّ غير الكافة تفيد القصر مع حروف الجر، بل الأولى أن تكون الكافة المزيدة بعد أحرف الجر هي التي تفيد القصر، اذا احتمل المعنى ذلك نظيرة (أَنَّ)، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] فهو يحتمل أَنَّ المعنى: لا يود الذين كفروا كثيرا إلا هذا الامر.

ولا يقال ان (رب) متقدمة فأفادت القصر، اذ هي ليس لها متعلق فتتقدم عليه، فلا يفيد تقديمها القصر، بل أفادته مع (ما).

وكقوله ﷺ: (صلّوا كما رأيتموني أصلي) اذ يحتمل أنّ المعنى لا تصلّوا إلاّ كصلاتي فأفادت، (ما) الكافة القصر.

تبين من هذا أنّ (ما) تزداد على ضربين:

١- كافة، والغرض منها توسيع دائرة الاستعمال، وقد تكون للقصر اذا احتمل المعنى ذلك.

٢- غير الكافة وهي للتوكيد.

التقديم والتأخير

إنّ اغراض تقديم الجار والمجرور لا تكاد تختلف عن غيرها من اغراض تقديم المفعول والحال، والظرف ونحوها، ومدار الامر في ذلك هو العناية والاهتمام.

إنّ مواطن العناية والاهتمام متعددة كما سبق أنّ ذكرنا في أكثر من موطن، ومن ذلك:

الحصر والاختصاص، وهو أشهر الاغراض، وأكثرها دوراً حتى حصر بعضهم التقديم بهذا الغرض، جاء في (الاتقان): «كاد أهل البيان يطبقون على أنّ تقديم المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو مجروراً، ولهذا قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ومعناه نخصك بالعبادة والاستعانة، وفي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعْبُدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨] معناه اليه لا الى غيره»^(١).

والحق أنّ التقديم يفيد الحصر كثيراً، وقد يفيد غيره.

ومما يفيد القصر قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. أي ليخصوا ربهم وحده بالتوكل^(١). فانه لا يصح التوكل على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٦] فقدم الجار والمجرور في (له يسجدون) للقصر، أي يخصصونه بالعبادة لا يشركون به أحدا^(٢).

وكقوله تعالى ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الامور اليه دون غيره، ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فنحن نرجع اليه لا الى غيره، وكقوله ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧] فانه مختص بعلم الساعة، واليه يرد علمها لا الى غيره، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤] فقدم (لكم) للاختصاص اذ قال لهم ان كانت لكم الدار الآخرة خالصة لكم وحدكم لا يشارككم فيها كما تزعمون فتمنوا الموت.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] و﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، فانه آخر (به) عن (أمنّا) فقال (أمنّا به) وقد (عليه) على (توكلنا) فقال (وعليه توكلنا) وذلك ان الموطن الاول ليس موطن قصر، فالإيمان لا يقتصر على الإيمان بالله، بل يكون به وبملائكته وبكتبه ورسله وباليوم الآخر وغير ذلك، ولذا لم يقدّم (به)، ولو قدمه لأفاد القصر ولكان المعنى لا يؤمنون إلا به، وقدم الجار والمجرور في (وعليه توكلنا) لأن التوكل لا يكون إلا عليه كما قال في موطن آخر (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

(١) انظر الكشاف (١/٣٥٨).

(٢) انظر الكشاف (١/٥٩٤).

(٣) الطراز (٢/٧٠-٧١).

فأخر وقدّم بحسب المعنى جاء في (البرهان) في هذه الآية: (فإنّ الايمان لما لم يكن منحصراً في الايمان بالله بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر مما يتوقف صحة الايمان عليه بخلاف التوكل فانه لا يكون الا على الله وحده، لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضرراً ولا نفعاً فيتوكل عليه^(١)).

وقد يكون التقديم لغير القصر، بل للتعظيم، أو للتحقير، أو لتعجيل المسرة والمساءة، وغير ذلك من ضروب الاهتمام، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠] فهذا لا يفيد القصر لأنّ الله خبير بما نعمل، وبغير ذلك أيضاً، ولا تختص خبرته بعملنا، بل أنّ خبرته مطلقة لا يحدها شيء ولكن لما كان الكلام علينا وعلى اعمالنا قدمها لترتدع ونحذر، ومثله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وهذا التقديم لا يفيد القصر ايضاً لأنّ رقابة الله لا تختص بنا، فهو رقيب على كل شيء، قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الاحزاب: ٥٢]، ولكن لما كان الامر يتعلق بأعمالنا قدّم (عليكم) للتحذير والتخويف.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] فقدم الجار والمجرور على الفعل وهذا التقديم لا يفيد القصر أيضاً، وذلك لأنّ المحافظة لا تقتصر على الصلاة بل هي لعموم حدود الله وفرائضه، قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] ولكنه قدّم الصلاة لتعظيم أمرها.

ومثله قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الانبياء: ٣٢] واعراضهم لا يختص بآيات السماء، بل هم معرضون عن آيات الارض والسماء. قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] ولكن لما تقدّم الكلام على السماء، خصّ آياتها بالذكر، فقال (وهم عن آياتها معرضون) فقدم الجار والمجرور للتعظيم.

(١) «البرهان» (٢/ ٤١٤)، وانظر التفسير الكبير (٣٠/ ٧٦).

وقد يكون التقديم والتأخير لأداء معنى لا يفهم بدونه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] فانه قدّم (من آل فرعون) على الفعل (يكتّم) لافادة أن هذا الرجل هو من آل فرعون، ولو اخره وقال (وقال رجل مؤمن يكتّم ايمانه من آل فرعون) لما فهم أنه منهم^(١)، بل لاحتمل المعنى أنّ هذا الرجل يكتّم ايمانه من آل فرعون، أي يخفيه عنهم، والمعنى الاول هو المطلوب.

ونحو ذلك قوله تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَبْقُومُ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] وقوله ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَبْقُومُ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٢٠] فانه قدّم (من اقصى المدينة) على (رجل) في آية يس واورها في آية القصص وذلك لان المعنى مختلف فمعنى قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ ان هذا الرجل جاء ساعياً من اقصى المدينة، فالمجيء كان من اقصى المدينة.

اما في آية القصص، فالمعنى أنّ الرجل كان مسكنه في اقصى المدينة، كما تقول (تكلم رجل من اعلى القوم او من ادناهم) فليس المقصود انه كان جالساً في الاعلى، وتكلم من هناك، وانما المعنى انه من عليّة القوم فهو صفة وكذلك الآية.

جاء في (درة التنزيل): «واما الآية الاولى من سورة القصص [يعني قوله: وجاء رجل من اقصى المدينة] فان المراد جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه فاعلمه ما فيه الكفار من ائثارهم به^(٢). ويحتمل ايضاً المعنى الاول فهو تعبير احتمالي.

ونحو هذا أنّ تقول (قدم من القرية رجل) و(قدم رجل من القرية) فمعنى الاولى أنّ قدومه كان من القرية، وأما الثانية فتحتمل هذا المعنى وتحتمل أنّ الرجل قروي، أي هو من أهل القرية، وربما لم يكن قدومه هذا من القرية.

(١) انظر درة التنزيل (٣٩٠).

(٢) درة التنزيل (٣٩٠).

فاذا كان الكلام منفيًا كان تقديم المجرور يفيد نفي وقوع الحدث على المتقدم، وإثباته لغيره، تقول (ما ذهبت الى سعيد) و(ما الى سعيد ذهبت) فالاولى تفيد انك نفيت الذهاب الى سعيد، ولم تفد انك ذهبت الى غيره، وربما كنت ذهبت اولم تكن، أما في الثانية فانك نفيت الذهاب الى سعيد وإثبتته الى غيره، أي اذهب الى سعيد وإنما الى غيره ولذا يصح أن تقول: (ما ذهبت الى سعيد ولا الى غيره)، ولا يصح أن تقول (ما الى سعيد ذهبت ولا الى غيره) لانه تناقض، لان قولك (ما الى سعيد ذهبت) معناه أنك ذهبت الى غيره فكيف تقول: ولا الى غيره؟ جاء في (نهاية الايجاز): «فاذا قلت (ما امرتك بهذا) فقد نفيت عن نفسك امره بذلك، ولم يجب ان تكون قد امرته بشيء آخر، واذا قلت (ما بهذا امرتك) كنت قد امرته بشيء غيره»^(١).

اما تقديم الجار والمجرور على غير متعلقة فللعناية والاهتمام أيضاً، وهذا الامر جار في عموم رصف الكلمات، فأنت بما قدّمته أعنى، وتدرج العناية والاهتمام مع الكلمات تدرجاً تنازلياً فما قدمته، أولاً هو أهم، وهكذا الى آخرها ذكراً، فقولك (ذهب الى المسجد خالد) يفيد أن العناية بالجار والمجرور اكثر من قولك (ذهب خالد الى المسجد) قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١] فقدّم الجار والمجرور (في قلوب) على المفعول به (الرعب) وذلك لأنّ الأهم في هذا الموطن مكان الرعب، لا الرعب نفسه، إذ المهم أن تمتلئ قلوب الكافرين بالرعب وليس المهم أن يوضع الرعب في مكان آخر.

ثم أنّ الاهمية والعناية يحددها المقام، فقد تكون العناية في مقام تقتضي تقديم لفظ ما وقد تقتضي في مقام آخر تأخير ما قدّمته، وذلك نحو: (مررت بخالد على القائد) و(مررت على القائد بخالد) فالاهتمام بخالد في الجملة الاولى أكبر، وفي الثانية بالعكس وذلك كأنّ يكون الموطن في الاولى الاهتمام بأمر خالد وليس الدخول على القائد، والثانية بالعكس. قال تعالى:

(١) نهاية الايجاز (١٢٢).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾
[آل عمران: ١٢٦].

وقال ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

فقدّم (القلوب) على الجار والمجرور في آل عمران، فقال (ولتطمئن قلوبكم به) وأخبرها عنه في الأنفال، فقال (ولتطمئن به قلوبكم) مع ألّ الكلام على معركة بدر في الوطنين، غير أن الموقف مختلف.

ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد، وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب، وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَذَلِكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠] الى غير ذلك من آيات المواساة والتصبير، فقال في هذا الموطن ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فذكر ان البشري (لهم) وقدّم (قلوبهم) على الامداد بالملائكة فقال: ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ ﴾ كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة، ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الامداد السماوي في هذا النصر، وقد فصل في ذلك اكثر مما ذكر في آل عمران، فقال ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يَغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي قُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ٩-١٢].

أقول لما كان المقام مختلفاً خالف في السياق.

انه لما كان المقام في الانفال مقام الانتصار وابرار دور الامداد الرباني، قدّم (به) على القلوب والضمير يعود على الامداد، ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الامداد فقال (ولتطمئن قلوبكم به) وزاد كلمة (لكم) فقال (وما جعله الله إلا بشري لكم) زيادة في المواساة والمسح على القلوب، فجعل كلا في مقامه.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

وقوله ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الانعام: ١٤٥].

فقد قال في آية البقرة (وما أهل به لغير الله) فقدّم (به) على (لغير الله)، ومعنى (ما أهل به) ما رفع الصوت بذبحه وهو البهيمة، وقال في آيتي المائدة والانعام (وما أهل لغير الله به) فقدّم (لغير الله) على (ربه) وذلك أنّ المقام في آية الانعام كان في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس باسم الله، وهم يفترون عليه فقال ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرَأٍ مِنْ الْحَبْزِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى الْوَلَدِ هُمْ أَهْلُ مَا يَحْكُمُونَ وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُذْهِبُوهُمْ وَيَلْجَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامُنَا وَحَرَّتْ حَبْرُهَا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٣٨].

الى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تحلل وتحرم مفترية على الله وذوات يزعمون أنها شركاء لله، تعبد معه، ونصيبها اكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدّم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال (أو فسقاً أهل لغير الله به) لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة ايضاً على التحليل والتحريم، ومن بيده ذلك ورفض اية جهة تحلل وتحرم من غير الله، فإن الله هو يحكم ما يريد قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مُحِلُّوا سَعَتِ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمُ وَالْأَرْجُلُ الْمَشْرُورَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١-٤﴾ [المائدة: ١-٤].

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض أية جهة أخرى تقوم بذلك، لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الاسلام، ولذا قدّمه في البطلان فقال (وما أهل لغير الله به).

ثم انه جاء في المواطنين بذكر اسم الله على الذبائح، فذكر في آية الانعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً، فقال ﴿وَأَنْعَمُوا لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله، فقال: (واذكروا اسم الله عليه) فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

واما في آية البقرة فليس المقام كذلك، فلم يذكر أَنَّ ثَمَّةَ جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحرير، وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وقال بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ بِهِ لِعِمَارِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣].

فلَمَّا كان المقام الرزق والطعام والامر بأكل الطيبات قَدَمَ (به) والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام، والله أعلم.

تعلق الجار والمجرور

يرى النحاة أن الجار والمجرور ومثله الظرف لا بد أن يتعلق بفعل، أو بما يشبه الفعل، أو ما هو بمعناه، فالمتعلق بالفعل نحو (سرت في الطريق) وشبه الفعل نحو (أنا سائر في الطريق) فهو متعلق باسم الفاعل وهو شبيه بالفعل، ومثله اسم المفعول وبقية المشتقات والمصدر، وما هو بمعنى الفعل نحو (أين أنت مني؟) لان معنى (أين أنت) بعدت^(١)، ونحو (هو اسد في المعركة) أي شجاع و(هو فرعون على قومه) أي ظالم، وكقوله:

وان لسانى شهدة يشتفى بها وهو على من صبه الله علقم

ف (على) متعلقة بعلقم لتأوله بصعب أو شاق، أو شديد.

ومثال تعلق الظرف بالفعل (جلست بينكم) وتعلقه بشبهه، نحو (أنا متحدث معكم)، ومثال تعلقه بما هو بمعناه قوله:

انا ابو المنهال بعض الاحيان

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٣٥٥/٢).

وقوله:

أنا ابن مآوية اذ جدّ النقر وجاءت الخيل اثافي زُمر

فتعلق (بعض) و(اذ) بالاسمين العلمين، لما فيهما من معنى، قولك الشجاع أو الجواد^(١).

فإن لم يكن في الجملة ما يصح تعلقه به، قدر له متعلق مناسب، نحو (هو في الدار) أي كائن في الدار، ونحو (النفس بالنفس، والسن بالسن) أي النفس مقتولة بالنفس، والسن مقلوعة بالسن، ونحو (من لي بهذا؟) أي (من يتكفل لي بهذا؟).

ومعنى التعلق الارتباط، ويكون التعلق بما فيه صحة المعنى^(٢)، فقولك مثلاً (شبهت خالداً وهو يوجد بماله بالبحر) يكون فيه (بالبحر) متعلقاً- أي مُرتبطاً- بشبهت لا يوجد، اذ لو علقت به وجود لصار المعنى (يوجد بالبحر) وهو فاسد. وإذا علقت به شبهت كان المعنى: شبهته بالبحر.

وأما (بماله) فهو مرتبط بوجود لا بشبهت، لأن المعنى: يوجد بماله اذ لو علقت به شبهت لكان المعنى (شبهت خالداً بماله) وهو فاسد.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] ف (بأموالهم) متعلق بالمجاهدين، لا بفضل و(على القاعدين) متعلق بـ (فضل).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فارتباط (من دينكم) ببس لا بـ (كفروا) لأن المعنى يكون على هذا (كفروا من دينكم) ولا معنى له والمراد يسوا من دينكم.

(١) انظر المعني (٢/٤٣٣-٤٣٥).

(٢) عند النحاة أمور لفظية تمنع من التعلق بالمذكور كان المعنى يقتضيه، فيقدرون له متعلقاً محذوفاً وذلك نحو ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] فلا يعلقون (لك) بـ (الناصحين) وإن كان المعنى يقتضيه إذ المعنى اني من الناصحين لك لوجود (ال) الموصولة الداخلة على اسم الفاعل فهم يقدرون له محذوفاً يفسره المذكور، أي (اني من الناصحين لك من الناصحين)، وهذا الامر لا يعيننا في هذا الموطن وإن كنا لا نقول به، ولا نراه، فنحن نبحت الآن في معنى التعلق وحقيقته.

ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [ابراهيم: ١٨] ف (على شيء) مرتبط ب (يقدرُونَ) لا ب (كسبوا) لان المعنى يكون على هذا (كسبوا على شيء) وهو فاسد، وإنما المعنى لا يقدرُونَ على شيء.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١] فتعلق (لامرأته) ب (قال) لا ب (اشتراه) لانه يكون المعنى على هذا (اشتراه لامرأته) وهو غير مراد، ويبقى المقول له بعد ذلك مجهولاً.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فلا يصح تعلق (ليلة الصيام) ب (أحل) لأنه يكون المعنى أن الرفث أحل ليلة الصيام، أي نزل تحليله في ليلة الصيام وليس المعنى على ذلك، وإنما المقصود أن الرفث حلال في ليلة الصيام، فهو متعلق بالرفث محذوفاً أو مذكوراً، فإن النحاة يقدرونه محذوفاً، ذلك لأن المصدر (الرفث) يصح تقديره بأن والفعل، أي (أن ترفثوا) وهذا النوع من المصدر لا يتقدم عليه معموله عندهم، وانا لا أرى مانعاً من تعليقه بالمذكور.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] فلا يصح تعليق (يوم القيامة) بغل أو (بيغلل) لأن المعنى يكون على ذلك (غل يوم القيامة) وليس في يوم القيامة غلول بل هو قبله، وإنما هو متعلق ب (يأت)، أي: يأت به يوم القيامة.

ومثله قوله تعالى: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فلا يصح تعلق (يوم القيامة) ببخلوا، لأن المعنى يكون عند ذلك أنهم بخلوا يوم القيامة وهم لم يبخلوا يوم القيامة، وإنما بخلوا في الدنيا فهو مرتبط ب (سيطوفون).

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] اذا ربطت فيه (على استحياء) بتمشي، وهو الظاهر، كان المعنى انها تمشي على استحياء، واذا ربطته ب (قالت) المتأخر كان المعنى أن القول على استحياء أي (على استحياء قالت).

فأنت ترى أنَّ المعنى يتغير بحسب تقدير الارتباط .

ثم ان التعلق أو الارتباط ليس مختصاً بالجار والمجرور والظرف، وأن كان النحاة لا يذكرونه في غيرهما، بل هو جار في كثير من التعبيرات في الجملة العربية، لأنه لابد من ارتباط بين الكلمات أحياناً ليتضح المعنى المقصود.

ومثال التعلق أو الارتباط في غير الظرف والجار والمجرور، قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢] ف (سراً وعلانية) مفعولان مطلقان أو حالان، وهما متعلقان بأنفقوا، لا يرزقناهم لأنَّ المعنى على ذلك يكون رزقناهم سراً وعلانية، وليس هو المراد، بل المراد أنهم ينفقون سرا وعلانية.

والنحاة يسمّون هذا المتعلق به، عاملاً فيقولون أنَّ العامل في (سرا وعلانية) هو (ينفقون).

ونحوه قوله تعالى ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩] فكرهاً مفعول مطلق أو حال، وهذا المصدر بـ (ترثوا) لا يأمّوا، لأنَّ المعنى يكون على ذلك (يا أيها الذين آمنوا كرهاً لا يحل لكم أن ترثوا النساء) ولا بقوله (يحل) لان المعنى سيكون: لا يحل لكم كارهين أن ترثوا النساء. ومقتضى هذا الامر أنهم اذا لم يكونوا كارهين جاز لهم ذلك. ذلك لان (كرها) سيكون حالاً للمجرور وهذا المعنى فاسد.

ونحوه أن تقول (ما للذي أساء إلينا نائماً بيننا؟) فلا يصح تعلق (نائما) وهو حال بـ (أساء) لان المعنى سيكون (أساء نائماً) أي أساء وهو في حال نومه، وانما متعلق بمحذوف أي ما حصل له نائماً؟.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوا إِلَّا الظَّلَمَ﴾ [يونس: ٦٦] فشركاء مفعول به، وهو مرتبط بـ (يتبع) أي: مفعول لهذا الفعل أو معمول له، كما يقول النحاة لأنَّ المعنى أنهم لم يتبعوا شركاء في الحقيقة،

ولا يصح ربطه بـ (يدعون) لأنّ الكلام على ذلك لا يتم، لانه سيكون (وما يتبع الذين يدعون شركاء) ولا ندري النفي عن أي شيء ولا ما يتبعون.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَأَثَرٌ بِأَهْلِكَ يَقُطِعُ مِنَ الْقَيْلِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ [هود: ٨١] فامرأتك مستثنى يحتمل تعلقه بـ (أسر) فيكون المعنى: فأسر بأهلك إلا امرأتك، وامرأتك، ويحتمل تعلقه بـ (يلتفت) فيكون المعنى (ولا يلتفت منكم أحداً إلا امرأتك)، وعلى هذا تكون مُسرى بها معهم، ولكنها تلتفت، والراجع عندي الاول، والله أعلم.

ومثل هذا أن تقول (ذهب الطلاب الى المكتبة واستعاروا كتباً إلا خالداً) فإنك اذا علقت المستثنى بـ (ذهب) كان المعنى: ذهب الطلاب الى المكتبة إلا خالداً فهو لم يذهب، وإذا علقت بـ (استعاروا) كان المعنى: إنّ خالداً ذهب معهم الى المكتبة ولكنه لم يستعِر كتاباً.

فالتعلق هو الارتباط المعنوي، سواء كان ذلك في الجار والمجرور والظرف، أم في غيرهما مما يقتضى الارتباط.

الاضافة

معنى الاضافة:

الاضافة نسبة اسم الى اسم آخر، واسناده اليه نحو: غلام هند، وكتاب خالد^(١). وقد استقر الأمر مؤخراً عند النحاة على أن الاضافة، أما أن تكون بمعنى اللام، نحو: (دار سالم) و(مال محمد) أي دار لسالم، ومال لمحمد، او تكون بمعنى (من) وذلك إذا كان المضاف إليه جنساً للمضاف، نحو (ثوب صوف) و(خاتم ذهب) أي ثوب من صوف وخاتم من ذهب، او تكون بمعنى (في) وذلك إذا كان المضاف إليه ظرفاً واقعاً فيه

(١) الاضافة عند النحاة اسناد اسم الى اسم اخر على تنزيل الثاني من الاول منزلة تنوينه، أو ما يقوم مقام تنوينه.

المضاف، نحو (شهيد الدار) أي في الدار و﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي في الليل والنهار^(١).

ولا تخرج الإضافة عن هذا عندهم.

وذهب بعض النحاة إلى «أن الإضافة ليست على تقدير حرف أصلاً، وإلا لزم أن (غلام زيد) يساوي (غلام لزيد) وليس كذلك، فإن معنى المعرفة غير النكرة.

وأجيب بأن قولنا (غلام لزيد) ليس تفسيراً مطابقاً من كل وجه، بل لبيان الملك أو الاختصاص فقط»^(٢).

والحق فيما نرى أن الإضافة تعبير آخر ليس على تقدير حرف، فقد يصح تقدير حرف في تعبير، وقد يمتنع تقدير أي حرف في تعبير آخر، وما صح تقديره بحرف لا يطابق معناه معنى المقدر. فهي أعم من أن تكون بمعنى حرف، ومما يدل على ذلك أمور، منها:

١- امتناع اظهار أي حرف من هذه الحروف في قسم من التعبيرات، نحو: (جئت مع خالد) و﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] و﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّتِي إِسْرَءِيلَ﴾ [آل عمران: ٩٣] و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧] (وعند خالد مال) و(خرج جميع القوم) و(يوم الاحد) و:

غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن

ونحو ذلك كثير، مما يدل على أن الإضافة أوسع من أن تكون بمعنى حرف، وقد لاحظ النحاة ذلك، فحاولوا الخروج من هذا المأزق بقولهم: «ولا يلزم فيما هو بمعنى اللام ان يجوز التصريح بها بل يكفي افادة الاختصاص الذي هو مدلول اللام، فقولك (طور سيناء) و(يوم الاحد) بمعنى اللام ولا يصح اظهار اللام في مثله»^(٣).

(١) انظر ابن عقيل (٣/٢) «شرح الرضي» (٢٩٨-٢٩٩).

(٢) حاشية الخضري (٣/٢) وانظر «اللمع» (٤٦/٢).

(٣) شرح الرضي على الكافية (٢٩٩/١).

ونحن نقول: ومن أين لهم أن نحو طور سيناء، ويوم الاحد، وكل الرجال، وجميعهم، فيه مدلول اللام الذي يفيد الاختصاص؟.

٢- اقرّ النحاة أن الاضافة غير المحضة (وهي اضافة اسم الفاعل، والمفعول، والصفة المشبهة إلى معمولها) ليست على تقدير حرف، فقولك: (هو حسن الوجه) ليس على تقدير حرف فليس الوجه في مثل هذا «مضافاً اليه (حسن) بتقدير حرف الجر، بل هو وكذا في (ضارب زيد) لان (ضارب) وإن كان مضافاً الى زيد، لكنه بنفسه لا بحرف الجر كما كان مضافاً اليه من حيث المعنى حيث نصبه أيضاً، ولم يحتج في إضافته إليه لا في حال الاضافة، ولا قبلها الى حرف جر^(١)».

وذلك أن قولك (هو ضارب زيد) و﴿إِنَّكَ جَائِعٌ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩] مضاف بنفسه، لا بتقدير حرف لأن اسم الفاعل فيهما مأخوذ من متعدّد، وهو يتعدّى بنفسه، فقولك (هو ضارب زيداً) تقديره: هو يضرب زيداً وليس التقدير: هو يضرب لزيد، ولذا يقول النحاة في نحوه: (هو ضارب لخالد) إن اللام فيه زائدة مقوية، والاصل (هو ضارب خالداً) ومثله ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] فان اللام فيه زائدة مقوية، والاصل: فعال ما يريد، فكيف ينقلب الزائد أصلاً؟ فالتقدير يختص بالمحضة عندهم.

٣- ونحن نقول: إنه لا فرق بين المحضة وغيرها، فقد يمتنع التقدير في المحضة ايضاً مما له شبه بغير المحضة من وجه وذلك نحو (إطعام مسكين) وكنوله: ﴿كَطَيَّ السَّجِلَ لِلْكَتُبِ﴾ [الانبياء: ١٠٤] وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الانبياء: ٧٣] وقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] فهذه كلها اضافة محضة، لأن اضافة المصدر عندهم محضة، وهي ليست على تقدير حرف كما هو ظاهر، وذلك أن المصدر في هذه الامثلة متعدّد وقد اضيف الى مفعوله، وهو يتعدّى اليه في الاصل بلا تقدير حرف، كما في (ضارب خالداً).

(١) شرح الرضي (١/٢٩٧)، وانظر «الهمع» (٢/٤٦).

ومثله اضافة اسم الفاعل اذا كان ماضياً، نحو (أنا مكرم محمد أمس) فهي محضة، وهي ليست على تقدير حرف في الراجع، لأنه متعّد، وقد صرح بذلك ابن يعيش، قال: «وعندي أنّ اضافة اسم الفاعل إذا كان ماضياً من ذلك، ليس مقدّراً بحرف مع أنّ اضافته محضة»^(١).

وعلى هذا فلا يصح تقدير حرف في نحو هذا، وبذا يكون قد خرج قسم من المحضة من التقدير.

٤- اضافة اسم التفضيل في الغالب لا تفيد معنى حرف، ولا تدل عليه، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرْذَوْنَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]. فهذا نظير قولهم (حسن الوجه)، فلا يصح تقدير حرف فإنّ (أشدّ) هو العذاب كما ذكروا في الصفة المشبهة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقوله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧] ونحو (أكرمه أحسن الاكرام).

واضافة اسم التفضيل محضة عند الجمهور، فهذا خرج عن التقدير ايضاً.

٥- ومما يدل على ضعف مذهبهم أنّ الأولى أنّ يكون التقدير أحياناً على غير ما ذهب اليه النحاة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي ذَاتِهِمْ مِّنَ الصُّوَغِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] فهو على تقدير اللام عندهم، وتقدير (من) أرجح وأولى، أي: حذراً من الموت، وهم لا يقدرونه بـ (من) لأنّ المضاف اليه ليس جنساً للمضاف، وكذلك (هربت خوف سعيد)، فهو على تقدير اللام عندهم، وتقدير (من) أظهر في المعنى، أي: خوفاً من سعيد، ونحوه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] فهم يقدرونه باللام وتقدير (من) أظهر في المعنى أي: لعنة من الله وهم يمتنعون تقديره بـ (من) لأنّ المضاف اليه ليس جنساً للمضاف، ومثله قوله: ﴿غُفْرَانُكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] ومعناه غفراناً منك، وليس غفراناً لك،

وكذلك قولنا (هو أكبر القوم) و(أفضل الطلاب) فإنّ تقدير (من) فيه أولى من اللام، أي أكبر من القوم وأفضل من الطلاب.

فدلّ على ضعف المعنى في تقديرهم أحياناً.

٦- إنّ المعنى يتغير عند التقدير، فتصبح المعرفة نكرة، فلو قدرت (هذه دار محمد) باللام كان التقدير (هذه دار لمحمد) والاولى معرفة، والثانية نكرة، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَكَادُمُ أُنْيُتُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فهو لا يساوي (بأسماء لهم) ومثله قوله تعالى ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] فهو لا يساوي (إلا نفساً لك) إذ يقتضي أنّ له أكثر من نفس، وقوله ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦١] فهو لا يساوي (رسولاً لله)، وقوله ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] لا يساوي (بيدك) إذ يقتضي أنّ له أكثر من بدن، وقوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ [الانعام: ١٠٩] لا يساوي (جهداً لأيمانهم) وليس له معنى.

وقد أدرك النحاة ذلك، فقد ذهب أبو حيان تبعاً لابن درستويه كما أسلفنا، إلى «أنّ الاضافة ليست على تقدير حرف أصلاً، والّا لزم أنّ (غلام زيد) يساوي (غلام لزيد) وليس كذلك، فإنّ معنى المعرفة غير النكرة.

وأجيب بأنّ قولنا غلام لزيد ليس تفسيراً مطابقاً من كل وجه، بل لبيان الملك أو الاختصاص فقط^(١).

ورد النحاة عليه ليس متيناً، فانهم إنّ قدروا حرفاً تغير المعنى واستحالت المعرفة الى نكرة، فالاولى عدم التقدير للخلاص من هذا الامر، جاء في (المقتضب) «وأما الأسماء المضافة الى الأسماء بأنفسها فتدخل على معنى اللام، وذلك قولك: المال لزيد كقولك: مال زيد، وكما تقول: هذا أخ لزيد، وجار لزيد، وصاحب له، فهذا بمنزلة قوله: جاره وصاحبه.

(١) حاشية الخضري (٣/٢).

فلا فصل بينهما، إلا أن اللام إذا حالت بين الاسمين، لم يكن الاول معرفة بالثاني من أجل الحائل.

فإذا أضفت الاسم الى الاسم بعده بغير حرف، كان الاول نكرة ومعرفة بالذي بعده.

فإذا أضفت اسماً مفرداً الى اسم مثله مفرد، أو مضاف صار الثاني من تمام الاول وصاراً جميعاً اسماً واحداً وانجز الآخر بإضافة الاول اليه، وذلك قولك: هذا عبد الله، وهذا غلام زيد وصاحب عمرو...

ألا ترى أنك تقول: هذا غلام رجل فيكون نكرة، فإذا أردت تعريفه قلت: هذا غلام الرجل وهذا صاحب المال^(١).

فالمبرد- وإن كان يقدر تبعاً للنحاة- ذكر الفرق بينهما، وأدرك أن كلاً منهما تعبير خاص، وأن إضافة اسم الى آخر، تصير الثاني من تمام الاول، وتجعلهما جميعاً اسماً واحداً.

٧- إن إضافة الشيء الى الشيء قد تكون بأدنى ملابسة، وهي أعم من أن تكون بمعنى حرف مما يدل على انها تعبير آخر. جاء في (كتاب سيبويه): «ألا ترى أنك تقول هذا حب رمان) فإذا كان لك قلت (هذا حب رمان) فأضفت الرمان اليك، وليس لك الرمان إنما لك الحب، ومثل ذلك هذه ثلاثة أثوابك، فكذلك يقع على جحر ضب ما يقع على حب رمان، تقول (هذا جحر ضبي) وليس لك الضب، إنما لك جحر ضب كما أضفت الجحر اليك مع إضافة الضب»^(٢).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «ويضاف الشيء الى الشيء بأدنى ملابسة نحو قولك: (لقيته في طريقي) أضفت الطريق اليك لمجرد مرورك فيه، ومثله قول أحد حاملي الخشبة (خذ طرفك) أضاف الطرف اليه لملابسته اياه في حال الحمل»^(٣).

(١) المقتضب (١٤٣/٤-١٤٤).

(٢) كتاب سيبويه (٢١٧/١).

(٣) شرح ابن يعيش (٨/٣).

ونحوه قوله تعالى: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦] لما كانت العشية والضحى طرفي النهار صح اضافة احدهما الى الآخر، ونحو كوكب الخرقاء لسهيل^(١). ومثل سعيد كرز وجبل الجودي وطور سيناء ومدينة الموصل وحق اليقين، وقولهم (رجل صدق ورجل سوء) قال تعالى ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال ﴿أَمْطَرْتُ مَطَرًا سَوِيًّا﴾ [الفرقان: ٤٠] و﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَلْيَسِقِينَ﴾ [الانبياء: ٧٤] فهذا كله ليس على تقدير حرف معين وتقدير أي حرف مفسد للمعنى.

إنَّ العرب قد تفيد المعاني -إذا أرادت- باللام أو (من) أو (في) أو غيرها، فإذا أرادت اطلاق المعاني حررتها من ذلك.

فلاضافة تعبير آخر غير مقيّد بحرف معين، إنّه قد يحتمل تقدير حرف احياناً، غير أن المعنيين لا يتماثلان، وقد يكون غير ذلك فلا يحتمل معنى حرف ولا تقديره.

نوعا الاضافة:

يقسم النجاة الاضافة على ضربين: محضة وغير محضة.

فالمحضة: إضافة غير الوصف نحو (كتاب محمد)، أو اضافة الوصف الى غير معموله نحو (كريم مصر).

وتفيد تعريفاً أو تخصيصاً بحسب المضاف اليه، فإذا كان المضاف اليه معرفة أفادت تعريفاً وإذا كان نكرة افادت تخصيصاً، فقولك (غلام محمد) معرفة، وأما قولك (غلام امرأة) فنكرة تفيد التخصيص.

ومعنى التخصيص تقليل الاشتراك، ف (غلام) أعظم من (غلام امرأة)، فبالاضافة قل الاشتراك بعد أن كان يشمل كل غلام.

(١) انظر شرح الرضي على الكافية (١/٢٩٩)، «الصبان» (٢/٢٣٧).

والتعريف بالاضافة كالتعريف بـ (ال)، قد يكون للعهد، وقد يكون للجنس، فمن تعريف العهد قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] وقوله: ﴿رَبِّ أَلَذِّ يُمْحِي وَيُحْيِي﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الاعراف: ٧٣] وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْرِكَ﴾ [يونس: ٩٢] فهذا كله من تعريف العهد، لأنه يدل على واحد بعينه.

ومن تعريف الجنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]. فأموال اليتامى تفيد الجنس، ومثله ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقوله ﴿وَلَا مُرْتَهَنٌ فَلَيبِتَكُنَّ إِذَا دَاكَ الْأَنْعَامُ﴾ [النساء: ١١٩] وقوله ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] فكل هذا من تعريف الجنس، لانه لا يراد به واحد بعينه بل هو لعموم الجنس. جاء في (شرح الرضي على الكافية) «إذا قلت (غلام زيد ركب) و لزيد غلمان كثيرة فلا بد أن تشير به الى غلام من بين غلمانه له مزيد خصوصية بزيد، أما بكونه أعظم غلمانه أو أشهر بكونه غلاماً له، دون غيره، أو يكون غلاماً معهوداً بينك وبين المخاطب، وبالجمله بحيث يرجع اطلاق اللفظ اليه دون سائر الغلمان... ثم يقال (جاءني غلام زيد) من غير اشارة الى واحد معين، وذلك كما أن ذا اللام في أصل الوضع لواحد معين ثم قد يستعمل بلا اشارة الى معين كما في قوله:

«ولقد أمر على اللثيم يسبي»

وذلك على خلاف وضعه، فلا تظن من اطلاق قولهم، في مثل (غلام زيد) انه بمعنى اللام، إن معناه ومعنى (غلام لزيد) سواء، بل معنى (غلام لزيد) واحد من غلمانه غير معين، ومعنى (غلام زيد) الغلام المعين من غلمانه، إن كان له غلمان جماعة، أو ذلك الغلام المعلوم لزيد إن لم يكن له الا واحد^(١).

والمضاف يتعرف بالمضاف اليه، سواء أضيف الى مفرد أم جملة، ومن الاضافة الى الجملة قولنا (جئت يوم سافر محمد) أي جئت يوم سفر محمد، وهو معرفة.

جاء في (المقتضب): «فاذا قلت: (هذا يوم يخرج زيد) فقد اصفته الى هذه الجملة فاتصل بالفعل لما فيه من شبهه وأتبعه الفاعل لانه لا يخلو منه، وهو معرفة لان قولك (هذا يوم يخرج زيد) هذا يوم خروج زيد في المعنى و﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] هذا يوم منعهم من المنطق»^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «قال صاحب المغني: يتعرف الظرف المضاف الى الجمل فيصح أن يقال: جئتك يوم قدم زيد الحار أو البارد، على أن يكون صفة لليوم.

قلت: ومع غرابة هذا الاستعمال وعدم سماعه، ينبغي أن لا يتعرف المضاف إذا كان الفاعل في الفعلية، أو المبتدأ في الاسمية، نكرة نحو يوم قدم أمير، ويوم امير كبير قدم، اذ المعنى يوم قدوم أمير»^(٢).

وعلى هذا فالمضاف يتعرف أو يتخصص بحسب المضاف اليه، فان كان معرفة عرف وان كان نكرة خصص، جملة أو مفرداً.

فأن قلت: ألا ترى أن (يوم) في نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقوله ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨] معلوم مع تنكير الوجوه والمال، فكيف يكون نكرة؟.

(١) المقتضب (٣/١٧٦).

(٢) شرح الرضي (٢/١١٧) وانظر حاشية الصبان (٢/٢٣٩).

قلت: هو نكرة لا معرفة غير أنه معلوم لأنه معروف أن المقصود به يوم القيامة فهو كما تقول: (سيحاسبك الله في يوم عظيم) وهو لاشك نكرة، غير أنه معلوم لأنه معروف أن المقصود به يوم القيامة، ومثله قولك (إنه قادم على رب كريم فرب كريم نكرة مع أن المقصود به الله تعالى، وذلك لأن هذا خصوصية له، ونحو قوله تعالى ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

فان كان صاحب الجملة معرفة كان المضاف معرفة، وإن كان نكرة كان المضاف نكرة
مخصصة.

الاسماء الموعلة في الابهام: يذكر النحاة أنَّ ثمة اسماء موعلة في التنكير لا تتعرف بالاضافة الى المعرفة، نحو غير ومثل وشبه وسوى، فقولك (مررت برجل غيرك) (غير) فيه نكرة، وكذلك: مررت برجل مثلك وشبهك، مثل وشبه فيه نكرتان وان كانتا مضافتين الى معرفة بدليل، إِنَّكَ وصفت بهما النكرة قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣] وقال ﴿حَتَّى تَكْبَحَ زَوْجًا غَيْرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقال ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] ف (غير) في هذه كلها نكرة لانها وصفت بها النكرة، وكذلك (مثل) في نحو قولك (مررت برجل مثلك) ومررت برجل مثل الاسد.

وسر ذلك أنّ هذه الكلمات تفيد العموم فقولك (مررت برجل غيرك) (غيرك) فيه عامة في كل الأشخاص الذين هم سواك، فقد يكون أنه مر بخالد أو بحسن أو سعد أو محمد أو رجل آخر غير معلوم، وهي بهذا المعنى نكرة ولاشك.

وكذلك لو قلت (مررت برجل مثلك) فأوجه الشبه متعددة، فقد يكون مثلك في الطول، أو في اللون، أو في الذكاء، أو في القوة، أو في الجود، أو في غير ذلك من أوجه الشبه فلا ينحصر بشخص معيّن.

فهذه كلمات تفيد العموم لا تنحصر فيها أوجه المغايرة والمثابفة فلذلك كانت نكرات .

جاء في (المقتضب): «و(مررت برجل مثلك) فإن قال قائل: كيف يكون المثل نكرة وهو مضاف الى معرفة؟ هلاً كان كقولك: مررت بعبد الله أخيك!».

فالجواب في ذلك أن الاخوة محصورة، وقولك (مثلك) مبهم مطلق يجوز أن يكون مثلك في أنكما رجلان أو في أنكما أسمران، وكذلك كل ما تشابهتما به، فالتقدير في ذلك التنوين كأنه يقول: مرر برجل شبيه بك ومررت برجل مثل لك.

فإن أردت بـ (مثلك) الاجراء على أمر متقدم حتى يصير معناه: المعروف بشبهك لم يكن إلا معرفة فتقول على هذا (مررت يزيد مثلك) كما تقول: مررت بزيد أخيك، ومررت بزيد المعروف بشبهك.

ومثل ذلك في الوجهين مررت برجل شبهك، ومررت برجل نحوك، فأما مررت برجل غيرك، فلا يكون إلا نكرة لانه مبهم في الناس أجمعين، فانما يصح هذا ويفسد بمعناه^(١).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «وقد جاءت اسماء اضيفت الى المعارف ولم تتعرف بذلك للابهام الذي فيها وانها لا تختص واحدا بعينه، وذلك غير، ومثل، وشبه، فهذه نكرات وإن كنّ مضافات الى معرفة، وانما نكرهن معانيهن وذلك، لأن هذه الاسماء لما لم تنحصر مغايرتها ومماثلتها لم تتعرف، ألا ترى أن كل من عداه فهو غيره، وجهة المماثلة والمشابهة غير منحصرة فاذا قلت (مثلك) جاز أن يكون مثلك في طولك، وفي لونك، وفي عملك ولن يحاط بالاشياء التي يكون بها الشيء مثل الشيء، فلذلك من الابهام كانت نكرات...»

وقد تكون هذه الاشياء معارف إذا شهر المضاف، بمغايرة المضاف إليه، أو بمماثلته فيكون اللفظ بحاله والتقدير مختلف، فاذا قال القائل: مررت برجل مثلك، أو شبهك واراد النكرة فمعناه بمشابهك أو مماثلك في ضرب من ضروب المماثلة والمشابهة،

وهي كثيرة غير محصورة، وإذا أراد المعرفة قال: مررت بعبد الله مثلك، فكان معناه المعروف بشبهك، أي الغالب عليه ذلك ونحوه قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

لأن المراد بالذين أنعمت عليهم، المؤمنون، والمغضوب عليهم، الكفار فهما مختلفان، ونحوه مررت بالمتحرك غير الساكن، والقائم غير القاعد^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «واعلم أن بعض الاسماء قد توغل في التنكير بحيث لا يتعرف بالاضافة الى المعرفة اضافة حقيقية نحو (غيرك) و(مثلك) وكل ما هو بمعناها من نظيرك، وشبهك، وسواك، وشبهها، وانما لم يتعرف لان مغايرة المخاطب ليست صفة تخص ذاتاً دون أخرى، اذ كل ما في الوجود الا ذاته موصوف بهذه الصفة وكذا مماثلة زيد لا تخص ذاتاً، بلى نحو (مثلك) أخص من غيرك، لكن المثلية ايضاً يمكن ان تكون من وجوه من الطول والقصر والشباب والشيب والسواد والعلم وغير ذلك مما لا يحصى.

قال ابن السري: اذا أضفت (غيراً) الى معرف له ضد واحد فقد تعرّف (غير) لانحصار الغيرية كقولك: عليك بالحركة غير السكون فلذلك كان قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ صفة (الذين انعمت عليهم) اذ ليس لمن رضي الله عنهم ضد غير المغضوب عليهم فيعرّف غير المغضوب عليهم، لتخصيصه بالمرضي عنهم، وكذا اذا اشتهر شخص بمماثلتك في شيء من الاشياء، كالعلم والشجاعة أو نحو ذلك. فقل (جاء مثلك) كان معرفة اذا قصد الذي يماثلك في الشيء الفلاني.

والمعرفة والنكرة بمعانيها فكل شيء خلص لك بعينه من سائر امته فهو معرفة، وقدح ابن السراج في هذا بقوله تعالى ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] مع ان معنى (غير الذي كنّا نعمل) اي الصلاح لان عملها كان فساداً، ويقول الشاعر:

ان قلت خيراً قال شراً غيره

(١) «شرح ابن عيش» (٢/ ١٢٥-١٢٦).

والجواب أنه على البدل، لا الصفة، أو حمل (غير) على الأكثر مع كونه صفة، لأنّ الاغلب فيه عدم التخصيص بالمضاف اليه^(١).

وجاء في (الهمع): «ويعرف ما ذكر من (غير) وما بعده إن تعين المغاير والمماثل كأن وقع بين ضدين نحو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وقولك: مررت بالكريم غير البخيل، والجامد غير المتحرك^(٢)».

فخلاصة ما ذهب اليه النحاة أنّ الاصل في (غير) و(مثل) ونظائرها، ألا تتعرف بالاضافة وقد تتعرف، اذا شهر المضاف بالمغايرة والمماثلة، وأنكر آخرون تعريف (غير) مطلقاً.

وذهب بعضهم الى انها تتعرف اذا أضفتها الى معرف له ضد واحد. وردّ هذا القول بقوله تعالى ﴿نَعْمَلْ صُلْحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقوله: (ان قلت خيراً قال شراً غيره^(٣)).

والتحقيق في هذا، أنّ غيراً ومثلاً، قد تتعرفان بالاضافة، وذلك إذا تعين المغاير والمماثل، . وايضاح ذلك أنك تقول (نزلت بوايد غير ذي زرع) و(نزلت بوايد غير ذي الزرع) و(نزلت بالوادي غير ذي الزرع) فان الثالثة معرفة بخلاف الاوليين.

وذلك إنّ قولك (بوايد غير ذي زرع) يكون فيه الوادي نكرة، وهو موصوف بأنه ليس بذئ زرع كما تقول (نزلت بوايد مزروع). واما (بوايد غير ذي الزرع) فالمقصود به انه نزل بوايد غير الوادي المزروع، فهناك واد ذو زرع معلوم للمخاطب، فهو لم ينزل بذلك الوادي بل نزل بوايد آخر، فذو الزرع معرفة، ولكن (غيراً) بقيت نكرة لان الوادي المتزول به نكرة لم يتعين.

(١) «شرح الرضي» (٣٠٠/١-٣٠١)، وانظر «الهمع» (٤٧/٢).

(٢) «الهمع» (٤٧/٢).

(٣) انظر المعنى (١٥٨/١)، «شرح الرضي» (٣٠٠/١-٣٠١).

وأما قولك: (نزلت بالوادي غير ذي الزرع) فالوادي المنزول به معرفة والوادي المتروك معرفة، فهنا تكون (غير) معرفة لأنّ كلاً من الواديين معلوم، ونحوه قولك (لقيت رجلاً غير خائف ولا وِجل) و(لقيت رجلاً غير الخائف) و(لقيت الرجل غير الخائف).

وأما (شبيهك) فتتعرف بالاضافة، بخلاف (مثلك) و(شبهك) و(نحوك) واضرابها، وذلك لأنّ لفظ (شبيه) يفيد انحصار الشبه في جميع الوجوه، وذلك أنّها على وزن (فعليل) وهي تفيد المبالغة كعليم، وسميع، فدل على شدة المشابهة واتساعها، فاذا قلت (مررت بالرجل شبيهك) فكأنّك قلت: مررت بالرجل الذي يشبهك من جميع الوجوه^(١). بخلاف شبهك ومثلك، فإنّه يفيد وجهاً من وجوه المشابهة الكثيرة المتعددة.

وأما (حسبك) و(هذّك) و(شرعك) و(كفيك) و(كافيك) و(ناهيك) واخواتها فهي نكرات لانها بمعنى الفعل، فقولك: (حسبك درهم) معناه (يكفيك درهم) او ليكفك. وقولك (مررت برجل حسبك من رجل) معناه يكفيك، أو كافيك، وكذا اخواته^(٢).

الاضافة غير المحضة: وتشمل:

١- إضافة اسم الفاعل والمفعول الى معمولهما اذا كانا دالين على الحال أو الاستقبال نحو (هو ضارب خالد الآن أو غداً) و(هو مضروب الاب الآن أو غداً) فإنّ كانا للمضي فاضافتهما محضة نحو (هو ضارب خالد أمس).

٢- إضافة صيغ المبالغة واطافة الصفة المشبهة مطلقاً الى معمولها، نحو (هو ضارب الرؤوس) و(طويل القامة وحسن الوجه).

٣- ويلحق بهذه الصفات المنسوب إذا اضيف الى مرفوعه، نحو (هو عراقي الوطن عربي النسب)، والمصادر إذا كانت بمعنى اسم الفاعل أو المفعول، نحو (قيد الاوابد) أي مقيد الاوابد^(٣).

(١) «شرح الرضي» (٣٠١/١)، «شرح ابن يعيش» (١٢٦/٢)، «المقتضب» (٢٨٨/٤).

(٢) «المقتضب» (٢٨٨/٤)، «شرح الرضي» (٣٠١/١).

(٣) انظر «شرح الرضي» (٣٠٤/١)، «شرح ابن يعيش» (١١٩-١٢٠).

والمضاف اضافة غير محضة نكرة، وإن كان مضافاً الى معرفة كقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥] فبالغ الكعبة نكرة، ولذا وصف بها النكرة، وكذا (مررت برجل طويل القامة) فطويل القامة نكرة ولذا وصفت بها النكرة.

وهذه الاضافة لا تفيد تعريفاً، ولا تخصيصاً، بخلاف المحضة.

أما أنها لا تفيد تعريفاً، فلأنها تصف النكرات، كقولك (مررت برجل حسن الوجه).

وأما أنها لا تفيد تخصيصاً، فلأنّ التخصيص كان قبل الاضافة، فقولك (هو ضارب خالد) أصله (هو ضارب خالد) ثم أضفته الى مفعوله، وكذلك (هو حسن الوجه) أصله (هو حسن وجهه) ثم أضفته، فالتخصيص حاصل قبل الاضافة، وهي لم تكسبه تخصيصاً جديداً، وإنما هي تفيد التخفيف أو رفع القبح كما يقول النحاة.

فقولك (هو ضارب خالد) أخف من (هو ضارب خالد) وذلك لحذف التنوين منه. وأما رفع القبح فنحو (هو حسن الوجه) فأنك أما تقولها برفع الوجه، أو نصبه أو جرّه، فإذا رفعت الوجه وقلت (محمد حسن الوجه)، لم يكن ثمة ضمير في الخبر يعود على الموصوف (محمد)، لأنّ الخبر أخذ مرفوعه الظاهر، وهو (الوجه) فلا يرفع ضميراً وظاهراً، وإذا نصبته فقلت (محمد حسن الوجه) كنت أجريت الوصف القاصر، مجرى المتعدي. وفي الجر تخلص من هذين^(١) اضافة الى التخفيف بحذف التنوين.

والحق فيما نرى أن ليست الاضافة لأحد هذين الغرضين، وإنما هي لغرض آخر يختلف عن الأعمال، اذ لو كان التخفيف هو الغرض لاستعمل كذلك مطلقاً وامتنع الاعمال في حين نرى الاستعمالين جاريتين: الاضافة والاعمال، قال تعالى ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَلْبَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٥] بالاعمال، وقال ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٩] بالاضافة.

(١) انظر الأشموني (٢/٢٤١)، حاشية الخضري (٥/٢).

وقال: ﴿وَلَا آمَنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] بالاعمال، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ [الحج: ٣٥] و﴿الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنفُسَهُمْ فَلَئِنْ نُسِئْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٦] بالاضافة.

فلماذا لم يخفف دوماً ويقال كذلك بالنسبة الى الصفة المشبهة في رفع القبح.

والتحقيق أنَّ لكل تعبير غرضاً لا يؤديه الآخر، فالاعمال نص في الدلالة على الحال او الاستقبال، والاضافة ليست نصاً في ذلك، فانك إذا قلت: (انا ضاربٌ محمداً) كان ذلك دالاً على الحدث في الحال او الاستقبال. قال تعالى ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سُجُّدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢] فهو للاستقبال، أما الاضافة فليست نصاً في هذا المعنى، بل تحتل المضي والاستمرار والحال، والاستقبال، فانك اذا قلت (انا مكرم محمد) احتمل ذلك المضي والحال والاستقبال والاستمرار، قال تعالى ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ابراهيم: ١٠] وهو ماض.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الانعام: ٩٥-٩٦] وهو استمرار.

فالأضافة تعبير احتمالي، يحتمل اكثر من معنى، بخلاف الاعمال فانه تعبير قطعي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى أنه في الاعمال يكون الوصف ملحوظاً فيه جانب الحدث، وقربه من الفعلية، في حين أنه في الأضافة يكون ملحوظاً فيه جانب الأسمية، وذلك أنَّ الأضافة من خصائص الأسماء. أما أخذ الفاعل والمفعول، فالأصل فيه للفعل. فأنت تقول (هذا بائع السمك) بمعنى (بييع) وتقول: (رأيت محمداً آكلًا التفاح) بمعنى (يأكلها)، فإذا قلت: (هذا بائع السمك وآكل التفاح) بالاضافة دلَّ على الذات كما تقول: (مالك الدار).

وإذا قلت: (هذا كاتب العقود) كان المعنى يكتبها، أي يقوم بكتابتها الآن، أو سيقوم بكتابتها، بخلاف (هذا كاتب العقود) فإنَّ المعنى هذا المخصص لها، والموظف فيها،

ونحوه أن تقول: (هذا حارسُ المدرسة) و(هذا حارسُ المدرسة) فإن المعنى في الأولى أنه يقوم بحراستها أي يحرسها الآن، أما الثانية فمعناها أنه المكلف بحراستها وإن لم يقوم بحراستها الآن.

ومما يوضح ذلك أنك تقول: (حارس المدرسة ليس حارساً المدرسة) و(سائق السيارة ليس فيها).

وتقول: (هذا ضربُ الرأس) فتلاحظ فيه معنى الفعلية، وتقول: (هذا بيعُ الفاكهة) فتلاحظ جانب الاسمية كما تقول: هذا راوية الشعر وعلامة النحو.

فدلّ ذلك على أن الأعمال له غرض والأضافة لها غرض، وليس المقصود بها مجرد التخفيف كما يذكر النحاة.

إضافة المترادفين والصفة والموصوف:

ذهب جمهور النحاة إلى أنه لا تجوز إضافة المترادفين كليث أسد و(قمح بُر) فإن جاء ما ظاهره ذلك أول، وذلك كإضافة الاسم إلى اللقب كـ (سعيد كرز)، و(خالد رأس) قالوا: لأنهما إسمان لمستوى واحد، وكإضافة العام إلى الخاص، كـ (يوم الخميس) و(علم النحو) قالوا: لأنَّ الخميس يوم، والنحو علم، فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، فأولوا المضاف بمستوى أي مستوى كرز ومستوى الخميس.

كما لا يجوز عندهم إضافة الموصوف إلى صفته وبالعكس، فلا يقال: (رجل قائم) ولا (غلام ضاحك)، وما ورد من ذلك مؤول على تقدير مضاف إليه محذوف، وهو الموصوف بتلك الصفة نحو قوله (حب الحصيد) و(دار الآخرة) و(جانب الغربي) فهو على تقدير حب الزرع الحصيد، ودار الحياة الآخرة، وجانب المكان الغربي.

وأجاز الكوفيون إضافة كل ذلك بشرط إختلاف اللفظين فيقال: عندهم رجل جالس وليث أسد ونحوهما^(١).

(١) انظر شرح الرضي على الكافية (٣١٥/١)، ابن يعيش (١٠/٤)، ابن عقيل (٦/٢)، «الهمع» (٤٨/٢).

والحق فيما ذكره من إضافة المترادفين أنه يجوز إضافة أحدهما إلى الآخر إذا كان بينهما أدنى اختلاف، وكانت الإضافة تفيد معنى ما كإضافة الأسم إلى اللقب، والعام إلى الخاص، وما إلى ذلك، فكل ذلك جائز بلا تأويل، وعليه كلام العرب، فالعرب تقول (سعيد كرز) بإضافة الإسم إلى اللقب، ثم إنَّ اللقب في الحقيقة غير الإسم، وليس مرادفاً له، وإنَّ كان المسمّى واحداً فإن فيه من المدح والذم وغيرهما ما ليس في الأسم.

وكذلك (يوم الخميس) و(شهر رمضان) و(علم النحو) فإن الخميس أخص من (يوم) وليس مرادفاً له وكذا ما بعده، فهذا كله جائز وعليه كلام العرب فمنعه تعسف ولا داعي للتأويل فيه.

ولا تمتنع الإضافة إلا إذا كان المتضايقان مترادفين حقاً، ولا تحصل في الإضافة فائدة كليث أسد ومدية سكين وقمح حنطة. وما ورد من ذلك يبقى مسموعاً لا يقاس عليه^(١).

وأما إضافة الموصوف إلى صفته، فالراجح إنها لا تجوز إلا بتقدير مضاف إليه محذوف، فلا تقول: (رأيت غلام الضاحك) وتعني بالضاحك الغلام نفسه، بل على معنى رأيت غلام الرجل الضاحك، فالضاحك غير الغلام، ولا تقول (رأيت بنت الجالسة) وتعني بالجالسة البنت، بل يصح على معنى رأيت بنت المرأة الجالسة، وكذلك لا تقول: (اشتريت كتاب الجديد) وتعني بالجديد الكتاب، بل على معنى اشتريت كتاب البحث الجديد، أو العلم الجديد، ونحو ذاك.

إكتساب المضاف التذكير والتأنيث من المضاف إليه:

قد يكتسب المضاف من المضاف إليه التذكير، والتأنيث بشرط أن يكون المضاف صالحاً للحذف، وأقامة المضاف إليه مقامه^(٢)، أو أن يكون المضاف كل المضاف إليه أو بعضه أو كبعضه^(٣)، نحو قوله (شرقت صدر القناة من الدم) ف (صدر) مذكر،

(١) انظر حاشية الخضري (٦/٢).

(٢) شرح ابن عقيل (٧/٢)، شرح الرضي على الكافية (٣٠٢/١).

(٣) «الهمع» (٤٩/٢)، حاشية الخضري (٧/٢).

غير أنه أكتسب التأنيث من المضاف إليه لأنه جزء منه، وقال تعالى: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، فأخبر عن الاعناق وهي مؤنثة بقوله ﴿خاضعين﴾ وكان القياس أن يقول (خاضعة) ولكنه عاملها معاملة المذكر، وذلك لأن المضاف إليه مذكر والأعناق جزء منهم.

وقال جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزَّبِيرِ تَوَاضَعْتَ سور المدينة والجبـال الخُشَعِ
وقال العجاج:

طول الليالي أسرع في نقضي نقضن كلّي ونقضن بعضي
وقال الآخر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا
وجاء في كلامهم (ذهبت بعض أصابعه)^(١).

فأن لم يكن المضاف صالحاً للحذف، ولا كلاً أو بعضاً، أو كبعض، لم يجز فلا تقول: (جاءت غلام زينب) ولا (ذهبت ابن فاطمة).

وإنما يحسن ما ذكرناه إذا كان يؤدي معنى لا يؤديه الأصل.

فما يؤديه التوسع في المعنى، وذلك أنه إذا أجرى حكم المضاف إليه على المضاف في التذكير والتأنيث، فإنه يريد بذلك أن يتضمهما معاً في الحكم، ولا يخص المضاف وحده به.

فمن المعلوم أنك إذا قلت: (جاء غلام سعيد) كان المجيء للغلام وحده، ولكن إذا قلت: (أفتتنا تتابع السنين) كان في تأنيث الفعل إشارة إلى أنك تريد السنين أيضاً فكأنك قلت: (أفتتنا السنون وتتابعها) وهذا توسع في المعنى، لأنه كسب معنيين في تعبير واحد.

(١) انظر «كتاب سيبويه» (١/٢٥-٢٦)، «شرح الرضي على الكافية» (١/٣٠٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَطَلَّتْ أَغْنَقُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] فإنه ذكر ولم يقل خاضعة، وذلك لأنه لا يريد خضوع الأعناق فقط، بل خضوع أصحابها أيضاً فقدم (الأعناق) للسناد، ولكنه أخبر عن المضاف إليه فجمع المعنيين بذلك.

وكذلك قول الشاعر (تواضعت سور المدينة) فإنه لم يقل (تواضع سور المدينة) ولا شك أن الشاعر مضطر إلى ذلك، لإقامة الوزن، لكن فيه معنى حسناً مع ذلك، وذلك أنه أراد أن المدينة كلها تواضعت وليس السور وحده، فذكر السور لأنه حصن المدينة وحماها وأنت الفعل لإرادة المدينة أيضاً فجمع بين المعنيين.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولم يقل (قريبة) وذلك لكسب معنيين، وهما قرب رحمة الله وقربه هو أيضاً وليست الرحمة وحدها قريبة وذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] فجمع المعنيين معاً: قربه وقرب رحمته، فقدم الرحمة وأخبر عن الله.

وهذا توسع في المعنى لا يؤديه الأصل فبدل أن يقول: أن رحمة الله قريبة والله قريب جمع ذلك من أخضر طريق وأجزه فقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]. نعم قد يكون ذلك لإقامة وزن في شعر، وقد يرد من كلام العرب ما ليس على هذا القصد، ولكن البليغ لا يعدل من تعبير إلى تعبير إلا لقصد وغرض.

وهذا باب كبير مرّ طرف منه في مواضع متقدمة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَيَّنَّلْ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً ﴾ [المزمل: ٨] وقوله: ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: ٥٦] وغير ذلك.

الظروف المعرفة بالقصد:

وهي التي يسميها النحويون (الغايات) وهي: قبل، وبعد، وفوق، وتحت، وأمام، ووراء وخلف، وأسفل، ودون، وأول، وعلى نحوها.

ويذكر النحاة أن لها أربعة أحوال:

١ - ألا تضاف وهي في ذلك نكرات كقول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً أكاد أغصّ بالماء الفرات
فمعنى (قبلاً): فيما مضى من الزمان.

٢- أن تضاف، نحو ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ [النور: ٥٨] و(رجئت بعد محمد) و﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وتكون معرفة إذا أضيفت إلى معرفة، كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ونكرة إذا أضيفت إلى نكرة، نحو (جئت بعد سفر طويل).

٣- أن يحذف المضاف إليه وينوى لفظه، وهذا قليل كقوله:
ومن قبل نادى كل مولّى قرابة
فما عطفت مولّى عليه العواطف
أي: ومن قبل ذلك، ويعامل المضاف كأنّ المضاف إليه، مذكور.
وهي في هذه الأحوال المتقدمة معرفة.

٤- أن يحذف المضاف إليه وينوى معناه، وتكون عند ذاك مبنية على الضم، نحو ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]^(١)، وتكون في هذه الحال معرفة، وهذا القسم الأخير هو الذي يسميه النحويون (الغايات) وهو مدار بحثنا ههنا، وهي التي أثّرنا تسميتها الظروف المعرفة بالقصد، أو الظروف المقصودة.

ونعني بالظروف المقصودة أن هذه الظروف معلومة الزمان أو المكان، من دون معرف لفظي، وإنّما هي معرفة بمعرف معنوي، وهو القصد إليها، فبنيت على الضم، لمخالفة حالاتها الأعرابية الأخرى التي تكون فيها نكرة، أو معرفة بالإضافة.

أما كونها معرفة فهو مما نص عليه النحاة، جاء في (المقتضب): «فأما الغايات فمصروفة عن وجهها، وذلك أنها مما تقديره الأضافة، تعرّفها، وتحقق أوقاتها، فإذا حذفت منها وتركت نياتها فيها، كانت مخالفة للباب معرفة بغير إضافة، فصرفت عن وجوهها، وكان محلها من الكلام أن يكون نصباً أو خفضاً.

فلما أزيلت عن مواضعها ألزمت الضم، وكان ذلك دليلاً على تحويلها، وإن موضعها معرفة.

وإن كانت نكرة، أو مضافة لزومها الإعراب، وذلك قولك: جئت قبلك، وبعذك، ومن قبلك، ومن بعدك، وجئت قبلاً، وبعداً، كما تقول: أولاً وآخرأ.

فإن أردت قبل ما تعلم فحذفت المضاف إليه قلت: (جئت قبلُ وبعْدُ) و(جئت من قبلُ ومن بعدُ). قال الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْثَرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، وقال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]. وقال في الإضافة: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] و﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

وكذلك جئت من علُو، وصُبَّ عليهم من فوقُ ومن تحتُ يافتي إذا أردت المعرفة وكذلك من دونُ يافتي^(١).

وجاء في (التصريح): «فإن نوي معنى المضاف إليه دون لفظه بنيا- يعني قبل وبعد... على الضم... وهما في هذه الحالة معرفتان بالإضافة إلى معرفة منوية... وقال الحوفي: إنما يبينان على الضم إذا كان المضاف إليه معرفة، أما إذا كان نكرة فإنهما يعربان سواء نويت معناه أو لا»^(٢).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «إذا أضيف إلى معرفة وقطع عن الإضافة وكان المضاف إليه مراداً منوياً كان معرفة... وإن قطع النظر عن المضاف إليه، كان معرباً منكوراً، وكذلك لو أضفته إلى نكرة وقطعته، كان معرباً أيضاً لأنه منكور كما كان، فمعناه مع قطع الإضافة كمعناه مضافاً»^(٣).

(١) المقتضب (١٧٤-١٧٥)، وانظر الامالي لابن الشجري (٣٢٨-٣٢٩).

(٢) «التصريح» (٥١/٢).

(٣) شرح ابن يعيش (٩٠/٤).

إن النحاة يقولون- كما مرّ آنفا- في هذه الظروف إنّ المضاف إليه حذف، ونوي معناه، ولم يوضحوا المقصود بقولهم (نوي معناه) توضيحاً شافياً.

فقد قال الصبان: «والذي يظهر لي أن معنى نية المضاف إليه، أن يلاحظ معنى المضاف إليه ومسماه، معبراً عنه بأيّ عبارة كانت، وأيّ لفظ كان، فيكون خصوص اللفظ غير ملتفت إليه بخلاف نية المضاف إليه»^(١).

وجاء في (حاشية الخضري): «أشتهر أنّ المراد بذلك أنّ ينوى معنى الإضافة وهي النسبة الجزئية الخاصة في (بعد زيد) مثلاً، وذلك المعنى هو نسبة البعدية الى خصوص زيد، وأمانية اللفظ فهي أن يكون لفظ المضاف إليه ملحوظاً ومقدراً في نظم الكلام كالثابت»^(٢).

والذي أراه أنه ليس ثمة مضاف إليه محذوف، كما ذهب إليه النحاة، وإنّما هو في الحقيقة ظرف معرفّ بالقصد، أي ظرف معلوم للمتكلم، أو للمخاطب، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ يدلّ على أنّ ذلك الزمان معلوم للمخاطبين.

ومما يُرجّح ذلك:

أنه قد يضعف تقدير مضاف إليه، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] فليس ثمة مضاف إليه محذوف بعد كلمة (قبل)، وإنّما المراد بهذا الزمان زمان معيّن معلوم عند المخاطبين، ومعلوم إنّ المخاطبين لم يقتلوا أنبياء الله، وإنّما المقصود به آباؤهم الأقدمون، غير أنّ الزمان معلوم.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] فإنه لا يحسن تقدير مضاف إليه، وإنّما المقصود به زمان معيّن معلوم

(١) حاشية الصبان (٢/٢٦٨).

(٢) حاشية الخضري (٢/١٦).

غير محدود بإضافة . ونحوه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا أَمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩] وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧] وقوله: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨].

فإن زمان (قبل) ههنا معلوم مقصود، وليس مقيداً بإضافة.

وهذا يتضح فيما لا تصح إضافته، وهو (عل) فإن (عل) مما لا يضاف أصلاً، وقد ذكروا أنه إذا كان المقصود به علواً معلوماً بنوه على الضم وإلا أعربوه.

جاء في (شرح شذور الذهب): «ما الحق بـ (قبل) و(بعد) (من عل) المراد به معين كقولك: أخذت الشيء الفلاني من أسفل الدار، والشيء الفلاني من عل، أي من فوق الدار...»

ولو أردت بـ (عل) علواً مجهولاً غير معروف تعين الأعراب كقوله:

كجلمود صخر حطه السيل من عل

أي من مكان عال^(١).

وجاء في (مغني اللبيب) في (عل): «اسم بمعنى فوق التزموا فيه أمرين: أحدهما استعمال مجرورا بـ (من).

والثاني استعماله غير مضاف،... ومتى أريد به المعرفة كان مبنياً على الضم تشبيهاً له بالغايات... ومتى أريد به النكرة كان معرباً كقوله:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

إذ المراد تشبيه الفرس في سرعته بجلمود انحط من مكان عال، لا من علو مخصوص^(١).

وكذلك الأمر في سائر أخواتها، فأنها إذا كانت معلومة بالقصد لا بإضافة، كانت مبنية على الضم وإلا كانت معربة.

ويشبهها في ذلك النكرة المقصودة في النداء، مثل (يارجل) بخلاف (يا رجلاً) فإن رجلاً الأولى مقصودة، وهي معرفة بالقصد وتسمى النكرة المقصودة، بخلاف الثانية فإنها غير مقصودة، ولذا فهي نكرة. فالمعرفة بالقصد في النداء مبنية على الضم نظيرة تلك في الإضافة بخلاف النكرة والمضافة.

جاء في (شرح ابن يعيش): وقيل بنيت على الضم لشبهها بالمنادي المفرد من نحو (يازيد) ووجه الشبه بينهما أن المنادي المفرد متى نكر أو أضيف أعرب... وإذا أفرد معرفة بني، وقد كان له حالة تمكن، وكذلك قبل وبعد، إذا نكر أو أضيف أعرب، وإذا أفرد معرفة بني^(٢).

فعلى هذا يكون الأمر كما يأتي:

إن هذه الظروف إذا لم تضاف كانت نكرة لا تدل على زمان أو مكان معين، وإن أضفتها كانت مقيدة بذلك المضاف إليه تخصيصاً أو تعريفاً، وإن بنيتها على الضم كان المعنى أنك قصدت بها زماناً معيناً أو مكاناً معيناً فأشرت إليه. فإذا قلت: (رأيت قبلاً) كان المعنى إنك رأيت فيما مضى، وكذا إذا قلت: (أبدأ بذا أولاً) فإن المعنى أبدأ به مقدماً ولم تتعرض للتقدم على ماذا^(٣).

(١) مغني اللبيب (١/١٥٤)، وانظر حاشية الخضري (١٦/٢).

(٢) شرح ابن يعيش (٨٦-٨٧).

(٣) شرح ابن يعيش (٨٨/٤)، شرح شذور الذهب (١٤٣).

وإذا قلت: (رأيتَه قبل محمد) أو (قبل مدة طويلة) كان مقيداً بقيد الإضافة، نكرة أو معرفة.

وأما قولك: (رأيتَه قبلَ) فهو تعبير قليل، ولا يصح إلا إذا كان هناك لفظ معين قامت القرينة عليه فحذفته لذلك وأبقيت المضاف على حاله كأنَّ المضاف إليه مذكور في الكلام.

فإن قلت: (رأيتَه قبلَ) قصدت به زمناً معيناً معلوماً وهذا الزمن معرفة، وكذا أن قلت (سقط من علِّ) فإن المعنى أنه سقط من علِّ مخصص، بخلاف ما لو قلت (سقط من علِّ) فإن المعنى سقط من مكان عال غير معلوم، والله أعلم.

حذف المضاف:

يحذف المضاف كثيراً في الكلام بدلالة القرائن الدالة عليه، ولحذفه أغراض أهمها:

١- التجوز في الكلام والانساع فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] والمعنى عندهم، ولكنَّ ذا البر من آمن بالله، أو ولكن البر بر من آمن بالله^(١)، قالوا وذلك لأنَّ البرَّ مصدر و(من آمن) جثة، فلا يخبر بالذات عن المصدر^(٢). ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ أَتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩].

والحق أنه ورد في اللغة الأخبار بالذات عن المصدر، وبالمصدر عن الذات لقصد التجوز والمبالغة، فمن الأول ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ أَتَّقَى﴾ ونحوه، والقصد منه تجسيد المعاني وتحويلها إلى شخوص حيّة متحركة تراها العيون، فقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ﴾ يفيد أنَّ البر إذا تجسّد كان شخصاً مؤمناً بالله واليوم الآخر، فهو بذلك جعل البر شخصاً يمشي على رجلين له سماته وصفاته.

ومن الثاني أعني الأخبار بالمصدر عن الذات قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] فقد أخبر عن ابن نوح بقوله (عمل غير صالح)، والقصد منه تحويل الذات

(١) «كتاب سيبويه» (١/١٠٨).

(٢) انظر «شرح ابن يعيش» (٣/٢٤).

الى حدث بعكس القسم الاول، والمعنى في الآية أنّ ابنك يأنوح تحوّل الى عمل غير صالح ولم يبق فيه شيء من عنصر الذات.

وهذا التحويل والتجوّز لا يؤديه التقدير، فإنك إذا قدّرت كما قدّر النحاة (إنه ذو عمل غير صالح) أو (ذا البر من آمن) لم يبق فيه شيء من هذا المعنى، فلا داعي لتقدير مضاف أو نحوه، فإنّ لكل تعبير دلالة ومعناه.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حبّ العجل^(١)، لأن العجل لا يشرب في القلوب.

وهو نظير ما مرّ من ارادة التجوّز، والمعنى إن قلوبهم كأنما أشربت عجل الذهب حقيقة فكان في تكوينها وتركيبها، ولا يؤدي هذا المعنى تقدير كلمة (حب).

ومنه قولهم (بنو فلان يطوّم الطريق) وهو مجاز عقلي، والمعنى يطوّم أهل الطريق ولكنه أسند الوطء إلى الطريق تجوّزاً.

جاء في (الكتاب): ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. إنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية...

ومثل ذلك من كلامهم: بنو فلان يطوّم الطريق، وإنما يطوّم أهل الطريق^(٢).

فهذا في الحقيقة تعبير مجازي، يؤدي معنى لا يؤديه المقدر، ولذا نحن لا نرى في هذا تقديرأ لأنه يفسد الغرض الفني الذي صيغ من أجله.

٢- الحذف للاختصار، وذلك إذا دلّ عليه المعنى نحو قولهم: «هذه الظهر أو العصر أو المغرب، إنما يريد صلاة هذا الوقت، واجتمع القيظ يريد اجتمع الناس في القيظ، وقال الحطيئة:

(١) «شرح ابن عقيل» (١٧/٢).

(٢) «كتاب سيويه» (١٠٨/١-١٠٩).

وشرّ المنايا ميّت وسط أهله كهلك الفتى قد أسلم الحيّ حاضره

يريد منية ميّت. وقال الجعدي:

وكيف تواصل من أصبحت خلّالته كأبي مرحب

يريد كخلّالة أبي مرحب^(١).

ومن ذلك قوله الشاعر:

المال يزري بأقوام ذوي حسب وقد يسودّ غير السيد المال

أي فقد المال يزري^(٢).

ومنه قولك: (جئت طلوع الشمس) أي وقت طلوع الشمس و(انتظرني صلاة ركعتين) أي مقدار صلاة ركعتين، وهو مفهوم من الكلام.

٣- الإستغناء بدلالة المضاف المذكور على المحذوف إذا دلّت عليه قرينة، وذلك نحو قولك: (أبو محمد وخالد حاضران) فإنّ المعنى أبو محمد، وأبو خالد حاضران بدليل قوله (حاضران) إذ لو لم يرد ذلك لقال (حاضر). فإنك إذا قلت: (أبو محمد وخالد حاضر) كان المعنى إنّ أباهما حاضر، وإن قلت (حاضران) كان المعنى إنّ أبويهما حاضران فنشيت إشارة إلى أنهما أثنان لا واحد.

ونحوه أن تقول: (كتاب سعيد وخالد ممزقان) فدلّ قولك (ممزقان) على أنهما كتابان لا كتاب واحد، والمعنى: كتاب سعيد وكتاب خالد، ولو قلت: (ممزق) لكان كتاباً واحداً يعود إليهما.

(١) «كتاب سيبويه» (١/١٠٩-١١٠).

(٢) شرح ابن يعيش (٣/٢٤).

ومثله أن تقول: (ما مثل أخيك ولا أهلك يقولان ذاك)، فهذا لابد فيه من تقدير (مثل) أيضاً فيكون التقدير ما مثل أخيك ولا مثل أهلك يقولان ذاك^(١). لأنه لو كان المقصود بمثل أخيك وأهلك شخصاً واحداً لأخبر عنه بـ (يقول) فعلم بقوله (يقولان) أنهما شخصان لا شخص واحد.

فقد استغنيا بالمضاف المذكور عن المحذوف فقد دلت عليه القرينة.

حذف المضاف إليه:

قد يحذف المضاف إليه ويبقى المضاف على حاله كما لو كان المضاف إليه مذكوراً وأكثر ما يكون ذلك إذا استغني بالمضاف إليه المذكور عن المحذوف، وذلك نحو: (أخذت كتاب وقلم خالد). وهذا يدل على أن الكتاب والقلم هما لخالد، بخلاف ما لو قلت (أخذت كتاباً وقلم خالد) فيدل ذاك على أن القلم لخالد دون الكتاب.

ونحو هذا التعبير كثير وذلك نحو قولهم (قطع الله يد ورجل من قالها) وقوله:

سقى الأرضين الغيث سهلَ وحَزَنها

أي سهلها وحزنها، وقوله:

إلا عِلالة أو بدا هة قارح نهـد الجزاره

أي علالة قارح وبداهته^(٢).

ونحن هنا لا نريد أن نذكر الخلاف العقيم في موطن المضاف إليه المحذوف، أو هل هذا من باب حذف المضاف، إليه أو أن الأسمين مضافان إلى مضاف إليه واحد، فهذا خلاف لا طائل فيه، لأن المهم المعنى، والمعنى واحد، سواء قلت بهذا أم بذاك.

(١) انظر شرح ابن يعيش (٢٨/٣).

(٢) انظر «المقتضب» (٢٢٨/٤)، «شرح ابن عقيل» (١٨/٢)، «التصريح» (٥٦/٢-٥٧).

المصدر

المصدر هو الحدث المجرد، يستعمل أحياناً استعمال الفعل فيكون له فاعل، ومفعول به، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾ [البقرة: ٥٤]، وقوله الشاعر:

ضعيف النكاية اعداءه يخال الفراء يراخي الأجل
وقد يستعمل استعمال الأفعال اللازمة نحو: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

المصدر الصريح والمؤول

أستعملت العربية نوعين من المصادر: مصادر صريحة ومصادر مؤولة، فمن المصادر الصريحة قولك (أعجبني أنطلقك) ومن المؤولة قولك (أعجبني أن تنطلق). وهناك أختلاف بينهما في المعنى، والأستعمال، فقد يقع المصدر الصريح في مواطن لا يقع فيها المؤول وبالعكس، وقد يؤدي أحدهما معنى لا يؤديه الآخر. فمن الأختلاف في الأستعمال:

١- أن المصدر المؤول قد يسدّ مسدّ المسند، والمسند إليه، نحو (ظننت أنك ذاهب) و﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ [العنكبوت: ٢] ولا يسدّ المصدر الصريح مسدّهما، وذلك أن المصدر المؤول في الأصل جملة لها معناها الحاصل من الأسناد، أوقعها الحرف موقع المفرد بخلاف المصدر الصريح، فإنه مفرد أصلاً.

٢- إن المصدر المؤول يسدّ مسدّ خبر فعل الرجاء^(١) أو مسدّ فاعله نحو: ﴿وَتَسْقَى أَنْ

(١) نحن نرى أن (أن) ليست مصدرية في هذا الموطن كما ذكرنا.

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ و﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ولا يسدّ ذلك المصدر الصريح.

٣- ينوب المصدر الصريح عن ظرف الزمان ولا ينوب عن ذلك المؤول، تقول (جئتكَ غروب الشمس) أي وقت غروبها و(جئت قدوم الحاج) أي وقت قدومهم، ولا تقول (جئتكَ أن تغرب الشمس) ولا (جئت أن قدم الحاج).

٤- يكثر حذف حرف الجر مع أن وأن نحو ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] أي لأن صدوكم و(عجبت أن أخاك ناجح) أي من أن أخاك ناجح، وهذا قياس إذا أتضح المعنى، وليس الأمر كذلك مع المصدر الصريح.

٥- يصح وصف المصدر الصريح، ولا يصح وصف المصدر المؤول، تقول: (يعجبني أنطلقك السريع) ولا يصح (يعجبني أن تنطلق السريع)^(١).

٦- ينوب المصدر الصريح، عن فعله نحو (صبراً آل ياسر) و(فصرب الرقاب) أي أصبروا واضربوا، ونحو (سقياً لك) و(أتوانياً وقد جدّ الناس؟) ولا ينوب عنه المصدر المؤول.

٧- يؤكد المصدر الصريح فعله^(٢) ويبين نوعه، وعدده، نحو (انطلقت انطلاقاً) و(انطلقت الانطلاق) و(انطلاق السهم) و(انطلاقتين) ولا يستعمل المصدر المؤول لذلك. الى غير ذلك من أوجه الخلاف في الإستعمال.

ثم إن لكل من المصدرين (الصريح والمؤول) غرضاً لا يؤدّيه الآخر، فمن ذلك:

١- أن المصدر المؤول يفيد الدلالة على الزمن، بخلاف المصدر الصريح، تقول (أعجبني أن قمت) و(أن تصبر خير لك) فهذا يفيد الدلالة على الماضي، أو الحال، أو المستقبل، بحسب الفعل بخلاف المصدر الصريح، فإنك إذا قلت (صبرك خير لك)

(١) انظر المغني (٢/٦٧٩)، «الهمع» (١/١٥١-١٥٢)، الأشباه والنظائر (٢/١٩٥).

(٢) حاشية الصبان (١/١٧٦).

أحتمل الماضي والحال والاستقبال لأنه ليس في صيغته ما يدل على تحديد زمن^(١).

ثم إضافة إلى أنه يستعمل للتمييز بين ما هو واقع، وما سيقع، يستعمل أيضاً للدلالة على المأمور، أو المنهي عنه، أو المدعو به، وما إلى ذلك نحو (أشرت إليه بأن قم) أو بأن لا تقم وبأن حفظك الله وهذا يختلف عما سبق أن ذكرناه من نيابة المصدر الصريح عن فعله فهذا ليس من باب النياية، وإنما هذا مدلول المصدر المؤول، ولو أبدلت الصريح به لم يفهم المعنى نفسه.

٢- أن المصدر المؤول ولا سيّما مع (أن) يدل على مجرد معنى الحدث دون احتمال زائد عليه، ففيها [يعني أن] تحصين من الأشكال، وتخليص له من شوائب الأجمال، بيانه أنك إذا قلت: (كرهت خروجك) و(أعجبني قدومك) أحتمل الكلام معاني، منها أن يكون نفس القدوم هو المعجب لك دون صفة من صفاته، وهيأته، وإن كان لا يوصف في الحقيقة بصفات ولكنها عبارة عن الكيفيات، واحتمل أيضاً أنك تريد أنه أعجبك سرعته أو بطؤه أو حالة من حالاته فإذا قلت: (أعجبني أن قدمت) كان [دخول] أن على الفعل بمنزلة الطباع والصواب من عوارض الاجمالات المقصودة في الازدهان^(٢).

وأيضاح ذلك أنك إذا قلت مثلاً (يعجبني مشي محمد) فقد يفيد ذاك أن في مشيه صفة معينة هي التي تعجبك فيه، ويحتمل أيضاً أنه يعجبك مجرد المشي من دون قصد إلى صفة معينة، ولكن إذا قلت (يعجبني أن يمشي) كان ذلك لمجرد المشي، لا لشيء آخر أو صفة خاصة، ونحو ذلك قول تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣] فإن قوله (زين للذين كفروا مكرهم) يحتمل أن مكرهم إنما زين لهم لما فيه من الدهاء والحيلة والاستدراج، ولو قال (زين للذين كفروا أن يمكروا) لكان المعنى أنه زين لهم أن يفعلوا مكرًا، لا أن مكرهم له صفة معينة هي التي تزينه لهم. ومثله.

(يعجبهم علمهم) و(يعجبهم أن يعلموا).

(١) انظر بدائع الفوائد (٩٢/١) وانظر المقتضب (٢١٤/٣).

(٢) بدائع الفوائد (٩٢/١-٩٣): زيادة اقتضاها.

٣- إنَّ (أَنَّ) والفعل قد تفيد الإباحة، ولا تفيد القطع بحصول الفعل، بخلاف المصدر الصريح، فإنه قد يفيد القطع بحصوله، وذلك نحو أن تقول (له صراخ صراخ الثكلى) فهذا يختلف عن قولك (له أن يصرخ صراخ الثكلى)، فإنَّ قولك (له صراخ) قطع بحصول الفعل، أي هو يصرخ، أما إذا قلت: (له أن يصرخ) فلا يفيد ذاك أنَّ الصراخ حصل وإنما المعنى يحق له أن يصرخ^(١)، كما تقول (لك أن تذهب الى البصرة) أي يحق لك.

٤- إنَّ المصدر المؤول يبين الفاعل من المفعول من نائب الفاعل ولا يبين ذلك المصدر الصريح، تقول (سأني أن يعاقب محمد) محمد نائب فاعل و(سأني أن يعاقب محمد) فمحمد فاعل و(سأني أن يعاقب خالد محمداً) فمحمد مفعول به، فإن قلت: (سأني معاقبة محمد) أحتمل أن يكون محمد فاعلاً ومفعولاً، ولا يبين المصدر الصريح نائب الفاعل، فإذا أردت بيان نائب الفاعل، وجب أن تأتي بالمصدر المؤول تقول: (عجبت من أن يضرب عمرو) فعمر و نائب فاعل، فإذا قلت: (عجبت من ضرب عمرو) تبادر إلى الذهن أنه فاعل^(٢)، إلا في تعبيرات محدودة.

٥- إنَّ لكل حرف من الحروف المصدرية معنى خاصاً به، فإذا جئت بالمصدر الصريح لم يتبين المقصود وذلك أن (أَنَّ) تفيد التوكيد و(أَنَّ) للاستقبال و(ما) للحال إذا دخلت على المضارع و (لو) للتمني و(كي) للتعليل، فإذا جئت بالمصدر الصريح أنتفى التمييز بينها فعلى سبيل المثال أنك تقول:

١- يسرني أن تذهب.

٢- يسرني أن ذهبت.

٣- يسرني أنك ذاهب.

(١) انظر شرح الرضي على الكافية (١/١٣١)، حاشية يس على التصريح (١/٣٣٣).

(٢) حاشية الصبان (٢/٢٨٣).

٤- يسرني أنك تذهب.

٥- يسرني أنك ذهبت.

٦- يسرني أنك ستذهب.

٧- يسرني لو ذهبت.

٨- يسرني ما ذهبت.

وهذه كلها تؤول. يسرني ذهابك.

٦- التمييز بين الصيغ ومدلولاتها، فإنه في المصادر المؤولة تستطيع أن تأتي بالفعل وأسم الفاعل، وأسم المفعول، والصفة المشبهة، وصيغ المبالغة، واسم التفضيل، فتفيد كل صيغة دلالتها من حدوث، وثبوت، وتكثير، وتفضيل، وغيرها، في حين لا يتأتى ذلك في المصادر الصريحة، فأنت تقول: (يعجبني أن محمداً ضارب، ومضروب، وضرباً وأضرب من غيره) في حين أنها كلها تكون بلفظ واحد في المصدر الصريح، تقول: (يعجبني ضرب محمد) أو تتكلف تعبيرات أخرى لا تؤدى مؤدى الأصل نحو: يعجبني أفضلية ضرب محمد أو كثرته، ونحو ذلك ففي المصدر المؤول من التمييز بين المعاني ما ليس في المصدر الصريح.

٧- يؤتى بالمصدر المؤول فيما ليس له مصدر صريح من الأفعال، كالأفعال الجامدة نحو: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥] و﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

٨- قد يؤتى بالمصدر الصريح لأرادة الحدث وحده، دون إرادة صاحبه، أو إرادة زمنه نحو (الحمد لله رب العالمين) فإنه يراد بالحمد مجرد الحدث، لا صاحبه، ولا زمنه، ونحو ﴿أَلَطَّلِقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ بِإِخْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ونحو ﴿هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧] و﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] و﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥] فإمساك وتسريع، وشقاق وغرور،

وضلال أحداث مجردة فجيء بها مصادر صريحة، ولا يراد معها أصحابها، ولو قال: (وما بعدهم الشيطان إلا أن يغرهم) لتغيير المعنى، ولو قال (وما كيد الكافرين إلا في أن يضلوا) لم يكن لذلك معنى.

٩- إيقاع الجمل المختلفة بدلالاتها المتميزة موقع المصدر في المصدر المؤول ولا يتأتى ذلك في المصدر الصريح وذلك كالجمل الفعلية والأسمية الكبرى والصغرى، المؤكدة بطرائق التوكيد المختلفة وغير المؤكدة، المثبتة والمنفية بأساليب النفي المختلفة، الشرطية وغيرها وما إلى ذلك من أنواع الجمل مما لا يتأتى في المصدر الصريح نحو ﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] و(أعلم أن لا إله إلا الله) و(علمت أن محمداً ذو مال كثير) و(علمت أن محمداً ماله كثير) و(علمت أن محمداً ليس له مال) و(علمت أن محمداً لا مال له) وغير ذلك.

وإليك مثلاً يوضح كيف أن المصادر المؤولة المختلفة ذات الدلالات المتعددة تؤول بلفظ واحد على تباينها:

١- يسرني أن محمداً ضرب.

٢- يسرني أن محمداً يضرب.

٣- يسرني أن ضرب محمد.

٤- يسرني أن قد ضرب محمد.

٥- يسرني أن قد يضرب محمد.

٦- يسرني أن محمداً ضرب.

٧- يسرني أن محمداً يضرب.

٨- يسرني أنه محمد ضرب.

٩- يسرني أنه محمد يضرب.

- ١٠- يسرني أنه قد ضرب محمد.
- ١١- يسرني أنه قد يضرب محمد.
- ١٢- يسرني أنّ محمداً سيضرب.
- ١٣- يسرني أنّ سيضرب محمد.
- ١٤- يسرني أنه سيضرب محمد.
- ١٥- يسرني أنه محمد سيضرب.
- ١٦- يسرني أن محمداً ضارب.
- ١٧- يسرني أنه محمد ضارب.
- ١٨- يسرني أنه ضارب محمد.
- ١٩- يسرني أنّ محمداً ضارب.
- ٢٠- يسرني أنّ ضاربٌ محمد.
- ٢١- يسرني أنّ محمداً إنه ضارب.
- ٢٢- يسرني أنّ محمداً إنه لضارب.
- ٢٣- يسرني أنّ محمداً أنه هو الضارب.
- ٢٤- يسرني أنّ محمداً ضراب.
- ٢٥- يسرني أنّه محمد ضراب.
- ٢٦- يسرني أنّ محمداً ضراب.
- ٢٧- يسرني أنّه ضراب محمد.
- ٢٨- يسرني أنّ ضرابٌ محمد.

٢٩- يسرني أَنَّ محمداً إِنَّه ضَرَاب.

٣٠- يسرني أَنَّ محمداً إِنَّه لَضَرَاب.

٣١- يسرني أَنَّ محمداً إِنَّه هو الضَّرَاب.

٣٢- يسرني أَنَّ محمداً أَضْرَب.

٣٣- يسرني أَنَّ محمداً أَضْرَب.

٣٤- يسرني أَنَّهُ محمداً أَضْرَب.

٣٥- يسرني أَنَّ محمداً أَنَّهُ أَضْرَب.

٣٦- يسرني أَنَّ محمداً أَنَّهُ لَأَضْرَب.

٣٧- يسرني أَنَّ محمداً أَنَّهُ هو أَضْرَب.

٣٨- يسرني أَنَّهُ أَضْرَبُ محمداً.

٣٩- يسرني أَنَّ محمداً مضروب.

٤٠- يسرني أَنَّهُ محمداً مضروب.

ونكتفي بهذا القدر، وهناك صور أخرى لهذا التعبير، وهذه كلها تؤول بتعبير واحد هو (يسرني ضربُ محمدٍ).

وبهذا يتضح لنا أَنَّ أحد المصدرين لا يغني عن الآخر، ولا يسدُّ مسدَّه بل لكل منهما خصائصه وغرضه.

الحروف المصدرية

في العربية حروف تسمّى الحروف المصدرية، وهي: (أَنَّ) و(أَنَّ) و(مَا) و(لَوْ) و(كَيْ). ووظيفة الحرف المصدرية، إيقاع الجملة موقع المفرد، فتوقعها فاعلاً، ومبتدأً، ومفعولاً به ومضافاً إليه، ومجرورة بحرف الجر، وغير ذلك.

تقول: (أَنْ تعدل في حكمك خير لك من أَنْ تجور) فأوقعت (تعدل) مبتدأ أخبرت عنه.

وتقول: (يسرني أَنْ تفوز) فجعلت فاعلاً.

وتقول: (سررت بأنك فائز) فأوقعت (أنت فائز) مجروراً بالحرف. وهكذا، ولا يتأتى ذلك لولا الحرف المصدرى.

وقد تقول: إذا كانت هذه الغاية من الحرف المصدرى، فلماذا تعددت الحروف المصدرية؟.

والجواب إنَّ هذه الأحرف ليست متطابقة من حيث الوظيفة، بل أنَّ لكل حرف معنى ووظيفة قد تختلف عن الآخر.

فـ (أَنْ): تدخل على الجمل الاسمية وتفيد التوكيد، نحو ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] بخلاف (أَنْ) الخفيفة الأصل فهي لا تفيد التوكيد، ولذا قالوا إذا وقعت (أَنْ) المشددة بعد أفعال الرجحان أفادت العلم، نحو: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وإذا وقعت الخفيفة لم تفد ذلك تقول (أظن أنَّ يأتي محمد).

والمخففة من هذه حرف مصدرى أيضاً يدخل على مالا تدخل عليه المشددة، كالأفعال الجامدة والانشائية وغيرها، نحو ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] و﴿وَالْوِاسْطِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهي تفيد التوكيد أيضاً كما أسلفنا في بابه.

أَنْ: وتدخل على الجمل الفعلية، وهي تدخل على المضارع فتصرفه الى الاستقبال غالباً نحو (أريد أن تأتيني) وتدخل على الماضي نحو ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، وتدخل على الأمر نحو ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦]، ونحو قولك (ناديتهم بأن أقدموا).

وقد تفيد التعليل نحو ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢]. وقد ذكر برجشتراسر أنها تفيد التعليل. جاء في غالتطور النحوي: وأخرجوا (أَنْ) عن كونها مصدرية محضة

فإن قولي: (أريد أن تفعل ذلك) يتعدى قولي: أريد فعلك، ذلك في أن نصب الفعل يقرب (أن) من (كي) كأنني قلت: (أريد كي تفعل ذلك) أي غرض إرادتي فعلك ذلك كما جاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. فالجمل المصدرية النائية عن مفعول فعل من أفعال الارادة والطلب وما يشاكلها، تقترب من الجمل الغرضية في جوهر معناها^(١).

غير أنني أخالفه في المثال الذي ذكره (أريد أن تفعل ذلك) فهذا لا يفيد التعليل، ولا شك أنه يعني بالغرض التعليل، خصوصاً وأنه نظرها بـ (كي) أما إذا كان يقصد بقوله (غرض) المعنى العام فإن كثيراً من المفعول به غرض، فإذا قلت (أريد كتاباً) كان الكتاب غرضاً، وإذا قلت (أود لقاءه) كان اللقاء غرضاً بهذا المعنى.

وقد وردت (أن) للتعليل كثيراً في القرآن الكريم، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] أي لأن صدوكم. وقوله: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمَٰعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْذَرُوا مَا يَنْفُقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقوله: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَذَا أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِذَا﴾ [مريم: ٩٠-٩١].

وقد تقول إن معنى التعليل لم يأت من (أن) وإنما هو من الحرف المقدّر اللام أو غيره.

وأقول: إذا كان بالامكان تقدير حرف يفيد التعليل في قسم من الأمثلة فقد يمتنع في قسم آخر، فمن الأول قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] أي لأن جاءه.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رِفَافٌ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فلا يصح إبدال (كي) أو اللام بها، فلا يصح للمعنى نفسه أن تقول (أتقتلون رجلاً كي يقول ربي الله) أو (ليقول ربي الله) واللام عندهم على تقدير (أن)، فمعنى الآية: أتقتلونه لأنه يقول ربي الله، ومعناها باللام أو بـ (كي) أتقتلونه حتى يقولها.

فمعناها بـ (أن) أنه يقولها ومعناها بـ (كي) وباللام أنه لا يقولها.

ومثله: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَمُنُّ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وهي كالأية السابقة.

وقد تقول أنه يصح أن أقول: (أقتلون رجلاً لأن يقول ربي الله)، للمعنى نفسه أو قريب منه، فأقول أن ذكر (أن) يؤدي معنى لا يؤديه حذفها، وابدال غيرها بها، فاللام عندهم على تقدير (أن)، ومع ذلك إذا حذف (أن) وجئت باللام تغير المعنى، في نحو هذا، فذكر (أن) يفيد نوعاً من التعليل لا يؤديه حذفها.

وهي تستعمل للتعليل مع الفعل الماضي بدلا من (كي) أو اللام، لأن هذين الحرفين لا يباشران الفعل الماضي، وذلك نحو ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، والنحاة يقدرون اللام في نحو هذا.

وجاء في (المقتضب) أنها تكون علة لوقوع الشيء^(١).

والخلاصة أنها استعملت في التعليل كثيراً، في الماضي، والمضارع من دون حرف يفيد العلة، ثم أن التعليل بها قد يختلف عن التعليل بـ (كي) واللام.

هذا من ناحية التعليل.

وأما من ناحية الزمن فإنها تصرفه لزمن الاستقبال غالباً، وذلك نحو: قوله تعالى ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] فالسؤال مستقبل، ونحو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وهذا ليس للتنصيص على الاستقبال بل يشمل الحال أيضاً، وكقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَوَاحِشٌ مِّنَ الدَّمَعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْذَرُوا مَا يَنْفُقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] وهم لا يجدون ما ينفقون في الحال، ونحوه قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ [هود: ١٢] ف (أن يقولوا) ليس تنصيصاً على الاستقبال، بل هو يفيد الحال، وما قبل الحال أيضاً، لأن هذا القول صدر منهم قبل نزول الآية.

وكقوله تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَن يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] فقوله (أن) تميد) غير متخصص بالاستقبال، بل هو يشمل الزمان المتطاوّل الممتد من قبل خلق الإنسان على الأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن

(١) المقتضب (٣/٢١٤).

يَذَرُهُمْ بَعِيرٌ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٤٠]﴾ وهم أخرجوا لأنهم قالوا ذلك ومستمرون على قوله أيضاً، وقوله ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٤، ٢٥]، والمقصود به (ألا يسجدوا) الحال.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]. وقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وإن كل ذلك ليس فيه تنصيص على الاستقبال.

ونحوه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدِي﴾ [ص: ٧٥] وهو لم يسجد في الماضي، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وهما قائمتان بأمره لم تزال ولا تزالان.

غير أنه يمكن أن يقال إن أغلب ما ذكرنا من الأمثلة يفيد الاستمرار الذي منه الاستقبال فتكون دلت على الاستقبال ضمناً لا تنصيصاً، ولا ينطبق هذا على نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ فيما أحسب فإن هؤلاء قد يجدون في الاستقبال ما ينفقون، والله أعلم.

ها: و(ما) تدخل على الفعل المتصرف في الغالب، ماضياً كان أو مضارعاً، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] وقوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُخْتَرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] أي من إجرامكم، وقوله: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ [طه: ١٥] أي بسعيها، وقد تدخل على غير ذلك قليلاً، نحو (بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية)، وقوله:

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام المخلص

وقيل (ما) كافة لـ (بعد) من الإضافة^(١).

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ٤٢٨/٢، «المغني» (١/٣١١).

وهي إذا دخلت على الفعل المضارع أفادت الحال^(١)، نحو ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ونحو ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد تكون زمانية نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْذِرُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤] أي مدة دوامهم فيها، وقوله: ﴿فَأَنقُزْ لَهَا مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، أي مدة استطاعتكم.

✶ وقد ذكر برجشتراسر أنَّ التطابق كثير بين (أَنْ) و(أَنَّ) و(مَا). قال: وإذا تساءلنا عن الفرق بين (أَنْ) و(أَنَّ) وبين (مَا) مع صرف النظر عن الحالات التي تفي فيها (أَنْ) بوظيفة خاصة بها، فنعمل في نصب الفعل، وجدنا أنَّ التطابق بينها كثير، مثاله من القرآن الكريم ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغِيرًا نِعْمَةً﴾ [الأنفال: ٥٣] و﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ [البقرة: ٦١] ف (أَنْ) و(مَا) معناهما واحد، ومنه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧] و﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]. وعلى العموم ف (مَا) أندر كثيراً من (أَنْ) و(أَنَّ) ويقل استعمالها تدريجياً مع تطور اللغة العربية، غير أنَّها احتفظت بها في بعض الأحوال نحو (قل ما وجد مثل ذلك) و(طالما) و(بش ما)...

وقد تميز العربية بين (أَنْ) و(أَنَّ) وبين (مَا) في المعنى، وأشهر مثال لذلك هو الفرق بين (كَأَنَّ) و(كَانَ) وبين (كَمَا) ف (كَأَنَّ) و(كَانَ) تفيدان فرض كون الشيء غير ما هو عليه في الحقيقة و(كَمَا) تفيد التشبيه والتمثيل الحقيقي، مثال ذلك ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] والجبل لم يكن ظلةً أو مثل ظلة، بل كان ضدها في المتانة والرسو، والمعنى لو كان الجبل كظلةً لكان نتقه ورفعه وزلزله قريباً من الاحتمال فلأنه لم يكن كظلةً كان نتقه من المعجزات. و(كَمَا) مثل (آمنا كما آمن الناس) يعني إيماننا مثل إيمانهم^(٢).

(١) أنظر «التصريح» (٦٢/٢)، «الهمع» (٩٢/٢).

(٢) «التطور النحوي» (١٢٦-١٢٧).

والحق أنه ليس ثمة تطابق بين هذه الاحرف، ف (أَنَّ) تفيد التوكيد، وأما (أَنْ) و(ما) فبينهما أوجه اختلاف منها:

١- أَنَّ (أَنْ) تفيد الاستقبال في الغالب، و(ما) تفيد الحال، وذلك إذا دخلنا على الفعل المضارع، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] ف (يَبْسُطُوا) المقصود به الاستقبال، ولو قال (ما يَبْسُطُونَ) لكان للحال، وقوله ﴿هَلْ أَتَعْبَكُ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] أي شريطة أن تعلمني، فالتعليم في المستقبل، ولو قال (على ما تعلمني) لكان المقصود به الحال.

وقوله: ﴿فَذَرِهِمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢] و﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُخْرِجُونَ﴾ [هود: ٣٥] فهذه كلها للحال بعكس (أَنْ).

٢- أَنَّ (ما) قد تكون ظرفية زمانية بخلاف (أَنْ) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقوله ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وقولك: (أنت مفلح ما تفعل الخير) أي مدة فعلك الخير.

٣- أَنَّ (ما) تكون اسماً موصولاً وتكون حرفاً مصدرياً، وفي قسم من التعبيرات يحتمل الكلام المعنيين، فيكون من باب التعبير الاحتمالي الذي سبقت له نظائر، وذلك نحو ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] فقد يحتمل المعنى ساء عملهم وساء الذي يعملونه، وقوله: ﴿يَتَأَيَّهَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الزخرف: ٤٩] فالمعنى يحتمل أدع ربك بعهدك عندك، ويحتمل بالذي عهده عندك، ونحوه قوله: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] فهذا يحتمل يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي، ويحتمل أنه ياليتهم يعلمون بالشيء الذي غفر لي به ربي.

ونحوه أن تقول: (صبرت على ما كذبتني) فالمعنى يحتمل (صبرت على تكذبي) ويحتمل صبرت على ما كذبتني به، أي الشيء الذي كذبتني به ونحوه أن تقول (صدق ما عاهد الله) فهذا يحتمل أنه صدق عهد الله، ويحتمل صدق ما عاهد الله عليه، أي صدق الشيء الذي عاهد الله عليه.

أما (أَنَّ) فلا تكون إلا مصدرية.

وبذا قد تؤدي (ما) أكثر من معنى أحياناً.

٤- ولكون (ما) كذلك أي أنها قد تكون مصدرية، وقد تكون اسماً موصولاً وقد تحتمل المعنيين أحياناً يؤتى بـ (أَنَّ) إذا أريد التنصيص على المصدر، وبخاصة إذا كان مجيء (ما) قد يصرف الكلام الى معنى آخر، وذلك نحو قوله تعالى ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] فلو أبدلت (ما) بـ (أَنَّ) لكان المعنى أنهم لا يودون ما ينزل عليكم، أي لا يودون الخير النازل عليكم من الله، وكقوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢]، أي لمجيء الأعمى، ولو قلت: عبس وتولى لما جاءه الأعمى أو بما جاءه الأعمى لكان المعنى: عبس للشئ الذي جاء به الأعمى ولم يأت الأعمى بشيء، وإنما عبس لمجيئه لا لشيء جاء به، ولو قال (عبس وتولى ما جاءه الأعمى) لكان المعنى أنه عبس وتولى كلما جاءه الأعمى، وكلا المعنيين غير مراد.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، والمعنى انكم لا تشاؤون إلا بمشيئة الله، أي إلا إذا شاء الله، ولو قيل (وما تشاؤون إلا ما يشاء الله) لكان المعنى أنكم لا تشاؤون إلا الشيء الذي يريده الله ويشاؤه. وهذا غير مراد ولا يصح.

٥- الاصل في مصدر (ما) أن يكون مخصوصاً، وفي مصدر (أَنَّ) أن يكون لارادة مجرد الحدث، وهذا فرق رئيس بين استعماليهما، ولذا لا يحسن وضع احدهما مكان الاخرى أحياناً، فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥] يصح فيه تأويل (مما قضيت) بمصدر فتقول: (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً من قضائك)، ولكن مع ذلك لا يحسن وضع (أَنَّ) مكان (ما) فلا تقول: (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً من أن قضيت) لأن المعنى سيكون عند ذلك: عليهم ألا يجدوا في أنفسهم حرجاً من كونك تقضي، أو من مبدأ أنك تقضي، وليس هذا المقصود، وليس في أنفسهم

خرج من ذلك، بل المقصود أن عليهم أن يرضوا بما يقضي، ولو كان لا يوافق هواهم ورغبتهم، ليس في أنفسهم حرج من ذلك، لا من مجرد أنه يقضي، فيكون مصدر (ما) مخصوصاً، وقد يراد بـ (ما قضيت) المقضي به أي أسم موصول.

ونحوه قوله سبحانه ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فإنه يصح تأويل (عما يصفون) بـ (عن وصفهم)، غير أننا لو أبدلنا (أن) بـ (ما) لوجدنا أن المعنى يختلف، فلو قلت: (سبحانه وتعالى عن أن يصفوا) لكان المعنى تنزيه الله عن مجرد الوصف، وليس هذا المقصود، إذ لا شك أن الله له الصفات العيا، وانما المقصود تنزيهه عن الوصف الباطل والصفات التي لا تليق به سبحانه، ويحتمل أن تكون (ما) اسماً موصولاً، أي عَمَّا يصفونه به من الصفات الباطلة.

ونحوه قوله: ﴿أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وهذا يحتمل أن المعنى: أفتهلكنا بفعل المبطلين، ومع ذلك لا يصح ابدال (أن) بـ (ما) فلا تقول: أفتهلكنا بأن فعل المبطلون، فإن الاول فعل مخصوص، وهو الذي يؤدي الى الاهلاك. أما الثانية فيكون المعنى أفتهلكنا لان المبطلين فعلوا، ولا ندري ما فعلوا، فالفعل اولال مخصوص معلوم بخلاف مصدر (أن)، ويحتمل أن تكون (ما) اسماً موصولاً أيضاً.

ومثله قوله تعالى: ﴿صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨]، والمعنى برحبتها. ولو قلت: (بأن رحبت) لكان المعنى أنها ضاقت عليهم بكونها رحبة، وهو معنى متناقض غير مراد.

ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]، والمقصود به نسيان مخصوص وهو العهد الذي بينهما، ولو قال (بأن نسيت) لاحتمل المعنى أنه آخذه بمبدأ النسيان أي آخذه لكونه نسي، أي لمجرد حصول النسيان عنده.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، أي يسعيها، ولو أبدلت (أن) بها فقلت: (لتجزى كل نفس بأن تسعى) تغير المعنى، وأصبح أنها تجزى لأنها تسعى، فالأولى سعي مخصوص تجزى به أن كان خيراً فخير، أو شراً فشر. والثانية أنه مطلق السعي فهي تجزى لأنها تسعى وليس فيها المعنى الأول.

ونحو قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: يلبثكم، والمقصود به زمن لبتكم ومدته، ولو قال: (ربكم أعلم بأن لبستم) لكان المعنى أن ربكم يعلم بأنكم لبستم، وهذا غير مراد، فالأولى لبت مخصوص بخلاف الثانية. فمصدر (ما) مخصوص محدود، بخلاف مصدر (أن) فإنه لمجرد الحدث، وهذا فرق رئيس بينهما كما ذكرت.

٦- إن (أن) تستعمل للتعليل كما ذكرنا بخلاف (ما) وهي تقوم مقام حرف التعليل مع الأفعال الماضية، وذلك نحو: ﴿وَعَجَزُ الْهَمَلُ هَذَا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَهَا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. وقد يقولون إن (ما) وردت للتعليل أيضاً، نحو: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا فُسُوا يَوْمَ الْحَسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، لقوله: ﴿إِنَّا جَزَيْنَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [المؤمنون: ١١١]. والحق أن (ما) لم تأت للتعليل إلا مع حرف يفيد التعليل، أما (أن) فهي حيث وردت للتعليل منزوعة من حروف التعليل في القرآن الكريم، إلا في نحو قوله تعالى: ﴿ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقد مر بنا هذا.

٧- ثم أنهما يختلفان من حيث التعليل، وذلك أن تقول مثلاً (عاقبتك بما ذهبت إلى القرية) أي عاقبتك بسبب ذهابك، ولو قلت: (عاقبتك بأن ذهبت إلى القرية) احتمل هذا المعنى واحتمل أنه عاقبه بالذهاب، أي جعل ذهابه هو العقوبة.

ونحوه أن تقول: (لقد جزاك الله بما كتبت من المصلحين) و(جزاك الله بأن كنت من المصلحين) فالأولى معناها أنه جزاك بسهولة كونك من المصلحين، والثانية تجتمل السببية، وتحتمل أنه جزاه بأن جعله من المصلحين، فالجزاء هو جعله من المصلحين.

٨- التشبيه بـ (ما) يختلف عن التشبيه بـ (أن) وذلك نحو قولك: (اضرب كما ضرب خالد) أي أن خالدًا ضرب فاضرب أنت كضربه، ولو قلت (اضرب كأن ضرب خالد) لكان المعنى: اضرب كأن خالدًا ضرب، ولا يدل على أن خالدًا ضرب، فزيد أن يضرب مثله، وإنما المعنى: اضرب كأن الضارب خالد، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ولو قال (فاستقم كأن أمرت) لكان المعنى: استقم كأنك أمرت، ولم يفد أنه مأمور حقيقة، إلى غير ذلك من أوجه الخلاف.

ويفيد التعليل، نحو جئت كي استفيد، جاء في (لسان العرب): كي حرف من حروف المعاني ينصب الأفعال بمنزلة (أن) ومعناه العلة لوقوع الشيء، كقولك: جئت كي تكرمي... الجوهرية: وأما (كي) فجواب لقولك: كم أفعلت كذا؟ فتقول: كي يكون كذا. وهي للعاقبة كاللام^(١).

وعند بعضهم أنها لا تفيد التعليل، وإنما التعليل من اللام المقدر، فإذا قلت: جئت
 كي استفيد فإذا قدرت (كي) مصدرية، وجب تقدير اللام قبلها، أي: جئت لكي استفيد،
 واللام تفيد التعليل^(٢)

والراجح أنها للتعليل، كما هي في الجارة، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في بابه
 لعلنا نذكر ما ذكره في كتابنا من أن قوله تعالى: ﴿وَمَا فِي مَعْنَاهَا﴾
 قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] جاء في (الكشاف) في قوله تعالى:
 ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾: فإن قلت لم رفع فَيُدْهِنُونَ ولم ينصب باضممار (أن) وهو
 جواب التمني؟

(1) Declaratory Judgment - Rule 57

1945-1946

(١) «لسان العرب» (٢٠/١٠١).

1950年12月15日

(٢) انظر «المغنى» (١/١٨٢).

قلت: قد عدل به إلى طريق آخر^(١).

ولذا اذا لم يقصد معنى التمني بعد (ود) فلا يؤتي بها، قال تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونُ لَمْ جَنَّةٍ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقال: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

اسم المصدر

ذهب النحاة الى أن اسم المصدر هو ما ساوى المصدر في الدلالة على الحدث وخالفه بخلوه من بعض حروف فعله لفظاً وتقديراً دون تعويض^(٢)، وذلك كالعطاء والثواب والسلام والكلام والعشرة.

وحق المصدر أن يتضمن حروف فعله بمساواة، نحو تعلّم تعلماً، أو بزيادة نحو أعلم إعلاماً^(٣)، فإن نقص عن حروف فعله دون عوض أو تقدير كان اسم مصدر، فاعطاء مصدر لأعطى، واما العطاء فاسم مصدر لأنه خلا من الهمزة التي في أوله دون عوض. والتكلم مصدر تكلم، اما الكلام فهو اسم مصدر لتكلم لأنه خلا من التاء دون عوض. وقد تقول أن الألف قبل الآخر عوض عن التاء، غير أن النحاة لا يعدون المدة التي قبل الآخر عوضاً لأن العوض يكون في الأول، أو في الآخر، بدليل ثبوتها في المصدر دون

(١) «الكشاف» (٢٥٧/٣) وانظر «جواهر الأدب» (١٥٦).

(٢) انظر «شرح الأشموني» (٢٨٧/٢).

(٣) «شرح الأشموني» (٢٨٧/٢).

تعويض كالانطلاق والاكرام والاستخراج^(١).

والمصدر المعوض نحو (عدة) و(زنة) فإنّ فعليهما (وعد) و(وزن)، فحذفت الواو وعوض عنها التاء في الآخر، ونحو تعليم وتسليم فإنّ فعليهما، علّم وسلّم، فإنّ التاء عوض، عن أحدى اللامين^(٢).

وعندي أنّ أسم المصدر أيضاً ما خرج عن قياس المصدر فيما كان فيه المصدر قياساً نحو عشرة وقُبلة فإنّ (عشرة) أسم للمعاشرة، وفعله (عاشر)، وقد حذف الالف منه، وعلى مقتضى قول النحاة ينبغي أن يكون مصدراً وذلك لأنه عوض عن الألف المحذوفة بالتاء في آخره، ومثله الهجرة من هاجر وقبلة من قبل مع أنهم يقولون أنها أسماء مصادر^(٣) وليست مصادر.

وأسم المصدر يدل على الحدث عندهم كالمصدر، فالعطاء معناه الأَعْطاء، والقبلة معناها التقييل، والعذاب معناه التعذيب، ولذا عمل عمل المصدر. قال الشاعر:

بعشرتكَ الكرام تُعَدُّ منهم فلا ترين لغيرهم الوفا
أي بمعاشرتكَ، وقال الآخر:

قالوا كلامك هنداً وهي مصغية يشفيك قلت صحيح ذاك لو كانا
أي تكليمك.

وفي موطأ مالك عن عائشة رضي الله عنها (من قبلة الرجل زوجته الوضوء) أي تقيل^(٤).

(١) «الصبان» (٢/٢٨٧).

(٢) انظر «الصبان» (٢/٢٨٧).

(٣) انظر «شرح الاشموني» (٢/٢٨٨) في العشرة والقبلة.

(٤) انظر «شرح الاشموني» (٢/٢٨٧-٢٨٨).

وقيل أيضاً أنّ المصدر يدل على الحدث، واسم المصدر يدل على الشيء أو الذات، ونحو ذلك العطاء والاعطاء، فالاعطاء هو الحدث، والعطاء اسم لما يعطى، والغسل فعل الغاسل، أي الحدث والغسل الماء يغتسل به^(١) والتغيبيل هو فعل المقلب، والقابلة اسم لذلك.

وهو عند البصريين لا يعمل، لأن أصل وضعه لغير المصدر، بل للاسم، وأعماله رأي الكوفيين^(٢٠)، وقد أخذ به النحاة المتأخرون.

والذي يترجح عندي أن الاصل في أسم المصدر أن لا يدل على الحدث بل وضع للدلالة على الاسم، فالقرض ما سلفت، وأما الأقراض فمصدر أقرض وهو الحدث.

والإمطار مصدر أمطر، والمطر بالسكون مصدر مطر، وأما المطر بالفتح فماء السحاب.

وَالرِّزْقُ بِالْفَتْحِ مَصْدَرُ رَزَقَ وَهُوَ الْحَدَثُ، وَالرِّزْقُ بِالْكَسْرِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ.

والْحَمْلُ بِالْفَتْحِ مُصْدَرُ حَمَلَ، وَالْحَمْلُ بِالْكَسْرِ مَحْمُولٌ
وَالْوُقُودُ بِالضَّمِّ الْمَصْدَرُ، وَالْوُقُودُ بِالْفَتْحِ الْحَطَبُ.

والتكليم المصدر، والكلام أسم لما يخرج من الفم من اللفظ، وكان مفيداً تاماً.
وهو لا يكون فقط بالحذف دون تعويض، بل يكون بتغيير الحركات أيضاً، كالذَّهْن
والدَّهْن والكُخْل والكُخْل، فالذَّهْن مصدر دَهَن، والدَّهْن الاسم، والكُخْل مصدر كَحَلَ
والكُخْل أسم لما يكحَل به، والحَمْل والحِمْل والغَمْل والغَمْل.

ومما يدل على أن أسماء المصادر ليست للحدث في الأصل أننا نقول: السلام عليكم
ولا نقول: التسليم عليكم، لأن السلام أسم وهو الأمان. أما التسليم فهو الحدث،

[illegible]

(١) انظر حاشية «يس على التصريح» (٢/ ٦٤)، «الأشعوني» (٢/ ٢٨٨)، «في أصول الفقه» (٢/ ٢٨٨).

(٢) انظر «التصريح» (٢/٦٤)، «شرح الأشموني» (٢/٢٣٨)، (٢/٢٣٨) في بعض النسخ.

الأتباع على محل المضاف إليه

ذهب قسم من النحاة الى أنه يجوز الأتباع على محل ما أضيف إليه المصدر، أو على لفظه، فمثلاً يصح أن تقول: (عجبت من اكرام خالدٍ ومحمد) أو (محمداً) وساءني أهانة خالد الكريم) أو (الكريم).

وذهب سيبويه ومن تابعه من البصريين إلى أنه لا يجوز الاتباع على المحل، بل على التقدير^(١).

جاء في (كتاب سيبويه): «وتقول عجبت من ضرب زيد وعمرو، إذا أشركت بينهما كما فعلت ذلك في الفاعل، ومن قال (هذا ضارب زيد وعمراً) قال (عجبت له من ضرب زيد وعمراً) كأنه أضمر: ويضرب عمراً أو: وضرب عمراً»^(٢).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «إذا عطفت على ما خفض بالمصدر جاز لك في المعطوف وجهان:

أحدهما أن تحمله على اللفظ فتخفضه وهو الوجه.

والآخر أن تحمله على المعنى، فإن كان المخفوض مفعولاً في المعنى نصبت المعطوف، وإن كان فاعلاً رفعته فتقول: (عجبت من ضرب زيد وعمرو) وإن شئت (وعمراً) فهو بمنزلة قولك: هذا ضارب زيد وعمرو وعمراً.

وإنما كان الوجه الجز لتشاكل اللفظين، واتفاق المعنيين.

وإذا نصبت قدر المصدر بالفعل، كأنك قلت عجبت من أن ضرب، أو من أن يضرب ليحقق لفظ الفاعل والمفعول.

(١) انظر «الرضي على الكافية» (٢/٢١٩)، «شرح الأشموني» (٢/٢٩١).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٩٨).

والنعت في ذلك كالعطف، في جواز الحمل على اللفظ والمعنى تقول فيه: «عجبت من ضرب زيد الظريف» بالخفض على اللفظ، والظريف بالرفع على المعنى^(١).

وخلاصة الأمر أنه يجوز العطف على غير اللفظ على كلا الرأيين، إلا أنه على مذهب سيبويه يكون بتقدير محذوف، وعلى غير مذهبه يكون العطف على المحل، فعلى مذهب سيبويه وغيره يصح أن تقول (ساءني ضرب محمد وعمراً)، غير أن التوجيه يختلف.

والغرض من الأتباع على المحل إيضاح الفاعل من المفعول، فتقول (عجبت من أكرام خالد اللثيم أو اللثيم) فرفع اللثيم يدل على أن خالداً فاعل في الأصل، ونصبه يدل على أنه مفعول به.

وتقول: (أعجبني أكرام خالد أخوك، أو أخاك) على البديل للغرض نفسه، وكذلك (عجبت من ضرب زيد، وخالداً، أو خالداً).

ومقتضى ما ذهب إليه سيبويه أن الدلالة تختلف من وجه آخر، وذلك أنه يقدر فعلاً محذوفاً والفعل يدل على الحدث بخلاف الإسم الذي يدل على الثبوت، فإن قولك (عجبت من ضرب زيد وعمرو) يدل على أن الضرب لهما واحد، من حيث الدلالة على الثبوت.

وأما قولك (عجبت من ضرب زيد وعمراً) فإن قدرته (وأن يضرب عمراً) كان الضرب لعمرو في الاستقبال، وأن قدرته (وأن ضرب عمراً) كان الضرب له في الماضي بخلاف (عجبت من ضرب زيد) فإنه ليس نصاً على زمن بعينه، بل هو يحتمل ذلك كما يحتمل الاستمرار والثبوت.

(١) «شرح ابن يعيش» (٦٥/٦٦).

وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْدُ مَخْلَصًا لِمُؤْمِنِي﴾ [الزمر: ٤١]. وهو للحال. ^(١)

جاء في (الكتاب): «هذا باب من أسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى، فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في (يفعل) كالأ ميتوناً متكوراً وذلك قولك: (هذا ضاربٌ زيداً غداً) فمعناه وعمله (هذا يضرب زيداً)، وإذا حدثت عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك، وذلك قولك: (هذا ضاربٌ عبد الله الساعية) فمعناه وعمله (هذا يضرب زيداً الساعة) و(كان زيداً ضارباً أباك) فإنما يحدث أيضاً عن اتصال فعل في حين وقوعه، و(كان موافقاً زيداً) فمعناه وعمله، كقولك (كان يضرب أباك) ويوافق زيداً) فهذا كله أجري مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى ميتوناً» ^(١)

وجاء في (معاني القرآن) في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] «ولو نونت في (ذائقة) ونصب (الموت) كان صواباً، وأكثر ما تختار العرب التنوين والنصب في المستقبل. فإذا كان معناه ماضياً لم يكادوا يقولون إلا بالإضافة فأما المستقبل فقولك (أنا صائم يوم الخميس) إذا كان خميساً مستقبلاً، فإن أخبرت عن صوم يوم خميس ماضٍ قلت: (أنا صائم يوم الخميس) فهذا وجه العمل» ^(٢)

وجاء في (كتاب الجمل) للزجاجي: «لسم الفاعل إذا كان بمعنى المضي كان مضافاً إلى ما بعده وجرى مجرى سائر الأسماء في الإضافة كقولك: (هذا ضارب زيداً أمس) و(هذا شاتم أخيك أمس) وكذلك ما أشبهه، ولو قلت: (هذا ضارب زيداً أمس) بالتنوين والنصب لم يحجز عند أحد من البصريين والكوفيين إلا الكسائي: (هذا ضارب زيداً أمس)» ^(٣)

فإذا كان أسم الفاعل بمعنى الحال أو الاستقبال كان لك فيه وجهان: أحدهما، وهو الأجود أن تنوته وتنصب ما بعده لأنه ضارب الفعل المستقبل، وذلك قولك (هو ضاربٌ زيداً الساعة) و(هذا ضاربٌ زيداً غداً)...

(١) (٢٧١) «لسم الفاعل» (٢)

(١) «كتاب سيبويه» (٨٢/١).
(٢) «معاني القرآن للفراء» (٢٠٢/٢).

(٣) (٢٧٨) «الزجاجي» (١٧٨).

والوجه الآخر أن تحذف التنوين، وتخفف وأنت تريد الحال والاستقبال، فتقول:
(هذا ضارب زيد غداً)^(١).

وجاء في (المفصل): «ويشترط في أعمال أسم الفاعل أن يكون في معنى الحال، أو الاستقبال، فلا يقال: (زيد ضاربٌ عمراً أمس) ولا (وحشي قاتلٌ حمزة يوم أحد) بل يستعمل ذلك على الإضافة»^(٢).

وذكر «لو أن قائلاً قال (هذا قاتلٌ أخي) بالتنوين، وقال آخر: (هذا قاتلٌ أخي) بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله، ودل حذف التنوين على أنه قتله»^(٣).

إضافة أسم الفاعل:

ذكرنا آنفاً أن أسم الفاعل لا يتعدى إلا إذا كان دالاً على الحال أو الاستقبال، فإن لم يدل على الحال أو الاستقبال بأن كان ماضياً أضيف، تقول: (هذا ضاربٌ محمد) إذا ضربه و(ضاربٌ محمداً) إذا كان يضربه أو ينوي ضربه.

جاء في (كتاب سيبويه): «فإذا أخبر أن الفعل قد وقع وانقطع، فهو بغير تنوين البتة... وذلك قولك (هذا ضارب عبدالله وأخيه) وجه الكلام وحده الجر. لأنه ليس موضعاً للتنوين، وكذلك قولك: (هذا ضارب زيد فيها وأخيه) وهذا قاتل عمرو أمس وعبدالله»^(٤).

وجاء في (المقتضب): «تقول (هذا ضارب زيد أمس) و(هما ضاربا زيد) و(هم ضاربو عبدالله)... كل ذلك إذا أردت به معنى الماضي لم يجز إلا هذا، لأنه أسم بمتزلة قولك (غلام زيد) و(أخو عبدالله)».

(١) «الجمال» (٩٥-٩٩)، وانظر «المقتضب» (٤/٣٠).

(٢) «المفصل» (٢/١٢١).

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١١ وانظر في (الإشياء والنظائر للسيوطي ٣/٢٢٤) المناظرة بين الكسائي والقاضي أبي يوسف.

(٤) «كتاب سيبويه» (١/٨٧).

فان جعلت أسم الفاعل في معنى ما أنت فيه ولم ينقطع أو ما تفعله بعد ولم يقع جرى مجرى الفعل المضارع في عمله وتقديره... وذلك: (زيد أكل طعامك الساعة) إذا كان في حال أكل و(زيد أكل طعامك غدا) كما تقول: (زيد يأكل الساعة) إذا كان في حال أكل وزيد يأكل غدا^(١).

ولا يفهم من هذا أنّ الإضافة لا تصح إلا إذا كان أسم الفاعل دالاً على الماضي، بل الإضافة جائزة سواء كان أسم الفاعل دالاً على الماضي أم غيره، تقول (هو ضارب محمد أمس) و(هو ضارب محمد غدا)، إلا أنّ النصب لا يصح إلا إذا دلّ على الحال أو الاستقبال^(٢).

وقد مرّ بنا في باب الإضافة غير المحضة أنّ ما كان من أسم الفاعل دالاً على الحال أو الاستقبال فاضافته غير محضة بخلاف ما إذا كان دالاً على الماضي.

فالفرق بين الإضافة والنصب، أنّ النصب دلالة قطعية إذ هو لا يدل إلا على الحال أو الاستقبال، أما الإضافة فدلالته احتمالية فهي تحتل:

١- الماضي كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وكقولك: (أنا ضارب خالد أمس).

٢- الحال والاستقبال كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩]، وهذا كله إستقبال.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] وهذا حال.

(١) «المقتضب» (٤/١٤٨-١٤٩).

(٢) انظر «كتاب سيويه» (١/٨٣)، «الجمال» (٩٥-٩٩)، «شرح ابن يعيش» (٢/١١٩)، «شرح ابن

عقيل» (٢/٢٧).

٣- والدلالة على الاستمرار من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يخرج الحق من الميت ويخرج الميت من الحق فائق الإصباح [الأنعام: ٩٥-٩٦] فهو حي كل حين يفلق الحب والنوى ويخرج الميت من الحي، وفي كل يوم يفلق الإصباح.

٤- ثم أن الإضافة قد تفيد تغليب جانب الذات على الحدث في أسم الفاعل، بخلاف النصب فإنه يفيد دلالة على الحدث، فتعمل أسم الفاعل للدلالة على الحدث أحياناً، وأحياناً تقصد به الدلالة على الاسم، وذلك كالحارس والكاتب والسائق، فقد يراد بالحارس صفة، وقد يقصد به شخصه وكذلك الكاتب والسائق.

جاء في (الكتاب): «هذا ما كان من ذلك عملاً وذلك قولك (مررت برجل ضارب أبوه رجلاً) و(مررت برجل ملازم أبوه رجلاً)». فالمرتب في علي وجهين: إن شئت جعلته يلزمه ويخالطه فيما يستقبل، وإن شئت جعلته عملاً كأننا في حال مرورك، وإن القيت التنوين بأن تريد معناه جري مثله إذا كان متوتراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّهْدِي اللَّهُ سَبِيلَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّضَلُّ اللَّهُ سَبِيلَهُ﴾.

فإذا جعله اسماً لم يكن فيه إلا الرقع على كل حال، تقول: (مررت برجل ملازمه رجلاً) أي مررت برجل صاحب ملازمته رجلاً، فصار هذا قولك (مررت برجل أخوه رجلاً)، وتقول على هذا الحد (مررت برجل ملازمه بنو فلان) فقولك (ملازمه) بذلك على أنه أسم ولو كان عملاً لقلت: (مررت برجل ملازمه قومه) (١).

أفبالإضافة قد يراد الاسم، وأما النصب فالدلالة على الحدث فقط، وذلك لأن الإضافة من خصائص الأسماء، تقول (هذا سائق السيارة) أي يسوقها، وتقول (هذا سائق السيارة) بالإضافة وتريد به شخصه، وتقول (هذا حارس المدرسة) أي يحرسها، وتقول (خرج حارس المدرسة) وتعني به شخصه، وتقول (لا يسوق حائق السيارة) (لا يحرس حارس المدرسة) وتقصد به شخصيهما ولو كان المقصود به الحدث لتناقض القول إذ كيف لا يسوق وهو يسوق، ولا يحرس وهو يحرس؟ ولكن المقصود به الشخص كما ذكرنا! (٢)

(١) كتاب سيويه (٢٧٦/١) (٢٢٦-٢٢٨).
(٢) كتاب سيويه (٢٧٦/١) (٢٢٦-٢٢٨). (١) (٢٧٦/١) (٢٢٦-٢٢٨). (٢) كتاب سيويه (٢٧٦/١) (٢٢٦-٢٢٨).

العطف على المضاف إليه: (هو ضارب محمد وخالد) فبالنصب، وبالنصب، فقول

قد يعطف على المضاف إليه الذي أضيف إليه أسم الفاعل بالجر، وبالنصب، فقول (هذا ضارب محمد وخالد) و(هذا ضارب محمد وخالد).

أما الأول فلا أشكال فيه وهو عند النحاة أجود^(١).

وأما العطف بالنصب فهو إما أن يكون المقصود به الزمن الماضي، فيكون على تقدير فعل ماضٍ قبل المنصوب عند سيبويه، ومن تابعه^(٢) ففي قولك (هو ضارب محمد وخالد) يقدرون (وضرب خالد)، وإما أن لا يقصد به الماضي فيقدرون له فعلاً مضارعاً أو أسم فاعل منوناً، ففي قولك (هو ضارب محمد وخالد غلباً) يقدرون (ويضرب خالد) أو (وضارب خالد)^(٣).

والذي يترجح عندي في تفسيره أنه إذا عطف بالنصب على المجرور ولم تكن ثمة دلالة على أن المقصود به الماضي كان المضاف تعبيراً احتمالياً والمنصوب تعبيراً قطعياً، فقولك (هو ضارب محمد وخالد) يدل على أن (ضرب محمد) يحتمل الماضي والحال والاستقبال والاستمرار و(ضرب خالد) يدل على الحال، أو الاستقبال قطعاً ولا يحتمل غيرهما كما مر في تفسير المضاف والمنصوب.

أما إذا كانت هناك دلالة تدل على أن ضربهما جميعاً حصل في الماضي فقولك (هو ضارب محمد وخالد أمس) فهو على تقدير فعل ماضٍ كما قدر سيبويه، ومقتضي هذا التقدير أن (ضرب محمد) يفيد الدلالة على الثبوت و(ضرب خالد) يفيد الانقطاع ذلك لأن دلالة أسم الفاعل ليست كدلالة الفعل، فقولك (هو ضارب محمد) يحتمل ثبوت الضرب، وتكرر حصوله في الماضي، بخلاف الفعل الماضي، فإنه يدل على أنه حصل وانقطع، تقول (كان سعيد كذب) و(كان سعيد كاذباً) فالفعل الماضي (كذب) يدل على

(١) «كتاب سيبويه» (٨٩/١)، «شرح الرضي على الكافية» (٢٢٥/٢).

(٢) انظر «كتاب سيبويه» (٨٧/١)، «شرح الرضي» (٢٢٥/٢).

(٣) انظر «كتاب سيبويه» (٣٥/١١)، «شرح ابن عيش» (٦٩/١)، «شرح ابن عيش» (٦٩/١).

أن سعيداً وقع منه كذب، وأما أسم الفاعل (كاذب) فهو يدل على ثبوت هذه الصفة فيه في الماضي. ونحوه قولك: (هو مجتهد وهو اجتهد) و(هو قائم بالامر وقام بالامر) و(هو شارب الخمر وهو شرب الخمر).

جاء في (التفسير الكبير): «أنَّ أسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال: فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر، وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن أسم الفاعل يفهم ذلك»^(١).

فخلاصة الأمر أنَّ قولك:

(هذا ضارب محمد وخالد) يفيد أن الضرب لهما واحد من حيث الزمن والدلالة. وقولك: (هذا ضارب محمد وخالد) إذا لم يتعين أنهما للمضي يفيد أنَّ ضَرْبَ محمد احتمالي الدلالة فهو يحتمل الماضي، والحال، والإستقبال، والإستمرار، و(ضرب خالد) يدل على وقوعه في الحال والإستقبال.

وإذا تعين أنَّ ضربهما كان في الماضي جميعاً، فضرب محمد يفيد الدلالة على الثبوت، وقد يحتمل الدوام والتكرار، وضرب خالد يفيد وقوعه وإنقطاعه، وهذا الفرق متأثراً من الفرق بين الفعل وأسم الفاعل.

(١) «التفسير الكبير للرازي» ج (٢٥) ص (٢٩).

صيغ المبالغة

المشهور أن الذي يتعدي منها ثلاثة هي (فَعَال) نحو (خَوَّاضٌ إليها الكتائب) و(فَعُول) نحو (ضروبٌ بنصل السيف سوق سمانها). و(مفعال) نحو (إنه لمنحَارٌ بوائِكها)^(١).

وعند سيويه يعمل أيضاً (فَعِيل) و(فَعِل)^(٢).

ولا يشترط في أعمالها الدلالة على الحال، أو الإستقبال^(٣)، وهي فيما عدا ذلك كأسم الفاعل.

أسم المفعول

وما قيل في أسم الفاعل يقال في أسم المفعول من حيث الشروط^(٤) والدلالة، غير أنه للمفعول وذلك للفاعل.

قال ابن مالك:

وكل ما قرر لأسم فاعل يعطى أسم مفعول بلا تفاضل

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٢٤).

(٢) «كتاب سيويه» (١/٥٦-٥٨).

(٣) «شرح الرضي» (٢/٢٢٤).

(٤) انظر «شرح ابن عقيل» (٢/٢٨)، «شرح الإسموني» (٢/٣٠١-٣٠٢).

الصفة المشبهة

(١) لمّا عملت الصفة المشبهة مع سببها استعملات متعددة، فبحسب رفعها أو خفضها

مررت برجل حسن وجهه - باتباع الصفة ورفع الوجه. (٢) لمّا عملت الصفة المشبهة مع سببها

ومررت برجل حسن وجهه - برفع الصفة والوجه. (٣) لمّا عملت الصفة المشبهة مع سببها

شكلاً ولمررت برجل حسن الوجه - بالإضافة. (٤) لمّا عملت الصفة المشبهة مع سببها

ومررت برجل حسن وجهه أو الوجه - بنصب الوجه فيهما.

ومررت برجل حسن وجهاً.

وقد تقول: أيترب على هذه العلاقات في الأوجه، اختلاف في المعنى، أم هي

متطابقة؟ (٥) لمّا عملت الصفة المشبهة مع سببها بنصب الوجه والوجه بنصب الصفة

والجواب إننا نعتقد أنّ لكل وجه معنى، والنحاة يذكرون بعضاً من هذه التفسيرات

وسنذكرها موضحين معناها:

١- مررت برجل حسن وجهه -

١- مررت برجل حسن وجهه - باتباع الصفة المشبهة لما قبلها ورفع الوجه، والصفة

ههنا فيها جانب الحدث غالباً، وهي قريبة من الفعلية، ولذا ارتفع بها الفاعل كالفعل،

ونحوه أن تقول في غير السببي: أكرّم المحمدان؟ وما حسن الخالدان. كأنك قلت:

مررت برجل حسن وجهه وأكرّم المحمدان؟ وما حسن الخالدان.

ويدلك على ذلك أنها تستعمل في هذا الوجه استعمال الإفعال فهي تطابق ما بعدها

من حيث التذكير والتأنيث، وأنها تكون مفردة مع مرفوعها فتقول: (محمد حسنة أمه)

و(الرجلان حسن أبواهما) بخلاف الإضافة، مثلاً إذ تقول: (محمد حسن الأم)

و(الرجلان حسنا الأبوين) لأن الإضافة فيها جانب الأسمية هو الغالب.

(٦) (٧١٣٧) "الرجلان حسنا"

(٧) (٧١٣٧) "الرجلان حسنا"

(٨) (٧١٣٧) "الرجلان حسنا"

٢- مررت برجل حسن أبوه - برفع الصفة المشبهة وما بعدها، وهذا على التقديم والتأخير، وأصل الكلام (مررت برجل أبوه حسن)، فيحسن خبر مقدم وأبوه مبتدأ مؤخر، وقدمت الخبر للاهتمام.

ولست الصفة هنا على إرادة تغليب الحدث، فإنها لم تستعمل استعمال الإفعال، فهي تطابق المبتدأ فتقول (مررت برجل حسن أبواه) و(مررت برجل احسنون أبواه)، وأصل الكلام (أبواه حسنان) و(أبواه احسنون) ولو أردت معاملتها معاملة الفعل لقلت: مررت برجل حسن أبواه وحسن أباه.

٣- مررت برجل حسن الوجه - بإضافة الصفة إلى الوجه، والصفة ههنا مراعى فيها جانب الإسمية أكثر من الحدث بخلاف التعبير الأول، وذلك لأن الإضافة من خصائص الأسماء، ثم ألا ترى أن الصفة هنا لا تعامل معاملة الفعل، بل هي تتبع ما قبلها أيا كان صاحبها الحقيقي، فتقول (مررت برجل حسن الأم) فتذكر الصفة وإن كانت (الأم) مؤنثة، وتقول (مررت برجلين حسني الآباء) فتشي الصفة اتباعاً لما قبلها وإن كان (الآباء) جمعاً بخلاف ما لو قلت (مررت برجل حسنة أمه) و(مررت برجلين حسن أباهما).

٤- مررت برجل حسن وجهه أو حسن الوجه بنصب الوجه، وهذا عند النحاة للخيالة من ناحيتين، وذلك أنك جعلت الحسن للرجل عموماً، ثم خصصت وجهه فتكون قد مدحته مرتين، مرة لعموم شخصه ومرة لوجهه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن في هذا التعبير إيضاحاً بعد الإبهام، فإنك عندما قلت (مررت برجل حسن) وتوت الصفة كنت كأنك أنهيت الكلام على الإبهام، ثم أوضحت جهة الحسن بعدما ابهمت، وللايضاح بعد الإبهام مزية كما مر في بحث التمييز.

جاء في (شرح شذور الذهب): «زيد حسن وجهه بنصب الوجه والاصل (زيد حسن وجهه) بالرفع ف (زيد) (مبتدأ) و(حسن) خبر، و(وجهه) فاعل بـ (حسن) لأن الصفة تعمل عمل الفعل، وأنت لو صرحت بالفعل فقلت (حسن) بضم السين وفتح النون

لوجب رفع الوجه بالفاعلية فكذلك حق الصفة أن يجب معها الرفع، ولكنهم قصدوا المبالغة مع الصفة فحولوا الإسناد عن الوجه الى ضمير مستتر في الصفة راجع الى زيد ليقضي ذلك أن الحسن قد عمّه بجملته فقليل (زيد حسن) أي هو، ثم نصب وجهه^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «أما حسن انتصاب المعمولين في القياس فلأنك قصدت المبالغة في وصف الوجه بالحسن، فنصب (وجهاً) على التمييز، ليحصل له الحسن إجمالاً وتفصيلاً، ويكون أيضاً أوقع في النفس للإبهام أولاً ثم التفسير ثانياً^(٢)».

وليس كل التعبيرات فيها هذان الجانبان، بل ليس في بعضها إلا الإيضاح بعد الإبهام فلا يصح جعل الصفة فيها لجملة الموصوف، وذلك نحو قولك: (الفيل مدبّب نابّه) إذ لا يصح أن يقال (الفيل مدبّب)^(٣)، ونحوه (كلبك كثيفٌ شعره) و(أخوك قليل ماله) فلا يصح وصف الكلب بالكثافة والأخ بالقلّة على جهة العموم، وإنما فيه إيضاح بعد إبهام فإنك إبهمت جهة الوصف، ثم بيّتها.

٥- مررت برجل حسن وجهاً- وهذا التعبير كالذي قبله من حيث المبالغة والابهام غير تنكير الوجه، والمعنيّ بالوجه وجه الرجل، والمعرفة والنكرة هنا يتقاربان، في الدلالة، فإنك إذا قلت: (محمد حسن الوجه) أو قلت: (محمد حسن وجهاً) فإن الوجه يعود إلى محمد عرفته، أو نكرته، والفرق بينهما كالفرق بين قولك (الله خلقكم من ماء) و(الله خلقكم من الماء) فإن المعرّف بـ (ال) الجنسية فيه من العموم ما يقرّ به من النكرة، وإن كان لا يطابقه، وقد مرّ هذا في بابه.

وقد يكون الاختلاف بين معنى هذين التعبيرين، أو بين هذه التعبيرات من وجه آخر، وذلك نحو قولك (هو كريمٌ أباً) فـ (أباً) يحتمل الحال والتمييز، فهو يحتمل أنه كريم في حال أبوته، أي هو كريم إذا كان أباً ويحتمل أن أباه كريم، بخلاف قولك (هو كريم أبوه) أو كريم الأب) بالإضافة فهو لا يحتمل إلا أن أباه كريم.

(١) «شرح شذور الذهب» (٣٠٢).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٣٢١-٢٣٢).

(٣) هذه صفة مشبهة وإن كانت على صيغة أسم المفعول لأنها صفة دالة على الثبوت.

وفي مثل هذا التعبير يتضح الفرق بين تنكير المنصوب، وتعريفه، فإن قولك (هو كريم^١ الاب) بالتعريف لا يحتمل إلا أباه كريم ولا يحتمل أنه كريم في حال أبوته، فهو لا يكون حالاً، ونحوه أن تقول: (هو حسن ضيفاً) وحسن الضيف وحسن الضيف.

وقد يكون الاختلاف على وجه آخر، وذلك نحو قولك (هو عظيم القوم) و(هو عظيم قوماً). فالأول قد يكون على معنى أنه عظيم في القوم كقولك (هو رئيس القوم وكبيرهم) وقد يكون على معنى أن قومه عظماء.

فإن قلت: (هو عظيم قوماً) كان المعنى أن قومه عظماء لا غير، فتبين من هذا أنه ليس ثمة تطابق وإنما لكل تعبير معنى.

النعته

النعته هو التابع المكمل متبوعه، ببيان صفة من صفاته، نحو: (مررت برجل كريم) أو ببيان صفة من صفات ما تعلق به، هو ما يسمى بالنعته السببي، نحو (مررت برجل كريم أبوه^(١))، ونحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

ويأتي لأغراض أهمها:

١ - التخصيص: ومعنى التخصيص تقليل الإشتراك الحاصل في النكرات^(٢)، نحو (مررت برجل طويل) وذلك أن كلمة (رجل) عامة تشمل كل واحد من أفراد الجنس، فإن قلت (طويل) فقد قللت الإشتراك باخراجك القصار، وغير الطوال عموماً، فإن قلت (مررت برجل طويل أسمر) زدته تخصيصاً، بتقليل الإشتراك أكثر، فإنك أخرجت غير السمر من الرجال الطوال، فإن قلت: (مررت برجل طويل أسمر أعرج) زدته تخصيصاً، وهكذا.

(١) «شرح ابن عقيل» (٥١/٢)، «التصريح» (١٠٨/٢).

(٢) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٣٣١/١)، «شرح ابن يعيش» (٤٧/٣)، «الهمع» (١١٦/٢).

٢- التوضيح: ومعنى التوضيح إزالة الاشتراك المحاصل في المعارف^(١)، وذلك نحو قولك: ﴿مَرَّتْ بِمَحْمَدٍ الْخِيَاطُ﴾ فقد يكون أكثر من شخص مسمى بمحمد، فإن قلت: (الخياط) أزيلت الاشتراك وتعين المقصود، ونحو: ﴿إِشْتَرَيْتَ مِنَ الْخِيَاظِ الْأَعْرَاجَ﴾ فقد يكون أكثر من خياط، وبذلك (الأعرج) أزيلت الاشتراك فتعين المقصود.

٣- الثناء والمدح: وذلك إذا كان الموصوف معلوماً عند المخاطب^(٢)، لا يحتاج إلى توضيح، وذلك كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فإنه ليس ثمة رب أسفل فتميزه منه بكلمة (الأعلى) فهو لا يحتاج إلى توضيح، وإنما ذكرت الصفة للثناء عليه وتعظيمه. ونحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، ونحو قولك: (جاء خالد القائد المظفر) ولست تقصد بذلك توضيحه وفصله من خالد آخر، وإنما تذكر ذلك للتعظيم والثناء.

وقد يكون المدح والثناء في التكرات، كما يكون في المعارف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٩-٣٠] سماعاً.

٤- الذم والتحقير: وذلك إذا كان الموصوف معلوماً عند المخاطب، لا تقصد تمييزه من شخص آخر^(٣)، نحو (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ونحو: (مررت بمسيلة الكذاب)، ونحو (لا تسمع إلى سالم الخبيث اللئيم) لا تقصد بذلك تمييزه من شخص آخر مسمى بهذا الاسم، وإنما ذكرت هذه الصفات لذمّه وتحقيره.

وقد يكون الذم والتحقير في التكرات أيضاً، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ﴾ [التكوير: ٢٥] إذ ليس ثمة شيطان غير رجيم ففصل الرجيم منه، ونحو (دونكم رجلاً خائناً لئيماً).

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٣٣١/١)، «شرح ابن يعيش» (٤٧/٣)، «الهمع» (١٦٦/٢)، «التصريح» (١٠٨/٢).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٣٣١/١)، «شرح ابن يعيش» (٢٨٠/١)، «الهمع» (١٦٦/٢)، «التصريح» (١٠٨/٢).

(٣) «شرح الرضي» (٣٣١/١)، «الهمع» (١٦٦/٢)، «شرح ابن يعيش» (٤٧/٣)، «التصريح» (١٠٨/٢).

٥- الترخيم: (١) نحو: (مررت بعباس البائس) ونحو (يا ويح إبراهيم المسكين) ونحو (ارحموا هذا الرجل الفقير الضائع).
ويكون في النكرات أيضاً، نحو: (أرحموا رجلاً باتساً مضيقاً).
٦- التأكيد: (٢) نحو: (أمس الدابرُ لا يعود) فإن كل أمس دابر، ونحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] فَإِنْ (واحدة) مفهومة من قوله (نفخة) وقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥٥] فَإِنْ (اثنين) صفة مؤكدة لالهيْن، ونحو (إِنْ غَدَا الْقَابِلُ قَرِيبٌ) فَإِنْ كل غد قابل.

٧- التعميم: نحو: (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ عِبَادَهُ الطَّائِعِينَ وَالْعَاصِينَ) وَإِنَّ اللَّهَ يَحْشُرُ النَّاسَ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ (٣) (يقول الله من عباده صالح الأعمال الكثير والقليل) ونحو ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢].

٨- التفصيل: (٤) نحو: (مررت بثلاثة رجال، كاتب، وشاعر، وفقير)، و(مررت برجلين عربي، وعجمي) و(رأيت رجلين، طويلاً، وقصيراً).

٩- الإيهام: (٥) وذلك كأن تقول لصاحبك (أُتصدقت بقليل) أم كثير؟ فيقول: (تصدقت بصدقة قليلة، أو كثيرة) ونحو (هل كتبت له رسالة حسنة؟) فيقول: (كتبت له رسالة حسنة أو سيئة) يريد إيهامها عليك.

١٠- ثم أن النعت قد يوتي به لعلام المخاطب بأن المتكلم عالم بحال الممنوع، كأن يقول لك صاحبك (هل رأيت خالداً؟) فتقول: (نعم رأيت خالداً البائع داره والمفارق أهله) تريد أن تعلم صاحبك بأنك عالم بأحواله التي يخفيها عليك.

- (١) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٣٣١/١)، «الهمع» (١١٦/٢)، «التصريح» (١٠٩/٢).
- (٢) «شرح الرضي» (٣٣١/١)، «شرح ابن عيش» (٤٨/٣)، «التصريح» (١٠٩/٢)، «الهمع» (١١٦/٢).
- (٣) «التصريح» (١٠٩/٢)، «الهمع» (١١٦/٢).
- (٤) «الهمع» (١١٦/٢)، «التصريح» (١٠٩/٢).
- (٥) «التصريح» (١٠٩/٢)، «الهمع» (١١٦/٢)، «التصريح» (١٠٩/٢).

جاء في (حاشية الصبان) أنه «نقل عن ابن الخياز أن النعت يجيء لاعلام المخاطب بأن المتكلم عالم بحال المنعوت، كقولك (جاء قاضي بلدك الكريم الفقيه) إذا كان المخاطب يعلم أوصاف القاضي بذلك، ولم تقصد مجرد المدح، بل قصدت أعلام مخاطبك بأنك عالم بحال الموصوف^(١)».

النعت الجامد

الأصل في النعت أن يكون مشتقاً نحو: (مررت برجل ضاحك) و(مررت برجل طويل) وقد ينعت بالجامد كثيراً كالمنسوب، نحو: (مررت برجل بصري) والموصول، نحو (مررت بالشخص الذي فاز) والمقادير والاعداد، نحو (أقبل رجالاً مائة) و(أقبل رجالاً سبعة) و(اشترت حريراً ذراعين)^(٢).

ومنه النعت بـ (مثل) ونحوها مما يفيد التشبيه، نحو: (مررت برجل مثلك وضربك وشبهك ونحوك)^(٣).

ومنه النعت بـ (ذوي) نحو: (رأيت رجلاً ذا علم).

ومنه النعت بـ (أي) نحو: (مررت برجل أي رجل وأبماً رجل) وهي التي تسمى أياً الكمالية، ويراد بها التعجب والمبالغة في المدح، وتنعت بها النكرة.

جاء في (كتاب سيويه) «ومن النعت أيضاً (مررت برجل أيما رجل) فـ (أيما) نعت للرجل في كماله وبذّه غيره كأنه قال: مررت برجل كامل^(٤)».

وعند قسم من النحاة أن أصلها استفهام، ثم إستعيرت لوصف الشيء بالكمال.

(١) «حاشية الصبان» (٥٩/٣).

(٢) «شرح الرضي» (٣٣٤/١).

(٣) انظر «كتاب سيويه» (٢١٠/١).

(٤) «كتاب سيويه» (٢١٠/١) وانظر «شرح ابن يعيش» (٤٨/٣)، «الكليات» (٨٩).

جاء في (شرح الكافية للرضي): «والذي يقوى عندي أن (أي رجل) لا يدل بالوضع على معنى في متبوعه بل هو منقول عن (أي) الإستفهامية وذلك أن الإستفهامية موضوعة للسؤال عن التعيين، وذلك لا يكون إلاّ عند جهالة المسؤول عنه، فاستعيرت لوصف الشيء بالكمال في معنى من المعاني والتعجب في حاله، والجامع بينهما أن الكامل البالغ غاية الكمال بحيث يتعجب منه يكون مجهول الحال بحيث يحتاج الى السؤال عنه»^(١).

وجاء في (بدائع الفوائد): «وأما وقوعها نعتاً لما قبلها نحو: (مررت برجل أي رجل) فـ (أي) تدرجت إلى الصفة من الإستفهام كان الأصل (أي رجل هو؟) على الإستفهام الذي يراد به التفخيم والتهويل، وإنما دخله التفخيم لأنهم يريدون إظهار العجز، والإحاطة لوصفه، فكأنه ممّا يستفهم عنه بجهل كنهه، فأدخلوه في باب الإستفهام الذي هو موضوع لما يجهل.

وكذلك جاء (القارعة ما القارعة والحاقة ما الحاقة) أي أنها لا يحاط بوصفها، فلما ثبت هذا اللفظ في باب التفخيم والتعظيم للشيء قرب من الوصف، حتى أدخلوه في باب النعت وأخروه في الإعراب عمّا قبله»^(٢).

ومنه النعت بـ (كل) و(جدّ) و(حق) مضافة الى مثل متبوعها لفظاً، ومعنى، نحو قولك (مررت بالرجل كل الرجل وحق الرجل وجدّ الرجل)، والمقصود بها المبالغة في الكمال وبلوغ الغاية»^(٣).

قال الرضي: «ومعنى (كل الرجل) إنه أجمع فيه من خلال الخير ما تفرق في جميع الرجال، ومعنى (جد الرجل) أي كأن ما سواك هزل. و(حق الرجل) أي أن من سواك باطل. وهما من باب (جرد قطيفة).

(١) «شرح الرضي» (١/٣٣٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/١٥٩).

(٣) «كتاب سيويه» (١/٢٢٣-٢٢٤)، «شرح ابن يعيش» (٣/٤٨).

وسوقال أيضاً في الدم أنك اللئيم جد اللئيم وحق اللئيم ولأنت لئيم جد لئيم
وعق لئيم^(١)

ومنه قولهم: (ماشت) في نعت التكرات، نحو (رأيت رجلاً ماشت من رجل^(٢)) أي
رجلاً يسد مشيتك وأزادتك.

ومنه قولهم: (مررت برجل حسبك من رجل وشرعك من رجل وهمك من رجل
وثأهيك من رجل وهذك من رجل وكفيلك من رجل) بلفظ واحد للمؤنث والمفرد
والمثنى والجمع (فتقول: (مررت بامرأة هذك من امرأة، وامرأتين هذك من امرأتين،
ونساء هذك من نساء)، وبعضها يطبق كد (ثأهيك) لأنها أجمع فاعل وبعضها يستعمل
فعلًا أيضاً نحو (هذك) و (هذتك) و (هذاك)^(٣)

ومعانيها متقاربة في معنى الكفاية^(٤)، فمعنى (حسبك) كافيك من (أحسبني الشيء) بمعنى
كفاني، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢] أي كافيك، ولعل
أصلها من (حسب) والهمزة للسلب أي أزال حسابك وأبعده ك (أصرخ) و (أقسط) أي
أزال الصراخ والقسط وهو الظلم فقولك: (أحسب الشيء) معناه أزال حسابك، فلا يفكر
في شيء بعد من قولك: هو يحسب للامر حسابك، ف (أحسبه) أزال ذلك الحساب
بكفيلته وإغناؤه.

ومعنى (هملك) مقصودك كما تقول (كل همتي أن أحصل على كذا) أي همتي
ومقصودي.

وجاء في (شرح ابن يعيش): «فقولهم (هملك من رجل) بمعنى حسابك وهوانك من
الهمة واحدة الهمم، أي هو ممن يهلك طلبه^(٥)»

- (١) «شرح الرضي على الكافية» (١/٣٣٣).
- (٢) انظر «كتاب سيبويه» (١/٢١٠)، «الأصول» (٢/٣٣).
- (٣) انظر «كتاب سيبويه» (١/٢١٠).
- (٤) انظر «كتاب سيبويه» (١/٢١٠).
- (٥) «شرح ابن يعيش» (٣/٥٠). (١/٢٧٨-٣٧٢) «الفيهية» (٦/٣٦٢).

وجاء في (شرح الرضي): «وقولهم (هملك من رجل) مصداقاً بمعنى المفعول أي
مهمومك أي مقصودك أو من (هعه) أي أذله يذيه، أي يذيك وصف محاسنه^(١)»
ومعنى (ناهلك) ينهك عن طلب غيره لما فيه من الكفاية والمطلوب.
ومعنى (هذك) يثقلك عذ محاسنه، جاء في (شرح ابن يعش): «وأما هذك فهو من
معنى القوة يقال (فلان يهد) على مالم يسم فاعله، إذا نسب إلى الجلادة والكفاية^(٢)».
وجاء في (شرح الرضي): «هذك أي يثقل عليك عذ مناقبه، من هذته المصيبة، أي
أوهنته وكسرتة^(٣)»
وجاء في (لسان العرب): «ومررت برجل هذك من رجل، أي حسبك وهو مدح،
وقيل معناه أثقلت وصف محاسنه^(٤)».

ومعنى (شرعك) مطلوبك وبغيتك من شرع في الشيء طلبه.
جاء في (لسان العرب): «مررت برجل شرعك... والمعنى أنه من النحو الذي
تشرع فيه وتطلبه، وأشرعني الرجل أحسبني. ويقال: شرعك هذا أي حسبك^(٥)»
وجاء في (شرح ابن يعش): «وكذلك (شرعك) بمعنى حسبك من شرعت في الأمر
إذا خضت فيه أي هو من الأمر الذي تشرع فيه وتطلبه، وفي المثل (شرعك ما بلغك
المجل) يضرب في التبليغ باليسير^(٦)».
ومن النعت بالجامد تكرار الموصوف، وإضافته، إلى نحو (صدق) و(نبوء) نحو
قولك: (مررت برجل رجل صدق).

- (١) «شرح الرضي على الكافية» (١/٢٣٤). (٢) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٣) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٤) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٥) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٦) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤).
- (١) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٢) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٣) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٤) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٥) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٦) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤).
- (١) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٢) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٣) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٤) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٥) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٦) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤).
- (١) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٢) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٣) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٤) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٥) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤). (٦) «شرح ابن يعش» (١/٢٣٤).

جاء في (شرح الرضي): «ومن المقيس أيضاً أن تكرر الموصوف، وتضيفه إلى نحو (صدق) و(سوء)، نحو عندي رجل رجل صدق، وحمار حمار سوء، والمراد بالصدق في مثل هذا المقام مطلق الجودة، لا الصدق في الحديث، وذلك لأن الصدق مستحسن جيد عندهم، حتى صاروا يستعملونه في مطلق الجودة فيقال «ثوب صدق» و(خلّ صادق الحموضة)... ويجوز أن يكون الثاني بدلاً من الأول»^(١).

وجاء في (كتاب سيويه): «ومنه (مررت برجل رجل صدق) منسوب إلى الصلاح كأنك قلت: مررت برجل صالح، وكذلك (مررت برجل رجل سوء) كأنك قلت: مررت برجل فاسد لأن الصدق صلاح والسوء فساد، وليس الصدق ههنا بصدق اللسان لو كان كذلك لم يجز لك أن تقول: هذا ثوب صدق وحمار صدق، وكذلك سوء ليس في معنى سؤته»^(٢).

ومنه الوصف باسم الجنس، والوصف به على ضروب منها أن تصفه بأسم جنس مشهور بمعنى من المعاني نحو: (مررت برجل أسد) أي جريء وبرجل حمار، أي بليد وبأمرأة كلبة أي ذئبة^(٣).

ومنها أن يكرر لفظ الجنس على إرادة معنى الكمال، نحو: (مررت برجل رجل) أي كامل.

جاء في (شرح الرضي): «وثانيها جنس يوصف به ذلك الجنس فيكرر اللفظ بمعنى الكامل نحو (مررت برجل رجل) أي كامل في الرجولة، و(رأيت أسداً أسداً أي كاملاً»^(٤).

ومنه الوصف بالجواهر نحو: (مررت بصحيفة طين خاتمها) و(مررت برجل فضة حلية سيفه) و(مررت برجل صوفٍ نكته) وأشهر معنى لهذا التعبير هو التشبيه.

(١) «شرح الرضي» (٣٣٤/١)، وانظر «شرح ابن يعيش» (٤٩/٣).

(٢) «كتاب سيويه» (٢١٣-٢١٤).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٣٣٤-٣٣٥)، «شرح ابن يعيش» (٣١/٥).

(٤) «شرح الرضي» (٣٣٥/١)، «شرح ابن يعيش» (٣١/٥).

أي مفضضة حلية سيفه، وخشنة تكته و(بسرّج خَرَصَفْتَه) أي لَيْتَه^(١)، فإذا أردت حقيقة هذه الأشياء فالأجود الرفع، بل يوجه بعض النحاة فتقول: (مررت برجل فضة حلية سيفه وخَرَصَفْتَه).

جاء في (شرح السيرافي): «قال أبو سعيد: أما قولك (مررت بسرّج خَرَصَفْتَه) الى آخر ما مثل به فإنك إن أردت حقيقة هذه الأشياء لم يجز غير الرفع، لأن هذه جواهر، ولا يجوز النعت بها، وإن أردت المماثلة والحمل على المعنى، اختير فيها ما حكى عن العرب فقد سمع منهم: (هذا خاتم طين) أي مطين وإذا سمع منهم (خَرَصَفْتَه) يحمل على لَيْتَه كأنه قال هو لَيْن»^(٢).

وقد مرّ بنا هذا في باب التمييز والذي رجحناه أنّ الأشهر في الاتباع أن يراد به معنى التشبيه، وإذا أردنا الجوهر حقيقة رفعنا، وقد يراد بالاتباع الجوهر أيضاً وهو لغة^(٣).

وقد مرّ بنا هذا فلا داعي لتكراره.

ومن النعت بالجامد:

النعت بالمصدر

نعت العرب بالمصدر كثيراً نحو قولهم: (هو رجلٌ عَدْلٌ ورجلٌ فَضْلٌ وزورٌ) أي عادل وفاضل وزائر و(رجل صَوْمٌ) أي صائم. قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨].

(١) انظر «كتاب سيويه» (١/٣٣١)، «شرح السيرافي» (١/٢٢٨)، الخصائص ٣/٢٧٢، المقتضب (٣/٢٥٩).

(٢) «شرح السيرافي بهامش كتاب سيويه» (١/٢٢٨)، وانظر «المقتضب» (٣/٢٥٩)، «مشور الفوائد» ١٥.

(٣) انظر «كتاب سيويه» (١/٢٣١، ٢٣٠)، «شرح الرضي على الكافية» (١/٣٣٥).

وإذا نعت بالمصدر التزم أفرادُه وتذكيره، أياً كان المفعول نحو: أقبل رجلان عدل
ورجال عدل وفضل وزور^(١). (المتن: فالصواب هو قولنا: أقبل رجلان عدل ورجال عدل وفضل وزور).
والنحاة في توجيه ذلك على ثلاثة آراء:

أما أن يكون المصدر على التأويل بالمشق، نحو (هو رجل زور) أي: زافر (عدل)
أي: عادل و(رضا) أي: مرضي، وهذا رأي الكوفيين. وإما على تقدير مضاف، أي ذو عدل، وذو زور، وذو كذب، وهو رأي البصريين.
وقيل: لا تأويل ولا حذف، بل هو على جعل العين نفس المعنى، مبالغة^(٢).

وهذا الأخير هو الأولى، فإن قولهم (مررت برجل عدل) معناه انه مرَّ برجل هو
العدل أي لكثرة ممارسته إياه وإتصافه به، أصبح هو العدل نفسه.
وقد جاء وصف الذات بالمصدر، أو الاخبار بالمصدر عن الذات كثيراً، وإن لم يجعله
النحاة قياساً، وكله فيما نرجح على قصد المبالغة، على معنى أن الذات تحولت إلى معنى.

جاء في (شرح الرضي): «والأولى أن يقال: أطلق أسم الحدث على الفاعل
والمفعول مبالغة، كأنهما من كثرة الفعل تجسما منه»^(٣).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «فهذه المصادر كلها مما وصف بها للمبالغة، كأنهم
جعلوا الموصوف ذلك المعنى، لكثرة حصوله منه، وقالوا: (رجل عدل ورضي وفضل)
كأنه لكثرة عدله، والرضي عنه، وفضله، جعلوه نفس العدل والرضي والفضل»^(٤).
وجاء في (الخصائص): «إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة
مخلوق من ذلك الفعل، وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه، ويدل على أن هذا معنى

(١) «التصريح» (١١٣/٢)، «شرح ابن يعيش» (٥٠/٣).
(٢) «التصريح» (٢١٣/٢)، «شرح الرضي» (٣٢٤/١).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٣٣٤/١).

(٤) «شرح ابن يعيش» (٥٠/٣)، «شرح الرضي» (١١٣/٢)، «شرح الرضي» (٣٢٤/١).

لهم ومتصور في نفوسهم قوله:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الجبل وضنت علينا والضنين من البخل

أي كأنه مخلوق من البخل لكثرة ما يأتي به منه، ومنه قول الآخر: **بخل**

وهن من الإخلاف والولعان

وأصل هذا الباب عندي قول الله عز وجل: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ...﴾

وقولك (رجل دنف) أقوى معنى لما ذكرناه، كأنه مخلوق من ذلك الفعل، وهذا معنى لا تجده ولا تتمكن منه مع الصفة الصريحة^(١).

وقال: «فهذا كقولك: هو مجبول من الكرم، ومطين من الخير، وهي مخلوقة من البخل»، وأقوى التأويلين في قولها: «فإنما هي أقبال وأدبار» أن يكون من هذا أي كأنها مخلوقة من الإقبال والأدبار، لا على أن يكون من ياب حذف المضاف أي ذات أقبال وذات أدبار، وكيفيك من هذا كله قول الله عز وجل: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وذلك لكثرة فعله آياه واعتياده له^(٢).

وجاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَيْبِهِ يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ [يوسف: ١٨] «ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته ونحوه».

فهن به جود وأنتم به بخل^(٣)

وجاء فيه في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسْبُنَا﴾ [البقرة: ٨٣] «حسبنا قولاً هو»

حُسن في نفسه لا فراط حسنه^(٤)

(١) «الخصائص» (٢٥٩/٣) - (٢٦٠) وانظر (١٨٩/٣).

(٢) «الخصائص» (٢٠٣/٢).

(٣) «الكشاف» (١٢٧/٢) - (١٢٨) وانظر (١٠١/٢) قوله تعالى (إنه عمل غير صالح) (٢٧/٢٧).

(٤) «الكشاف» (٢٥٠/١) وانظر «الكشاف» (١٠١/٢) قوله تعالى (إنه عمل غير صالح) (٢٧/٢٧).

قوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم).

الوصف بالجملة

قد توصف النكرة بالجملة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] ف (أنزلناه) نعت لـ (كتاب) أي منزل، وكقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] ف (تسعى) صفة لحية، أي: ساعية.

ولا توصف بها المعرفة ذلك، لأن الجملة تؤول بنكرة فتصف النكرة، فقولك: (رأيت طفلاً يبكي) تؤول فيه (يبكي) بـ (بأكياً).

ويشترط النحاة في الجملة التي يوصف بها أن تكون خبرية، فلا يصح أن يقال (رأيت رجلاً أضربه) ولا (رأيت رجلاً هل تكرمه؟) فإن جاء ما ظاهره ذلك، أول على إضمار قول محذوف هو الصفة، كما في قول رؤية:

حتى إذا جنّ الظلام واختلط جاؤا بمدق هل رأيت الذئب قط

قالوا: التقدير جاؤا بمدق مقول فيه ذلك، أي جاؤا بلبن مخلوط بالماء حمل رائه أن يقول لمن يريد وصفه: هل رأيت الذئب في حياتك فهو مثله في اللون^(١).

وقال ابن عمرو: «الأصل بمدق [مثل]^(٢) لون الذئب هل رأيت الذئب؟ يقولون: مررت برجل مثل كذا هل رأيت كذا؟ وفي الحديث (كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال فإنها مثل شوك السعدان). ثم حذف (مثل لون الذئب) وبقي (هل رأيت الذئب) وتأولوه: (مقول) عند رؤيته هذا الكلام^(٣).

ويبدو لي أن هذا الرأي مسوغ، لأن المقصود بهذا القول التشبيه، وهذا التعبير مستعمل كثيراً في لغتنا، فإنك قد تقول لصاحبك: (أكلت فاكهة هل ذقت التمر) أي هي

(١) انظر «شرح ابن يعيش» (٥٣/٣) «الإيضاح في علم البلاغة» / (٥٠)، «التصريح» (١١٢/٢).

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) «التصريح» (١١٢/٢).

مثل طعمه، والقصد تشبيهها به، وتقول (اشتريت عقداً هل رأيت حب الرمان) أي يشبهه، وتقول: (اشتريت قماشاً هل لمست الحرير غير أنه ليس بحرير) أي مثله في الملمس، وكل ذلك على معنى أكلت فاكهة مثل التمر. هل ذقت التمر، واشتريت عقداً مثل حب الرمان، هل رأيت حب الرمان، ونحو ذلك، فإن النعت في الحقيقة محذوف هو (مثل) واستغني بالجملة عنها لأن القصد معلوم.

والراجع فيما أرى أن يكون الوصف بالجملة الأنشائية التي يراد بها التشبيه قياساً على هذا التأويل والله أعلم.

النعت المقطوع

في العربية ظاهرة جديرة بالالتفات إليها وهي ظاهرة (القطع)، ونعني بها مغايرة النعت للمنعوت في الأعراب، وذلك بأن يكون المنعوت مرفوعاً ونعته منصوباً، وقد يكون المنعوت منصوباً، ونعته مرفوعاً، وقد يكون المنعوت مجروراً فيقع نعته مرفوعاً، أو منصوباً نحو: (مررت بمحمد الكريم أو الكريم).

ويقع القطع في النعت كثيراً، وقد يقع أيضاً في العطف، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَقَرَةِ: ١٧٧﴾ فعطف بالنصب على المرفوع ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] فعطف بالنصب على المرفوع، ثم عاد إلى الرفع.

وقد اختلفت هذه الظاهرة من التعبير منذ زمن بعيد.

ويستعمل القطع لاداء معنى لا يتم بالاتباع، فهو يلفت نظر السامع إلى النعت المقطوع ويشير انتباهه، وليس كذلك الاتباع، وذلك لأن الأصل في النعت أن يتبع المنعوت، فإذا خالفت بينهما نبهت الذهن وحركته إلى شيء غير معتاد، فهو كاللافتة أو المصباح الأحمر في الطريق، يشير انتباهك ويدعوك إلى التعرف على سبب وضعه.

فهذا التعبير يراد به لفت النظر، وإثارة الانتباه إلى الصفة المقطوعة، وهو يدل على أن اتصاف الموصوف بهذه الصفة بلغ حداً يثير الانتباه.

جاء في (حاشية يس على التصريح): «قال السعد في حواشي الكشف: فإن قلت: ما وجه دلالة مثل هذا النصب أو الرفع على ما يقصد به من مدح أو ذم أو ترحم؟»

قلت: إنّ في الافتتان لمخالفة الأعراب وغير المألوف زيادة تنبيه، وإيقاظ للسامع وتحريك من رغبته في الاستماع سيّما مع التزام حذف الفعل، أو المبتدأ، فإنه أدلّ دليل على الاهتمام^(١).

وجاء في (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]: «قال أبو علي: إذا ذكرت صفات للمدح، وخولف في بعضها الأعراب فقد خولف للافتتان،... الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجدل في الأصغاء فإنّ تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سنن السلوك، ينبئ عن اهتمام جديد شأنه من المتكلم، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب»^(٢).

وجاء في (معترك الاقران): «قطع النعوت في مقام المدح والذم أبلغ من أجزائها، قال الفارسي: إذا تكررت صفات في معرض المدح أو الذم فالاحسن أن يخالف في أعرابها لأن المقام يقتضي الاطناب، فإذا خولف في الأعراب كان المقصود أكمل، لأنّ المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفنن، وعند الاتحاد تكون نوعاً واحداً»^(٣).

وذكر القراء أنّ العرب تقصد بمخالفة الصفة للموصوف في الحركة أن تجدد له وصفاً جديداً غير متبع لاوله، جاء في (معاني القرآن): «والعرب تعترض من صفات الواحد إذا تناولت بالمدح أو الذم فيرفعون إذا كان الأسم رفعا وينصبون بعض المدح فكأنهم ينوون أخراج المنصوب بمدح مجدّد غير متّبع لأول الكلام...»

(١) «حاشية يس على التصريح» (١١٧/٢).

(٢) «إرشاد العقل السليم».

(٣) «معترك الاقران» (٣٥٤/١) وانظر «التفسير الكبير للرازي» (٤٩/٥)، «البرهان» (٤٤٦/٢).

وقال بعض الشعراء:

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وذا الرأى حين تغم الأمور بذات الصليل وذات اللجم
فنصب (ليث الكتيبة) و(ذا الرأى) على المدح والأسم قبلهما مخفوض^(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنك إذا قطعت فإنك تعني أن المخاطب يعلم من اتصاف الموصوف بهذه الصفة، ما يعلمه المتكلم، فإن القطع يدل على أن الموصوف مشتهر بهذه الصفة، معلوم بها عند السامع، كما عند المتكلم ولست تريد أن تعلمه بها، فإذا قلت (مررت بمحمد الكريم) كان المعنى: مررت بمحمد المعروف بالكرم المشتهر به بخلاف قولك (مررت بمحمد الكريم) فإنك قد تريد بذلك أن تميزه عن غيره، وتبينه به، فالقطع لا يكون إلا إذا كان الموصوف مشتهراً بالصفة، معلوماً بها حقيقة، أو ادعاء، أي تدعي أنه مشهور بهذه الصفة، فإذا مدحته بالقطع أدعيت أنه معروف بهذه الصفة مشتهر بها فيكون أمدح له. وإذا ذمته كنت أدعيت إنه مشهور بهذه الخصلة الذميمة معلوم بها، فإنك إذا قلت (مررت بخالد الدنيء) لم ترد أن تعلم المخاطب بأن خالداً دنيء لأن المخاطب لا يجهل ذلك، وإنما أردت ذكره بأمر يعلمه كل أحد فيكون أهجى له وأذم، قال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] فنصب لأنه لم يرد أن يخبر بأمر مجهول، وإنما ذكرها بأمر مشهور يعرفه كل أحد إضافة إلى الذم بصيغة المبالغة فهو ذمها بصيغة المبالغة أولاً ثم بالقطع بأن جعل هذا أمراً معلوماً لا يخفى على أحد.

ولهذا إذا كانت الصفة لقصد التوضيح والتبيين، وتميز الموصوف من غيره، لا يصح قطعها «إذ لا قطع مع الحاجة» فالموصوف إذا احتاج إلى مائة صفة ليميز من غيره لم يصح قطع واحدة منها، قال ابن مالك:

وإن نعوت كثرت وقد تلت فتقرا لذكرهن أتبع

وذلك كأن تقول (مررت بمحمد التاجر الشاعر الكاتب) فإنك إذا أردت أن تميزه من ثلاثة آخرين كل واحد أسمه محمد أحدهم تاجر شاعر والثاني تاجر كاتب والثالث شاعر كاتب، كان عليك أن تميز الآخر منهم بقولك، (مررت بمحمد التاجر الشاعر الكاتب) فإنك إذا حذف آية صفة التيس بمحمد آخر، ففي نحو هذا لا يجوز القطع لأن هذه الصفات لقصد تمييزه من غيره، فإن كانت له صفة أخرى مشهوراً بها معلومة للمخاطبين كأن يكون فقيهاً جاز لك القطع على قصد أنه معلوم بها فتقول: (مررت بمحمد التاجر الشاعر الكاتب الفقيه) فتتبع النعوت الأولى وجوباً ويجوز في النعت الآخر القطع.

جاء في (التصريح): «وأن لم يعرف مسمى المنعوت إلا بمجموعها وجب أتباعها كلها للمنعوت لتتزيلها منه منزلة الشيء الواحد، وإليه أشار الناظم بقوله:

وإن نعوت كثرت وقد تلت مفتقرا لذكرهن أتبع

وذلك كقولهم (مررت بزيد التاجر الفقيه الكاتب) إذا كان زيد هذا الموصوف بهذه الصفات يشاركه في أسمه ثلاثة من الناس أسم كل واحد منهم زيد وأحدهم تاجر كاتب والآخر فقيه كاتب فلا يتعين زيد الأول من الآخرين إلا بالنعوت الثلاثة فيجب اتباعها كلها.

وإن تعين ببعضها جاز فيما عدا ذلك البعض الذي تعين به الوجه الثلاثة الاتباع والقطع إلى الرفع أو إلى النصب أو الجمع بينهما بشرط تقديم المتبع على الأصح.

وإذا كان المنعوت نكرة تعين في الأول من نعوته الاتباع لأجل التخصيص بخلاف ما إذا كان معرفة فإنه غني عن التخصيص وجاز في الباقي من نعوته القطع عن المتبوع»^(١).

فالقطع إنما يكون للدلالة على أن الموصوف مشهور بالصفة المقطوعة.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «أعلم أن جواز القطع مشروط بأن لا يكون النعت للتأكيد نحو (أسس الدابر) ...»

(١) «التصريح» (١١٧/٢)، «وانظر شرح الأشموني» (٦٨/٣)، «الهمع» (١١٩/٢).

والشرط الآخر أن يعلم السامع من اتصاف المنعوت بذلك النعت ما يعلمه المتكلم لأنه أن لم يعلم فالمنعوت محتاج الى ذلك النعت ليسيئه ويميزه، ولا قطع مع الحاجة، وكذا إذا وصفت الموصوف بوصف لا يعرفه المخاطب، لكن ذلك الوصف يستلزم وصفاً آخر فلك القطع في ذلك الثاني. اللازم، نحو (مررت بالرجل العالم المبجل) فإن العلم في الاغلب مستلزم للتبجيل^(١).

وجاء في (التصريح): «إذا لم تتكرر النعوت وكان المنعوت معلوما بدون النعت حقيقة أو ادعاء جاز أتباعه وقطعه ما لم يكن لمجرد التوكيد، نحو: (نفخة واحدة) أو ملتزم الذكر نحو (جاؤا الجماء الغفير) أو جارياً على مشار إليه نحو (بهذا الرجل)^(٢).

وجاء في (شرح قطر الندى): «ويجوز قطع الصفة المعلوم موصوفها حقيقة أو إدعاء رفعا بتقدير (هو) ونصباً بتقدير (أعني) أو (أمدح) أو (أذم) أو (أرحم)^(٣).

وجاء في (الكامل): «إذا قال (جاءني عبدالله الفاسق الخبيث) فليس يقول إلا وقد عرفه بالخبيث والفسق، فنصبه بـ (أعني) وما أشبهه من الأفعال، نحو (اذكر) وهذا أبلغ في الذم أن يقيم الصفة مقام الأسم وكذلك المدح^(٤).

وجاء في (الكتاب): «(هذا باب ما يتنصب في التعظيم والمدح)، وإن شئت جعلته صفة فجرى على لأول وإن شئت قطعته فابتدأته وذلك قولك: الحمد لله الحميد هو والحمد لله أهل الحمد والملك له أهل الملك، ولو ابتدأته فرفعته كان حسناً، كما قال الاخطل:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوم باسل ذكر
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسق به المطر

(١) «شرح الرضي» (١/٣٤٦).

(٢) «التصريح» (٢/١١٦).

(٣) «شرح قطر الندى» (٢٨٨)، وانظر «الكليات لأبي البقاء» (٢٢٠).

(٤) «الكامل» (٢/٧٤٨).

زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناس، ولا من تخاطبه بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت فجعلته ثناء وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنه قال: (أذكر أهل ذاك) و(أذكر المقيمين) ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره، وهذا شبيه بقوله: (أنا بني فلان نفعل كذا) لأنه لا يريد أن يخبر من لا يدري أنه من بني فلان ولكنه ذكر ذلك افتخاراً وابتهاً^(١).

وجاء فيه أيضاً: «(هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه) وذلك قولك: أتاني زيد الفاسق الخيئ لم يرد أن يكرره، ولا يعرفك شيئاً تنكره، ولكنه شتمه بذلك... وقال عروة الصعاليك:

سقوني الخمر ثم تكتفوني
عداء الله من كذب وزور

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين،... وقد يجوز (مررت بقومك الكرام) إذا جعلت المخاطب كأنه قد عرفهم^(٢).

وجاء في (شرح السيرافي) بهامش الكتاب: «قال أبو سعيد: يحتاج التعظيم إلى اجتماع معنيين في المعظم:

أحدهما أن يكون الذي عظم به فيه مدح وثناء ورفعة.

والآخر أن يكون المعظم قد عرفه المخاطب وشهر عنده بما عظم أو يتقدم من كلام المتكلم ما يتقرر به عند المخاطب حال مدح وتشريف في المذكور يصح أن يورد بعدها التعظيم^(٣).

فهذه حقيقة القطع وغرضه.

(١) «كتاب سيبويه» (١/٢٤٨-٢٥٠).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٢٥٢).

(٣) «شرح السيرافي» (١/٢٥٢).

ثم أنه يقطع مع المرفوع الى النصب، ومع المنصوب الى الرفع، ومع المجرور الى الرفع، أو النصب، فتقول: (مررت بخالد العظيم أو العظيم) ويبدو أنّ القطع إلى الرفع اثبت وأشهر، وذلك لأنه في النصب بتقدير جملة فعلية، نحو: (أعني العظيم أو امدح) وفي الرفع بتقدير أسم أي (هو العظيم)، والأسم أثبت وأقوى وأدوم من الفعل كما مر في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَكَنَّا قَالَ سَلَّمَ﴾ [هود: ٦٩].

فقولك (مررت بمحمد العظيم) بالاتباع قد يراد منه تمييزه من غيره الذي هو حقير أو يراد مدحه بهذه الصفة.

وقولك (مررت بمحمد العظيم) بالنصب، تريد تنبيه السامع على هذه الصفة كما تعني أن محمدا مشهور بهذه الصفة معلوم بها للمخاطب يعلمه كل أحد.

وقولك (مررت بمحمد العظيم) بالرفع، يدل على أن محمداً معلوم أنصافه بهذه الصفة مشهور بها، غير أن أنصافه بهذه الصفة واستقرارها ورسوخها فيه وتمكنها منه أكثر واشد مما قبلها.

وورد القطع في العطف أيضاً للدلالة على أهمية المقطوع من بين المعطوفات، جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْدَهُنَّ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]: «وأخرج (الصابرين) منصوباً على الاختصاص والمدح، إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال»^(١).

وجاء في (شرح شذور الذهب) في قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]: «إن المقيمين نصب على المدح، وتقديره وامدح المقيمين، وهو قول سيويه والمحققين وإنما قطعت هذه الصفة عن بقية الصفات لبيان فضل الصلاة على غيرها»^(٢).

(١) «الكشاف» (١/٢٥٢).

(٢) «شرح شذور الذهب» (٥٤)، وانظر «الكشاف» (١/٤٣٨).

تعاطف النعوت

يجوز عطف النعوت بعضها على بعض متبعة كانت أو مقطوعة تقول: (مررت برجل كريم شاعر خطيب) ويجوز أن تقول (مررت برجل كريم وشاعر وخطيب). قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ١-٤]، وقال الشاعر:

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم^(١)

وتعطف النعوت بالواو كما مر، وإذا دلت على ترتيب وتعقيب عطف عند ذاك بالفاء، قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا وَالْمَصْفُوتِ عَصْفًا وَالنَّشْرِ نَشْرًا فَالْقَرْفَاتِ قَرْفًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥] وقال: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا فَالتَّجَرَّتِ نَحْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصفات: ١-٣].

قال أبو حيان: «ولا يجوز- أي العطف- بالفاء إلا أن دلت على أحداث واقع بعضها على أثر بعض، نحو: مررت برجل قائم إلى زيد فضاربه فقالته»^(٢).

وإن دلت الأحداث على ترتيب وتراخ عطف بـ (ثم) فتقول: (مررت برجل قائم إلى زيد ثم ضاربه ثم قاتله) وتقول (مررت برجل أعاني ثم أكرمني) ومنه (مررت برجل راكب ثم ذاهب) فيبين أن الذهاب بعده وأن بينهما مهلة غير متصل به»^(٣).

إلى غير ذلك من حروف العطف الأخرى كالعطف بـ (أو) أو بـ (لا) بحسب المعنى المقصود^(٤).

ويجب العطف في الصفات إذا تعددت لتعدد الموصوفين، بها نحو (مررت برجل كاتب وشاعر وفقه) أي كل رجل منهم له صفة من هذه الصفات.

(١) أنظر «الهمع» (١١٩/٢)، «شرح الرضي» (١٠٧/١-١٠٨).

(٢) «الهمع» (١١٩/٢)، «كتاب سيبويه» (٢١٣/١).

(٣) «كتاب سيبويه» (٢١٣/١).

(٤) أنظر «كتاب سيبويه» (٢١٣/١).

أما إذا تعددت الصفات وصاحبها واحد «فالأحسن أن تباعد معنى الصفات العطف نحو ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وإلا تركه نحو ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِنَ هَمَزٍ مَشَامٍ بَنِيمٍ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَمِيرٍ عُنْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣]»^(١).

وقد يؤتي بالواو للأهتمام.

جاء في (تفسير الرزاي) في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَسِدُونَ السَّاعُونَ الرَّاكِبُونَ الْمُكْرَمُونَ الْأَمْثَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]: «في إدخال الواو على هؤلاء (والناهون)، وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه، ولا تعلق لشيء منها بالغير، أما النهي عن المنكر فعبادة متعلقة بالغير، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهور الخصومة وربما أقدم ذلك المنهي على ضرب الناهي، وربما حاول قتله، فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات، فأدخل عليها الواو تنبيهاً على ما يحصل فيها من زيادة المشقة والمحنة»^(٢).

وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] ففصل بالواو بين (غافر الذنب) و(قابل التوب) للإهتمام بالتوبة ههنا، ويدل على ذلك قوله تعالى فيما بعد هذه الآيات: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ثم إنَّ العطف بالواو قد يؤتي به لتحقيق إجتماع الصفات في الموصوف، وذلك كأن تقول لشخص ينكر أو يستبعد إتصاف الموصوف بصفة واحدة من صفات الكمال، فضلاً عن عدة صفات (هو كاتب وخطيب وشاعر) فتأتي بالواو لتحقيق إجتماع هذه الصفات فيه.

(١) الأتقان: (٧٠/٢).

(٢) «التفسير الكبير» (٢٠٥/١٦).

جاء في (بدائع الفوائد): «إن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره في الكلام متضمناً لنوع من التأكيد من مزيد التقرير.

وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة الى ما نحن فيه، إذا كان رجل مثلاً له أربع صفات هي (عالم وجواد وشجاع وغني) وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقرّ به ويعجب من إجتماع هذه الصفات في رجل فإذا قلت (زيد عالم) وكان ذهنه استبعد ذلك فتقول: (وجواد) أي وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت إستبعاده لذلك قلت (وشجاع) أي وهو مع ذلك شجاع وغني فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار»^(١).

حذف النعت

يجوز حذف النعت إذا عُلِمَ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي كل سفينة صالحة فحذف النعت وأبقى المنعوت فإنه أن لم يقدر ذلك فلا فائدة في خرقها. ومنه قول المرقش الأكبر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد

فحذف النعت وأبقى المنعوت أي فرع فاحم أو نحو ذلك وجيد طويل وإلا فكل امرأة لها فرع وجيد أن قصد بذلك مطلق الفرع والجيد^(٢) فلا فائدة في التشبيب.

وقد تحذف الصفة وتدل عليها حال المتكلم، وللنغمة الصوتية أثر في إيضاها، وذلك كأن تقول (هو رجل) فتقوى اللفظ وتطيل الصوت وتفخمه، فتدل بذلك أنه رجل عظيم ونحو ذلك، وتقول (عنده مال) فتفخم كلمة (مال) وتمد صوتك بها فتعني أنه عنده مال كثير، وتقول (عنده مال) وتزوي وجهك وتغير النغمة، فيدل ذلك على أن عنده شيئاً قليلاً من المال ونحو ذلك^(٣).

(١) «بدائع الفوائد» (١/١٩١).

(٢) انظر «التصريح» (٢/١١٩).

(٣) انظر «الخصائص» (٢/٣٧٠-٣٧١).

البدل

يعرّف النحويون البدل بأنه التابع المقصود بالحكم بلا واسطة، ومعنى ذلك أنك إذا قلت مثلاً (أقبل أخوك محمد) فالمقصود فيه بالحكم هو (محمد) وهو المهم وأما (أخوك) فقد ذكر تمهيداً لذكر العلم، فالبدل هو المهم وهو المقصود بالحكم، وأما المبدل منه فإنما يذكر تمهيداً وتوطئة لذكر البدل.

ويذهب النحويون إلى أن البدل على نية إحلاله محل المبدل منه، وأما المبدل منه فعلى نية السقوط.

جاء في (المفصل) أن البدل «هو الذي يعتمد بالحديث، وإنما يذكر الأول لنحو من التوطئة وليفاد بمجموعهما فضل تأكيد وتبيين لا يكون في الأفراد»^(١).

وقال السيرافي: «أعلم أن البدل إنما يجيء في الكلام، على أن يكون مكان المبدل منه كأنه لم يذكر»^(٢).

ولا يعنون بذلك أن المبدل منه لا فائدة فيه، وليس له غرض، بل على معنى أن البدل مستقل بنفسه وإن العامل كأنما باشر البدل.

جاء في (شرح السيرافي): «وقول النحويين أن التقدير فيه تنحية المبدل منه ووضع البدل مكانه ليس على معنى الغائه وإزالة فائدته، بل على أن البدل قائم بنفسه غير مبين للمبدل منه، تبيين النعت للمنعوت، إذ لو كان على الإلغاء لكان نحو قولك (زيد رأيت أباه عمرا) في تقدير (زيد رأيت عمرا) وهذا فاسد محال»^(٣).

(١) شرح ابن يعيش (٦٦/٣).

(٢) شرح السيرافي بهامش الكتاب (٧٥/١).

(٣) المصدر السابق (٧٥/١).

وجاء في (المقتضب): «ولو كان البدل يبطل المبدل منه لم يجز أن تقول (زيد مررت به أبي عبدالله) لأنك لو لم تعتدّ بالهاء فقلت (زيد مررت بأبي عبدالله) كان خلفاً لأنك جعلت (زيداً) ابتداءً، ولم تردّ إليه شيئاً، فالمبدل منه مثبت في الكلام.

وإنما سمي البدل بدلاً لدخوله لما عمل فيه ما قبله على غير جهة الشركة،... والمعنى الصحيح أن البدل والمبدل منه موجودان معاً لم يوضعاً على أن يسقط أحدهما إلا في بدل الغلط فإن المبدل منه بمنزلة ما ليس في الكلام»^(١).

وقال الرضي: «ولا كلام أن المبدل منه ليس في حكم الطرح لفظاً لوجوب عود الضمير إليه في بدل البعض والاشتمال»^(٢).

فقولك (أعجبنى محمد علمه) فيه (علمه) بدل من (محمد) فلو كان (محمد) على نية السقوط لكان القول (أعجبنى علمه) فلا يعود الضمير على شيء وهو غير صحيح.

أقسام البدل

البدل على أقسام هي:

١- البدل المطابق ويسمى أيضاً بدل كل من كل وذلك نحو ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقوله ﴿إِنِّي صَرِطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] فالعزير الحميد هو الله.

وفائدة هذا البدل الإيضاح والتبيين ويؤدي البدل والمبدل منه بإجماعهما معنى لا يؤدي بانفراد أحدهما عن الآخر، فقد يكون الأول مبهماً يوضحه الثاني، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] فقوله (يسومونكم سوء العذاب) مبهم يحتمل أموراً كثيرة فأوضحه البدل ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ

(١) «المقتضب» (٤/٣٩٩-٤٠٠).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (١/٣٧٥).

يُطِيقُونَ فِذِيَّةً طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴿ [البقرة: ١٨٤] فالفدية مبهمة يوضحها (طعام مسكين).

وقد يكون الثاني مبيناً حقيقة الأول، كقوله تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَازِئُ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] فحقيقة العجل المتخذ ليست عجلاً حقيقةً وإنما هو جسد له خوار، ولو ذكرت البدل أو المبدل منه على أنفراد لم يتضح الأمر كما أوضحه اجتماعهما.

وقد يكون أحد الطرفين أعني البدل أو المبدل منه متصفاً بصفة دالة على المدح أو الذم أو غيرهما، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فقوله (العزیز الحميد) صفتان لله تعالى دالتان على المدح، ونحوه أن تقول: (مررت بالرجل العالم سالم) فالمبدل منه موصوف بصفة العلم والاكتفاء بإحدهما لا يؤدي معنى الجمع.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢] فلو قال: ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ طُوًى ﴾ لم يعلم أنه مقدس، ولو قال (إنك بالوادي المقدس) ولم يذكر اسمه لم يعلم أي واد هو؟

ونحوه قوله تعالى: ﴿ لَنْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةً كَذِبِي خَاطِلَةٌ ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فبين صفة الناصية المسفوعة.

وقد يكون الأول عاماً والثاني مخصصاً له، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ﴾ [الصفات: ٦] فالزينة عامة وقد خصصت بالكواكب، ونحوه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] وقوله: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِتَابِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. فبين جنس القوارير، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد يأتي للتفصيل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ حَقٌّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ [مریم: ٧٥] ففصل (ما يوعدون).

وقد يكون للتفخيم وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] فإنه أبهم الأمر أولاً، ثم أوضحه وللايضاح بعد الإبهام وقع في النفس ليس كما إذا جعل الكلام سرداً واحداً.

جاء في (الطراز): «أعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً فإنه يفيد بلاغة ويكسبه إعجاباً وفخامة، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب، ومصادق هذه المقالة قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ ثم فسره بقوله (إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وهكذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ فأبهمه أولاً ثم فسره بقوله ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾...

ألا ترى أنك إذا قلت: هل أدلك على أكرم الناس أباً وأفضلهم فعلاً، وحسباً وأمضاهم عزيمة وانفذهم رأياً؟ ثم تقول: فلان، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل في مدحته مما لو قلت: فلان الأكرام الأفضل الأنبل»^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية) «وقد يكون الثاني لمجرد التفسير بعد الإبهام مع أنه ليس في الأول فائدة ليست في الثاني وذلك لأن للإبهام أولاً، ثم التفسير ثانياً وقعاً وتأثيراً ليس للأتين بالمفسر أولاً، وذلك نحو (برجل زيد) فإن الفائدة الحاصلة من (رجل) تحصل من (زيد) مع زيادة التعريف لكن الغرض ما ذكرنا»^(٢).

وقد يفيد البديل التوكيد وذلك إذا دل على الإحاطة والشمول^(٣)، نحو (جاءوا كبارهم وصغارهم) ونحو قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤].

جاء في (كتاب سيويه): «فالبديل أن تقول: (ضرب عبدالله ظهره ويطنه) و(ضرب زيد الظهر والبطن) و(قلب عمرو ظهره ويطنه) و(مطرنا سهلنا وجبلنا) و(مطرنا السهل والجبل) وإن شئت كان على الإسم بمنزلة أجمعين توكيداً...»

(١) «الطراز» (٧٨-٧٩)، وانظر «البرهان» (٤٥٥/٢).

(٢) «شرح الرضي» (٣٧٠/١).

(٣) انظر «أبن الناظم» (٢٢٩).

فإن قلت: (ضُرب زيدُ اليدُ والرجل) جاز على أن يكون بدلاً، وأن يكون توكيداً^(١).

فسيبويه يجوز أن يعربها بدلاً أو توكيداً فإذا أعرب بدلاً أفاد معنى التوكيد لما فيه من الإحاطة.

ثم أن قولك: (أقبل أبوك خالد) فيه توكيد لأن أباك هو خالد، غير أنه ذكر مرة قرابته ومرة أسمه، وقد تقول: ولم لا يكون توكيداً؟.

والجواب أن الإسمين ليسا متطابقين تماماً، والتوكيد يفيد المطابقة، فإن قولك (أبوك) يفيد القرابة و(خالد) الإسم.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «قوله (فالأول مدلوله مدلول الأول) فيه تسامح إذ مدلول قولك (أخيك) في (يزيد أخيك) لو كان عين مدلول (زيد) لكان تأكيداً و(أخوك) يدل على أخوة المخاطب ولم يكن يدل عليها (زيد) لكن مراده أنهما يطلقان على ذات واحدة وإن كان أحدهما يدل على معنى فيها لا يدل عليه الآخر»^(٢).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «وأعلم أنه قد اجتمع في البديل ما افترق في الصفة والتأكيد لأن فيه إيضاحاً للمبدل ورفع لبس كما كان ذلك في الصفة، وفيه رفع مجاز وابطال التوسع الذي كان يجوز في المبدل منه. إلا ترى أنك إذا قلت (جاءني أخوك) جاز أن تريد كتابه أو رسوله، فإذا قلت (زيد) زال ذلك الإحتمال كما لو قلت (نفسه) أو (عينه) فلذلك قال صاحب الكتاب: وليفاد بمجموعهما فضل تأكيد وتبيين لا يكون في الأفراد، يعني أنه حصل بإجتمع البديل والمبدل منه من التأكيد ما يحصل بـ (النفس) و(العين) ومن البيان ما يحصل بالنعت ولو انفرد كل واحد من البديل والمبدل منه لم يحصل ما حصل بإجتمعهما كما لو انفرد التأكيد والمؤكد أو النعت والمنعوت لم يحصل ما حصل بإجتمعهما»^(٣).

(١) كتاب سيبويه (١/٧٩-٨٠).

(٢) شرح الرضي (١/٣٧١-٣٧٢).

(٣) شرح ابن يعيش (٣/٦٦).

وذهب النحاة إلى أن نحو (رأيتك إيتك) و(رأيتك إيتاه وفعلت أنت) بدل^(١)، ولا شك أنه يفيد التوكيد. وقد ذهب آخرون إلى أنه توكيد لا بدل^(٢).

وذكر بعض النحاة أن التأكيد متأثراً أيضاً من أن البديل على نية تكرار العامل، فإن قولك (جاء أخوك خالد) معناه جاء أخوك، جاء خالد، فكأنك كررت (جاء) مرتين، ومن هنا جاء التأكيد. فالتأكيد حاصل في المجيء.

قال ابن الناظم: «أعلم أن الغرض من الإبدال أن يذكر الاسم مقصوداً بالنسبة كالفاعلية، والمفعولية، والإضافة بعد التوطئة، لذكره بالتصريح بتلك النسبة، لافادة توكيد الحكم، وتقريره لأن الإبدال في قوة إعادة الجملة، ولذلك تسمع النحويين يقولون: البديل في حكم تكرار العامل»^(٣).

وجاء في (الإتقان): «والقصد به الإيضاح بعد الإبهام، وفائدته البيان والتأكيد، أما الأول فواضح أنك إذا قلت: (رأيت زيداً أخاك) بينت أنك تريد يزيد الأخ لا غير، وأما التأكيد فلأن على نية تكرار العامل فكأنه من جملتين، ولأنه دل على ما دل عليه الأول»^(٤).

والذي يبدو لي أن ليس ثمة توكيد في الحكم، وأن العامل غير مكرر، وإنما قد يحصل التوكيد من اجتماع البديل والمبدل منه، كأن يكون البديل دالاً على الإحاطة والشمول فيفيد معنى الجميع، أو كأن يكون الإسمان يطلقان على ذات واحدة، فيفيد اجتماعهما فضل توكيد نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. فعيسى هو ابن مريم.

(١) «كتاب سيبويه» (٣٩٣/١)، «شرح ابن يعيش» (٦٩/٣).

(٢) «شرح الرضي» (٣٧٣/١).

(٣) «شرح ابن الناظم» (٢٢٦).

(٤) «الإتقان» (٧٠/٢).

٢- بدل بعض من كل نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ف (من أستطاع) هو بعض الناس ونحو (أعجبنى خالد وجهه) و(أكلت الرغبة ثلثه).

٣- بدل أشتمال: وهو ما دل على معنى في متبوعه وذلك نحو: (أعجبنى خالد علمه) ونحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَتَالِ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] ف (إذ) بدل إشتمال من مريم، وقوله: ﴿قِيلَ امْنَحِبِ الْأَخْذُودَ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ [البروج: ٤، ٥] ف (النار) بدل إشتمال من (الأخدود) لأن الأخدود أشتمل على النار.

ولابد في هذين البديلين أعني البديل الذي هو بعض، وبديل الإشتمال، من ضمير يربطهما بصاحبهما ظاهر أو مقدر، فالظاهر نحو قولك (أعجبنى محمد علمه) والمقدر نحو (النار ذات الوقود) أي النار فيه^(١).

ولا يشترط في البديل الواقع في الإستثناء ضمير، وذلك نحو (ما أقبل الرجال إلا خالد).

وفائدة هذين البديلين هو الإيضاح بعد الإبهام.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «والفائدة في بدل البعض والإشتمال البيان بعد الإجمال والتفسير بعد الإبهام لما فيه من التأثير في النفس. وذلك أَنَّ المتكلم يحقق بالثاني بعد التجوز والمسامحة بالأول تقول (أكلت الرغبة ثلثه) فتقصد بالرغبة ثلث الرغبة ثم تبين ذلك بقولك (ثلثه)، وكذا في بدل الإشتمال، فإن الأول فيه يجب أن يكون بحيث يجوز أن يطلق ويراد به الثاني نحو (أعجبنى زيد علمه) و(سُلب زيد ثوبه) فإنك قد تقول (أعجبنى زيد) إذا أعجبك علمه و(سُلب زيد) إذا سلب ثوبه على حذف المضاف ولا يجوز أن تقول: (ضربت زيدا) وقد ضربت غلامه»^(٢).

(١) انظر «المغني» (٢/٥٠٦)، «شرح الرضي» (١/٣٧٤).

(٢) «شرح الرضي» (١/٣٧١).

٤- البديل المغاير: وهو بدل الغلط والإضراب والنسيان. فبدل الغلط نحو قولك (أقبل محمدًا خالدًا) فإنك عندما قلت (أقبل محمد) تبين لك أنك غلطت بذكر (محمد) وإنما أردت (خالدًا) فجئت بكلمة (خالد) صححت بها غلطك فهي بدل الغلط أي جئت بها مكان الغلط لا أنها غلط.

وأما الإضراب فيكون إذا ذكرت شيئاً، ثم بدا لك أن تضرب عنه، بذكر آخر بدله كأن تقول: (سأذهب إلى المقهى الكلية) فحين ذكرت أنك سيذهب إلى المقهى بدا لك أن تترك ذهابك إليها وأن تذهب إلى الكلية بدلها. قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] فأخبر أولاً أنهم لا يملكون رزقاً، ثم أضرب عن ذلك فقال: بل لا يملكون شيئاً، والذي عليه النحاة أن (شيئاً) مفعول به لـ (رزقاً) وكل صواب فيما أرى.

وأما بدل النسيان فيكون بأن تنسى فتذكر أمراً على غير حقيقته ثم تتذكر الأمر المنسي فتذكره بدل الأول كأن تقول: (زارني سعدٌ إبراهيم) فإن الذي زارك هو إبراهيم لا سعد، ولكنك نسيت فذكرت سعداً، ثم تذكرت الشخص الذي زارك وهو إبراهيم.

جاء في (الكتاب): «(هذا باب المبدل من المبدل منه) والمبدل يشرك المبدل منه في الجر وذلك قولك: (مررت برجل حمار) فهو على وجه محال وعلى وجه حسن.

فأما المحال فإن تعني أنّ الرجل حمار، وأما الذي يحسن، فهو أن تقول (مررت برجل) ثم تبدل الحمار مكان الرجل، فتقول (حمار) أما أن تكون غلطت أو نسيت فأستدركت، وأما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار، بعد ما كنت أردت غير ذلك، ومثل ذلك قولك: (لا بل حمارٍ)، ومن ذلك قولك: (مررت برجل بل حمار) وهو على تفسير (مررت برجل حمار)، ومن ذلك (ما مررت برجل بل حمارٍ) وما مررت برجل ولكن حمار أبدلت الآخر من الأول، وجعلته مكانه»^(١).

(١) «كتاب سيبويه» (١/٢١٨-٢١٩).

وبدل الغلط والنسيان لا يكون في قرآن ولا شعر.

جاء في (المقتضب): «فهذا البديل لا يكون مثله في قرآن ولا شعر ولكن إذا وقع مثله في الكلام غلطاً أو نسياناً فهكذا إعرابه»^(١).

وقد يقع في الشعر على سبيل ادعاء الغلط أو النسيان، كقوله:

(ألا إنما هند عصا خيزرانة) فذكر أولاً أنها عصا، ثم بين أنه غلط بقوله هي عصا فصحح غلطه وذكر أنها خيزرانة.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وهذا الذي يسمى بدل الغلط على ثلاثة أقسام:

أما بداء وهو أن تذكر المبدل منه عن قصد، وتعتمد ثم توهم أنك غلط لكون الثاني أجنياً وهذا يعتمد على الشعراء كثيراً للمبالغة والتفنن، في الفصاحة، وشرطه أن يرتقي من الأدنى إلى الأعلى كقولك (هند نجم بدر شمس) كأنك وإن كنت معتمداً لذكر النجم تغلط نفسك، وترى أنك لم تقصد في الأول، ألا تشبيهها بالبدر، وكذا قولك: بدر شمس.

وأما غلط صريح محقق كما إذا أردت مثلاً أن تقول (جاءني حمار)، فسبقك لسانك إلى (رجل) ثم تداركت الغلط فقلت (حمار).

وأما نسيان . . .

ولا يجيء الصرف ولا بدل النسيان، في كلام الفصحاء، وما يصدر عن روية وفطانة، فلا يكون في شعر أصلاً، وإن وقع في كلام فحقه الإضراب عن الأول المغلوط فيه، به (بل)^(٢).

(١) «المقتضب» (٢٨/١).

(٢) «شرح الرضي» (١/٣٧٢-٣٧٣).

٥- بدل كل من بعض، وأنكره الجمهور واستدل المثبتون له بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّتِ عَدْنٌ﴾ [مريم: ٦٠-٦١]. قالوا: (جنات عدن) بدل كل من (الجنة) وهي بعض والجمهور على أنها بدل مطابق، لأن الجنة فيها جنات. واستدل المثبتون أيضاً بقول الشاعر:

رحم الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات
ف (طلحة) كل و(الأعظم) بعض، والآخرون على أن (طلحة) مفعول به لفعل محذوف تقديره (أعني).

واستدل المثبتون بنحو قولهم (لقيته غدوة يوم الجمعة) كل، والغدوة بعض، وبقوله: كأنني غداة الين يوم تحمّلوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل فالיום كل، والغداة، والآخرون على أن (يوم) في البيت بمعنى (وقت)^(١)، والقول بهذا البديل لا بد منه في نحو قولهم (ما قام إلا زيد القوم) إذ لا يكون إلا بدل كل من بعض. جاء في (شرح ابن عقيل): «وقد روي رفعه فتقول (ما قام إلا زيد القوم). قال سيويه حدثني يونس أن قوماً يوثق بعريتهم يقولون (مالي إلا أخوك ناصر) وأعربوا الثاني بدلاً من الأول على القلب^(٢)».

ويقصدون بالقلب أن أصل الكلام (مالي ناصر إلا أخوك) فـ (أخوك) بدل بعض من كل ثم قدم البديل على المبدل منه فصار بدل كل من كل^(٣)، لأن المقصود بالناصر أخوك غير أن هذا لا ينطبق على مثال ابن عقيل، (ما قام إلا زيد القوم) إذ لا يمكن عدّ (زيد) عاماً و(القوم) خاصاً، فعلى مذهب من يجيز هذا التعبير يجب قبول هذا النوع من البديل.

(١) أنظر «الهمع» (١٢٧/٢)، «الصبان» (١٢٦/٣)، حاشية الخضري (٦٩/٢).

(٢) «شرح ابن عقيل» (٢٠٥-٢٠٦).

(٣) «شرح الأشموني» (١٤٨/٢)، «التصريح» (٣٥٥/١)، حاشية الخشري (٢٠٦/١).

البدل وعطف البيان

عطف البيان عند النحاة، تابع يوضح، أو يخصص متبوعه، غير مقصود بالنسبة لا يكون مشقاً، ولا مؤولاً بالمشتق، نحو (أقبل أبو محمد خالد) و(أقسم بالله أبو حفص عمر^(١)) ونحو: ﴿وَسَقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقوله: ﴿أَوْ كَفَّرَ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

فالغرض من عطف البيان توضيح المتبوع أو تخصيصه، فالمتبوع على هذا أهم لأنه إنما جيء بالبيان لقصد إيضاحه.

جاء في (شرح ابن يعيش): «عطف البيان مجراه مجرى النعت يؤتي به لايضاح ما يجري عليه، وإزالة الإشتراك الكائن فيه من تمامه، كما أن النعت من تمام المنعوت نحو قولك (مررت بأخيك زيد) بنت الأخ بقولك (زيد) وفصلته من أخ آخر ليس بزيد كما تفعل الصفة في قولك (مررت بأخيك الطويل) تفصله من أخ آخر ليس بطويل ولذلك قالوا إن كان له أخوة فهو عطف بيان وإن لم يكن له أخ غيره فهو بدل^(٢)».

فهو شبيه بالبدل المطابق، غير أنهم يفرقون بينهما، بأن المهم في البدل هو الثاني، وأما المهم في البيان فهو الأول، وإنما ذكر الثاني إيضاحاً للاول وتفسيراً له، فإذا قلت: (أقبل أخوك محمد) وكان إهتمامك بالثاني أعرب بدلاً، وإن كان إهتمامك بالإخوة أعرب الثاني عطف بيان.

وفرقوا بينهما فروقاً أهمها:

إن عطف البيان لا يكون ضميراً، ولا تابعاً لضمير بخلاف البدل.

وإن البيان لا يخالف متبوعه في تعريفه وتنكيره، ولا يختلف في جواز ذلك في البدل.

(١) «شرح ابن النازم» (٢١٢)، «شرح شذور الذهب» (٥١٥).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٧١/٣).

وأنه لا يكون جملة، ولا تابعاً لجملة، بخلاف البذل.

وأنه لا يكون فعلاً، ولا تابعاً لفعل، بخلاف البذل.

ثم إنَّ البيان ليس على نية أحلاله محل الأول بخلاف البذل، ولهذا أمتنع البذل وتعين البيان في نحو: (يا زيدُ الحارثُ) لأنك لا تقول (بالحارث) وأمتنع البذل وتعين البيان في نحو (يا سعيدُ كرزُ) بالرفع أو (كرزاً) بالنصب بخلاف (يا سعيدُ كرزُ) بالضم فإنه بدل. وفي نحو (أنا الضارب الرجل زيد) لأنك لا تقول (أنا الضارب زيد) عند الجمهور، وفي نحو (زيد أفضل الناس الرجال والنساء) لأنَّ أسم التفضيل إذا قصد به الزيادة على من أضيف إليه يشترط أن يكون منهم، فلا يصح أن تقول (زيد أفضل النساء) ففي كل ذلك يتعين البيان ويمتنع البذل، وكذلك إذا قلت: (يا أخانا خالدُ) كان عطف بيان بخلاف ما إذا قلت (يا أخانا خالدُ) بالضم فإنه بدلا لأنه على نية أحلاله محل الأول.

ثم إنَّ عطف البيان ليس في التقرير من جملة أخرى بخلاف البذل، ولهذا أمتنع أيضاً البذل وتعين البيان، في نحو قولك (هند قام عمرو أخوها) لأن البذل على تقدير (هند قام عمرو قام أخوها) فتكون جملة الخبر بلا رابط وهو لا يجوز^(١).

وقد أجازوا أعراب عطف البيان، بدل كل من كل، إذا لم يكن ثمة مانع من الموانع المذكورة.

والحق فيما أرى أن هذا ضرب من التعسف، ولا أرى عطف البيان إلا البذل، ولا داعي لادعاء الفروق بينهما، ويمكن الأكتفاء بباب واحد هو البذل أو البيان، وكل ما قيل في البذل يمكن أن يقال في البيان وبالعكس، واصطلاح البذل أولى، وذلك لتعدد أنواعه: بدل بعض واشتمال، وبدل أضراب وغلط ونسيان، فإنَّ كلمة (بدل) أدل على المعنى من كلمة (بيان) ولا سيما في البذل المغاير وإن كان يمكن أن يطلق عليه (بيان) بتأول.

(١) انظر «الغني» (٢/٤٥٥)، «شرح ابن عيش» (٣/٧٢)، «التصريح» (٢/١٣٣).

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأنا الى الآن لم يظهر لي فرق جلي بين بدل الكل وبين عطف البيان، بل لا أرى عطف البيان إلّا البدل كما هو ظاهر قول سيويه، فإنه لم يذكر عطف البيان^(١)، بل قال: أما بدل المعرفة من النكرة فنحو مررت برجل عبدالله كأنه قيل: بمن مررت؟ أو ظن أن يقال له ذلك، فأبدل مكانه ما هو أعرف منه . . .

قالوا: الفرق بينهما أن البدل هو المقصود بالنسبة دون متبوعه، بخلاف عطف البيان فإنه بيان، والبيان فرع المبيّن فيكون المقصود هو، الأول.

والجواب أنا لا نسلم أن المقصود بالنسبة في بدل الكل، هو الثاني فقط، ولا في سائر الإبدال إلّا الغلط، فإنّ كون الثاني فيه هو المقصود بها دون الأول ظاهر، وإنّما قلنا ذلك لأنّ الأول في الإبدال الثلاثة منسوب اليه في الظاهر، ولا بد أن يكون في ذكره فائدة لم تحصل لو لم يذكر كما يذكر في كل واحد من الثلاثة صوتاً لكلام الفصحاء عن اللغو، ولا سيما كلامه تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فادعاء كونه غير مقصود بالنسبة مع كونه منسوباً إليه في الظاهر وإشتماله على فائدة يصح أن ينسب إليه لاجلها دعوى خلاف الظاهر^(٢)».

وقال: «قالوا والفرق الآخر أن البدل في حكم تكرير العامل، ولو سلمنا ذلك فيما تكرر العامل فيه ظاهراً فبأي شيء يعرف المخاطب ذلك فيما لم يتكرر فيه؟»

ولنا أن ندعي ذلك فيما سموه عطف البيان، مع التسليم في البدل.

وفرّقوا أيضاً بينهما بعدم وجوب توافق البدل والمبدل منه تعريفاً، وتنكيراً، بخلاف عطف البيان.

والجواب تجويز التخالف في المسمى عطف بيان أيضاً، هذا الذي ذكرت هو الذي يقوي عندي^(٣).

وعلى كل فالافتاء بباب واحد وهو البدل أولى كما ذهب إليه الرضي، والله أعلم.

(١) الصواب أن «سيويه» ذكر عطف البيان في عدة مواضع من كتابه - ينظر على سبيل المثال (٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٥/١).

(٢) «شرح الرضي» (٣٦٩/١ - ٣٧٠).

(٣) «شرح الرضي» (٣٧١/١).

العطف

حروف العطف

الواو:

وهي لمطلق الجمع، فإذا قلت (حضر محمدٌ و خليلٌ) فليس فيه دلالة على أنَّ محمداً حضر قبل خليل، فقد يكون حضر محمد قبله، ويحتمل أنَّه حضر بعده، كما يحتمل أنهما حضرا معاً.

جاء في (كتاب سيويه): «وليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيء قبل شيء، ولا بشيء مع شيء، لأنه يجوز أن تقول (مررت بزيد وعمرو)، والمبدوء به في المرور عمرو، ويجوز أن يكون زيدا، ويجوز أن يكون المرور وقع عليهما في حالة واحدة. فالواو يجمع هذه الأشياء على هذه المعاني. فإذا سمعت المتكلم يتكلم بهذا اجبته على أيها شئت لأنها قد جمعت هذه الأشياء»^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «قوله (فالواو للجمع مطلقاً): معنى المطلق أنه يحتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكون حصل من عمرو أولاً، فهذه ثلاثة احتمالات عقلية، لا دليل في الواو على شيء منها، هذا مذهب جميع البصريين والكوفيين.

ونقل بعضهم عن الفراء، والكسائي، وثعلب، والرعي، وابن درستويه، وبه قال بعض الفقهاء أنها للترتيب، ودليل الجمهور استعمالها فيما يستحيل فيه الترتيب، نحو (المال بين زيد وعمرو) و(تقاتل زيد وعمرو) وفيما الثاني فيه قبل الأول كقوله:

أو جونة قدحت وفضّ ختامها

(١) «كتاب سيويه» (٢١٨/١) وانظر (٣٠٤/٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] والأصل في الاستعمال الحقيقة، لو كانت للترتيب لتناقض قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدَا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله في موضع آخر: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدَا﴾ [الأعراف: ١٦١] إذ القصة واحدة^(١).

والحق إنها لا تفيد الترتيب، بدليل قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ولا شك أن ما أنزل إلى محمد متأخر عما أنزل إلى إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٣] فلو كانت الواو تفيد الترتيب، لكان الوحي إليه قبل الوحي إلى الذين من قبله، وهو غير صحيح.

وقد تقول إنها وردت للترتيب أيضاً في القرآن الكريم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ [البقرة: ١٣٦] وهؤلاء المذكورون على الترتيب، وكما في آية الوضوء، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. فالأعضاء مذكورة بحسب الترتيب.

فقول: ليس معنى قولنا إنها لا تفيد الترتيب، إنها لا تأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وتأتي لغيره، فقد يصح أن يكون المعطوف بعد المعطوف عليه، كما يصح أن يكون قبله أو مصاحباً له، فهي قد تأتي للترتيب ولا مانع من ذلك، وإنما ردنا على الذين يزعمون أنها لا تكون إلا للترتيب، ولذا نرى في القرآن الكريم تقديم الشيء على الشيء في موضع، ثم قد يتأخر المتقدم في موضع آخر، وذلك كتقديم الضرر والنفع، فهو مرة يقول: ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٦]. ومرة يقول: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٤٠٣/٢) وانظر «المغني» (٣٥٤/٢)، «المفصل» (١٩٧/٢)، «الجمال» للزجاجي (٣١).

وكتقدم اللعب واللهو، فمرة يقدم اللعب، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] ومرة يقدم اللهو، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وكتقديم السماء والأرض، فهو مرة يقدم السماء على الأرض، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣]، ومرة يقدم الأرض على السماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

وكتقديم السجود والركوع، فهو مرة يقدم الركوع على السجود، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَالرُّكُوعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومرة يقدم السجود على الركوع، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمُرُ أَفَنِّي لِرَبِّكَ وَاسْجُدْ وَارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وربما قدم شيئاً في موطن، وأخره في موطن آخر والقصة واحدة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُبْحَدَا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُبْحَدَا﴾ [الأعراف: ١٦١] فقد قدّم السجود على القول في البقرة، وقدّم القول على السجود في الأعراف والقصة واحدة، ولا تناقض في هذا، إذ لو كانت الواو تفيد الترتيب لتناقض القولان.

إنّ التقديم والتأخير بالواو، يدخل في عموم موضوع التقديم والتأخير، فالتقديم إنّما يكون للاهتمام والعناية بالمتقدم، وتختلف العناية باختلاف المواطن، فقد يعنى المتكلم في موطن بأمر فيقدمه، وقد تكون العناية في موطن آخر بأمر فيقدّم ذلك الشيء.

وكلمة العناية والاهتمام عامة، ومظاهرها ومواطنها متعددة متشعبة، ولا يحسن الاكتفاء بأنّ تقول: إنّ ما قدّم ههنا إنّما قدّم للعناية والاهتمام، دون أنّ نبين وجه الاهتمام، فإنّك إذا قلت مثلاً إنّما قدّم السماء على الأرض في سورة سبا للعناية بالسماء، وقدّم الأرض على السماء في سورة يونس للعناية بالأرض، قيل لك: ولم كانت العناية هناك بالسماء وههنا بالأرض؟.

وإذا قلت: إنّما قدم السجود على القول في البقرة، للعناية والاهتمام بالسجود، وقدّم القول على السجود في الاعراف للعناية بالقول، قيل: ولم كانت العناية بالقول أهم من السجود ههنا؟.

فهذا كلام عام لا يتبينه كثير من الناس، وقد يصبح ستاراً يخفى تحته الجهل، وعندئذ يكون هذا القول عبارة عن كلمة عامة مبهمة، لا معنى واضحاً تحتها، بل لا معنى لها إلا التحكم المحض، لذا سنضرب أمثلة لطرف من أوجه العناية والاهتمام، تكون مرقاة لما فوقها، وهذا الموضوع- وإن كان يدخل في موضوع التقديم والتأخير- فيه فائدة كبيرة ههنا فيما أحسب، لأنه ذو مساس باستعمال الواو.

إنّ التقديم والتأخير تكون له اسباب متعددة يقتضيها السياق، فقد يكون السياق متدرجاً حسب القدم والاولية في الوجود، فيترتب ذكر المعطوفات على هذا الأساس، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فخلق الجن قبل الانس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَجَأَنَ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السُّمُورِ﴾ [الحجر: ٢٧]، ونحو ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لأن السنة، وهي النعاس تسبق النوم.

وقد يكون الكلام متدرجاً من القلة الى الكثرة، فترتب المذكورات بحسب ذلك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿طَهَّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها، فتدرج من القلة الى الكثرة، فالطائفون أقل من العاكفين، لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عموماً، والعاكفون أقل من الراكعين لأنّ الركوع أي الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد، والراكعون أقل من الساجدين، وذلك لأنّ لكل ركعة سجدين، ثم إنّ كل راع لا بد أن يسجد، وقد يكون سجود ليس له ركوع، كسجود التلاوة وسجود الشكر، فهو هنا تدرج من القلة الى الكثرة، ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام، فإنّ الكلام على بيت الحرام، قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] فالطائفون هم ألصق

المذكورين بالبيت، لأنهم يطوفون حوله فبدأ بهم، ثم تدرج الى العاكفين في هذا البيت، أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم، وسجودهم، وهم في كل الأرض^(١).

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير، ولهذا سببه وذلك أنه لما قال قبل هذه الآية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فبدأ بما هو أقرب اليهم وهو (ما بين ايديهم) ثم بما هو أعم واكثر، وهو (ما خلفهم) جاء بالكلام على نسق ذلك، فتدرج من الأقل الى الأكثر، ويمكن أن يقال أيضاً، أنه بدأ بما هو من فعل العبد مع نفسه وربه، ثم تدرج الى ما بينه وبين العباد، فبدأ بالركوع والسجود ثم عبادة الرب عموماً، ثم فعل الخير متدرجاً في ذلك بحسب الكثرة والعموم، والله أعلم.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة الى القلة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَنْمَرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فتدرج من الكثرة إلى القلة، فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع، وهو أقل وأخص^(٢).

أو لملاحظ أخرى غير ما ذكرناها، كأن يكون السياق يُعنى بأمر أكثر من آخر، وذلك كتقديم الضرر على النفع، أو بالعكس.

جاء في (البرهان): «وحيث تقدم النفع على الضرر فلتقدم ما يتضمن النفع»^(٣).

وكقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا آلَ بَابِ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨] وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا آلَ بَابِ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

(١) انظر «بدائع الفوائد» (٦٥/١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٨٠/١).

(٣) «البرهان» (١٢٢/١).

وسبب تقديم السجود على القول في البقرة، هو أن السياق اقتضى ذلك، فقد جاءت هذه القصة في عقب الامر بالصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُونُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٤٣-٤٥] والسجود من أركان الصلاة، ثم أن المقام في البقرة مقام تعديد النعم على بني اسرائيل، فقد بدأ هذه القصة بقوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] والسجود أفضل من قول حطة، فناسب ذلك تقديم السجود وكلا الامرين مرفوع في الأعراف.

ومنه تقديم السماء على الأرض في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] وتقديم الأرض على السماء. في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

وسر ذلك والله أعلم، أن الكلام في آية يونس على أهل الأرض وأحوالهم وشؤونهم وإن الله عالم بهم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١] في حين أن الكلام في سورة سبأ على الساعة والايان بها، والساعة إنما تأتي من السماء وتبدأ بأهل السماء، ولذا قدم السماء على الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: «فان قلت: لم قدمت الارض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؟».

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء^(١).

وجاء في (بدائع الفوائد): «واما تقديم الارض عليها، أي السماء في قوله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وتأخيرها عنها في (سبأ) في ضمن قول الكفار ﴿لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمٌ﴾ الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴿كيف قدم السماوات هنا لأن الساعة إنما تأتي من قبلها، وهي غيب فيها، ومن جهتها تبدى وتنشأ، ولهذا قدم صعد أهل السماوات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

واما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس، فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، واعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم، دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء، اقتضى ذلك ذكر محلهم، وهو الأرض قبل ذكر السماء^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمَّا يَكُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] فقدّم رزق الأولاد على الآباء في الآية الاولى ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقدّم رزق الآباء على الاولاد في الثانية، نحو ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وسبب ذلك والله أعلم، أنه في الآية الاولى انهم يقتلون أولادهم خشية الفقر، لا انهم مفتقرون في الحال فقال: لا تقتلوهم فانّا نرزقهم واياكم، أي أن الله جعل معهم رزقهم، فهم لا يشاركونكم في الرزق فلا تخشوا الفقر.

وأما في الآية الثانية فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم، لا أنهم يخشونه فهم في حاجة الى الرزق الآتي السريع، ليعولوا أولادهم فعجل لهم ذاك فقال: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

جاء في (بديع القرآن): «قوله تعالى في الاولى (من إملاق) ليشير الى الخطاب للفقراء دون الاغنياء، فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق، وتكميل العدة برزق الاولاد... وقال في الآية الثانية (خشية إملاق) ليشير إلى أنّ الخطاب للأغنياء، دون الفقراء، الذين يخافون أن تسلبهم كلف الاولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الاولاد... فيأمنوا ما خافوه من الفقر»^(٢).

(١) «بدائع الفوائد» (٧٤/١).

(٢) «بديع القرآن» (٢٦١)، «تحرير التحرير» (٥٦١).

إلى غير ذلك من موجبات التقديم التي يقتضيها السياق.

فتبين من هذا أنّ الواو لمطلق الجمع، وليست للترتيب، غير أنّه لا ينبغي أن يفهم من قولنا (انها لمطلق الجمع) أنّه يؤتي بها بين المتعاطفين، أو بين الحكمين بلا مناسبة بينهما ولا رابط، بل لابد من رابط بينهما، فلا يصح أن تقول: رأيت محمداً وجبلاً، ولا رأيت خالداً ونملة، بل لابد من رابط بين المتعاطفين، ولا سيما في الجمل: «والجامع بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المسند إليه في هذه، والمسند إليه في هذه، وباعتبار المسند في هذه، والمسند في هذه، جميعاً، كقولك: يشعر زيد، ويكتب، ويعطي، ويمنع، وقولك (زيد شاعر وعمرو كاتب) و(زيد طويل وعمرو قصير) إذا كان بينهما مناسبة كأن يكونا أخوين أو نظيرين بخلاف قولنا (زيد شاعر وعمرو كاتب) إذا لم يكن بينهما مناسبة، وقولنا (زيد شاعر وعمرو طويل) كان بينهما مناسبة أو لا»^(١).

فلا يصح أن تربط بين مسند إليهما، ليس بينهما علاقة، ولا رابط، فلا تقول (محمد شاعر وخالد كاتب) وليس بين محمد وخالد مناسبة البتة، ولا تقول (محمد شاعر وأخوك أحول) لانه لا مناسبة بين الحكمين.

جاء في (دلائل الاعجاز): «وذلك أن لاتقول (زيد قائم وعمرو قاعد) حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين، والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول، عناه أن يعرف حال الثاني، يدلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب، ولا هو يذكر بذكره، ويتصل حديثه بحديثه، لم يستقم، فلو قلت: (خرجت اليوم من داري) ثم قلت (وأحسن الذي يقول بيت كذا) قلت ما يضحك منه ومن هنا عابوا أبا تمام في قوله:

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسن ومرارة النوى، ولا تعلق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك.

واعلم انه كما يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث

(١) «الايضاح» للقرظيني (١/١٦١-١٦٢).

عنه في الاخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني ممّا يجري مجرى الشبيه، والنظير أو النقيض للخبر عن الأول، فلو قلت (زيد طويل القامة، وعمرو شاعر) كان خُلُفاً لأنه مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنّما الواجب أن يقال: (زيد كاتب وعمرو شاعر) و(زيد طويل وعمرو قصير).

وجملة الأمر: أنها لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً لمعنى في الاخرى، ومضامناً له، مثل أنّ زيداً وعمراً كانا اخوين أو نظيرين أو مشتبكي الاحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو شاكل ذلك مضمومة في النفس الى الحال التي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبداً.

والمعاني في ذلك كالاشخاص، فإنّما قلت مثلاً (العلم حسن والجهل قبيح) لأنّ كون العلم حسناً، مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيحاً^(١).

ثم إنّه قد يؤتي بالواو للدلالة على التأكيد والاهتمام بما بعدها، فقد تزداد الواو للتأكيد، وجعل منه قولهم (ما من أحد إلا وله طمع وحسد) و(ما من أحد إلا وله نفس أمارة).

جاء في (الكليات) لابي البقاء: «قد يزداد بعد (إلا) لتأكيد الحكم المطلوب إثباته، إذا كان في محل الرد والإنكار نحو (ما من أحد إلا وله طمع وحسد)»^(٢).

وجاء في (الكليات) أيضاً: «وقالوا إذا دخلت على الشرط بعد تقدم الجزاء، يراد به تأكيد الوقوع بالكلام الأول، وتحقيقه كقولهم (أكرم أخاك وإنّ عاداك) أي أكرمه بكل حال»^(٣).

ومرّ بنا ما ذهب اليه الزمخشري من أنّه يؤتي بالواو، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]

(١) «دلائل الاعجاز» (١/١٧٢-١٧٤).

(٢) «الكليات» (٤١٥).

(٣) «الكليات» (٣٦٧).

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] فقد ذكر أن فائدة الواو «تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر»^(١).

وقد ذكرنا في واو الحال أنها قد تأتي للتأكيد والاهتمام، كما ذكرنا ذلك في باب عطف الاخبار والصفات.

جاء في (بدائع الفوائد): «إن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره، يكون في الكلام متضمناً لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة الى ما نحن فيه، إذا كان لرجل مثلاً أربع صفات، هو عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك، أو لا يقرُّ به ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت (زيد عالم) وكان ذهنه استبعد ذلك فتقول: (وجواد) أي وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: (وشجاع) أي وهو مع ذلك شجاع، وغني، فيكون في العطف مزيد تقرير توكيد، لا يحصل بدونه تدراً توهم الانكار»^(٢).

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْخَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]: «الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها»^(٣).

وقد يؤتي بالواو لقصد الدلالة على المغايرة، وذلك إذا كان طرحها يؤدي إلى أن يكون الثاني مفسراً للأول، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَخْتَلِفُ أَلْفٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] فقال (يذبحون) بلا واو.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فإن طرح الواو في الآية الأولى دل على أن التذبيح هو سوء العذاب،

(١) «الكشاف» (٢/٢٥٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/١٩١).

(٣) «الكشاف» (١/٣١٣).

والواو في الثانية أفادت المغايرة، فجعلت التذبيح غير سوء العذاب، وسرّ هذه المغايرة هو أنّ قوله تعالى: (يذبحون أبناءكم) بلا واو، وفي (إبراهيم) بالواو «لأنّ الأولى من كلامه تعالى لهم، فلم يعدد عليهم المحن تكريماً في الخطاب، والثانية من كلام موسى فعددها عليهم»^(١).

جاء في (معاني القرآن): «فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح والذبح».

ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة، ثم فسرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غيره فبالواو، فمن المجمل قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. فالاثام فيه نية العذاب قليلة وكثيره، ثم فسره بغير الواو، فقال: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الفرقان: ٦٩]. ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيراً له، ألا ترى أنك تقول: عندي دابتان بغل وبرذون، ولا يجوز عندي دابتان وبغل وبرذون، وأنت تريد تفسير الدابتين بالبغل والبرذون»^(٢).

وقد يؤتي بها للتخصيص على جمع حكمين، وذلك إذا كان طرحها يحتمل الاضراب عن الحكم الأول، كما تقول (ضربت محمداً وخالداً) فأنك دللت بالواو أنك ضربتهما جميعاً، فإن طرحت الواو دل على أنك ضربت خالداً، وأضربت عن الحكم السابق.

جاء في (دلائل الاعجاز): «واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين، واحداً كقولنا: هو يقول، ويفعل، ويضر، وينفع، وسيء، ويحسن، ويأمر وينهى، ويحل، ويعقد، ويأخذ، ويعطي، ويبيع، ويشترى، ويأكل، ويشرب، وأشبه ذلك ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذٍ صريحاً، وذلك إنك إذا قلت: هو يضر وينفع كنت قد أفدت بالواو، إنك أوجبت له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت (يضر ينفع) من غير واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك (ينفع) رجوعاً عن قولك (يضر) وإبطالاً له»^(٣).

(١) «الاتقان» (١١٥/٢) وانظر «معترك الاقران» (٧٨-٨٨).

(٢) «معاني القرآن» (٦٨-٦٩).

(٣) «دلائل الاعجاز» (١٧٤).

وقد يؤتي بالواو للدلالة على الاستمرار والتكثير، وذلك في الافعال خاصة وذلك نحو: هو يركض ويركض، أي مستمر على ذلك، وأخذ يدور ويدور، أي يكثر من ذلك، وهو مستمر عليه.

أحكام الواو:

ذكر النحاة أنّ الواو تنفرد بأحكام أشهرها:

١- إقترانها بإما نحو (خذ إمّا درهماً وإمّا ديناراً).

٢- إقترانها بـ (لكن) نحو (ما جاء محمد ولكن خالد).

٣- اقترانها بـ (لا) إن سبقت بنفي، نحو (ما جاءني محمد ولا سعيد) «ليفيد أنّ الفعل منفي عنهما في حالة الاجتماع والافتراق... إذ لو لم تدخل (لا) لاحتمل أنّ المراد نفي المجيء عند الاجتماع، دون الافتراق»^(١).

فأنت إذا قلت (ما جاءني محمد وسعيد) احتمل أنّ المراد لم يحضرا معاً، وقد يكون كل منهما حضر على حدة، فجئت بـ (لا) لنفي مجيئهما على كل حال.

٤- عطف العقد على النيف، إذا وقعا دفعة واحد كأحد وعشرين^(٢)، فإن تأخر وقوع العقد، جاز أن تقول (قبضت ثلاثة فعشرين، أو ثم عشرين)^(٣).

٥- عطف ما لا يستغني عنه، قال ابن عقل: «اختصت الواو من بين حروف العطف بأنّها يعطف بها حيث لا يكفي بالمعطوف عليه، نحو (اختصم زيد وعمرو) ولو قلت (اختصم زيد) لم يجز، ومثله (اصطفى هذا وابني) و(تشارك زيد وعمرو)، ولا يجوز أن يعطف في هذه المواضع بالفاء، ولا غيرها من حروف العطف»^(٤).

(١) «الهمع» (١٢٩/٢).

(٢) «المفني» (٣٥٥-٣٥٧/٢).

(٣) «الصبان» (٩٢/٣).

(٤) «شرح ابن عقيل» (٦١/٢).

وأما قولك (اختصم الزيدون فالخالدون، أو ثم الخالدون) فيدلّ على أنّ الزيدين اختصموا أولاً، فيما بينهم، ثم تبعهم الخالدون فاختصموا بينهم أيضاً^(١).

فإن أردت اختصاص الزيدين والخالدين معاً، لم يجز إلا أن تقول: اختصم الزيدون والخالدون.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨] لأنّ الفعل (استوى) يقضي أمرين، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤] فقالوا فيه: إن (لا) الثانية زائدة لأمن اللبس، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَةُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠]^(٢).

وذهب آخرون إلى أنّ المعنى، أنّ الحسنات لا تستوي فيما بينها، وكذلك السيئات فحسنة أعظم من حسنة، وسيئة أكبر من سيئة، فجاء بـ (لا) لهذا المعنى.

جاء في (البرهان): «وأما قوله ﴿وَلَا يَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فمن قال: المراد أنّ الحسنة لا تساوي السيئة، فـ (لا) عنده زائدة، ومن قال أن جنس الحسنه لا يستوي أفراده وجنس السيئة لا يستوي أفرادها - وهو الظاهر من سياق الآية - فليست زائدة والواو عاطفة جملة على جملة»^(٣).

وقد ورد هذا الفعل في نحو هذا التعبير في خمسة مواطن من القرآن الكريم، هي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَةُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٨-٢٢].

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) انظر «التصريح» (١٣٦/٢)، «حاشية يس على التصريح» (١٣٦/٢).

(٢) «الهمع» (١٢٩/٢).

(٣) «البرهان» (٣٥٧/٤).

وكل هذه المواطن تحتمل أن يكون قصد الاستواء في الجنس نفسه، فيمكن أن يقال أن الظلمات لا تستوي فيما بينها، والنور لا يستوي فقد تكون الظلمات بعضها أشد من بعض وكذلك النور، وكذلك قوله (ولا الظل ولا الحرور) فإن الظل لا يستوي في جنسه والحرور أيضاً، ونحو قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فإن الأموات لا يستوون وكذلك الاحياء، وكذلك ما بعده، فالمؤمنون لا يستوون والمسيئون لا يستوون، والحسنة لا تستوي والسيئة لا تستوي، كل هذا ممكن لغة.

ويحتمل أيضاً زيادة (لا) والمقصود نفي الاستواء بين المتعاطفين.

وعلى هذا فانه يمكن أن يقال: إذا ورد بـ (لا) احتمل أن يكون معناه نفي استواء الجنس فيما بينه، كما يحتمل نفي الاستواء بين المتعاطفين، اللهم إلا فيما لا يمكن أن يكون جنساً، كما اذا ورد نحو قولنا (ما يستوي محمد ولا خالد) فإنه في نحو هذا تتعين زيادة (لا) لأمن اللبس، و(لا) تزداد كثيراً للتوكيد عند امن اللبس، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي ما منعك أن تسجد؟.

فان لم يرد التعبير بـ (لا) تعين أن المقصود نفي الاستواء بين المتعاطفين.

٦- عطف الشيء على نفسه، أو على مرادفه بشرط زيادة فائدة في المعطوف ليست في المعطوف عليه، فإن لم تكن فائدة لم يصح العطف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا﴾ [البقرة: ١٣٣] فإله آبائه هو الهه ولذا قال (الهأ واحداً) وصح العطف، لأن في الثاني زيادة فائدة ليست في الأول.

ومنه ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]، وقوله: ﴿يَلَاكُ عَائِنْتُ الْكَتَبِ وَقُرْآنِ مِثْرِينَ﴾ [الحجر: ١] ونحوه أن تقول (هذا صديقك وصديق خالد).

جاء في (الاصول): «تقول: مررت بزيد أنيسك وصاحبك، فإن قلت: مررت بزيد أخيك فصاحبك والصاحب زيد لم يجز»^(١).

فهذا كله من باب عطف الشيء على نفسه لزيادة فائدة.

ومن عطف الشيء على مرادفه قولك: (هذا كذب وافتراء) والافتراء كذب، ومنه قول الشاعر:

والفى قولها كذباً ومينا.

والمين كذب، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] وقوله: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] وقوله: ﴿لَا بُنْيَ وَلَا نَذْرٌ﴾ [المدثر: ٢٨]^(١).

وكل ذلك لزيادة فائدة في الثاني ليست في الأول، فإن لم تكن فائدة في المعطوف فلا يصح العطف، فلا تقول (هذا بر وحنطة) و(هذه مدية وسكين).

جاء في (بدائع الفوائد): «القاعدة أنّ الشيء لا يعطف على نفسه... فاذا وجدت مثل قولهم (كذباً وميناً) فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني وإن خفي عنك، ولهذا يبعد جداً أن يجيء في كلامهم (جاء عمر وأبو حفص)... فان الواو انما تجمع بين الشئين لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم كنت مخيراً في العطف وتركه»^(٢).

وقيل: إنّ عطف أحد المترادفين على الآخر يقصد منه التأكيد^(٣)، والتأكيد غير عزيز في كلامهم.

٧- عطف العام على الخاص، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾

(١) «الاتقان» (٧١/٢) وانظر «المغني» (٣٥٧/٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (١٨٩/١).

(٣) «الاتقان» (٧١/٢).

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿البقرة: ١٣٦﴾، وقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وأما عطف الخاص على العام، نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ وَالْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] فلا تختص الواو بها، بل قد يشاركها فيه غيرها، وذلك نحو (مات الناس حتى الأنبياء)^(١).

الفاء:

وتفيد الترتيب والتعقيب.

ومعنى الترتيب أنَّ المطعوف بها يكون لاحقاً لما قبلها، فإذا قلت: (جاء محمد فخالد) كان المعنى أنَّ مجيء محمد كان قبل مجيء خالد.

جاء في (الكتاب): «ومن ذلك قولك (مررت بزيد فعمرو) و(مررت برجل فامرأة) فالفاء اشركت بينهما في المرور وجعلت الاول مبدوءاً به»^(٢).

وربما لاتفيد ترتيباً، بل قد تكون لعطف مفصل على مجمل وهو ما يسميه النحاة (الترتيب الذكري) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فقوله (أرنا الله جهرة) تفصيل لقوله (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) فالسؤال مجمل بينه بقوله (أرنا الله جهرة).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] فقوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ تفصيل للنداء، ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَيْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] فالأغراق تفصيل للانتقام، ومنه قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ

(١) «التصريح» (١٣٨/٢).

(٢) «كتاب سيبويه» (٢١٨/١).

قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْأَبَيْنَا أَوْهَمَ فَأَيُّلُوتُ ﴿٤﴾ [الأعراف: ٤] ونحوه قولهم: (توضاً فغسل وجهه ويديه ومسح رأسه ورجليه) فقلوه (غسل وجهه.. الخ) تفصيل للوضوء ونحوه «أجبتة فقلت لبيك»^(١).

وأما التعقيب فمعناه ان وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بغير مهلة أو بمدة قريبة.

جاء في (كتاب سيبويه): «والفاء تضم الشيء الى الشيء كما فعلت الواو، غير انها تجعل ذلك متأسقاً بعضه في أثر بعض وذلك قولك: مررت بعمر و فريد فخالد، وسقط المطر بمكان كذا وكذا فمكان كذا وكذا»^(٢).

وجاء في (المقتضب): «وهي توجب أن الثاني بعد الأول وإن الأمر بينهما قريب»^(٣).

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا﴾ [الكهف: ٧٤]: «فان قلت: لم قيل ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغير فاء، و﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ بالفاء؟

قلت: جعل (خرقها) جزاء للشرط وجعل (قتله) من جملة الشرط، معطوفاً عليه، والجزاء (قال أقتلت).

فان قلت: فلم خولف بينهما؟

قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب القتل لقاء الغلام»^(٤).

ثم أن تعقيب كل شيء بحسبه «ألا ترى أنه يقال تزوج فلان فولد له، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل وإن كانت متطاولة، و(دخلت البصرة فبغداد) إذا لم تقم في البصرة ولا بين البلدين»^(٥).

(١) «شرح الرضي» (٤٠٤/٢)، «المغني» (١٦١/١).

(٢) «كتاب سيبويه» (٣٠٤/٢).

(٣) «المقتضب» (١٠/١)، «الجمل» (٣١).

(٤) «الكشاف» (٦٦/٢).

(٥) «المغني» (١٦١-١٦٢).

جاء في (شرح قطر الندى): «وتعقيب كل شيء بحسبه، فاذا قلت (دخلت البصرة فبغداد) وكان بينهما ثلاثة أيام ودخلت بعد الثالث، فذلك تعقيب في مثل هذا عادة فاذا دخلت بعد الرابع أو الخامس، فليس بتعقيب ولم يجز الكلام»^(١).

وفي (شرح ابن يعيش) ان معنى قولك (دخلت الكوفة فالبصرة):

«إن البصرة داخلة في الدخول، كالكوفة على سبيل الاتصال، ومعنى ذلك انه لم يقطع سيره الذي دخل به الكوفة حتى اتصل بالسير الذي دخل به البصرة من غير فتور ولا مهلة»^(٢).

غير أن في لزوم افادة التعقيب بحثا فقد ورد في القرآن الكريم التعبير بالفاء في غير ما يفيد التعقيب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الاعلى: ٤، ٥] فجعله غثاء أسود لا يعقب خروج المرعى، بل يكون بعده بمدة بدليل قوله تعالى في آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَبُهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر: ٢١] فعبر عن جعله حطاما بـ (ثم)، ونحوه ما جاء في سورة الحديد: ﴿كَمْثَلٍ غَيْثٍ أَحْبَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَبُهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] فإخراج الثمرات لا يعقب نزول الماء بل بينهما مهلة ومدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ [النحل: ٤]. وخصوصة الانسان لا تعقب كونه نطفة، بل ان الانسان يتقل في اطوار حتى يبلغ الرشد، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِّكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] فعبر عما دون ذلك وأقرب منه بـ (ثم).

(١) «شرح قطر الندى» (٣٠٢).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٩٥/٨).

وللنحاة في ذلك تخريجات منها ان الفاء نابت عن (ثم)، ومنها أن في الكلام حذفاً يقتضيه المعنى اذ التقدير في آية الاعلى «والذي اخرج المرعى فمضت مدة فجعله غشاء»^(١).

ومثل هذا الحذف كثير في القرآن الكريم فانه- أي القرآن- يذكر ما يريد ذكره وما هو محط العناية والاهتمام ويطوي ما عدا ذلك، فلا يذكره وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أي فضربه فانفجرت فحذف الفعل، (فضربه) لانه مفهوم من السياق، ولانه لا يتعلق غرض بذكره، فقوله: ﴿فَافْتَجَرَتْ﴾ في عقب الفعل المحذوف لا في عقب (فقلنا اضرب).

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦] فان التقدير: فذهبا الى اولئك القوم فدعواهم الى عبادة الله وأرياهم آياته فكذبوهما فدمرناهم تدميراً، فقوله: ﴿فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ ليس في عقب (فقلنا اذهبا) وإنما في عقب المحذوف وهو التكذيب بالآيات الذي هو مفهوم من السياق.

وهناك توجيه آخر، وهو أن الأصل في الفاء أن تكون للتعقيب، وهذا التعقيب قد يكون حقيقاً، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نُهُ فَاقْتَرِبُ﴾ [عبس: ٢١] وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد يكون التعقيب مجازياً كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ومعنى التعقيب المجازي ان المقام يقتضي المتكلم تقصير المدة الطويلة فيأتي بالفاء وقد يقتضيه العكس فيأتي بـ (ثم)، فيقال مثلاً في مقام: (الدنيا طويلة)، وفي مقام يقال: (الدنيا قصيرة)، ألا ترى إنك قد تقول مهدداً خصمك: (الايام طويلة وأنا لك بالمرصاد)، وفي مقام تقول: (الدنيا قصيرة وسنلتقي عند احكم الحاكمين).

(١) «حاشية الخضري» (٦/٢).

ثم ألا ترى أنك قد تكون في مقام تريد فيه أن تبين طول الدنيا وتقلبها، فتقول: (إن هذه الدنيا طويلة تغر الحليم وتغير النفوس، وكثيراً ما تتغير الطباع بتبدل الدهر وطول الزمان وتغير الحدثنان) وتقول: (إن الصبر قد ينفد في هذا العمر الطويل، والنفس لا تحتمل مثل هذه المشقة، والمرارة طوال أيام العمر).

وقد تكون في مقام تريد فيه النهي عن الانصراف الى الدنيا، فتقصرها في عين الرائي فتقول: (إنها سريعة الفناء والزوال، وكثيراً ما شاهدنا أناساً ذوي سطوة وجاه، زالوا في أسرع من لحظة العين، فاللييب اللبيب من شمر للآخرة، وسعى لها سعيها ولا يغتر بهذه الدنيا الخداعة).

فإذا كان المقام مقام تطويل، جئت بـ (ثم)، وإذا كان المقام مقام تقصير، جئت بالفاء فتقول مثلاً: (ألا ترى إلى فلان كيف نشأ من أبوين فقيرين، ثم كبر، ثم ساد، ثم انتزع الملك من بني فلان، وحكم ما شاء الله له أن يحكم، وبقي أولئك يتربصون به ويستعدون ويجمعون عليه الأنصار، ثم انقضوا عليه فأهلكوه).

فإذا أردت أن تقصر ذلك، قلت: (ألا ترى إلى فلان كيف ساد وملك، فإذا هو بعد مرة كأن لم يكن فأصبح أثراً بعد عين وغيباً بعد شهود).

ولكل مقام مقال.

وقد تفيد الفاء الدلالة على السبب، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ونحو قولك (أغضب خالد أباه فأهانته) و(أكل فشيء)، و (تعب فنام) فيؤتي بالفاء لارادة السببية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] فالفاء أفادت السبب، فإذا أردنا السبب لم يصح الإتيان بـ (ثم)، لأنها لا تفيده، بل تأتي بالفاء وإن كان ثمة تراخ، فإن فاء السبب لا تفيد التعقيب دوماً، بل هي قد تفيده، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ وربما لا تفيده نحو ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

جاء في (الامالي النحوية) لابن الحاجب في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ [الحج: ٦٣]. «الفاء للتعقيب من غير مهلة، واصباح الأرض مخضرة بعد الانزال إنما يكون بمهلة، أن هذه الفاء فاء السببية، وفاء السببية لا يشترط فيها ذلك وإنما شرطها أن يكون ما بعدها مسبباً عن الأول كما لو صرح بالشرط، الا ترى إلى صحة قولك (أن يسلم زيد فهو يدخل الجنة) مع العلم بالمهلة العظيمة بينهما»^(١).

ويمكن أن يكون من ذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤] فإنه يمكن أن يخرج على أن القصد أسراع الإنسان في الخصومة فليس بين كونه نقطة، وكونه خصيماً إلا فترة النمو، فهو من قبيل (تزوج فلان فولد له)، ويمكن حمل ذلك على السببية أي كان عاقبة خلقه من نقطة، والاحسان إليه خصومته لربه فكأنما خلقه كان سبباً للخصومة.

وذلك أنك تقول: (مدحني فكافأته، وأسدت له معروفاً فشكرني) فالمدح سبب المكافأة، وإسداء المعروف سبب الشكر، وقد يكون الجزاء على عكس المؤمل والمرجو كما تقول (أحسننت إليه فأساء إليّ، ودفعت عنه فشتمني) أي كان أحساني إليه سبباً للإساءة إليّ ودفعي عنه كان سبباً لشتمي، وعلى هذا يمكن حمل قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي هو بدل أن يكون شاكرًا لربه عارفاً له حقه كان خصماً له، جاحداً لنعمه، كما تقول: (غذوته وربيتّه فإذا هو عدو لي أي أن غذائي وتربيتي اياه كان سبباً لعداوتي).

ولا تؤدي (ثم) هذا المعنى.

والفاء العاطفة لا تفيد السبب دوماً، بل هي قد تفيد، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ وربما لم تفده كما في قوله تعالى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧]^(٢).

(١) «الإمالي النحوية» (ص ٤).

(٢) «المعني» (١/١٦٣).

الفاء مع الصفات:

ذكر الزمخشري أن للفاء مع الصفات ثلاثة أحوال.

«أحدها أن تدل على ترتيب معانيها في الوجود كقوله:

يالهف زبابة للحارث الصـ سابع فالغانم فالآيب

أي: الذي صبح فغنم فآب.

ونحوه أن تقول: (مررت برجل خادع صاحبه فقاتله) أي خدعه فقتله، فالخداع قبل القتل.

«والثاني أن تدل على ترتيبها من بعض الوجوه، نحو قولك: خذ الأكمل فالأفضل واعمل الأحسن فالأجمل».

ونحو ذلك أن تقول: إبدأ بالأسهل فالأصعب، واحفظ السور القصار فالطوال.

«والثالث أن تدل على ترتيب موصوفاتها في ذلك، نحو (رحم الله المحلقين فالمقصرين)^(١). فالمحلّقون أفضل من المقصّرين فبدأ بهم بحسب ترتيبهم في الفضل، ونحو ذلك أن يقال: (يتقدم الأقرأ فالاسن) فالأقرأ أفضل من الاسن.

وهي في كل ذلك تفيد الترتيب، سواء كان الترتيب في الحدوث أم غيره.

ثم:

حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي، ومعنى التراخي المهلة، فإذا قلت (أقبل محمد ثم خالد) كان المعنى أنه أقبل محمد أولاً وبعده بمهلة أقبل خالد.

جاء في (كتاب سيبويه): «ومن ذلك: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران وجعلت (ثم) الأول مبدوءاً به، وأشركت بينهما في الجر»^(٢).

(١) «المعني» (١/١٦٣).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٢١٨).

وجاء في (المقتضب): «وتم مثل الفاء إلا أنها أشد تراخياً»^(١).

وجاء في (جواهر الأدب) أن (ثم) حرف «يفيد الترتيب كالفاء مع المهلة والتراخي لأنها أكثر حروفاً منها»^(٢).

قال تعالى: ﴿أَمَّا لَكُمْ فَآقَبَرُمْ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُمْ﴾ [عبس: ٢١-٢٢] فعقب بالفاء بعد (ألماته) لأن الأقبار في عقب الموت، وراخى بعد ذلك لأن النشور يتأخر^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧] فجاء بالفاء لأن الليل يعقب النهار^(٤). وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] فجاء بـ (ثم) لأن البشر المنتشر متراخ عن كونه تراباً، وبينهما مهلة.

جاء في (تفسير الرازي) في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]: «قال ههنا (إذا أنتم تخرجون) وقال في خلق الإنسان أولاً (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدرج وتراخ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدرج وتراخ بل يكون نداء وخروج، فلم يقل ههنا (ثم)»^(٥).

وخالف قوم في اقتضائها الترتيب والتراخي، واستدلوا على عدم الترتيب بقوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] فإن خلق الزوج ليس بعد خلقهم من نفس واحدة، ويقول الشاعر:

(١) «المقتضب» (١٠/١)، وانظر للزجاجي (٣١)، «المفصل» (١٩٧/٢).

(٢) «جواهر الأدب» (٢١٦).

(٣) أنظر «التصريح» (١٤٠/٢).

(٤) أنظر «روح المعاني» (١٠/٢٣).

(٥) «التفسير الكبير» (١١٦/٢٥).

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه
فسيادة الأب ليست بعد سيادة الابن .

واستدلوا على عدم التراخي بقولهم (أعجبني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس
أعجب «لأن» ثم) في ذلك لترتيب الإخبار، ولا تراخي بين الإخبارين^(١) .
ويقوله :

كهز الرديني تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب
«إذا الهز متى جرى في أنابيب الرمح، يعقبه الاضطراب ولم يترأخ عنه»^(٢) .
وأجيب عن ذلك باجابات :

منها : أنه في الآية الكريمة أراد أن يذكر بدء خلق الإنسان، فذكر أنه خلقهم من
نفس واحدة، خلق منها زوجها، وليس القصد أنه جعل منها زوجها بعد خلقهم من
النفس الواحدة .

ومنها أن الترتيب مخصوص بالمفردات، «مستدلين بعدم الترتيب في قوله تعالى
﴿فَالْتَمَزْنَاهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] وقوله تعالى : ﴿أَسْتَغْفِرُكَ وَأَرْبُحُكُمْ
ثُمَّ تُؤْبَوْنَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] . . . ورد بأن الترتيب للأخبار لا للمخبر عنه، كقولهم : زيد
عالم كريم ثم هو شجاع»^(٣) .

ومنها أنها لمجرد الترتيب في الذكر .

جاء في (شرح الرضي على الكافية) : «وقد تجيء (ثم) لمجرد الترتيب في الذكر
والتدرج في درج الارتقاء وذكر ما هو الأولى، ثم الأولى من دون إعتبار التراخي والبعد

(١) «المغني» (١/١١٨) .

(٢) «المغني» (١/١١٩) .

(٣) «جواهر الأدب» (٢١٦) .

بين تلك الدرج، ولا أن الثاني بعد الأول في الزمان، بل ربما يكون قبله كما في قوله:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

فالمقصود ترتيب درجات معالي الممدوح فأبتدأ بسيادته، ثم بسيادة أبيه، ثم بسيادة جده، وإن كان سيادة الأب مقدمة في الزمان على سيادة نفسه... وقد تكون (ثم) والفاء أيضاً لمجرد التدرج في الارتقاء، وإن لم يكن الثاني مترتباً في الذكر على الأول، وذلك إذا تكرر الأول بلفظه، نحو بالله، ووالله، ثم والله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الأنفطار: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]... وقوله ﴿وَلِيَّ لَفْظًا لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] أي ثم بقي على ذلك الهدى من التوبة والإيمان والعمل الصالح، كما قيل في ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي أبقنا عليه، فأستعمل (ثم) أما نظراً إلى تمام البقاء أو أستبعاداً لمرتبة البقاء عليها من مرتبة أبتدائها، لأن البقاء عليها أفضل^(١).

وأما التراخي فقد أجيب عنه، أن (ثم) واقعة موقع الفاء في قوله: (جرى في الأنابيب ثم اضطرب)^(٢).

والحق أنه ليس المقصود بالتراخي المهلة الزمانية فقط، بل عموم البعد والتباين سواء كان ذلك في الزمان أم في الصفات أم في غيرهما، وذلك إن هذه اللفظة تفيد البعد عموماً، فهي بفتح الثاء (ثم) إشارة إلى المكان البعيد، ويضم الثاء للتراخي في الزمان والبعد في الصفات والأحوال، يدل على ذلك استعمالها الكثير في فصيح الكلام.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وقد تجيء في الجمل خاصة لأستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها، وعدم مناسبتها له، كما ذكرنا في قوله تعالى:

(١) «شرح الرضي» (٢/٤٠٧).

(٢) «المغني» (١/١١٨-١١٩).

﴿ ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] فالأشراك بخالق السماوات والأرض مستبعد غير مناسب، وهذا المعنى فرع التراخي ومجازه^(١).

وجاء في (البرهان): «قال ابن بري: قد تجي (ثم) كثيراً لتفاوت ما بين رتبتين في قصد المتكلم فيه تفاوت ما بين مرتبتي الفعل مع السكوت عن تفاوت رتبتي الفاعل، كقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ف (ثم) هنا لتفاوت رتبة الخلق والجعل، من رتبة العدل مع السكوت عن وصف العادلين.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ ﴾ [البلد: ١١] إلى قوله ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البلد: ١٧]^(٢) دخلت لبيان تفاوت رتبة الفك والأطعام من رتبة الإيمان...

وذكر غيره في قوله: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَنَّ ثُمَّ دخلت لبعدها ما بين الكفر وبين خلق السماوات والأرض.

وعلى ذلك جرى الزمخشري في مواضع كثيرة من الكشف... قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: كلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في جاء زيد ثم عمرو، أعني أَنَّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه لأنها أعلى منها وأفضل...

والحاصل أنها:

للتراخي في زمان وهو المعبر عنه بالمهلة.

(١) «شرح الرضي» (٤٠٦/٢).

(٢) يعني الآيات: ﴿ فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَلِيمًا ذَا مَقَرَّبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقَرَّبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحْمَةِ ﴾ [البلد: ١١-١٧].

وتكون للتباين في الصفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله، وأنه لو أنفرد لكان كافياً فيما قصد فيه، ولم يقصد في هذا ترتيب زمني، بل تعظيم الحال فيما عطف عليه وتوقعه وتحريك النفوس لاعتباره^(١).

وجاء في (الكشاف) في قوله ﴿كَتَبُ أَخِيَّتُ أَيُّنُّ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١٢]: «فإن قلت: ما معنى ثم؟»

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفصل^(٢).

وجاء فيه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]: «(ثم) في قوله (ثم أعرض عنها) للاستبعاد والمعنى أن الأعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وأنارتها وأرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: (وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها) استبعاداً لتركه الانتهاز ومنه (ثم) في بيت الحماسة:

لا يكشف الغمَاء إلا ابن حرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها
استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها وأطلع على شدتها^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] فلو كان المقصود بـ (ثم) التراخي في الزمان لتناقض ذلك مع قوله تعالى ﴿ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ ولكنها دخلت لبعد ما بين الحالين: عمل السوء والتوبة من قريب.

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

(١) «البرهان» (٤/٢٦٦).

(٢) «الكشاف» (٢/٩٠).

(٣) «الكشاف» (٢/٥٢٦).

فليس ههنا تراخ في الزمان بين الابتلاء، وإنما التراخي في الوصف فجاء بعد الأنبياء بـ (ثم) وذلك لأن التفاوت كبير بين الأنبياء وغيرهم، وجاء فيمن بعدهم بالفاء لأنهم قد يتقاربون في الامثلية.

وأما قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤] فقالوا فيه إنها داخلة للتوكيد، وقيل بل أن العلم الأول في القبر، والعلم الثاني في الآخرة، وكذلك قالوا في قوله: ﴿لَرَأَوْتُ الْجِجَمَةَ تَتْرَوْنَهَا عَيْنَ الْبَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

وهي للتوكيد في نحو قولنا: (والله إنه لكاذب، ثم كاذب، ثم كاذب) ولعل القصد إيغاله بعيداً في هذه الصفة الذميمة، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الأنفطار: ١٧، ١٨]، ولعلها لتباعد المعرفة، أو أستبعادها. ويبدو لي أنها تدخل على التوكيد اللفظي للإيغال في التوكيد.

حتى:

حتى عطف يفيد الغاية نحو (يمرض الناس جميعاً حتى الأطباء)، وشرط معطوفها أن يكون بعضاً من المعطوف عليه أو كبعضه، ففي المثال السابق الأطباء جزء من الناس ونحوه (نجح الطلاب حتى الكسالي) فالكسالي جزء من الطلاب، ونحو (أكلت السمكة حتى رأسها) و(حطمت التمثال حتى قدمه) فالرأس جزء من السمكة، وكذلك القدم جزء من التمثال، ولا تقول: (حضر الرجال حتى النساء) ولا (أكلت الفاكهة حتى السمك) لأن النساء لسن جزءاً من الرجال والسمك ليس جزءاً من الفاكهة.

ومثال ما هو كالجزء قولك: (أعجبني خالد حتى حلمه) فالحلم كالجزء من خالد، و(راعتني حديقتك حتى تنظيمها) و(أعجبني الجارية حتى حديثها)^(١).

كما يشترط في المعطوف بها أن يكون غاية لما قبلها في زيادة أو نقص، ومعنى الغاية في الزيادة والنقص، أن المعطوف بها يكون آخر الأجزاء «إذا رتب الأجزاء الأقوى

(١) أنظر «المغني» (١/١٢٧)، حاشية الخضري (٢/٦٢)، «شرح ابن يعيش» (٨/١٦).

فالأقوى فإذا ابتدأت بقصدك من الجانب الأضعف مصعداً كان آخر الأجزاء أقواها نحو (مات الناس حتى محمد عليه الصلاة والسلام) بالعطف وليس هو صلى الله عليه وسلم آخرهم حساباً، ولا دخولاً، بل هو آخرهم قوةً وشرفاً، وإذا ابتدأت بعنايتك من الجانب الاقوى منحدرًا كان آخر الأجزاء أضعفها نحو (قدم الحاج حتى المشاة) عطفًا، ويجوز أن يكونوا قادمين قبل الركبان أو معهم^(١).

وجاء في (الأصول): «وإنما يذكر- أي الأسم بعد (حتى)- لتحقير أو تعظيم أو قوة أو ضعف وذلك قولك (ضربت القوم حتى زيد) فـ (زيد) من القوم وانتهى الضرب به فهو مضروب مفعول، ولا يخلو أن يكون أحقر من ضربت أو أعظمهم شأنًا والآ فلا معنى لذكره، وكذلك المعنى إذا كانت عاطفة كما تعطف الواو، تقول (ضربت القوم حتى عمراً) فـ (عمرو) من القوم، به أنتهى الضرب و(قدم الحاج حتى المشاة والنساء) فهذا في التحقير والضعف. وتقول: (مات الناس حتى الأنبياء والملوك) فهذا في التعظيم والقوة^(٢).

وهذا هو الغالب وليس لازماً، فإنه قد يكون العطف بها أو الجر يفيد الغاية، فحسب من دون تعظيم أو تحقير، وذلك نحو قولك (قرأت القرآن حتى سورة الناس) عطفًا أو جرًا، فهذا للغاية في كون سورة الناس آخر القرآن، وليس لتحقير أو تعظيم، ونحو قولك (قرأت الكتاب حتى الصفحة الأخيرة).

وهي تعطف المفردات ولا تعطف الجمل^(٣)، فهي في قولك (أكرمت أخاك حتى قمت على رأسه)، وقوله:

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٣٦١/٢).

(٢) «الأصول» (٥١٦-٥١٧) وانظر المفصل (١٩٧/٢).

(٣) أنظر «المغني» (١٢٧/١)، «التصريح» (١٤١/٢)، «حاشية الخضري» (٦٢/٢).

ابتدائية.

و(حتى) العاطفة لانفيد ترتيباً، بل هي كالواو، فإذا قلت (حضر رجال الكلية حتى العميد) لم يدل ذلك على أن العميد آخرهم حضوراً، بل قد يكون أولهم، وكذا إذا قلت (أكلت السمكة حتى رأسها)^(١).

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «واعلم أنه لا يلزم أن يكون ما بعد حتى العاطفة آخر أجزاء ما قبلها حساً، ولا آخرها دخولاً في العمل، بل قد يكون كذلك وقد لا يكون»^(٢).

وجاء في (حاشية الخضري): «حتى العاطفة لمطلق الجمع كالواو لا للترتيب، في الحكم فيجوز (مات كل أب لي حتى آدم) بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: (كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس) إذ لا يتأخر تعلّق القضاء والقدر بهما عن غيرهما»^(٣).

والفرق بين العاطفة والجارة.

إنّ المعطوف بـ (حتى) ينبغي أن يكون جزءاً مما قبله، أو كجزئه، كما ذكرنا نحو (ضربت القوم حتى خالداً) ولا يشترط ذلك في المجرور، بل قد يكون المجرور بها متصلاً بالآخر، وليس بعضاً مما قبله، نحو (صمت رمضان حتى يوم الفطر)، ونمت البارحة حتى الصباح^(٤).

ثم أنّ المجرور بـ (حتى) يكون حكمه الدخول غالباً في حكم ما قبله، إلا إذا دلّ على عدم الدخول دليل، وأما العاطفة فالمعطوف بها داخل في حكم ما قبلها ولا بدّ وذلك أنك إذا قلت (صمت رمضان حتى يوم الفطر) كانت (حتى) جارة وليست عاطفة لأن يوم الفطر غير داخل في الصوم، إذ لو كانت عاطفة لدخل ما بعدها في الصوم.

(١) «بدائع الفوائد» (١/١٩٧).

(٢) «شرح الرضي» (٢/٣٦١)، وانظر (٢/٤٠٨).

(٣) «حاشية الخضري» (٢/٦٣).

(٤) أنظر «الرضي» (٢/٣٥٩).

جاء في (شرح ابن يعيش): «وربما أستعملت غاية يتّهي الأمر عندها كما تكون (الى) كذلك، وذلك نحو قولك (أن فلانا ليصوم الأيام حتى يوم الفطر) والمراد أنه يصوم الأيام إلى يوم الفطر، ولا يجوز فيه على هذا إلاّ الجر، لأن معنى العطف قد زال لإستعمالها أستعمال إلى، فلا يجوز أن يتّصب يوم الفطر لأنه لم يصمه فلا يعمل الفعل فيما لم يفعله، وكذلك إذا خالف الإسم الذي بعدها ما قبلها»^(١).

أم:

أم على ضربين: متصلة، ومنقطعة.

فالمتصلة تنحصر في نوعين:

الأول: أن تتقدم عليها همزة يطلب بها وب (أم) التعيين، نحو: (أخاك عندك أم محمد؟) أي أيهما عندك؟ والمتكلم يعلم أنّ واحداً منهما عنده، لا بعينه، ويطلب بسؤاله التعيين، وهذا الهمزة بمعنى (أي) ونحو (أضربت أخاك أم وبخته؟) أي: أيّ ذلك فعلت؟

فإن كان الأمر على غير دعواه فالجواب في الأولى: ليس عندي واحد منهما، وفي الثانية: لم أفعل واحداً منهما، أو تقول: عندي محمد، أو كلاهما عندي، وفي الثانية: فعلت كليهما.

جاء في (كتاب سيبويه): «وذلك قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ و(أزیداً لقيت أم بشرأ؟) فأنت الآن مدّع أن عنده أحدهما... ألا أن علمك قد أستوى فيهما»^(٢).

الثاني: أن تتقدم عليها همزة التسوية، وهي الواقعة بعد (سواء)، و(ما أبالي) وما في معناها، نحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، ونحو (ما أبالي أقبلت أم أدبرت)^(٣).

(١) «شرح ابن يعيش» (١٦/٨)، وانظر «الأصول» (٥١٩/١)، «الصبان» (٩٧/٣).

(٢) «كتاب سيبويه» (٤٨٢-٤٨٣).

(٣) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٤١٣/٢)، «المقتضب» (٢٨٦/٣)، «المغني» (٤١/١).

وأما سميت هذه الهمزة متصلة لأن ما قبلها لا يستغني عما بعدها، وذلك أنها وقعت بين شيئين، أو أشياء لا يكتفى بأحدها، فإن طلب التعيين لا يتحقق إلا بأكثر من واحد وكذلك التسوية.

وتسمى (معادلة) لمعادلتها الهمزة في التسوية أو الإستفهام^(١).

والمنقطعة:

وتقع بين جملتين مستقلتين وتفيد الإضراب عن الكلام الأول، ومعناها في الغالب (بل) والهمزة الإستفهامية نحو (أن هذا القادم محمد أم خالد) أي بل أهو خالد؟ وذلك أنك كنت ترى أن القادم محمد، ثم ظهر لك أنه غير محمد، فظننت أنه خالد فقلت مستفهما (ام هو خالد؟) أي: بل أهو خالد؟ فصدر الكلام يقين وآخره سؤال.

والإستفهام الذي تفيد (أم) قد يكون حقيقياً كما في المثال السابق، وقد يكون غير حقيقي بل يراد به الإنكار والتوبيخ والتعجب، ونحو ذلك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] أي بل أله البنات ولكم البنون؟ منكرأ عليهم اعتقادهم هذا، ونحو ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢] والمعنى أنك لا تسألهم مالا على هدايتهم، ونحوه قوله تعالى ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [القلم: ٤٦].

جاء في (المقتضب): «والموضع الثاني أن تكون منقطعة مما قبلها خبراً كان أو أستفهما وذلك قولك فيما كان خبراً: (أن هذا لزيد أم عمرو يافتي) وذلك أنك نظرت إلى شخص فتوهمته زيدا فقلت على ما سبق إليك، ثم أدركك الظن أنه عمرو فانصرفت عن الأول فقلت (أم عمرو) مستفهما، فإنما هو أضراب عن الأول على معنى (بل) إلا أن ما يقع بعد (بل) يقين وما يقع بعد (أم) مظنون مشكوك فيه وذلك أنك تقول (ضربت زيدا) ناسياً أو غالطاً ثم تذكر أو تنبه فتقول (بل عمرا) مستدركاً مثبتاً للثاني،

(١) «المغني» (٤١/١)، حاشية الخصري (٦٣/٢).

تاركاً للأول. ف (بل) تخرج من غلط الى استثبات ومن نسيان إلى ذكر، و (أم) معها ظن أو استفهام واضراب عما كان قبله...

فأما قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَزِيلُ أَلْسِنَهُم مِّنْ رَبِّهِمْ فِيهِ مَن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ﴾ [السجدة: ١-٣] وقوله ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ وما كان مثله نحو قوله عز وجل: ﴿أَمْ أَمَّا أَنَا بِمِثْلِ مُنْقَلَبٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، فإن ذلك ليس على جهة الإستفهام، لأن المستخبر غير عالم، إنما يتوقع الجواب فيعلم به، والله عز وجل منفي عنه ذلك، وإنما تخرج هذه الحروف في القرآن مخرج التوبيخ والتقريع^(١).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «فإنما قيل لها منقطعة لأنها انقطعت مما قبلها خبرا كان أو استفهاما إذا كانت مقدرة بـ (بل) والهمزة على معنى (بل كذا) وذلك نحو قولك فيما كان خبرا (إن هذا لزيد أم عمرو) كأنك نظرت إلى شخص فتوهمته زيدا فأخبرت على ما توهمت. ثم أدركك الظن انه عمرو فانصرفت عن الاول، وقلت (أم عمرو) مستفهماً على جهة الإضراب، ومثل ذلك قول العرب (أنها لإبل أم شاء) أي (بل أهي شاء)، فقوله (أنها لإبل) أخبار وهو كلام تام وقوله (أم شاء) استفهام عن ظن وشك عرض له بعد الأخبار. فلا بد من أضمار هي لانه لا يقع بعد (أم) هذه إلا الجملة لأنه كلام مستأنف إذ كانت (أم) في هذا الوجه تعطف جملة على جملة إلا أن فيها ابطالا للأول، وتراجعا عنه من حيث كانت مقدرة بـ (بل) والهمزة على ما تقدم، فـ (بل) للاضراب عن الأول والهمزة للإستفهام عن الثاني وليس المراد أنها مقدرة بـ (بل) وحدها ولا بالهمزة وحدها لأن ما يقع بعد (بل) متحقق وما بعد (أم) مشكوك فيه مظنون، ولو كانت مقدرة بالالف وحدها لم يكن بين الاول والآخر علقه، والدليل على أنها ليست بمنزلة (بل) مجردة من معنى الإستفهام قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمَّا أَنَا بِمِثْلِ مُنْقَلَبٍ﴾ [الزخرف: ١٦] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] إذ يصير ذلك متحققاً تعالى الله عن ذلك^(٢).

(١) «المقضب» (٣/٢٨٨-٢٩٢).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٨/٩٨).

وقد تكون بمعنى (بل) فقط من دون استفهام، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] قالوا لأنه لا معنى للاستفهام هنا، وكذا إذا جاءت بعدها أداة استفهام نحو: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، ونحو ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ [النمل: ٦١] وقوله: ﴿أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠] ^(١) لأن الاستفهام لا يدخل على الاستفهام.

جاء في (المغني): «ومعنى (ام) المنقطعة- الذي لا يفارقها- الإضراب. ثم تارة تكون له مجرداً وتارة تتضمن مع ذلك استفهاماً طلبياً، فمن الأول ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾. أما الأولى فلأن الاستفهام لا يدخل على الاستفهام، وأما الثانية فلأن المعنى على الأخبار عنهم باعتقاد الشركاء، ومن الثاني ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ إذ لو قدرت للإضراب المحض لزم المحال.

ومن الثالث قولهم (أنها لا بل أم شاء) التقدير (بل اهي شاء) ^(٢).

والذي يبدو لي أن (ام) لا تستعمل إلا في الاستفهام.

جاء في (المقتضب): «فأما (ام) فلا تكون إلا استفهاماً» ^(٣)، وهي أما أن تفيده بنفسها أو تقترب به ولا تكون كـ (بل) لليقين والتقرير.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بِلَ زَيْنٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فجاء بـ (ام) للاستفهام الإنكاري، وفي التقرير والإثبات بـ (بل). ومثله قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ﴾ [المؤمنون: ٧٠] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ مِنْ رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُكُمْ بَلْ لَا يَوْمُؤُنَ﴾ [الطور: ٣٣] وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٤١٤).

(٢) «المغني» (١/٤٤-٤٥).

(٣) «المقتضب» (٣/٢٨٦) وانظر الجمل (٣١)، «كتاب سيبويه» (١/٤٨٢).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿[الطور: ٣٦] فجاء للاستفهام بـ (أم) وللتقرير بـ (بل).

وأما قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ خَيْرًا مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] فليست (أم) فيه بمعنى (بل) فيما أرى، وأنت تحس أن ثمة فرقاً بين قولك (بل أنا خير من هذا الذي هو مهين) وقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) فالاول كلام تقرير يقرر فيه فرعون الأمر، وأما الثاني ففيه معنى التعجب والتهكم، وفيه طلب مشاركة السامعين في ذلك، ثم هي تحتل الإتصال.

جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «(أم) هذه متصلة لان المعنى: افلا تبصرون أم تبصرون. إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع (تبصرون) لأنهم إذا قالوا له: (أنت خير) فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة السبب.

ويجوز أن تكون منقطعة على (بل أنا خير)، والهمزة للتقرير وذلك أنه قدّم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك، وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي»^(١).

ويحتمل أن (أم) متصلة حذف المعطوف عليه وبقي المعطوف والمعنى: أموسى خير أم أنا خير منه؟^(٢).

أو:

وهي لاحد الشيتين، أو الأشياء، ذكر لها المتأخرون معاني عدة أشهرها:

١- الشك، وذلك إذا كان المتكلم شاكاً في الأمر نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] ونحو (رأيت محمداً أو خالداً) إذا كنت شاكاً فيمن قد رأيتيه منهما.

(١) «الكشاف» (١٠٠/٣).

(٢) أنظر «بدائع الفوائد» (١/٢٠٦-٢٠٧).

٢- الإيهام، وذلك إذا كنت عالماً بالأمر ولكن أردت أن تبهمه على السامع، نحو (تصدقت بصدقة قليلة أو كثيرة) إذا كنت تريد أن تبهم ذلك على السامع، ونحو (كلمت محمد أو سعيداً) جواباً لمن قال لك: أسعيداً كلمت أم محمداً؟ فالمثال الواحد قد يصلح للشك والإيهام فإذا كان المتكلم شاكاً في الأمر غير متيقن منه فهو للشك وإذا كان المتكلم عارفاً بالأمر ولكنه يريد أبهامه على المخاطب فهو للإيهام.

٣- التخيير، وهي الواقعة بعد الطلب، نحو (تزوج سعاد أو أختها) و(خذ قلماً أو دفترًا).

٤- الإباحة^(١) نحو (جالس العلماء أو الزهاد) و(تعلم الفقه أو النحو) والفرق بين الإباحة والتخيير أن التخيير لا يبيح الجمع بين الشيئين أو الأشياء والإباحة تبيحه^(٢)، فإذا قلت (خذ قلماً أو دفترًا) لم يجز له أخذهما جميعاً، وإذا قال (جالس العلماء أو الزهاد) جاز له أن يجالسهم جميعاً، إذ المقصود جالس هذا الضرب من الناس.

جاء في (المقتضب): «والباب الذي يتسع فيه قولك: إئت زيدا أو عمراً أو خالداً لم ترد ائت، واحداً من هؤلاء ولكنك أردت: إذا أتيت فائت هذا الضرب من الناس، كقولك إذا ذكرت فاذكر زيداً أو عمراً أو خالداً»^(٣).

وإذا دخلت (لا) الناهية على التخيير، أو الإباحة امتنع فعل الجميع، فإذا قلت: (جالس خالدًا أو أخاه) جاز لك أن تجالسهما أو تجالس واحداً منهما فإذا قلت: (لا تجالس خالدًا أو أخاه) أمتنع مجالسة أي واحد منهما أو مجالستهما معا.

جاء في (المغني): «وإذا دخلت (لا) الناهية امتنع فعل الجميع نحو ﴿وَلَا تُطْعَمُنَّ إِيمَانًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] إذ المعنى لا تطعم أحدهما فأيهما فعله فهو أحدهما»^(٤).

(١) انظر «المغني» (١/٦٢)، «شرح ابن عقيل» (٢/٦٤).

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٤١٠).

(٣) «المقتضب» (٣/٣٠١).

(٤) «المغني» (١/٦٢).

وجاء في (المقتضب): «إذا نهيت عن هذا قلت: لا تأت زيدا أو عمراً أو خالداً أي لا تأت هذا الضرب من الناس، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾».

والفصل بين (أو) وبين الواو أنك إذا قلت: (أضرب زيداً وعمراً) فإن ضرب أحدهما فقد عصاك، وإذا قلت (أو) فهو مطيع لك في ضرب أحدهما، أو كليهما.

وكذلك إذا قال (لا تأت زيداً وعمراً) فأتي أحدهما فليس بعاصٍ وإذا قال: (لا تأت زيداً أو عمراً) فليس له أن يأتي واحداً منهما فتقديرها في النهي: لا تأت زيدا ولا عمراً، وتقديرها في الإيجاب: أتت زيداً وأن شئت فأت عمراً معه^(١).

وذكر أن معنى الإباحة أو التخيير، متأث من فعل الطلب، وليس من (أو)، وإنما (أو) لاحد الشيئين^(٢).

٥- الإضراب كـ (بل) نحو (سأزور خالداً اليوم أو سامكث) إذا كنت قررت الزيادة أولاً ثم أضربت عن ذلك، فقررت المكث أي بل سامكث، ونحو قول جرير:

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم لم أحص عدتهم إلا بعدد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادي
أي بل زادوا ثمانية، ومثله:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أو أنت في العين أملح
أي: بل أنت أملح.

جاء في (التصريح): «وللاضراب كـ (بل) مطلقاً عند الكوفيين وأبي على الفارسي وابن برهان نحو (أنا أخرج) ثم تقول (أو أقيم) أضربت عن الخروج، ثم أثبت الإقامة فكأنك قلت (لا بل أقيم)».

(١) «المقتضب» (٣/٣٠١-٣٠٢).

(٢) «المغني» (١/٦٧)، وانظر «شرح الرضي» (٢/٤١٠).

حكى الفراء: أذهب إلى زيد أودع ذلك فلا تبرح اليوم»^(١).

وجعل بعضهم منه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفافات: ١٤٧] قيل: المعنى بل يزيدون.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وكذا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي بل يزيدون وإنما جاز الإضراب بـ (بل) في كلامه تعالى لأنه أخبر عنهم بأنهم مائة ألف بناء على ما يحرز الناس من غير تعمق، مع كونه تعالى عالماً بعددهم، وانهم يزيدون ثم أخذ تعالى في التحقيق، فأضرب عما يغلط فيه غيره بناء منهم، على ظاهر الحزر، أي أرسلناه إلى جماعة يحزرهم الناس مائة ألف وهم كانوا زائدين على ذلك»^(٢).

وقيل: بل هي في الآية للابهام، وقيل هي للتخيير «أي إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول هم مائة ألف أو يقولون هم أكثر»^(٣).

وجاء في (الخصائص): «فأما قول الله سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فلا يكون فيه (أو) على مذهب الفراء بمعنى (بل) ولا على مذهب قطرب في أنها بمعنى الواو، لكنها عندنا على بابها في كونها شكاً، وذلك أن هذا الكلام أخرج حكاية من الله عز وجل قلول المخلوقين، وتأويله عند أهل النظر: وإرساله إلى جمع لو رأيتموه لقلتم أنتم فيه: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون»^(٤).

وهو تأويل مقبول.

٦- التقسيم نحو (الكلمة أسم أو فعل أو حرف) ونحو: (الناس مسلم أو كافر) و(المادة صلبة أو سائلة أو غازية).

(١) «التصريح» (١٤٥/٢-١٤٦)، وانظر «المغني» (١/٦٤-٦٥)، شرح الرضي (٢/٤٠٩).

(٢) «شرح الرضي» (٢/٤٠٩).

(٣) «المغني» (١/٦٤).

(٤) «الخصائص» (٢/٤٦١).

٧- أن تكون بمعنى الواو ومنه قوله توبة:

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها
 قيل: ومن أحسن شواهد حديث (اسكن حرا فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد)^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية) أن مجيئها بمعنى الواو متأثراً من استعمالها بمعنى الإباحة التي لا تمنع الجمع. قال: «ولما كثر استعمال (أو) في الإباحة التي معناها جواز الجمع جاز استعمالها بمعنى الواو، قال:

وكان سيّان أن لا يسرحوا نعماً أو يسرحوه بها واغبرّت السوح
 فإن (سيّان) بمعنى مستويان وهو بين الشيتين»^(٢).

وجاء في (المغني) أن التحقيق في ذلك «أن (أو) موضوعة لأحد الشيتين، وهو الذي يقوله المتقدمون، وقد تخرج إلى معنى (بل) وإلى معنى الواو، وأما بقية المعاني فمستفادة من غيرها»^(٣).

أما خروجها إلى الإضراب فلا يخرجها عن أنها لأحد الشيتين، فإنك إذا أضربت عن شيء إلى شيء كنت أستمعتها لأحد الأمرين.

وأما ما ذكره من أنها بمعنى الواو، فلست أرى أنها كالواو تماماً، بل هي لأحد الشيتين أو الأشياء أيضاً وليست للجمع فقوله ﷺ: (اسكن حرا فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد) ليست (أو) فيه بمعنى الواو وإنما هي لأحد الأشياء ومعناه واحد نبي وواحد صديق، وواحد شهيد، ولو قيل بالواو لاحتمل التعبير أنه شخص واحد، اجتمعت فيه هذه الصفات كقولك: هو شاعر وكاتب وفقه.

(١) «الهمع» (١٣٤/٢)، «المغني» (٦٢/١-٦٤).

(٢) «شرح الرضي» (٤١٠/٢).

(٣) «المغني» (٦٧/١).

ثم إن المعنى بـ (أو) أن عليك أما نبيا وأما صديقا وأما شهيدا، وكل واحد من هؤلاء له من الفضل والشرف ما ينبغي أن تسكن له.

وبالواو يحتمل المعنى أن السكون ينبغي أن يكون لإجتماع الثلاثة، لا أن كل واحد منهم ينبغي أن يتطامن له الجبل.

ونحو ذلك أن تقول: (ابتعد عنه فإنه لا يجالسه إلا لثيم أو مخادع) ومعنى ذلك أنه يجالسه هذان الصنفان من الناس وكل صنف منهما ينبغي أن يبتعد عنه، وإذا قلت ذلك بالواو احتمل أن يكون الذي يجالسه صنفاً واحداً اجتمعت فيه هاتان الخصلتان، واحتمل أن النهي كان لإجتماع الصنفين، لا أن كل صنف ينبغي أن يبتعد عنه فلو كان معه صنف واحد لما كان هذا النهي.

ونحو قولك: (أصبحنا فإنه ليس معنا إلا فقيه أو ناسك) أي وكل صنف ينبغي أن يصحب، ولو جاء بالواو لاحتمل أنه شخص واحد أجمع فيه الفقه والنسك، واحتمل أيضا أن يكون معهم شخصان فقط أحدهما فقيه والآخر ناسك.

وأما بـ (أو) فالمعنى أنهم كلهم ما بين فقيه وناسك، واحتمل أيضا أن الصحبة، إنما حسنت لإجتماع الصنفين ولو تفرد صنف لم يكن ثمة أمر بالصحبة، وهذا ظاهر، فهي ليست بمعنى الواو تماما.

أم وأو:

يستعمل الناس اليوم، حتى المتأدبون منهم (أم) و(أو) بمعنى واحد، فيقولون (أحضر محمد أو خالد؟) بمعنى (أحضر محمد أم خالد؟)، ويجيبون عن الاثنين بالتعيين فيقولون: (حضر محمد) أو (حضر خالد) وهذا غير صحيح، وذلك لأن السؤال بـ (أم) يقصد به التعيين ولا يقصد بـ (أو) ذلك، فأنك إذا قلت (أمحمد عندك أم خالد) كان المعنى أيهما عندك؟ ويكون الجواب (محمد) مثلاً، وذلك أن السائل يعلم، أن أحدهما عنده ولكن لا يعلم من هو؟

وإذا قال: (أحمد عندك أو خالد) كان المعنى: أ عندك واحد منهما؟ فيكون الجواب (نعم) أو (لا). وهكذا أبداً يكون تقدير (أم) بـ (أيهما) و(أو) بـ (أحدهما). قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] وقال: ﴿هَلْ يُخْشِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، وقال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣] والجواب: (لا)، وهكذا ابداً.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «واعلم ان الفرق بين (أو) و(أم) المتصلة في الاستفهام أن معنى قولك (ازيداً رأيت أو عمراً؟) أحدهما رأيت؟ وجوابه: (لا) أو نعم».

ومعنى قولك (ازيداً رأيت أم عمراً؟) أيهما رأيت؟ وجوابه بالتحديد، كما تقول: (زيداً) أو تقول: (عمراً)...

وحيث أشكل عليك الأمر في (أو) و(أم) المتصلة في الاستفهام، فقدّر (أو) بـ (أحدهما)، و(أم) بـ (أيهما) تقول: (الحسن أو الحسين أفضل أم ابن الحنفية؟) والمراد: أحدهما أفضل من ابن الحنفية، أم ابن الحنفية أفضل من أحدهما؟ والمعنى أيهما أفضل من أحدهما وابن الحنفية؟ والجواب أحدهما^(١).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «والفصل بين (أو) و(أم) في قولك (أزيد عندك أو عمرو) و(أزيد عندك أو عمرو) أنك في الاول لا تعلم كون أحدهما عنده، فأنت تسأل عنه، وفي الثاني تعلم أن أحدهما عنده، إلا أنك لا تعلمه بعينه فانت تطالبه بالتحديد...

فقد تبين أن السؤال بـ (أو) معناه (أحدهما) وبـ (أم) معناه (أيهما)، فإذا قال: (أزيد عندك أو عمرو) فأجبت بـ (نعم) علم أن عنده أحدهما، وإذا أراد التحديد وضع مكان (أو) (أم) واستأنف بها السؤال وقال: أزيد عندك أم عمرو؟ فيكون حيثنذ الجواب (زيد) أو (عمرو)^(٢).

(١) «شرح الرضي» (٤١٨/٢).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٩٨/٨) وانظر الجمل (٣٣٤)، «كتاب سيبويه» (٤٨٧/١).

وجاء في (المقتضب): «وتقول: ما أدري أزيداً أو عمراً ضربت أم خالد؟».

لم ترد أن تعدل بين زيد وعمرو ولكنك جعلتهما جميعاً عدلاً لخالد في التقدير، والمعنى ما أدري أحد هذين ضربت أم خالد؟^(١).

وجاء في (الخصائص): «قولهم (ما أدري أأذن أو أقام) إذا قالها بـ (أو) لا (أم) فهو أنه لم يعتد أذانه أذانا ولا أقامته أقامة، لأنه لم يوف ذلك حقه. فلما ونى فيه لم يثبت له شيئاً منه...».

ولو قال: (ما أدري أأذن أم أقام) بـ (أم) لأثبت له أحدهما لا محالة^(٢).

لكن:

تفيد الاستدراك، وتعطف بعد نفي أو نهي، بشرط أفراد معطوفها، نحو: (ما أقبل محمد لكن خالد) و(لا تضرب خالد لكن سالماً)، فإن وليتها جملة فهي ليست عاطفة، وإنما هي حرف ابتداء يفيد الاستدراك، نحو (ما جاءني خالد لكن جاءني عمرو) وتدخل عند ذاك بعد الموجب وغيره، نحو: (أقبل سعيد لكن عامر لم يقبل)^(٣).

بل:

حرف اضراب يدخل على المفردات والجمل.

فان دخلت على جملة كان معنى الاضراب، أما إبطالاً، وأما انتقالياً.

فالاضراب الإبطالي، هو أن تأتي بجملة تبطل معنى الجملة السابقة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] فقوله (بل عباد مكرمون) إبطال للكلام الأول، ونحو قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٧٠] وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِمْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وهو رد على القول الأول.

(١) «المقتضب» (٣/٣٠٣).

(٢) «الخصائص» (٢/١٦٩) وانظر (٢/٢٦٦-٢٦٧).

(٣) «المغني» (١/٢٩٢)، «التصريح» (١٤٦-١٤٧).

وأما الاضراب الانتقالي فهو أن تنتقل من غرض الى غرض آخر، مع عدم ارادة ابطال الكلام الاول، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [بل تؤثر الحياة الدنيا] ليست إبطالا للجمله الاولى بل هي انتقال من غرض الى غرض آخر، ومثله قوله: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ [بل قلوبهم في غمرة] [المؤمنون: ٦٣] ^(١) وقوله: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَاهُ عَهْدٌ أُنْبِذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [بل أكثرهم لا يؤمنون] [البقرة: ١٠٠] وقوله: ﴿مَا صَرَّيْتَهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [بل هو قوم خصمون] [الزخرف: ٥٨].

وإن دخلت على مفرد فهي عاطفة بشرط أن يتقدمها ايجاب، أو أمر، أو نفي، أو نهى. فإذا وقعت بعد إيجاب أو أمر نحو (جاء محمد بل خالد) و(أكرم سالماً بل خالداً) فهي للاضراب وذلك أنها تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه، فقولك (جاء محمد بل خالد) يعني أن الذي جاء هو خالد، وأما محمد فيجوز أنه جاء، ويجوز أنه لم يجيء، وقولك (أكرم سالماً بل خالداً) أضربت فيه عن الكلام الاول وأمرت باكرام خالد، وأما (سالم) فمسكوت عنه. وليست (بل) ناهية عن اكرام سالم.

جاء في (المغني): «وان تلاها مفرد فهي عاطفة ثم أن تقدمها أمر أو ايجاب كقولك: (اضرب زيدا بل عمرو) و(قام زيد بل عمرو) فهي تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه فلا يحكم عليه بشيء واثبات الحكم لما بعدها» ^(٢).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «فإن جاءت بعد إيجاب أو أمر نحو: (قام زيد بل عمرو) فهي لجعل المتبوع في حكم المسكوت عنه منسوباً حكمه الى التابع، فيكون الأخبار عن قيام زيد غلطاً، يجوز أن يكون قد قام وأن لم يقم، أفدت بـ (بل) أن

(١) انظر «المغني» (١/١١٢)، «شرح اللاميني على المغني» (١/٢٣٢)، «حاشية الخصري» (٢/٦٥)، «شرح ابن يعيش» (٨/١٠٥).

(٢) «المغني» (١/١١٢)، «شرح ابن عقيل» (٢/٦٦).

تلفظك بالاسم المعطوف عليه كان غلطاً عن عمد أو سبق لسان»^(١).

وإذا وقعت بعد نفي أو نهي، نحو: (ما أقبل محمد بل خالد) و(لا تضرب محمداً بل خالداً) فجمهور النحاة على أنها في المعنى كـ (لكن) فمعنى الأولى أن محمداً لم يقبل وإنما الذي أقبل هو خالد، ومعنى الثانية أنك منهي عن ضرب محمد وأمور يضرب خالد.

جاء في (شرح ابن عقيل): «يعطف بـ (بل) في النفي والنهي فتكون كـ (لكن) في أنها تقرر حكم ما قبلها وتثبت نقيضه لما بعدها نحو: (ما قام زيد بل عمرو) و(لا تضرب زيدا بل عمراً) فقررت النفي والنهي السابقين وأثبت القيام لعمرو وأملا بضربه»^(٢).

وجاء في (التصريح): «ومعناها بعد الأخيرين وهما النفي والنهي تقرير حكم ما قبلها من نفي أو نهي على حاله وجعل ضده لما بعدها، (لكن) كذلك كقولك: (ما كنت في منزل ربيع بل أرض لا يهتدي بها)... فتقرير نفي الكون في منزل الربيع عن نفسك وتثبت لها الكون في أرض لا يهتدي بها. و(لا يقم زيد بل عمرو) فتقرر نهي زيد عن القيام وتأمّر عمراً بالقيام»^(٣).

وأجاز المبرد أن تكون بعد النفي والنهي للاضراب أيضاً، فتكون ناقلة معنى النفي والنهي إلى ما بعدها، وعلى هذا يكون معنى (ما أقبل محمد بل خالد) ما أقبل محمد بل ما أقبل خالد، فأقبال محمد حكمه كالمسكوت عنه، يحتمل أنه يكون أقبل، أو لم يكن أقبل وما بعدها منفي، وكذلك المعنى في النهي نحو (لا تضرب محمداً بل خالداً) فالمعنى عنده لا تضرب محمداً بل لا تضرب خالداً.

(١) «شرح الرضي» (٤١٩/٢)، وانظر (٤٢٠/٢).

(٢) «شرح ابن عقيل» (٦٦/٢)، «المغني» (١١٢/١).

(٣) «التصريح» (١٤٨/٢).

جاء في (المغني): «واجاز المبرد وعبد الوارث أن تكون ناقلة معنى النفي والنهي الى ما بعدها وعلى قولها فيصح: ما زيد قائما بل قاعداً، وبل قاعد ويختلف المعنى»^(١)، إذ القعود منفي على التقدير الاول مثبت على التقدير الثاني^(٢).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «وإذا عطفت بـ (بل) مفرداً بعد النفي، أو النهي فالظاهر أنها للأضراب أيضاً، ومعنى الأضراب جعل الحكم الأول موجباً كان، أو غير موجب، كالمسكوت عنه بالنسبة الى المعطوف عليه، ففي قولك: (ما جاءني زيد بل عمرو) أفادت (بل) أن الحكم على زيد بعدم المجيء كالمسكوت عنه يحتمل أن يصح هذا الحكم فيكون غير جاء، ويحتمل أن لا يصح فيكون قد جاءك كما كان الحكم على زيد بالمجيء في (جاءني زيد بل عمرو) احتمل أن يكون صحيحاً وأن لا يكون. وهذا الذي ذكرنا ظاهر كلام الاندلسي.

وقال ابن مالك: (بل) بعد النفي والنهي كـ (لكن) بعدهما وهذا الاطلاق منه يعطي أن عدم مجيء زيد في قولك (ما جاءني زيد بل عمرو) متحقق بعد مجيء (بل) أيضاً كما كان ذلك في (ما جاءني زيد لكن عمرو) بالاتفاق... وهذا كله حكم (بل) بالنظر الى ما قبلها، وأما حكم بعد (بل) بعد النفي أو النهي فعند الجمهور أنه مثبت فعمر و جاءك في قولك (ما جاءني زيد بل عمرو) فكأنك قلت: (بل جاءني عمرو) فـ (بل) ابطل النفي والاسم المنسوب إليه المجيء...

وعند المبرد أنّ الغلط في الاسم المعطوف عليه فقط، فيبقى الفعل المنفي مسنداً الى الثاني فكأنك قلت (بل ما جاءني عمرو) كما كان في الاثبات الفعل الموجب مسنداً الى الثاني^(٣).

(١) «المغني» (١١٢/١).

(٢) «شرح الدماميني على المغني» (٢٣٤/١).

(٣) «شرح الرضي» (٤١٩/٢) وانظر «شرح ابن يعيش» (١٠٥/٨)، «الهمع» (١٣٦/٢).

والظاهر صحة رأي الجمهور وذلك أنه هو الذي يشهد له استعمال العرب، فمن ذلك قوله:

لو اعتصمت بنا لم تعصم بعدا بل أولياء كفاة غير أوكال
فلا يصح أن يقال (بل لم تعصم بأولياء) لأنه للفخر، وكذلك قوله:

وما أتميت إلى خور ولا كشف ولا لثام غداة الروع أوزاع
بل ضار بين بحسك البيض أن لحقوا شم العرائن عند الموت لذاع^(١)

وظاهر أنك إذا أردت المعنى الذي ذكره المبرد كررت العامل، نحو (ما جاءني محمد بل ما جاءني خالد) و(لا تضرب خالداً بل لا تضرب محمداً).

وكذلك يؤدي المعنى الذي ذهب إليه المبرد الاضراب بغير الاداة، واعني به بدل الاضراب، فإنك إذا قلت (لا تكرم سالما سعداً) كان المعنى أنك نهيت عن اكرام سالم أولاً، ثم أضربت عن ذلك فنهيت عن اكرام سعد فصار كأنك قلت: لا تكرم سعداً.

وكذا في النفي، فأنت إذا قلت (ما جاءني محمد خالد) كان المعنى: ما جاء محمد ثم اضربت عن ذلك فقلت: بل ما جاء خالد.

ومما يؤيد ذلك أن البدل على نية تكرار العامل عندهم.

ويجوز ما ذكره المبرد فيما دلّ عليه دليل نحو (ما محمد كاتباً بل شاعراً) وذلك أن نصب (شاعر) يدل على أنّ النفي مكرر، وذلك أن (ما) لا يتصب الخبر بعدها إذا كان موجباً.

وربما كان المعنى قديماً كما ذكر المبرد، وذلك أنّ الأصل أن يكون لكل اداة معنى ثم تطور الإستعمال الى ما ترى، وتطور الدلالة كثير في اللغة والله أعلم.

(١) انظر «شرح ابن الناظم» (٢٢٢)، «الهمع» (١٣٦/٢).

لا بل:

قد يضم إلى (بل) (لا) فتفيد تأكيد الاضراب، وذلك بعد الايجاب، والامر، والنفي، والنهي، نحو (جاء محمد لا بل خالد) ومعناها نفي المجيء عن محمد واثباته لخالد. فالفرق بين قولنا (جاء محمد بل خالد) و(جاء محمد لا بل خالد) أن مجيء محمد في الأول صار كالمسكوت عنه، فإنه يجوز أنه حصل ويجوز أنه لم يحصل، وفي الثاني نفينا المجيء عن محمد واثبتناه لخالد. قال الشاعر:

وجهك البدر لا بل الشمس لو لم يقض للشمس غيبة وأقول

وكذا في الأمر، فانك إذا قلت (اضرب محمداً لا بل خالداً) كان المعنى لا تضرب محمداً وإنما أمرك بضرب خالد، ولو قال (اضرب محمداً بل خالداً) لكان الأمر بضرب محمد كالمسكوت عنه، يجوز أن يوقعه وألا يوقعه، وكذلك في النفي والنهي نحو (ما جاء محمد لا بل خالد) فنفي المجيء عن محمد مؤكد بـ (لا) مثبت لخالد، وكذلك نحو (لا تضرب محمداً لا بل خالداً).

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وإذا ضمنت (لا) إلى (بل) بعد الايجاب او الأمر نحو (قام زيد لا بل عمرو) و(اضرب زيدا لا بل عمراً) فمعنى (لا) يرجع الى ذلك الايجاب والامر المتقدم لا الى ما بعد بل، ففي قولك: (لا بل عمرو) نفيت بـ (لا) القيام عن زيد واثبتته لعمرو بـ (بل) ولو لم تجيء بـ (لا) لكان قيام زيد كما ذكرنا في حكم المسكوت عنه يحتمل أن يثبت وان لا يثبت، وكذا في الامر نحو (اضرب زيدا لا بل عمراً) أي لا تضرب زيدا بل اضرب عمراً ولولا (لا) المذكورة، لاحتمل أن يكون امراً بضرب زيد، وأن لا يكون مع الامر بضرب عمرو، وكذا (لا) الداخلة على (بل) بعد النهي والنفي، راجعة الى معنى ذلك النهي والنفي مؤكدة لمعناها^(١)».

(١) «شرح الرضي» (٢/٤١٩-٤٢٠) وانظر «المغني» (١/١١٣)، «الهمع» (٢/١٣٦).

أحرف الأضراب

تقدم أنَّ الإضراب معنى يؤدّي بعدة أحرف، فله حرف رئيس هو (بل)، وقد يؤدّي بـ (أم) المنقطعة وبأو أيضاً، فما الفرق بين هذه الأحرف في الدلالة على الأضراب؟ والجواب أنَّ الأضراب بـ (بل) هو الاصل وذلك:

١- أنَّ الإضراب بـ (بل) يكون في المفردات والجمل، نحو (رأيت محمداً بل سعيداً) ونحو (بل افتراه بل هو شاعر).

أما الإضراب بـ (أم) فلا يكون إلا في الجمل كما مر، ولا يكون في المفردات، وكذا الأضراب بـ (أو) نحو (سأسافر اليوم أو أقيم فلا أسافر).

جاء في (شرح الرضي): «وتجيء (أو) أيضاً للأضراب بمعنى (بل)، فلا يكون اذن بعدها إلا الجمل فلا يكون حرف عطف بل حرف استئناف^(١)».

٢- أن (أم) لا تستعمل إلا في الأضراب الانتقالي، ولا تستعمل في الأضراب الابطالي، وأما (أو) فبالعكس فلا تكون إلا للابطال، و(بل) تكون لهما جميعاً كما ذكرنا فهي أوسع استعمالاً منهما.

٣- الأصل في (أو) ألا تكون للأضراب، وإنما هي لأحد الشئيين، ولذا كان استعمالها في الأضراب مقيداً، وعن سيويه أنها لا تكون للأضراب إلا بشرطين: تقدم نفي أو نهي.

وأعادة العامل نحو (ما قام زيد أو ما قام عمرو) و(لا يقيم زيد أو لا يقيم عمرو)^(٢). وعن آخرين أنه لا يشترط تقدم ذلك عليها.

والاصل في (أم) أن تستعمل استفهاماً أو مع استفهام، فيكون اضرابها مصحوباً بانكار

(١) «شرح الرضي» (٤٠٩/٢).

(٢) «المعني» (٦٤/١).

أو توبيخ أو استفهام حقيقي، وأما (بل) فتستعمل للتقرير واليقين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣] وقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

ولذا لا يحسن أستعمال الواحدة مكان الأخرى، في مواطن كثيرة، فلا يحسن أن تقول في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] (أم أحياء). ولا يحسن في قوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أم يده مبسوطتان ولا أو يده. ولا يحسن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] (أم نتبع) ولا (أو نتبع).

وكذا لا يصح في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] أن يقال (بل تريدون)، ولا في قوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] أن يقال: بل له البنات، ولا في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] أن يقال بل خلقوا من غير شيء.

ولو كانت (أم) و(أو) ك(بل) في إفادة الإضراب لم يمتنع ذلك.
لا:

وتفيد النفي وتعطف بثلاثة شروط:

الأول: أن يتقدمها أثبات، نحو (أقبل محمد لا خالد) أو أمر، نحو (أهين خالداً لا سعداً) أو دعاء نحو (غفر الله لبكر لا زيد) أو تحضيض، نحو (هلا تكرم محمداً لا سالماً) أو تمن نحو (ليت لي ولداً لا بنتاً).

قال سيويه: أو نداء نحو (يا محمد لا خالد).

الثاني: أن لا تقترب بعاطف، فإذا قلت: (ما جاء محمد ولا خالد) كانت الواو هي العاطفة و(لا) زائدة لتوكيد النفي.

الثالث: أن يتعاند متعاطفاها نحو (أقبل رجل لا امرأة) بخلاف (أقبلت هند لا امرأة) لأن هندا امرأة^(١).

العطف على اللفظ والمعنى:

الأصل أن يعطف على اللفظ، نحو (أقبل محمد وخالد)، وقد يعطف على المعنى ويدخل تحت هذا ما يسميه النحاة العطف على المحل والعطف على التوهم، فمن الأول قولهم (ليس زيد بقائم ولا قاعداً) قالوا: إن (قاعداً) معطوف على محل (قائم) وذلك أنه خبر (ليس) وحقه النصب.

ومن الثاني قوله:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعبٍ ألا يبين غرابها
عطف (ناعب) على توهم وجود الباء في خبر (ليس) (مصلحين) لأنه يكثر دخولها على خبرها.

والحق أن هذا كله من باب العطف على المعنى، فقولنا (ليس زيد بقائم ولا قاعداً) المعطوف فيه ليس على إرادة الباء، ومعنى ذلك أن الخبر مؤكد والمعطوف غير مؤكد فإنك نفيت القيام نفياً مؤكداً، ونفيت القعود نفياً غير مؤكد، فإذا جررت المعطوف فقلت (ليس محمد بقائم ولا قاعد) كان نفي القعود مؤكداً أيضاً كنفي القيام.

ومن العطف على المعنى قولنا: (إن محمداً حاضر وأخوه) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: ٦٩] وسبب رفع المعطوف أنه على غير إرادة (أن) ومعنى ذلك أن الإسم مؤكد والمعطوف غير مؤكد، ولو نصبنا المعطوف فقلنا (أن محمداً حاضر وإخاه) لكان مؤكداً أيضاً كتأكيد المعطوف عليه.

ومثله (ما كان محمد قاعداً ولا أخوه نائم) فإن الثانية على غير إرادة (كان) فيكون زمن الأولى الماضي بخلاف زمن الثانية.

(١) انظر «المغني» (١/٢٤١-٢٤٢)، «الهمع» (٢/١٣٧).

جاء في الكتاب: «وتقول: (ما عبد الله خارجاً ولا معنُ ذاهبٌ) ترفعه على ألا تشرك الإسم الآخر في (ما) ولكن تبدئته كما تقول: (ما كان عبد الله منطلقاً ولا زيدُ ذاهبٌ) إذا لم تجعله على (كان) وجعلته غير ذاهب الآن^(١)».

ومنه ما يسميه النحاة العطف على التوهم، نحو (ما زيد قائماً ولا قاعدٌ) فقاعد مجرور على توهم الباء في خبر (ما) وهو في الحق عطف على المعنى، وذلك أن الخبر غير مؤكد والمعطوف مؤكد.

وجعلوا من هذا الضرب قوله تعالى ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] عطف (أكن) المجزوم على (أصَّدَّق) المنصوب وهو عطف على المعنى، وذلك أن المعطوف عليه يراد به السبب، والمعطوف لا يراد به السبب فإن (أصَّدَّق) منصوب بعد فاء السبب، وأما المعطوف فليس على تقدير الفاء ولو أراد السبب لنصب، ولكنه جزم لأنه جواب الطلب، نظير قولنا (هل تدلني على بيتك أزرِك) كأنه قال: إن تدلني على بيتك أزرِك، فجمع بين معنيي التعليل والشرط، ومثل ذلك أن أقول لك: (احترم أخاك يحترمك) و(احترم أخاك فيحترمك) فالاول جواب الطلب والثاني سبب وتعليل، وتقول في الجمع بين معنيين: (أكرم صاحبك فيكرمك ويعرف لك فضلك) وهو عطف على المعنى وليس توهماً بمعنى الغلط^(٢).

المتعاطفان: المتعاطفان يكونان على أقسام هي:

- ١- عطف الشيء على مغايره: وهو الأصل نحو: (رأيت محمداً وخالداً).
- ٢- عطف الشيء على مرادفه: نحو (هذا كذب وافتراء) و(عملك غيٍّ وضلال).
- ٣- عطف العام على الخاص كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] فالقرآن العظيم عام عطف على الخاص وهو السبع المثاني، ونحو ذلك أن تقول (أشتريت رماناً وفاكهة).

(١) «كتاب سيبويه» (٢٩/١).

(٢) «البرهان» (١١٢/٤) وانظر «الهمع» (١٤٢/٢)، «الإتقان» (١٩٩/١).

٤- عطف الخاص على عام، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] فجبريل وميكال خاص عطف على عام، وهو الملائكة، وذلك للاهتمام بما افرد ذكره.

٥- عطف الشيء على نفسه لزيادة فائدة، نحو ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فإله آبائه هو الله.

٦- عطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد، نحو (مررت برجل فقيه وشاعر وكاتب) وكقوله تعالى ﴿سَيَجِيءُ أَهْلَ الْبَيْتِ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤].

٧- عطف الاسم على الفعل وبالعكس: الأصل أن يعطف الاسم على الاسم نحو: (هو لبيب وحذر)، والفعل على الفعل نحو: (هو يهين ثم يندم).

وقد يعطف الاسم المشبه للفعل كاسم الفاعل ونحوه على الفعل وبالعكس، نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوْتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] فعطف الفعل (يقبضن) على (صافات) ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥] فعطف اسم الفاعل (مخرج) على (يخرج)، وقوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٣، ٤] وهذه المغايرة سببها اختلاف الدلالة وذلك أن دلالة الفعل غير دلالة الاسم، فالفعل يدل على الحدث، والتجدد، والاسم يدل على الثبوت كما ذكرنا في أكثر من موضع، فإذا اقتضى المقام الحدث جيء بالفعل، وإذا اقتضى الثبوت جيء بالاسم، فجاء بـ (صافات) في قوله (صافات ويقبضن) على صيغة الاسم للدلالة على الثبوت، وذلك أن الطير يصف جناحه عند الطيران، وهي الحالة الثابتة، وجاء بـ (يقبضن) على الفعل لأن القبض حالة ليست ثابتة، ثم أن (القبض) حالة حركة وتجدد والصف حالة ساكنة، ثابتة فجاء بالقبض على صيغة الفعل الدالة على الحركة والتجدد، وجاء بـ (صافات) على صيغة الاسم الدالة على الثبوت.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فجاء بقوله (يخرج الحي) على صيغة الفعل لأن من ابرز صفات الحي الحركة والتجديد فجاء بالفعل

الدال على الحركة والتجدد، وجاء بـ (مخرج الميت من الحي) على الإسم لأن الميت لا حركة فيه ولا تجدد فجاء باسم الفاعل الدال على الثبوت.

وقد تقول: ولم قال اذن في مكان آخر ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] بصيغة الفعل فيهما؟.

والجواب أن المقام يقتضي ذلك، واليك الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤْتِيُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَتُؤْتِيُ الْلَيْلَ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] فإنَّ المقام كله تغيير، وتبديل، وحركة، وتجدد من تغيير الملوك، وادالة الدول، وتعاقب الليل والنهار، وامور الموت والحياة، وغيرها، فالمقام كله حركة تغيير وتبديل بخلاف الآية الاولى، التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

فالمقامان مختلفان، فجاء في كل مقام بما يناسبه، والله أعلم.

حذف أحد المتعاطفين:

قد يحذف أحد المتعاطفين للدلالة عليه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَاجِرَ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أي فضرب فانفجرت^(١). فحذف المعطوف عليه للدلالة ما بعده عليه، فإنه لو لم يضرب لم تنفجر بالماء، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَوَيْ﴾ [البقرة: ٧٣] أي فضرِبوه فأحياء الله كذلك يحيي الله المتوتى، ونحوه قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي فماتوا ثم احياهم، ومثله قوله: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَبْنَا لَهُمُ الدَّرَجَاتِ﴾ [الفرقان: ٣٧] أي فذهبا فكذبوها فدمرناهم.

(١) «المغني» (٢/٦٢٨).

وهذا في القرآن كثير فإن القرآن قد يطوي بعض المشاهد التي تفهم بالقرائن، والتي لا يتعلق غرض بذكرها، ويعرض المشاهد التي يتعلق بذكرها الغرض.

ومن هذا الباب قولهم (راكب الناقة طليحان)^(١) والطيح المتعب، والمعنى: راكب الناقة والناقة متعبان، فالمعطوف عليه محذوف، وهو مفهوم من القرينة، لأنه لا يخبر عن المفرد بالمتنى.

حذف حرف العطف:

قد يحذف حرف العطف للدلالة، وذلك نحو (ذهبت الى السوق فاشتريت خبزاً لحماً فاكهة) والمعنى: فاشتريت خبزاً ولحماً وفاكهة، ويحتمل نصب اللحم والفاكهة على أنه بدل أضراب أيضاً، أي فاشتريت خبزاً بل لحماً بل فاكهة، فيكون الخبز واللحم كالمسكوت عنهما يحتمل أنه اشتراهما ويحتمل أنه لم يشترهما.

فهو تعبير احتمالي يحتمل كلا المعنيين، وقد تعين القرينة أحدهما دون الآخر، ومنه قولك (جالس محمداً سعداً إبراهيم) والمعنى: جالس محمداً أو سعداً أو إبراهيم، والمقصود بذلك الاباحة، ويحتمل بدل الاضراب أيضاً، فإنه إذا ذكر الحرف فقد تعينت دلالة التعبير وان لم يذكر الحرف، كان التعبير مطلقاً يحتمل أكثر من معنى.

جاء في (المغني): «حكى أبو زيد (أكلت خبزاً لحماً تمرأ) فقل على حذف الواو وقيل على بدل الاضراب».

وحكى أبو الحسن: (أعطه درهما درهمن ثلاثة) وخرج على اضمار (أو) ويحتمل البدل المذكور^(٢).

(١) «شرح ابن عقيل» (٦٧/٢).

(٢) «المغني» (٦٣٥/٢)، وانظر «شرح الرضي على الكافية» (٣٥٧/١).

العدد

أن وضع العدد مع المعدود له قواعد معلومة محددة في العربية اجملها بإيجاز:

١- أن الأعداد من الثلاثة الى العشرة تضادّ المعدود، تذكر مع المؤنث، وتؤنث مع المذكر، وتمييزها جمع مجرور بالإضافة، تقول سبعة رجال وسبع نسوة، وهذه القاعدة قديمة سامية الأصل^(١).

غير أنها إذا وقعت بعدها المائة افردت ولم تجمع، تقول: ثلاثمائة واربعمائة، وكان القياس أن يقال ثلاث مئات، واربعة مئات.

وقد يؤتي بلفظ (مئات) للتصيص على معنى معين، تقول مثلاً: (عندي مئات كثيرة أعطيتها أربع مئات منها) فإن قلت (اعطيته اربعمائة منها) أحتمل أن يكون المعنى أعطيته اربعمائة مائة واحتمل المعنى الأول أيضاً بخلاف التعبير الأول، فإنه لا يحتمل إلا معنى واحداً. ويقال لك: كم مائة أخذت؟.

فتقول: سبع مئات، فإن قلت: سبعمائة، أحتمل سبعمائة مائة، واحتمل المعنى الاول أيضاً.

وقد يؤتي بلفظ (مئات) للدلالة على معنى آخر، وذلك كأن تقول (هذه ثلاث مئات الرجال) والمعنى أن الثلاث تعود لمئات الرجال، فإنك لم تنص على أن عدد الرجال ثلاثمائة، بل ذكرت إنهم مئات وهذه الثلاث تعود لهم، فقد تكون هذه الثلاث نوقاً أو أفراساً أو غيرها فمعدود الثلاث محذوف للعلم به، ونحوه أن تقول (هذه خمسة الف الرجل) والمعنى أن هذه الخمسة تعود لالف الرجل، وليس المعنى أنهم خمسة آلاف رجل.

٢- يكون المعدود مع الأعداد المركبة مفرداً منصوباً، ويتطابق الجزء ان تذكيراً وتأنثاً في أحد عشر واثنى عشر، ويخالف صدر العدد المركب المعدود ويطابقه عجزه، تقول: ستة عشر رجلاً، وست عشرة امرأة.

(١) انظر «التطور النحوي» (٨٠)، «تاريخ العرب قبل الإسلام» (١١٥/٧).

ويذكر النحاة أن أصل العدد المركب أن يكون بالواو فخمسة عشر أصلها خمسة وعشرة «فحذفت الواو وركب العددان اختصاراً ودفعاً لما يتبادر من العطف، أن الإعطاء دفعتان قاله الدماميني»^(١).

والحق أنه إذا فك التركيب وجيء بحرف العطف اختلف المعنى بحسب الحرف، فإذا قلت (جاء خمسة فعشرة رجال) أو جاء (خمسة ثم عشرة رجال) دلّ ذلك على أن مجيء الخمسة سبق مجيء العشرة بتعقيب أو بمهلة بحسب الحرف بخلاف مفهوم التركيب.

وإذا جيء بالواو فقد ذكروا أنّ المعنى يختلف أيضاً فقولك (أعطيتك خمسة عشر كتاباً) يختلف عن قولك (أعطيتك خمسة وعشرة كتب) وذلك أن العطف يحتمل أن الاعطاء دفعتان لا دفعة واحدة ويحتمل أنه اعطاه دفعة واحدة. ومعنى هذا أن التركيب يفيد أن الاعطاء كان دفعة واحدة.

والحق أنّ التركيب قد يحتمل أكثر من دفعة أيضاً غير أنّ هناك فرقاً بين التركيب والعطف بالواو غير ما ذكروا وذلك:

أ- أن قولك (أعطيتك خمسة عشر كتاباً) معناه أنّ مجموع ما أعطيته خمسة عشر كتاباً فقد يكون ذلك بدفعة أو بدفعتين، أو بدفعات، فقد يكون اعطاه مرة أربعة، ومرة ثمانية، ومرة ثلاثة فيكون المجموع خمسة عشر، وأما العطف بالواو فهو يحتمل أنه أعطاه أياها دفعة واحدة أو بدفعتين فقط، دفعة بخمسة كتب، ودفعة بعشرة كتب، وقد تكون العشرة سابقة للخمسة، أو العكس، ولا يحتمل أنه أعطاه أياها على دفعات، بخلاف التركيب فإنه يفيد المجموع الكلي.

ب- إن العطف بالواو يحتمل معنى آخر يختلف عن التركيب، فإنّ التركيب في قولك (أعطيتك خمسة عشر كتاباً) يفيد أنّ المعطى هو كتب، ليس غير، وأما العطف فيحتمل

أكثر من معنى، وذلك أنك إذا قلت مثلاً: (أعطيته خمسة، وعشرة كتب) بتنوين (خمس) أحتمل أن الخمسة ليست كتباً، وإنما قد تكون أقلاماً بخلاف ما إذا قلت: (أعطيته خمسة وعشرة كتب) بلا تنوين فإنها تعني أن المعطى كتب فقط.

وتقول: (أعطيته خمساً وعشرة كتب) فيكون معدود الخمس مؤنثاً، بخلاف معدود العشرة، ونحوه أن تقول (أقبل خمس وعشرة رجال) فمعدود الخمس مؤنث، بخلاف معدود العشرة، فقد يكون الخمس نسوة أو نحوهن.

٣- يكون المعدود بعد الفاظ العقود مفرداً منصوباً، تقول (أقبل عشرون رجلاً) و (رأيت ثلاثة وأربعين غلاماً).

قالوا و«لا يجوز تركيب النitif مع العشرين وبابه بل يتعين العطف فتقول: خمسة وعشرون، ولا يجوز خمسة عشرين، ولعله للالباس في نحو (رأيت خمسة عشرين رجلاً) فإنه يحتمل خمسة لعشرين رجلاً، وقيل غير ذلك»^(١).

ومعنى ذلك أنك إذا ركبت فقلت مثلاً (رأيت خمسة عشرين رجلاً) أحتمل المعنى أن الخمسة ليست رجالاً وإنما قد يكون المعدود شيئاً آخر، كأن تكون خمسة كتب تعود لعشرين رجلاً ونحو ذلك، فالخمس ملك للعشرين وليست رجالاً.

وقد تقول: أولاً يفهم هذا من الإعداد المركبة، في نحو قولنا (خمس عشرة رجلاً)؟.

والجواب: لا، وذلك لأمر منها، أنه لو كانت الخمسة ليست رجالاً، وإنما هي ملك لهم لقلنا (خمس عشرة رجال) لأن معدود العشرة جمع مجرور، والمعنى خمسة جمال تعود لعشرة رجال.

ثم أن البناء على فتح الجزئين ينفي هذا المعنى، فانك إذا أردت الإضافة جررت لعشرة بالإضافة فتقول: خمسة عشرة رجال، بجر العشرة.

٤- يكون المعدود بعد المائة والالف مفرداً مجروراً، نحو (مائة عام) و(الف سنة).

(١) «شرح الإسموني» (٤/٦٩).

٥- من الملاحظ أنه في التركيب نستعمل لفظة (أحد) و(أحدى)، فتقول: أحد عشر وإحدى عشرة، ولا نستعمل لفظة (واحد) أو (واحدة)، وكذلك قبل الفاظ العقود، فتقول: أحد وعشرون، وأحدى وعشرون، وقد تقول واحد وعشرون، وواحدة وعشرون على قلة. فما أختلاف لفظة (أحد) عن لفظة (واحد)؟.

أحد وواحد:

تدلّ الابحاث الحديثة على أنّ لفظة (أحد) أسبق وجوداً من (واحد). في اللغات السامية وهي بمعنى الواحد، جاء في (التطور النحوي): «فأحد سامية الأصل وواحد مشتقة منها»^(١) ويقال للواحد المذكر في العربيات الجنوبية (أحد) ولل مؤنث (أحدت)^(٢)، وفي اللحيانية أحد للواحد المذكر، و(إحدى) للواحدة^(٣)، وفي لغة النبط (حد) بمعنى «أحد ويمعنى الأول والواحد»^(٤).

فلفظة (أحد) أقدم من (واحد) غير أنّ العربية خصصت لكل منهما معنى وأستعمالاً جاء في (التطور النحوي): «والفرق في المعنى بين (أحد) و(واحد) معروف وهو مثال ما قلناه من أن العربية تميل إلى التخصيص، فإستفادت من وجود شكلين للكلمة، فلم تستعملهما مترادفين، بل فرقت بينهما وخصصت كل واحد منهما بمعنى ووظيفة، غير ما لصاحبه»^(٥).

إنّ لفظة (أحد) كما يرى النحاة على ضربين:

الأول أن يراد بها عموم العقلاء، فتلزم الأفراد والتذكير، وتقع بعد النفي، والنهي، والإستفهام، والشرط، وفي غير الموجب عموماً^(٦)، تقول (ما في الدار أحد) أي ما

(١) «التطور النحوي» (٧٩).

(٢) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (١١٥/٧).

(٣) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (١٦٩/٧).

(٤) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (٣١٥/٧).

(٥) «التطور النحوي» (٧٩).

(٦) انظر «شرح الرضي على الكافية» (١٦٣/٢-١٦٤).

فيها شخص عاقل، قال تعالى ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ١٢٧] وقال ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦] وقال ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. والذي يدل على وقوعها بلفظ واحد في المفرد وغيره قوله تعالى ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] وقوله تعالى ﴿لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فهذا جمع لأن (بين) لا تقع إلا على اثنين فما زاد^(١)، وقال تعالى ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فأوقعها على المؤنث.

ويرى كثير من النحاة أن همزة (أحد) هذه أصلية وليست بدلاً من الواو، ويرى آخرون أنها كصاحبيتها الأخرى مبدلة همزة عن الواو^(٢)، وهذا الذي يترجح عندي.

وقد تقول أن لفظة (واحد) قد تفيد العموم أيضاً، في النفي وشبهه، تقول: (ما زارني واحد منهم) و(هل زارك واحد منهم؟) جاء في (شرح الرضي على الكافية): «ويستعمل (واحد) أيضاً للعموم العقلاء في غير الموجب، لكن يؤنث نحو (ما لقيت واحد منهم ولا واحدة منهم)^(٣)».

والحق أنهما مختلفان في الدلالة على العموم، وذلك أن لفظة (أحد) تفيد العموم في النفي، سواء اقترنت بها (من) الدالة على الاستغراق أم لم تقترن، فإذا اقترنت أفادت التوكيد، فإنك إذا قلت (لم أر أحداً في الدار)، دل ذلك على أنك لم تر أي شخص، واحداً أو أكثر، فأن قلت (لم أر من أحد) أكدت نفي العموم.

أما إذا قلت (لم أر واحداً) فإنه يحتمل أنك لم تر واحداً، ويحتمل أنك لم تر واحداً فقط بل رأيت أكثر من واحد.

والضرب الآخر من ضَرْبِي (أحد) أن يُراد بها معنى (واحد)، وأجمعوا على أن همزتها منقلبة عن واو وأصلها وَحَدٌ^(٤).

(١) «لسان العرب» (٤/٤٦١-٤٦٢)، «شرح الرضي على الكافية» (١٦٣/٢)، «شرح ابن يعيش» (١٧، ٣١/٦).

(٢) «شرح الرضي» (١٦٤/٢).

(٣) «شرح الرضي» (١٦٤/٢).

(٤) «شرح ابن يعيش» (١٦، ٣١/٦)، «شرح الرضي» (١٦٤/٢).

والحق أنها ليست بمعنى (واحد) في الضرب الثاني أيضاً، وذلك من وجوه منها:

١- أن الواحد أسم وضع لمفتوح العدد^(١)، وهو ما يقابل الاثنين تقول (جاءني منهم واحد) أي لم يجئني اثنان ولا تقول (جاءني منهم أحد) قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] قبل الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد^(٢).

٢- أن (أحداً) إذا اضيفت تكون بمعنى (واحد)، غير أنها تكون بعضاً من المضاف إليه، فأحد القوم واحد منهم، وهو بعضهم، قال تعالى ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] أي واحداً منكم، وقال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَىٰ اسْتَجِرَّةٌ﴾ [القصص: ٢٦] أي واحدة منهما فأنت ترى أن المضاف بعض المضاف إليه.

جاء في (لسان العرب): «وتقول: هو أحدهم، وهي أحدهن، فإن كانت امرأة مع رجال لم يستقم أن تقول هي أحدهم، ولا أحدهم، ولا احدهن، إلا أن تقول: هي كأحدهم، أو هي واحدة منهم^(٣)».

أما كلمة (واحد) إذا اضيفت فلا تؤدي هذا المعنى، فإذا قلت (هو واحدهم) لم يفد أنه أحدهم بل يكون المعنى أنه المتقدم فيهم، جاء في (لسان العرب): «ورجل واحد متقدم في بأس، أو علم، أو غير ذلك، كأنه لا مثل له^(٤)». وجاء فيه: «والواحد بني على أنقطاع النظير وعوز المثل^(٥)».

فأنت ترى أن أحد القوم ليس بمعنى واحد القوم، وإنما بمعنى واحد من القوم،

(١) «لسان العرب» (وحد) (٤/٤٦١).

(٢) تفسير «فتح القدير للشوكاني» (٥/٥٠٢).

(٣) «لسان العرب» (٤/٤٦٠).

(٤) «لسان العرب» (٤/٤٦٠).

(٥) «لسان العرب» (٤/٤٦١).

وواحد أمه معناه ليس معه غيره، وليس بمعنى أحد أمه، ولا يصح هذا التعبير.

٣- يأتي الواحد بمعنى المماثلة، وعدم المخالفة والمغايرة، تقول «الجلوس والقعود واحد واصحابي، واصحابك واحد»^(١) قال تعالى ﴿وَلِأَنَّهُمَا وَلِأَنَّهُكُمْ وَحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولا تستعمل كلمة (أحد) كذلك.

٤- تستعمل (أحد) وصفاً في الإثبات بلا إضافة ولا تبين بمن، فتختص بالله وحده، لا يشركه فيها غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] جاء في (لسان العرب): «قال الازهري: وأما أسم الله عز وجل (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، لا يقال رجل أحد، ولادرهم أحد، كما يقال رجل وحَد، لأنَّ أحدًا صفة الله عز وجل التي استخلصها لنفسه، ولا يشركه فيها شيء»^(٢).

وجاء في (تفسير ابن كثير) في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: «يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات، إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأعماله»^(٣).

وأما (وَحَد) التي هي أصل لأحد، فيوصف بها الإنسان وغيره، تقول رجل وحَد، ودرهم وحَد، بخلاف كلمة أحد، فلا يقال رجل أحد، ولادرهم أحد، فالإبدال كان لغرض إداء معنى جديد، وإستعمال جديد، فالوحد من الوحش المتوحد، ومن الرجال الذي لا يعرف نسبه ولا أصله^(٤).

فليس (وحد) كأحد، ولا (أحد) كواحد.

(١) «لسان العرب» (٤/ ٤٦٠).

(٢) «لسان العرب» (٤/ ٤٦٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٧٠).

(٤) «لسان العرب» (٤/ ٤٦٤).

اسم الفاعل من العدد:

يصاغ من العدد من لفظ اثنين فصاعداً الى عشرة أسم فاعل على وزن فاعل، فيقال ثان وثالث، ورابع، ونحوها، ويستعمل على أحد معنيين:

أحدهما أن يكون المراد به (واحدًا) فتستعمله مع أصله الذي صيغ منه تقول: هو ثاني اثنين، أي هو أحد اثنين، وثالث ثلاثة أي هو أحد ثلاثة، ورابع أربعة، أي هو أحد أربعة.

والمعنى الآخر أن يراد به معنى الجعل والتصيير، فيستعمل مع مادون أصله بمرتبة واحدة فيقال: هو رابعٌ ثلاثة، أي يجعل الثلاثة أربعة، وسادسٌ خمسة، أي يجعل الخمسة ستة، بأن يدخل فيهم.

وللمعنى الأخير استعمالان:

أما أن نون أسم الفاعل ونصب ما بعده، فنقول: هو رابعٌ ثلاثة، وسادسٌ خمسة. وهو أما على معنى الماضي، أي جعلهم وصيرهم، وأما على معنى الحال والاستقبال، كما مرّ في أسم الفاعل^(١).

وإذا أردنا استعمال الواحد والواحدة استعمال أسم الفاعل في التنييف بعد العشرة، أو بعد الفاظ العقود، فإننا نستعملهما بلفظ الحادي، والحادية، على القلب كما يقول النحاة فنقول الحادي والعشرون، والحادي عشر، ولهذا القلب والتغيير سببه، فإنه إذا نطقنا بلفظ (الواحد) لم يفهم منه الدلالة على إسم الفاعل، وإن كان على وزن فاعل، لأن الواحد أسم بني على لفظ مفتتح العدد، فإنك إذا قلت مثلاً (أقبل الواحد والعشرون) - ولم يكن وزن آخر لاسم الفاعل - لم يفهم منه أنهم أقبلوا جميعاً، أو أقبل واحد منهم، ألا ترى أنك تقول (الواحد والعشرون حضروا)، وتقول (الحادي والعشرون حضر)؟

(١) انظر «شرح ابن يعيش» (٣٦/٦)، «شرح الرضي على الكافية» (١٧٧/٢)، «التصريح» (٢٧٦/٢). «الإسموني» (٧٤/٤).

وكذلك الحادي عشر، والواحد عشرة، تقول هذا واحد عشرة رجال) أي واحد من عشرة، أما الحادي عشر فلمعنى آخر معلوم.

تمييز العدد:

مرّ بنا أنّ تمييز العدد من ثلاثة الى عشرة، جمع مجرور بالإضافة، وبعد الاعداد من أحد عشر الى تسعة وتسعين، مفرد منصوب، وبعد المائة والالف مفرد مجرور، غير أن هناك أموراً يجدر بنا التنبيه عليها منها:

١- أنّ الإضافة تحتمل التمييز، والإضافة الى المالك، فقولك (رأيت خمسة الرجال) يحتمل أنّ الخمسة هم الرجال، ويحتمل أنّ الخمسة ملك للرجال، كما تقول: هذه ثلاثك وهذه ثلاثة محمد، وهذا يكون في الاعداد المركبة والفاظ العقود وغيرها، تقول (هذه خمسة عشر خالد) أي هي له (وهي عشرو خالد) بحذف النون، وهذه مائة محمد، وألف سعيد، على معنى التملك، جاء في (المقتضب): «أعلم أنك اذا أضفت عدداً، حذفت منه النون والتنوين، أي ذلك كان فيه فتقول: هذه عشروك، وثلاثوك، وأربعوك، ورأيت ثلاثيك وأربعيك، وهذه مائتك والفك»^(١).

وجاء في (حاشية الخصري): «العدد مطلقاً تجوز إضافته الى غير تمييزه، نحو عشروك وثلاثة زيد، وحيثنذ يستغنى عن التمييز، فلا يذكر أصلاً، لأنك لا تقول ثلاثة زيد، إلا لمن عرف جنسها»^(٢).

٢- إنّ المفرد المنصوب، قد يختلف عن الجمع، في أنه قد يراد بالجمع المنصوب الحال أحياناً، تقول (أقبل خمسة عشر راكباً)، وتقول (أقبل خمسة عشر راكبين)، فالثانية حال^(٣)، والأولى تمييز، وتقول (ما أقبل ستة عشر رجلاً)، (وما أقبل ستة عشر رجلاً) فالأولى تمييز، والثانية تحتمل الحال، أي يمشون على أرجلهم، وتقول (أقبل أربعون

(١) «المقتضب» (١٧٨/٢)، وانظر «شرح ابن يعيش» (٢٠/٦-٢١)، «شرح الرضي على الكافية» (٢٣٦/١)، ملاجامي (١٥٥).

(٢) «حاشية الخصري» (١٣٨/٢) وانظر «التصريح» (١٧٥/٢)، «شرح ابن عقيل» (١٣٨/٢).

(٣) مذهب «سيبويه يجيز مجيء الحال من النكرة بلا مسوغ كما مر».

فارساً) و(اربعون فرساناً) فالأولى تمييز، والثانية حال، و(رأيت خمسة مشاة، وخمسة مشاة) و(مائة ماشٍ، ومائة مشاة) فالأولى تمييز مجرور بالإضافة، والثانية حال.

٣- ثم إن التمييز المفرد قد يختلف عن الجمع، من ناحية أخرى، وذلك أنه قد يراد بالجمع أن كلاً من التمييز جمع لا مفرد، تقول (عندي عشرون سمكة)، و(عندي عشرون سمكاً)، فمعنى الأولى مفهوم، ومعنى الثانية أن عنده عشرين نوعاً من السمك، وقولك (خمسة عشر صفاً) يختلف عن قولك (خمسة عشر صفوفاً) فإن الثانية تفيد أن كلاً من الخمسة عشر هو مجموعة صفوف، لا صف واحد.

جاء في (حاشية الخضري) في قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا﴾ [الاعراف: ١٦٠]: «قال بعضهم: إذا كان كل واحد من المعدود جمعاً، جاز جمع التمييز فإن المعدود هنا قبائل، وكل قبيلة أسباط، لا سبط واحد، فوقع أسباط موقع قبيلة فتدبر»^(١).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «فان قلت (عندي عشرون رجلاً) كنت قد أخبرت أن عندك عشرين، كل واحد منهم جماعة رجال»^(٢).

وجاء فيه أيضاً: «وأما قوله تعالى ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ [الكهف: ٢٥] فإن (سنين) نصب على البدل من ثلثمائة، وليس بتمييز، وكذلك قوله ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا﴾ نصب (أسباطاً) على البدل، هذا رأي أبي إسحاق الزجاج قال: ولا يجوز أن يكون تمييزاً، لأنه لو كان تمييزاً لوجب أن يكون أقل ما لبثوا تسعمائة سنة، لأن المفسر يكون لكل واحد من العدد وكل واحد سنون وهو جمع، والجمع أقل ما يكون ثلاثة، فيكونون قد لبثوا تسعمائة سنة وأجاز الفراء أن يكون (سنين) تمييزاً»^(٣).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «وتقول (عشرون ضروباً)، بمعنى اختلاف أنواع آحاده، لأن الأعداد لا يثني تمييزها المنصوب، ولا يجمع»^(٤).

(١) حاشية الخضري (١٣٨/٢).

(٢) شرح ابن يعيش (٢١/٦).

(٣) شرح ابن يعيش (٢٤/٦).

(٤) شرح الرضي (٢٣٨/١).

وقال ابن الناظم: «وقد تميز بجمع صادق على الواحد منها، فيقال (عندي عشرون دراهم) على معنى عشرون شيئاً كل واحد منها دراهم، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ المعنى والله أعلم وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة، كل فرقة منهم أسباطاً»^(١).

٤- فإن جررت التمييز بمن، احتملت (من) أن تكون للجنس، وإن تكون للبعض، وذلك نحو (أقبل مائة من الرجال) فهو يحتمل أن المقصود بالرجال هم الجنس، أي أقبل مائة رجل، ويحتمل التبعض، أي أن ثمة رجالاً أكثر من مائة، أقبل منهم مائة، فال على هذا تكون للعهد.

٥- أن المفرد المنصوب نص على التمييز، وهو المبين للعدد نحو أربعين سنة، وخمسة عشر رجلاً.

يتبين من هذا أن قولك:

١- رأيت خمسة عشر رجلاً- نص على التمييز، أي رأيت خمسة عشر شخصاً، كل شخص هو رجل.

٢- رأيت خمسة عشر رجل- معناه أن الخمسة عشر تعود الى رجل، وهي ملكه وليست كلمة (رجل) هي المعدود.

٣- رأيت خمسة عشر رجلاً- تفيد الحالية، والوصفية، أي رأيت خمسة عشر شخصاً يمشون على أرجلهم كما تقول (أقبل خمسة عشر راكيبين).

وتحتمل أيضاً أن كل واحد من الخمسة عشر هو مجموعة رجال، لا رجل واحد.

٤- رأيت خمسة عشر من الرجال- تحتمل الجنسية، بمعنى خمسة عشر رجلاً وتحتمل البعضية، فتكون (أل) للعهد، أي هناك رجال يزيدون على خمسة عشر، رأى خمسة عشر منهم.

(١) «شرح ابن الناظم» (٣٠٢).

الممنوع من الصرف

في العربية أسماء تمنع من التنوين، تسمى الأسماء الممنوعة من الصرف، والمقصود بالصرف التنوين، نحو أحمد وفاطمة، وقد وضع النحاة لهذه الأسماء ضوابط تبين متى يمنع الاسم من الصرف.

سبب المنع من الصرف:

ذهب النحاة الى أن سبب المنع من الصرف هو مشابهة الاسم للفعل، وليس المقصود بالمشابهة بينهما اتفاق الاسم والفعل في المادة اللغوية، نحو قدوم وقادم، وإنما تكون المشابهة في أوجه مخصوصة، تتبعها النحاة، متى وجد قسم منها في الاسم حرم التنوين، فـ (بغداد) و(إبراهيم) يشبهان الفعل من تلك الأوجه، بخلاف (منطلق) و(انطلاق) مثلاً.

ومدار الأمر يقوم عندهم على الخفة والثقل، وذلك أن الفعل عندهم أثقل من الاسم، فما شابه الفعل في الثقل حُرِمَ التنوين، وما لم يشابهه كان خفيفاً متصرفاً.

ويستدلون على أن الفعل أثقل من الاسم، بكون الاسم أكثر دوراناً في الكلام من الفعل، بدليل أن الاسم قد يستغني عن الفعل في الكلام، فنقول (الله ربنا) و(خالد غلامنا)، ولا يستغني الفعل عن الاسم، وإذا كثر اللفظ في الكلام، كان ذلك دالاً على أي خفته لأن الناس يستحبون الخفيف.

ومن الدلالة على ثقل الفعل أيضاً، أنه يدخله الحذف والسكون، فقد يحذف أوله، وأوسطه، وآخره، نحو يعد، وقم، واشتر، وتقول لم يذهب، واكتب، وذلك أن الثقل قد يتخفف منه بالحذف.

ومن الدلالة على ثقل الفعل وخفة الاسم أيضاً، أن بناء الاسم أكثر من بناء الفعل، فالإسم المجرد، ثلاثي، ورباعي، وخماسي، نحو قمر، ودرهم، وسفرجل، والفعل المجرد ثلاثي، ورباعي، نحو ذهب ودحرج.

والإسم المزيد، رباعي، وخماسي، وسداسي، وسباعي، نحو إستقبال، والفعل المزيد لا يتعدى السداسي، نحو أستقبل.

وأوزان الأسماء أكثر من أوزان الأفعال، فقد ذكروا أنَّ أبنية الإسماء تبلغ ألف مثال ومائتي مثال، وعشرة أمثلة^(١)، أمَّا الفعل الثلاثي، فله ثلاثة أوزان فعل، فِعِل، وفِعْل، وفَعْل، والرباعي المجرد له وزن واحد، هو فَعْلَل، والثلاثي المزيد أوزانه إثنا عشر، والرباعي المزيد له ثلاثة أوزان، والمبني للمجهول معلوم، والمملحقات قليلة، فدل ذلك على أنَّ الإسم أخفّ من الفعل، ولما كان الإسم أخف من الفعل، إحتمل زيادة التنوين عليه، لأنَّ الخفيف يحتمل الزيادة، بخلاف الثقيل.

جاء في (الكتاب): «وأعلم أنَّ بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الإسماء، لأنَّ الإسماء هي الأول، وهي أشد تمكناً، فمن ثم لم يلحقها تنوين، ولحقها الجزم والسكون، وإنَّما هي من الإسماء، ألا ترى أنَّ الفعل لا بدَّ له من الإسم، وإلَّا لم يكن كلاماً، والإسم قد يستغني عن الفعل، تقول: الله إلهنا، وعبدالله أخونا»^(٢).

وقد تقول كيف يكون الفعل أثقل من الإسم، مع أن وزنه قد يكون واحداً، بل أن لفظهما قد يكون واحداً؟

فإنَّ (ضَرَبَ) مثلاً قد يكون فعلاً. وقد يكون إسماً بمعنى (العسل)، و(حجر) قد يكون فعلاً بمعنى (حبس)، وقد يكون إسماً، وهو معروف، فكيف يكون (ضرب) الفعل أثقل من (ضرب) الإسم ولفظهما واحد، وكذلك (حجر)؟

والجواب أنَّ ما يقتضيه الفعل في الكلام من متعلقات هو الذي يفضي إلى الثقل، فإنه يصح أن تقول (هذا ضَرَبَ) أي (هذا عسل)، ويتم الكلام ولا يقتضي (ضَرَبَ) ههنا شيئاً. ولكن إذا قلت (هذا ضرب)، فإنَّ (ضرب) ههنا يقتضي فاعلاً قد يكون مستتراً.

(١) «المزهر» (٤/٢).

(٢) «كتاب سيبويه» (٦/١).

وقد يكون ظاهراً، نحو (هذا ضرب أخوه)، وقد يقتضي مفعولاً علاوة على ذلك، نحو (هذا ضرب أخوه عامراً) ولابد من هذا الإقتضاء، هذا علاوة على ما يتضمنه أو يقتضيه من الظروف وغيرها، نحو (هذا ضرب أخوه أمس)، في حين لا يقتضي الاسم شيئاً من ذلك، فإنّ الكلام قد يتم بالإسم، ولكن الفعل يقتضي في الأقل لفظاً آخر وهو الفاعل، فدلّ ذلك على أنّ الفعل أثقل من الإسم في اللفظ، لأنه يقتضي لفظاً آخر علاوة على لفظه.

جاء في (شرح ابن يعيش): «ولابد من بيان ثقل الأفعال، فإنّ مدار هذا الباب على شبه مالا ينصرف الفعل في الثقل، حتى جرى مجراه فيه، ولذلك حذف التنوين مما لا ينصرف لثقله حملاً على الفعل، وإنّما قلنا أنّ الأفعال أثقل من الأسماء لوجهين:

أحدهما أنّ الإسم أكثر من الفعل من حيث إنّ كل فعل لابد له من فاعل إسم، يكون معه، وقد يستغني الإسم عن الفعل، وإذا ثبت أنه أكثر في الكلام كان أكثر استعمالاً، وإذا كثر استعماله خفّ على الألسنة لكثرة تداوله، ألا ترى أنّ العجمي إذا تعاطى كلام العرب ثقل على لسانه، لقلة استعماله له وكذلك العربي إذا تعاطى كلام العجم، كان ثقيلاً عليه لقلة استعماله له.

الوجه الثاني أن الفعل يقتضي فاعلاً ومفعولاً، فصار كالمركب منهما إذ لا يستغني عنهما، والإسم لا يقتضي شيئاً من ذلك»^(١).

وقد تقول: ألأن الإسم أكثر في الكلام، دلّ ذلك على خفته، أم لأن الإسم خفيف كثر في الكلام؟.

وبتعبير آخر: هل الخفة سبب الكثرة، أم الكثرة سبب الخفة؟.

والجواب: كلاهما، فإنّ اللفظ إذا كثر في الكلام إستخفه الناس ولم يشعروا بثقله، ألا ترى أنّ هناك جملاً وعبارات تصنع لتمرين اللسان، يستقلها الناطق بادية ذي بدء، حتى إذا أكثر من النطق بها خفت على لسانه، فلا يشعر بما فيها من ثقل، كما أنّ الشيء الخفيف يستحبه الناس فيدور على ألسنتهم.

(١) «شرح ابن يعيش» (٥٧/١).

وعلى أيّ حال فالنحاة يرون أن الإسم أخف من الفعل، ولذا أحتمل التنوين الذي يسمى تنوين التمكين، فهذا التنوين دليل على خفة الإسم كما يقول النحاة، قال سيوييه: «فالتنوين علامة للأمكن عندهم، والأخف عليهم وتركه علامة لما يستقلون»^(١).

وجاء في (شرح ابن يعيش): «إنّ الأفعال إنّما يمتنع منها تنوين التمكين، وهو الدال على الخفة»^(٢)، وجاء فيه: «فلما كانت النكرة أخف عليهم الحقوها التنوين، دليلاً على الخفة ولذلك لم يلحق الأفعال لثقلها»^(٣).

وذكر ابن الناظم المنصرف فقال، أنه «يدخله التنوين للدلالة على خفته، وزيادة تمكنه»^(٤).

فما كان مشابهاً للفعل في ثقله، حرم التنوين لأنّ الفعل لا ينون، وحرم الجر بالكسرة لأنّ الفعل لا يجر أصلاً، وقيل بل حرم الجر بالكسرة، «لثلا يتوهم أنه مضاف إلى ياء المتكلم، وأنها حذفت واجتزأ بالكسرة، وقيل: لثلا يتوهم أنه مبني، لأن الكسرة لا تكون إعراباً إلا مع التنوين، أو الألف واللام، أو الإضافة، فلما منع الكسر حمل جرّه على نصبه فجرّ بالفتحة»^(٥).

ولذا قسم النحاة الإسماء المعربة إلى قسمين:

قسم ثقيل، وهو غير المنصرف، والآخر منصرف، وهو الذي يحتمل زيادة التنوين^(٦).

(١) «كتاب سيوييه» (٧/١).

(٢) «شرح ابن يعيش» (٦٤/١).

(٣) «شرح ابن يعيش» (٥٧/١).

(٤) «شرح ابن الناظم» (٢٥٧).

(٥) «الهمع» (٢٤/١).

(٦) انظر «الإشموني» (٢٢٩/٣)، «ابن الناظم» (٢٥٨)، «حاشية يس على التصريح» (٢٠٩/٢-٢١٠).

وتعليلات النحاة تذكر أنّ سبب المنع من الصرف، هو وجود علتين فرعيتين في الإسم يشبه الإسم بهما الفعل، أو علة تقوم مقامهما، وذلك أنّ الفعل - كما يرون - فرع على الإسم من ناحيتين:

الأولى أنّ الفعل مشتق من المصدر الذي هو أسم، فالأسم أصل للفعل فهو إذن أول، أي أقدم من الفعل.

والثانية أن الفعل يحتاج إلى الأسم في الكلام.

فما شابه من الأسماء الأفعال في علتين فرعيتين، أو واحدة تقوم مقام علتين، منع من الصرف، وقد ذكر سيبويه هاتين الفرعيتين فقال: «فالأفعال أثقل من الإسماء لأن الأسماء هي الأول... وإثما هي من الأسماء، ألا ترى أنّ الفعل لا بد له من الإسم، وإلا لم يكن كلاماً، والإسم قد يستغني عن الفعل»^(١).

ومعنى قوله أنّ الأسماء هي الأول، أنّها مقدمة في الرتبة على الأفعال، لأنها أصل الأفعال^(٢).

وجا في (التصريح): «ثم المعرب أن أشبه الفعل في فرعيتين من تسع، أحدهما من جهة اللفظ، والثانية من جهة المعنى، أو في واحدة تقوم مقامهما، وذلك لأنّ في الفعل فرعية عن الإسم في اللفظ، وهي إشتقاقه من المصدر، وفرعية في المعنى، وهي إحتياجه إلى الإسم في الإسناد، منع الصرف»^(٣).

وعلل الممنوع من الصرف فرعية، كما يقول النحاة، فالتعريف فرع على التنكير، لأنّ التنكير أصل، والجمع فرع على الواحد، لأن الواحد أصل، والتأنيث فرع على التذكير وهكذا.

(١) «كتاب سيبويه» (٦/١).

(٢) «شرح السيرافي بهامش الكتاب» (٦/١).

(٣) «التصريح» (٢/٢٠٩)، وانظر «شرح الرضي على الكافية» (١/٣٨).

جاء في (الكتاب): «وأعلم أن النكرة أخفّ عليهم من المعرفة، وهي أشدّ تمكناً لأن النكرة أول، ثم يدخل عليها ما تعرّف به، فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة.

وأعلم أن الواحد أشدّ تمكناً من الجمع، لأنّ الواحد الاول، ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجمع على مثال، ليس يكون الواحد نحو مساجد ومفاتيح.

وأعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث، لأنّ المذكر أول، وهو أشدّ تمكناً، وإنّما يخرج التأنيث من التذكير، ألا ترى أن (الشيء) يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم، أذكر هو أو أنثى، والشيء مذكر»^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأما فرعية هذه العلل فإنّ العدل فرع إبقاء الإسم على حاله، والوصف فرع الموصوف، والتأنيث فرع التذكير، والتعريف فرع التنكير إذ كل ما نعرفه كان مجهولاً في الأصل عندنا، والعجمة في كلام العرب فرع العربية، إذ الأصل في كل كلام أن لا يخالطه لسان آخر، فيكون العربية اذن في كلام العجم فرعاً، والجمع فرع الواحد، والتركيب فرع الإفراد، والإلف والنون فرع الفي التأنيث... ووزن الفعل في الإسم فرع وزن الإسم إذا كان خاصاً بالفعل، أو اوله زيادة كزيادة الفعل، لأنّ أصل كل نوع لا يكون فيه الوزن المختص بنوع غيره»^(٢).

كما أنّ تعليقات النحاة تشير إلى أنّ ما يكثر في الكلام يكون منصرفاً، وما لا يكثر يكون غير منصرف، لأنه أشبه الفعل في هذه الناحية، والأسماء غير المنصرفة بالقياس الى المنصرفة قليلة.

فمدار كل ذلك على الخفة والثقل الذي مداره على الكثرة والقلّة، فالمعارف أقل من النكرات، لأن النكرات أصل ثم يدخلها التعريف بأل وغيرها، ثم إنّ الممنوع من الصرف يتعلق بالعلم، ولا مدخل له مع غيره من المعارف، فإنّ الضمائر واسماء

(١) «كتاب سيبويه» (٦/١-٧).

(٢) «شرح الرضي» (١/٣٩-٤٠).

الإشارة، والإسماء الموصولة، والمعرف بالنداء، وهو النكرة المقصود مبنية، ومنع الصرف متعلق بالمعربات. وأنّ المعرفة بآل، والمضاف يعجران بالكسرة، ولا ينونان أصلاً، فلا مدخل لها بالمنع من الصرف، فهو إذن متعلق بالعلم وحده من المعارف، ولا شك أنّ أسماء الاجناس أكثر بكثير من العلم، يطلق على واحد من أفراد الجنس، فكلمة (نهر) أكثر من (دجلة) أو (النيل) لأنّ كلمة (دجلة) خاصة بواحد من الإنهار، وكلمة (رجل) أكثر بكثير من كلمة (محمد) أو (إبراهيم)، فإنّه يصح أن تطلق كلمة (رجل) على كل واحد من افراد الجنس، بخلاف كلمة (محمد) فإنها تطلق على واحد من أفراد الجنس، فكل واحد إسمه (محمد) أو غير محمد يصح أن نطلق عليه كلمة (رجل) ولا يصح أن نطلق (محمداً) على كل رجل. وكذلك بقية الإعلام، فثبت بذلك قلة الإعلام بالنسبة إلى النكرات، وعلى هذا تكون المعرفة أثقل من النكرة.

والصفات أقل من الجوامد، ذلك أنّ الصفات تصاغ من الأفعال، أو قُل هي مرتبطة بها فإذا أثبتت قلة الإفعال، ثبت بذلك قلة الصفات، فنحو رجل وشجرة أكثر من نحو قائم وكريم، فالصفة أثقل من الإسماء الجامدة، هذا علاوة على أنّ كل صفة إنما تجري على موصوف، فدلّ ذلك على قلة الصفات، فإنّ كان مع هذا الثقل ثقل آخر إزداد ثقلًا.

فالعلم إذا كان معه ما يقلله في الكلام، كالتركيب المزجي، والعدل، ووزن الفعل والعجمة، وغيرها، إزداد ثقلًا فحرم التنوين، ذلك أنّ المركب أقلّ من المفرد، فنحو حضرموت، وبعليك، أقلّ من نحو خالد، وسالم.

والمعدول أقلّ من غير المعدول، فنحو عمر وزفر قليل في الكلام، وقد جمع النحاة الإعلام المعدولة على وزن (فُعَل)، فما وجدوها تزيد على أربعة عشر علماً، أو خمسة عشر^(١).

(١) «الهمع» (٢٧/١) وهي: عمر وزفر ومضر وتعل وهبل وزحل وعصم وقزح وجشم وقثم وجمع وجحا ودلف وبلغ وفي «التصريح» (٢٢٤/١) وفي حاشية «الصبان» (٢٦٤/٣) هذل أيضاً.

والأعجمي أقل من العربي، وما كان على وزن خاص بالفعل أقل من غيره، والمؤنث أثقل من المذكر لأن التذكير هو الأصل، فالمؤنث يؤخذ من المذكر، تقول قائم وقائمة. ثم ألا ترى أنَّ المذكر ليس له علامة تذكير، لأنه أصل بخلاف المؤنث؟ جاء في (الكتاب): «وأعلم أنَّ المذكر أخف عليهم من المؤنث، لأن المذكر أول، وهو أشد تمكناً وإنما يخرج التأنيث من التذكير»^(١)، وإيضاً لأن المذكر أكثر دورانا على الألسنة من المؤنث. فإن العرب تنسب إلى الإباء فتقول فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، ولا تقول فلان بن فلانة، ولا فلانة بنت فلانة، فدل ذلك على كثرة تردد المذكر دون المؤنث، جاء في كتاب (المذكر والمؤنث) لأبي بكر بن الأنباري: «فإن قال: لم صار التأنيث يثقل الإسم؟ ولم صارت الأسماء المؤنثة أثقل من المذكرة؟».

قيل له: العلة في هذا أن العرب تكثر استعمال الرجال وترددها في الكتب والانساب فيقولون: فلان بن فلان ولا يقولون: فلان بن فلانة بنت فلان، لصيانتهم أسماء النساء وقلة إستعمالهم لها، فلما كان ذلك كذلك، كان الذي يكثرون إستعماله أخف على السنتهم من الذي يقلون إستعماله، هذا مذهب الفراء»^(٢).

وهكذا بقية شروط العلم التي تمنع من الصرف.

وإذا أقترن بالصفة ما يقللها في الكلام، كانت ثقيلة فحرمت التنوين، وذلك نحو أفعل الذي مؤنثه فعلاء، وفعلان الذي مؤنثه فعلى، وسبب ذلك أنَّ الأصل في الصفات أن تؤنث بتاء التأنيث، وهو الكثير فيها، نحو عالم عالمة، وكبير كبيرة، وصبار صبارة، فلما خرجت هذه الصفات عن الكثرة والأصل، قلّت في الكلام فدلّ ذلك على ثقلها فحرمت التنوين، ولذا ما كان داخلاً في الكثرة صرف، فأفعل إذا أنت على (أفعلة) صرف، نحو أرمل وأرملة. و(فعلان)، إذا أنت على (فعلانة) صرف، نحو عريان عريانة، وندمان ندمانة، وذلك لأنه دخل في الشيء العام الكثير.

(١) «كتاب سيبويه» (٧/١).

(٢) المذكر والمؤنث - رسالة دكتوراه مقدمة الى جامعة بغداد لطارق عبد عون - مكتوبة بالالة الكاتبة - القسم الثاني (٤٠-٤١).

ثم أنّ ما يؤنث بالتاء يكرر مرتين مرة في التذكير، ومرة في التأنيث، ففي نحو قائم وقائمة يكرر لفظ (قائم) في التذكير وفي التأنيث، ولا يختلف لفظ المؤنث عن المذكر إلا بزيادة التاء، وكذلك نحو جميل وجميلة، وأرمل وأرملة، وسيفان وسيفانة، فيكون تردده أكثر مما لا يؤنث بالتاء، ألا ترى أنّ لفظ (عطشان) لا يتردد في التأنيث بل يكون للمؤنث بناء برأسه بناء آخر وهو (عطشى)، بخلاف (سفيان)، وإنّ (احمر) لا يتردد في التأنيث بل يكون للمؤنث بناء برأسه وهو (حمراء) بخلاف (أرمل)؟.

فما يؤنث بالتاء يكون تردده أكثر في الكلام، لأنه يتردد في المؤنث وفي المذكر، بخلاف ما لا يؤنث بالتاء، ولذا كان ما يؤنث بالتاء منصرفاً، لأنه كثير، أمّا ما لا يؤنث بالتاء فإنه يكون أقل، فيكون قد شابه الفعل من هذه الناحية.

جاء في (الكتاب): «هذا باب ما لحقته نون بعد ألف، فلم ينصرف في معرفة ولا نكرة، وذلك نحو عطشان، وسكران، وعجلان، واشباهها... وهاتان الزائدتان قد أختص بهما المذكر، ولا تلحقه علامة التأنيث، كما أن (حمراء) لم تؤنث على بناء المذكر، ولمؤنث (سكران) بناء على حدة، كما كان لمذكر (حمراء) بناء على حدة»^(١).

وجاء في (المقتضب): «أن كل ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، وما كان فيه ألف التأنيث، لا ينصرف في معرفة ولا نكرة».

فإن قال قائل: ما باله ينصرف في النكرة، وما كانت فيه ألف التأنيث لا ينصرف في معرفة ولا نكرة؟.

قيل: أنّ الفصل بينهما، إنّ ما كان فيه الهاء فإنما لحقته، وبناءه بناء المذكر، نحو قولك: (جالس)، كما تقول (جالسة)، و(قائم) ثم تقول (قائمة)، فإنّما تخرج إلى التأنيث من التذكير والإصل التذكير.

وما كانت فيه الألف فإنما هو موضوع للتأنيث، على غير تذكير خرج منه، فامتنع من الصرف في الموضعين لبعده عن الإصل.

ألا ترى أن حمراء على غير بناء أحمر، وكذلك عطشى على غير بناء عطشان^(١).

وما فيه الفا التأنيث نحو ذكرى وصحراء، أقل مما فيه التاء نحو مدرسة وكريمة، ولذا كان المختوم بألف التأنيث ممنوعاً من الصرف، بخلاف ما فيه تاء التأنيث، فإنه لا يمنع من الصرف إلا أن يكون علماً.

وصيغتا منتهى الجموع قليلتان كذلك، لا نظير لهما في المفرد، نحو قبائل وطواحين وضابط هاتين الصيغتين أنه كل جمع أوله مفتوح وثالثه ألف بعدها حرفان أو ثلاثة بينها أوسطها ساكن، وسميت هاتان الصيغتان منتهى الجموع، لأنهما تنتهي عندهما جموع التكسير، فإنه إذا جمع الاسم على هاتين الصيغتين أمتنع جمعه مرة أخرى، وذلك أن الاسم يجمع ثم قد يجمع هذا الجمع مرة أخرى، فإن كان على صيغة منتهى الجمع أستقر على ذلك، نحو كلب وأكلب، فإن جمعت (أكلباً) قلت (أكلاب) فهذا جمع الجمع، وهو على صيغة منتهى الجموع، فلا يجمع بعدُ جمع تكسير.

جاء في (الأصول) في هذا الجمع «وهو الذي ينتهي إليه الجموع، ولا يجوز أن يجمع وإنما منع الصرف لأنه جمع جمع لأجمع بعده، ألا ترى أن أكلباً جمع كلب، فإن جمعت (أكلباً) قلت (أكلاب) فهذا قد جمع مرتين... فإن أدخلت الهاء على هذا الجمع أنصرف، وذلك نحو (صياقلة)، لأن الهاء قد شبهته بالواحد فصار كمداثني لما نسبت إلى (مداثن) أنصرف، وكان قبل التسمية^(٢) لا ينصرف^(٣).

وقالوا أن هذا الجمع لا نظير له في الآحاد^(٤)، فليس في الآحاد نظير (مفاعل) و(مفاعيل)، إلا ما ندر، مثل حضاجر، وسراويل، وقيل هما جمع مما يدل على قلة هذا الوزن.

(١) «المقتضب» (٣/٣١٩-٣٢٠) وانظر «الأصول» (٢/٨٤).

(٢) كذا في المطبوع ولعله (النسبة) وهو المناسب.

(٣) «الأصول» (٢/٩٢).

(٤) «كتاب سيويه» (٢/١٥-١٦).

وقد تقول أن (أفعلاً) و(أفعالا) لا نظير لهما في الواحد أيضاً، وهما منصرفان فليس مثل أكلب، وأنفس، وأقلام، وإجمال في الواحد.

وقد رد النحاة على ذلك بما يأتي:

الأول جواز وصف المفرد بهذين الجمعيين، نحو برمة أعشار، ونطفة أمشاج^(١)، قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

والثاني أن هذين الجمعيين أعني (أفعالا) و(أفعلاً) قد يجمعان جمعاً ثانياً، فهما نظير المفرد في قبولهما الجمع، وذلك نحو أقوال، وأقاويل، وأعراب وأعاريب، وأيد وأيادٍ «فهذه الأحرف تخرج إلى مثال مفاعل، ومفاعيل إذا كسر للجمع، وأما مفاعل ومفاعيل فلا يكسر، فيخرج الجمع إلى بناء غير هذا، لأن هذا البناء هو الغاية، فلما ضارعت الواحد صرفت»^(٢).

وقال السيرافي: «إذا قيل: إذا كانت تمنع الصرف في الجمع الذي لا نظير له في الواحد، فينبغي ألا تصرف (أكلبا)، قيل: لم يرد سيبويه ما ذهب إليه المعترض وأتما أراد على مثال لا يجمع جمعاً ثانياً، فإن ما على مثال يتأتي فيه جمع ثان، فهو بمنزلة الواحد»^(٣).

الثالث أنهما يصغران على لفظهما كالأحاد، نحو اكلب، وانيعام، تصغير أكلب وانيعام، بخلاف (مفاعل) و(مفاعيل) فإنهما يُردّان إلى المفرد ثم يصغران، وذلك نحو مساجد فإن تصغيرها مسيجدات، ومصاييح فإن تصغيرها (مصبيحات)، فعومل (أفعل) و(أفعال) كالمفرد.

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٤٢/١) وانظر «كتاب سيبويه» (١٧/٢).

(٢) «كتاب سيبويه» (١٦-١٧/٢).

(٣) «شرح السيرافي» بهامش الكتاب (٧/١).

الرابع أنّ كلا من (أفعال) و(أفعل) له نظير في الأحاد، يوازنه في الهيئة وعدد الحروف ف (أفعال) نظيره (تفعال) نحو تجوال وتطواف، و(فَعْلال) نحو صلصال وثرثار، و(أفعل) نظيره تنقل ومكرم^(١).

فدلّ ذلك على قلة هذا الجمع، فأمتنع من الصرف، ألا ترى أنه إذا الحقّت به التاء صرف نحو صياقلة وصيارفة، وذلك لأن هذا الوزن له نظير في الأحاد، نحو طواعية وكراهية بخلاف ما ليس فيه التاء؟.

فخلاصة ما ذهب اليه النحاة أن الممنوع من الصرف ثقل بخلاف المنصرف، وليس أثقل متأبياً عن كثرة في حروف الإسم، ولا عن ثقل في النطق، فقد يكون الإسم قليل الحروف، وهو ممنوع من الصرف، وقد يكون على أطول الابنية فينصرف، ألا ترى أنك تصرف نحو مستعصم واستبسال علمين ولا تصرف (سقر)؟.

بل ربما كانت الزيادة في الحروف سبباً من أسباب الصرف، فأنت تمنع (صيارف) فإنّ زدت عليها التاء فقلت (صيارفة) صرفته، وتمنع (ينبع) علماً، فإن زدت عليه حرفاً فقلت (ينبوع) صرفته.

وقد يكون الإسم ثقل النطق فتصرفه وقد يكون خفيفاً فلا تصرفه، فأنت تصرف (استشزاراً)، ولا تصرف (عمر) مع أن عمر أخف كثيراً من (استشزار).

وكذلك كونه على بناء معين لا يستدعي المنع من الصرف دائماً، فأنت تصرف (أفعل) مرة وتمنعه من الصرف مرة أخرى، وتصرف (فعلان) مرة وتمنعه من الصرف مرة أخرى فأنت تصرف (أرملا) ولا تصرف (أكبر)، مع أنهما وصفان على وزن واحد، وتصرف (ندماناً) ولا تصرف (عطشان) وهما وصفان على وزن واحد.

بل الكلمة الواحدة تصرفها مرة وتمنعها الصرف مرة أخرى، فأنت تصرف (راجحة) وصفاً، وتمنعها الصرف علماً، وتصرف (صباحاً) علماً لمذكر وتمنعها الصرف علماً

(١) «الآشموني» (٢٤٤/٣) وانظر حاشية على «شرح ابن عقيل» (٩٧/٢).

لأنّ، فدلّ على أن المقصود بالثقل هو أوصاف معينة، وشروط خاصة، متى كان قسم منها في الاسم عدّ ثقيلاً بسببه، فحرم التنوين.

رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى:

وقد ذهب الأستاذ إبراهيم مصطفى مذهباً آخر، هو أن التنوين علامة للتذكير فالإسماء التي تنون فيها جانب من التذكير والتي تحرم التنوين معارف.

إنّ النحاة قسموا التنوين على أقسام معلومة أشهرها:

تنوين التمكين الذي هو دليل الخفة وهو اللاحق للإسماء المعربة المنصرفة مثل تنوين محمد ورجل ورام.

تنوين التذكير وهو اللاحق لقسم من الأسماء المبنية، فرقاً بين معرفتها ونكرتها نحو صبي وسبيوه.

تنوين المقابلة وهو اللاحق لجمع المؤنث السالم نحو مسلمات.

تنوين العوض وهو اللاحق لكل وبعض وأيّ واذ.

غير أن الأستاذ إبراهيم مصطفى ذهب إلى أن التنوين علامة على التذكير مطلقاً، ولم يفرق بين أنواع التنوين قال: «ومعنى التنوين غير خفي فهو علامة التذكير»^(١).

ومن هنا كان منطلق الأستاذ في تفسير الإسماء المنصرفة والممنوعة من الصرف، فما لحقه التنوين كان له نصيب من التذكير، علماً كان، أو صفة، أو غيرهما. واليك رأيه في ذلك.

العلم:

ذهب الأستاذ إبراهيم إلى أن العلم حقه أن لا ينون «كما ينون غيره من المعارف، ولا يدخله علم التذكير، حتى يكون فيه نصب من معنى التذكير»^(٢)، وقال: «إن الأصل في

(١) «أحياء النحو» (١٦٥).

(٢) «المصدر السابق» (١٨٩).

العلم الا ينون إلا أن يدخله شيء من التنكير^(١)، وقال أيضاً: «وتمام هذه الأدلة أن العلم إذا عين تمام التعيين وأمتنع أن يكون فيه معنى العموم، لم يجز أن يدخله التنوين وذلك حين يردف بكلمة (ابن) وينسب إلى أبيه مثل: علي بن أبي طالب... وقد آن أن نقرر القاعدة التي نراها في تنوين العلم، وإن نقررها على غير ما وضع جمهور النحاة، بل على عكس ما وضعوا وهي:

الأصل في العلم ألا ينون، ولك في كل علم ألا تنونه، وإنما يجوز أن تلحقه التنوين، إذا كان فيه معنى من التنكير، وارتدت الإشارة إليه^(٢).

وفيما قاله الأستاذ نظر:

فنحن نرى الاسم معيناً تمام التعيين، وليس فيه حظ من التنكير، ثم يكون منصرفاً ونرى اسماً آخر ليس فيه ذلك التعيين، ويكون ممنوعاً من الصرف، فمثلاً (محمد) الذي هو رسول الله معين تمام التعيين، ومع ذلك هو منصرف، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] في حين نرى علم الجنس الذي يدل على العموم، قد يكون ممنوعاً من الصرف نحو (أسامة) علماً على الأسد.

ونحن نرى في الآية الواحدة جملة أعلام بعضها منصرف، وبعضها ممنوع من الصرف وذلك نحو قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣]. فهل يصح أن يقال إن بعضهم منكّر وبعضهم معرف؟.

هل يصح أن يقال أن (نوحاً) نكرة، لا يراد به واحد معين، و(إبراهيم) و(إسماعيل) معرفتان؟

(١) «المصدر السابق» (١٨٩).

(٢) «المصدر السابق» (١٧٩).

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَينِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فهل (ثمود) معرفة بخلاف (عاد).

ومن أسماء الصدر الأول على سبيل المثال، محمد، وعمر، وعثمان، وعلي، فمحمد وعلي منصرفان، وعمر وعثمان ممنوعان من الصرف، فهل معنى ذلك أن محمداً وعلياً نكرتان بخلاف عمر وعثمان؟ وهل يمكن أن يقال أن محمداً أو علياً غير معين بخلاف عمر وعثمان؟

ثم أنه ورد من أسماء الرسول ﷺ في القرآن الكريم محمد، وأحمد ف (محمد) منصرف و(أحمد) ممنوع من الصرف، كما هو معلوم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ رَسُولِي أَيُّ مِنْ بَعْدِي آتَمُهُ أَخَذْتُ﴾ [الصف: ٦] فهل (محمد) نكرة، و(أحمد) معرفة، وهما علمان لشخص واحد و(محمد) أشهر من (أحمد)؟

ثم لنتظر في أسماء البقاع، نلاحظ خلاف ماقرره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] بتثوين (بدر)، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] فهل مكان بدر نكرة لا يراد به التعيين؟ وقل مثل ذلك عن (حنين).

جاء في كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة): «إن معاني الإعلام المصروفة مثل معاني الإعلام غير المصروفة، فالاعلام المنونة في القرآن كنوح ولوط مثلاً ليس المراد منها نوحاً من نوحين، ولوطاً من لوطين، وإنما المراد منها الذات المعينة ببقية أعلام الأنبياء التي لم تنون ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرَبْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

هذه آيات من كتاب الله الكريم، جمعت أعلاماً لطائفة من أنبياء الله، بعضها منون وبعضها غير منون، ولا يشك ناظر فيها أنها في درجة واحدة من التعريف، سواء منها مانون ومالم ينون.

ولا يشك أحد أنه لم يقصد بما نون كنوح ولوط التنكير، وأنه قصد بما لم ينون كإسحاق وإبراهيم التعريف...

وإذا جارينا المؤلف على دعواه أنّ الإعلام التي ترك تنوينها قصد منها التنكير، لم تكن الإعلام التي وردت في القرآن منونة دالة على ذوات معروفة للسامعين، بل كان المراد منها واحداً من أمة له هذا الاسم، وهذا له خطره في فهم القرآن الكريم، وكفى بهذا القول خطأً أنه يؤدي إلى أن يكون المراد من (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) واحداً غير معين لا يعرفه السامعون، وإنما هو واحد من أمة له هذا الاسم^(١).

أما ما ادعاه من أنه إذا عين العلم «تمام التعيين وأمتنع أن يكون فيه معنى العموم، لم يجز أن يدخله التنوين، وذلك حين يردف بكلمة ابن وينسب إلى أبيه مثل علي بن أبي طالب» فهذا مردود بأنه لا يتعين العلم تمام التعيين، إذا ذكر الأب، بل يحتمل أن يكون فيه معنى العموم، وذلك نحو قاسم بن محمد، وعلي بن حسين، وحسين بن علي، ومحمد بن محمد، فكثير من الناس يحملون هذه التسميات قديماً وحديثاً.

ويرده أيضاً أنك قد تأتي بصفة تعين ذلك العلم بعد أن كان يحتمل عدة أشخاص، فتوقعها بعده فيلزم تنوينه، ولو كان كما قال لتعين ذهاب تنوينه، مثل (أقبل سعيد الكاتب ابن علي) أو (أقبل سعيد القصير بن خالد) فيلزم تنوين (سعيد) ولو قلت (أقبل سعيد بن علي) للزم حذف تنوينه، ولا شك أن الجملة الأولى أدلّ على التعيين، فدلّ ذلك على أنه ليس كما ذهب إليه.

أما حذف التنوين في نحو ما ذكر فللفرق بين الوصف وغيره، فإنك إذا قلت (محمد ابن سعيد) بتنوين (محمد) كنت أخبرت عن (محمد) بأنه ابن سعيد، وذلك إذا كان المخاطب يجهل أباه، بخلاف ما إذا قلت (محمد بن سعيد) بغير تنوين فإن السامع يعلم أنه ابن سعيد، فالأولى جملة تامة بخلاف الثانية، فإنها ليست جملة، يقال: ابن من سعيد؟ فنقول (سعيد ابن إبراهيم) بتنوين (سعيد)، ولا نقول (سعيد بن إبراهيم) بحذف التنوين لأن حذف التنوين معناه أن السامع يعلم أنه ابن إبراهيم، ولا يكون الكلام تاماً أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] بتنوين (عزير) فليس المعنى أن (عزيراً) نكرة، ولا هو غير معين تمام التعيين، بل أراد أن يخبر عن أبيه في معتقدهم بخلاف ما لو قال (عزير بن الله) بلا تنوين، أذن لكان أقراراً من الله بأنه ابنه تعالى الله عن ذلك، ويكون الكلام غير تام أيضاً، بل ينتظر الخبر، فإن قولك (محمد ابن سعيد) مبتدأ وخبر وأما (محمد بن سعيد) بلا تنوين، فمحمد مبتدأ و(ابن) صفة، وليس في الجملة خبر فيكون الكلام غير تام.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، إنّ قسماً من الباحثين المحدثين رجحوا أن التنوين ربما كان في الأصل علامة للتعريف - على عكس ما ذهب إليه - وبقيت هذه العلامة في قسم من الإعلام تشير الى أصلها القديم، جاء في (التطور النحوي): «وحقيقة الأمر أن التنوين وإن كان علامة على التذكير في كل ما بقي من مستندات اللغة العربية، فربما كان في الأصل علامة للتعريف، فقد ذكرنا أن أصل التنوين هو التمييز، وأنا نرى للتمييز آثاراً من معنى التعريف في الاكديّة العتيقة... أنه من الممكن أن يكون التنوين قد كان في الأصل اداة للتعريف، ثم ضعف معناه المعرف فقام مقامه الالف واللام، فصار علامة للتذكير، فإذا كان الامر كذلك فهمنا سبب وجود التنوين في كثير من الإعلام القديمة نحو عمرو وزيد، ونفهم أيضاً سبب انعدامه في بعضها، نحو عمر، وطلحة، وهند فإن العلم معرف في نفسه لا يحتاج الى علامة للتعريف، وأن أمكن أن تلحق به... ولو كان التنوين علامة للتذكير في الاصل لكان الحاقه ببعض الأعلام صعب الفهم جداً»^(١).

(١) «التطور النحوي» (٧٧-٧٨).

وهذا الترجيح له ما يدعمه، فاللغة السبئية واللهجات العربية الجنوبية، كانت تستعمل النون للتعريف، وتضعها في آخر الكلمة المراد تعريفها^(١).

وهذا يرد ما ذهب إليه الأستاذ إبراهيم.

وقد حاول توجيه الأمر توجيهاً ثانياً، هو أن ما ينون قد يلحق فيه الوصف قال: «وجه آخر أكد عندنا منه وهو أنّ العلم كثيراً ما يلحق فيه الوصف، فإذا أستعملت العلم ترمي إلى الدلالة على هذه الصفة، فقد جنحت به إلى استعمال الصفات تنكرها مرة بالتثنية، وتعرفها أخرى بأل فتقول: فضل والفضل وزيد والزيد»^(٢).

وهذا مردود، إذ من المعلوم أن لمح الأصل غير قياس، فلا يصح أن ندخل (ال) الدالة على لمح الأصل على جميع الإعلام المنقولة فلا يصح أن نقول المحمد والعلي، وإنما يقتصر على ما ورد.

ومن ناحية أخرى لم يقل أحد أن لك أن تنون الممنوع من الصرف، لمحا للوصف، فلو سميت رجلاً بـ (غضبان)، لم يصح أن تقول (أقبل غضباناً) بالتثنية لمحا لصفة الغضب، ولا (أقبلت عائشة) بتثنية عائشة، لمحا لوصف العيش.

الصفات:

ورأيه في الصفات الممنوعة من الصرف لا يختلف عن الاعلام، فقد ذهب إلى أن الصفة الممنوعة من الصرف معرفة قال: «والشطر الثاني أن الصفة تنون ولا تحرم من التثنية، إلا إذا كان فيها نصيب من التعريف»^(٣)، ف (اسمر) في قولك (مررت برجل اسمر) معرفة على رأيه.

(١) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧٣/٧).

(٢) «إحياء النحو» (١٧٧) ومعلوم أن هذين العلمين ليسا وصفين بل هما مصدران فلو أستعمل تعبير (لمح الأصل) بدل (لمح الوصف) لكان أجود.

(٣) «أحياء النحو» (١٨٩).

وهذا باطل من وجوه:

منها أنها توصف بها النكرة، كما في المثال ونحو (مررت أفضل منك)، ومنها أنها يصح تعريفها فتقول (مررت بالرجل الإسمري)، و(مررت بالطالب الأفضل)، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] فعرفها وصرفها، ولو كانت معرفة لم يصح تعريفها.

ثم ما الفرق بين (حَمِق) و(أَحْمَق)، حتى تكون (حَمِق) نكرة في قولنا (هو حمق) و(أَحْمَق) معرفة في قولنا (هو أَحْمَق)؟، ومثله عَم وأَعْمَى وجَرِبَ وأَجْرِبَ، وغَضِبَ وغَضِبَان.

وعند النحاة أن سبب منع (أفعل) من الصرف، أنها وصف على وزن الفعل مما لا يؤنث بالتاء، ويؤيده انه إذا زال وزن الفعل صرف مع بقاء المعنى على ما هو عليه نحو خير وشر جاء في (الأصول): «وافعل منك لا ينصرف، نحو أفضل منك، وأظرف منك لانه على وزن الفعل، وهو صفة فإن زال وزن الفعل انصرف، ألا ترى أن العرب تقول: (هو خيرٌ منك وشر منك) لما زال بناء (أفعل) صرفوه؟»^(١).

وجاء في كتاب (النحو والنحاة): «أن التعليل الاول ينقضه أن قولنا زيد خير من عمرو وبكر شر من خالد في معنى زيد أخير من عمرو، وبكر أشد من خالد، وخير وشر منونتان وأخير وأشتر ليستا منونتين فلو كان عدم التنوين للتعريف والتنوين للتنكير، لكان خير وأخير وشر وأشر، أما منونات، وأما غير منونات، لأن المعنى واحد، ولا اختلاف إلا باللفظ»^(٢).

وقد ذهب في الصفة المزیدة ألفاً ونوناً مذهباً غريباً قال: «أما زيادة الألف والنون فقد أشتراط في منعها من الصرف شروط منها: أن تكون في زنة (فعلان) مذكر (فعلى)،

(١) «الأصول» (٨٣/٢).

(٢) «النحو والنحاة» (٢٢٥).

والأ يـكون مؤنثها على (فعلانة)، وبعض العرب، وهو بنو أسد يجيزون أن يكون لكل (فعلان) مؤنث على (فعلانة) فهي على هذا جائزة التنوين أبداً، وانما يحذف تنوينها أحياناً وعلى قلة رعاية لزيادة الألف والنون^(١).

وهذا قلب للقاعدة فإنه قال «فهي على هذا جائزة التنوين ابداً وانما يحذف تنوينها أحياناً وعلى قلة» فجعل كلام بني أسد أو بعض بني أسد هو القاعدة العامة وجعل كلام سائر العرب قليلاً في حين أن كلام سائر العرب عدم الصرف وبه ورد التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ [طه: ٨٦] وقال ﴿كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ [الانعام: ٧١] فمنع صرف غضبان وحيران.

التأنيث:

وقد ذهب في المختوم بالفـي التأنيث مذهباً مغايراً لما قرره، فقد ذهب إلى أنه المختوم بألف التأنيث المقصودة، إنما حرم التنوين لأن التنوين يستدعي حذف ألفه، ولذا منع من الصرف قال: «أما الف التأنيث المقصودة فالتنوين يستدعي حذفها، وقد أت لغرض يهتم به العرب ويعنون به فوق عنايتهم بالتعريف والتذكير وهو التأنيث...»

فهذا واضح في الألف المقصودة، والألف الممدودة، هي من المقصورة فاستصـبـحت حكمها^(٢).

فإنه لما لم يستطع أن يقول أن نحو ذكرى، وجرحى، وعلماء، معارف ذهب هذا المذهب، فإن التأنيث على حد قوله مهم، وهو أهم من التعريف والتذكير، فإذا لحق التنوين ما فيه الف التأنيث المقصورة حذفت الفه، ولذا حرم التنوين كي ينطق بالالف، وهذا مردود من وجوه منها:

(١) «إحياء النحو» (١٨٧-١٨٨).

(٢) «إحياء النحو» (١٨٩-١٩١).

١- أنه لماذا لا يخشى حذف الألف من بقية الإسماء المقصورة نحو هدى وفتى ومصطفى، وهذه الحروف هي أصول بخلاف ألف التأنيث التي هي زائدة؟.

٢- أن كثيراً من الأسماء المقصورة إذا حذفت الفها التبتت بالفاظ أخرى صحيحة، ولم يمنعهم ذلك من الحذف وذلك نحو مرسى ومرسأ، ومجرى ومجرأ، ومهدى ومهدأ.

٣- أن اللبس لا يحصل دوماً بالتثنية، فقد تكون الكلمة مفهومة مع تثنيها، شأن كثير من الإسماء المقصورة فإذا قلت حبلى ودينياً بقي المعنى مفهوماً، وقد وردت كلمة (دنيا) منونة وبقيت معلومة مفهومة، قال الشاعر:

إني مقتسم ما ملكت فجاعل جزءاً لآخرتي ودنياً تنفع
فسقوط ألف دنيا بالتثنية لم يلبس المعنى.

٤- أن ألف اللاحق إنما الحقت لغرض أيضاً، ومع ذلك هي تنون ولم يخشوا على الفها السقوط نحو دفلى ومعزى وارطى.

٥- ثم أن التثنية لا يسقط علامة التأنيث في الممدود، فلماذا حرموها الصرف نحو بطحاء وصحراء؟

قال لأنّ الألف الممدودة من المقصورة، وهذا مردود إذ التثنية إنما دخل لإداء معنى كما ذكر، فلماذا أهدروا هذا المعنى بلا موجب؟

والحق أنه لما لم يستطع أن يجد تعليلاً آخر يقوم على التعريف والتنكير، اضطر إلى هذا التعليل الذي لا يقوم على أساس المعنى.

ونحن بالمقابل نستطيع أن نقول أن التثنية قد يفوق التأنيث أهمية، على خلاف ما ذهب إليه، وذلك أنّ التأنيث قد يكون بغير علامة، نحو عين، وساق، وذراع، وكأس، وسماء وشمس، وأرض، وجهنم، وإنما يعرف ذلك من استعمال العرب لها، وقد يغلط الناس في ذلك فيخلطون بين المذكر والمؤنث، لأنه لا علامة فاصلة بينهما.

ثم أنّ ما فيه علامة التأنيث ليس مؤنثاً دائماً، بل قد يكون مذكراً، وذلك نحو حمامة ذكر، وبطة ذكر، وكصيغ المبالغة نحو علامة وراوية، والجمع نحو صياقلة، وصيارفة، أو علماً لمذكر مثل طلحة وحمزة.

وكذلك ما فيه ألف التأنيث، نحو أسرى، وجرحى، وحمقى، وسكاري، وعطاشى، وأنبياء، وعلماء، فلو كانوا يهتمون بالتأنيث، هذا الإهتمام الكبير لوضعوا لكل مؤنث علامة، حتى لا يغلط الناس فيه، ولكان ما فيه علامة التأنيث مؤنثاً دائماً.

فدلّ ذلك على أنّ التأنيث لا يشير أهتمامهم كثيراً بخلاف التنوين، الذي الزموه كل أسم متمكن، فدلّ ذلك على أنّ أهتمامهم بالتنوين أكبر من أهتمامهم بالتأنيث، وهذا فقط من قبيل الحجاج، وليس من قبيل الحقائق اللغوية.

منتهى الجموع:

وذهب إلى أنّ عدم صرف منتهى الجموع سببه تعريف هذا الجمع، فسنا بل وطواحين معرفة على رأيه، قال: «وإنما حذف التنوين منه- يعني منتهى الجموع- عندنا لما فيه من معنى التعريف، وقد بينا من قبل أن العرب تريد بالمنكر الفرد الشائع، والواحد من المتعدد، فإذا قصدت إلى الإحاطة والشمول جعلته من مواضع التعريف، وهذا واضح في الجمع، إذا أريد به الإستغراق، وشمول جميع الأفراد، والنحاة يقولون أن هذه صيغة منتهى الجموع، ففيها معنى الإستغراق وتمام الإحاطة.

والذي نرى هنا أنه إذا قصد بالجمع الإستغراق، والدلالة على الإحاطة منع التنوين لما فيه من معنى التعريف، على طبيعة العربية ومجراها في التعريف والتذكير، فإذا لم يقصد إلى الإستغراق والإحاطة فالإسم منون»^(١).

وهذا باطل من وجوه منها:

١- أن ينبغي على حد قوله أن يكون كل ما يدل على الإحاطة والشمول مفرداً، أو غيره معرفة، وعليه يجب منعه من الصرف، وليس أعم من كلمة (شيء)، فهي أعم كلمة ومع ذلك هي منصرفة قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الاحقاف: ٢٥].

ومثل ذلك ألفاظ العموم، نحو أحد، وعريب، وديار، نحو (ما فيها أحد)، وكل ما يفيد العموم نحو (قوة خير من ضعف)، و(جِدُّ خير من عبث)، فهذا كله يدل على الإحاطة فينبغي أن يمنع من الصرف.

٢- ثم من قال أن صيغة منتهي الجموع تدل على الإحاطة والشمول والإستغراق؟.

أن النحاة ذكروا أن القصد بمصطلح (منتهي الجموع) أنه نهاية جمع التكسير، فلا يكسر هذا الجمع مرة أخرى، وأنه جمع لا نظير له في الواحد، كما ذكرنا، ولم يقل أحد إن المقصود به الإحاطة، يدل على ذلك جعله تمييزاً لأدنى العدد، قال تعالى ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقال ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وتقول (ثلاثة مساجد) فكيف يكون دالاً على الإحاطة والشمول؟.

٣- ويرد ذلك استعمال العرب والتزليل العزيز، قال تعالى ﴿يَسِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِينَ﴾ [سبأ: ١٨] فمنع صرف الليالي وصرف الأيام، فهل أراد أستغراق الليالي دون الأيام؟.

وقال: ﴿هَلُمَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: ٤٠] فمنع صرف الصوامع والمساجد وصرف البيع، فهل أراد أستغراق الصوامع والمساجد دون الصلوات والبيع؟ ثم من يقول أنه أراد هدم جميع المساجد والصوامع، على سبيل الإستغراق؟.

وقال: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فصرف الشعوب دون القبائل، فهل أراد أستغراق القبائل دون الشعوب؟.

٤- ثم هي توصف بالنكرة، تقول (رأيت مساجد عامرة بالمسلمين) وتقول (قاسيت ليالي مرة) قال تعالى ﴿وَمَسْكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] فلو كانت معرفة لم يصح وصفها بالنكرة.

٥- ثم لو كانت صيغة منتهى الجموع معرفة، لم يصح تعريفها في حين أنه يصح تعريفها بإجماع، فتقول المساجد والسنابل والليالي، قال تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال ﴿وَلَا أَلْهَدَى وَلَا أَلْقَيْدَ﴾ [المائدة: ٢].
فدل ذلك على بطلان ما ذهب إليه.

الغرض من التنوين:

في العربية أسماء منونة، وأسماء لا تنون، ذكر النحاة ضوابطها، وقد عرفنا أن النحاة ذهبوا إلى أن التنوين علامة الخفة، وذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن التنوين علامة على التنكير، وأن الإسماء التي لا تنون معارف.

ومن الواضح أننا إذا قلنا أن التنوين علامة على التنكير باطراد، اصطدنا بالاعلام المنونة مثل محمد وخالد، وإذا قلنا أن عدم التنوين علامة على التعريف اصطدنا بنكرات كثيرة لا تقبل التنوين، نحو أحمر، وعطشان، ومساجد.

ولكن الحق الذي لا مرية فيه، أن التنوين في طائفة من الأسماء وعدمه في طائفة أخرى يهدينا إلى أمور لغوية قد تغيب عنا، لولا هذه العلامة، فهو قد يدلنا مثلاً على هوية الكلمة واشتقاقها، ومعرفة هي أم نكرة، فهو علامة يحملها الإسم، تدل على أصله وهويته، سواء قلنا أنه علامة على الخفة، أم لا.

فالتنوين يبين لنا أموراً عديدة في طبيعة الكلمة، منها على سبيل المثال:

١- أنه يميز بين المعرفة والنكرة، فإنه إذا لحق علماً حقه إلا ينون أفاد أنه نكرة، نحو (رأيت إسماعيلاً) والمعنى رأيت شخصاً ما اسمه إسماعيل، بخلاف قولك (رأيت إسماعيل) فإنه يعني شخصاً معلوماً، ومثله (مررت بخالدة وخالدة أخرى)

وتقول (رأيت أحمداً طويلاً) قال تعالى ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] أي بلدة من البلدان ولو قال (مصر) بلا تنوين، لكان يعني البلد المعروف، قال تعالى ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] جاء في (المقتضب)، «ويحتجون بأن مصر غير مصروفة في القرآن لأن أسمها مذكر عنيت به البلدة، وذلك قوله عز وجل ﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] فأما قوله عز وجل ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فليس بحجة عليه، لأنه مصر من الامصار وليس مصر بعينها»^(١).

ومثل ذلك (سحر) و(غدوة) و(بكرة) و(عشية) فهي إذا نونت كانت نكرات، قال تعالى ﴿بَجَّعْنَاهُمْ سِحْرَ﴾ [القمر: ٣٤] وقال ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشْيًا﴾ [مريم: ٦٢] وإذا لم تنون فهي معارف، أي سحر يوم معين، وغدوة يوم بعينه، وبكرة يوم بعينه.

٢- يبين لنا أصل الكلمة، وذلك نحو حسان، وريان، وسمان، وغيان، فإنه إذا نون العلم أفاد أن النون من أصل الكلمة وإن لم ينون أفاد أنها زائدة، فحسان إذا نون كان من الحسن وإن لم ينون فهو من الحس، وريان منوناً من الرين، وغير منون من الري، وهكذا الباقي.

ومثل (نهشل) علماً فهو إذا نون علينا أن النون أصلية وأنه على وزن فعلل، كجعفر وليس من الهشل، وإذا لم ينون فهو من الهشل، والنون زائدة، وسبب منعه من الصرف أنه على وزن الفعل، مثل نعمل والمعنيان مختلفان.

ومثله (تولب) علماً فإنه بوروده منوناً علمنا أن التاء أصلية، وليست زائدة، ومعناه الجحش وليس من (ولب) بمعنى (دخل)، إذ لو كان كذلك لكان ممنوعاً من الصرف.

ومثله (اولق) فإنه بوروده منوناً، علمنا أن همزته أصلية، وليس من (ولق)، ولو كان كذلك لكان ممنوعاً من الصرف، والمعنيان مختلفان وهكذا.

(١) «المقتضب» (٣/ ٣٥١-٣٥٢) وانظر معاني القرآن للفراء (١/ ٤٢).

٣- يبين لنا المقصود بالاسم، أهو معناه الوضعي أم يراد به العلمية، وذلك نحو صفوان وسلطان، فإنه إذا نون أريد به معناه الوضعي، فصفوان هو الحجر الأملس، والسلطان معروف، وإذا لم ينون أريد به العلمية، فإذا قلت (هذا صفوان) ولم تنون، كان المعنى هذا رجل أسمه صفوان، وإذا نونت كان المعنى، هذا حجر.

ونحو ذلك المنتهي بقاء التانيث، نحو ساهرة، وخالدة، وناجحة، وزهرة، فإذا نونت لم تكن أعلاماً، نحو هذه زهرةٌ وناجحةٌ، وأن لم تنونها كانت اعلاماً، نحو (هذه زهرةٌ)، ومثله (هذه ناجحةٌ)، فأنك إذا نونتها كان المعنى أنها نجحت، وإن لم تنونها كان المعنى أن أسماها ناجحة.

٤- يميز لنا بين الوصف وغيره، نحو (أول) فإن نونتها لم تكن وصفاً، نحو (أفعل هذا أولاً) وإذا لم تنون كانت وصفاً نحو جئت عام أول، ونحو أولق.

٥- يدلنا على هوية الكلمة فقد تكون الكلمة ذات مادة اشتقاقية ذات معنى معين في العربية، وهي موافقة لكلمة أعجمية في لفظها، والذي يقطع بأصلها ومعناها في الإستعمال التنوين، وذلك نحو (إبليس) فإن له مادة لغوية في العربية، وهي إبليس أي يش قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] ويوروده غير منون في القرآن الكريم، عرفنا أنه ليس عربياً وأنه ليس من هذه المادة اللغوية، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ﴾ [سبا: ٢٠] وقال ﴿إِلَّا أَبْلِسَ﴾ [البقرة: ٢٤] ومثله (يعقوب) فإن معنى (يعقوب) في العربية ذكر الحجل، وهو منصرف علماً، وغير علم، مثل يعفور ويحمور وينبوع، وقد ورد علماً غير منصرف في القرآن الكريم وغيره، فدل ذلك أنه ليس منقولاً عن هذا المعنى، وإنما هو أعجمي.

ومثله (قارون) فإنه إذا كان منصرفاً، فهو على وزن (فاعول)، من قرن وإذا كان غير منصرف فهو أعجمي.

٦- يبين لنا الكلمة أمثلة هي أم مذكرة، فإذا قلت- مثلاً- (أقبل اليوم صباحاً) بلا تنوين، كان علماً لأنثى وإذا نونتها كان مذكراً.

٧- النص على معنى معين، وذلك نحو (ندمان) فهي بالتنوين من المندامة، ومؤنثها ندمانة، وبالمنع من الصرف هي من الندم ومؤنثها ندمى، ونحو (خَبْلَان) فهي بالتنوين الممثلة غصباً، ومؤنثها خبلانة، وبعده الممثلة من الشراب، ومؤنثها (حَبْلَى) بفتح الحاء.

٨- يميز لنا بين المعاني المختلفة في المادة اللغوية، الواحدة وذلك نحو (ذَكَرًا) و(ذَكَرَى) و(رَيًّا) و(رَيًّا) و(قَرَبًا) و(قَرَبَى) و(حَرًّا) و(حَرَّى) مؤنث (حَرَّان) و(موتًا) و(موتَى) و(أَسْرًا) و(أَسْرَى).

فإنها لو كانت جميعها منونة لالتبس بعضها ببعض، وكذلك لو لم تكن منونة، غير أنه بتنوين بعضها، وترك تنوين بعضها الآخر اتضح معنى كل منها.
إلى غير ذلك من المعاني التي يبينها لنا التنوين.

الفعل

يقسم جمهور النحاة الفعل على ثلاثة أقسام: الفعل الماضي، والمضارع، والامر.

الفعل الماضي

أزمنته:

يستعمل الفعل الماضي للدلالة على أزمنة متعددة، أشهرها:

١- الماضي المطلق: وهو الزمن الذي مضى قبل زمن التكلم، قريباً كان أو بعيداً، وهو ما كان على (فَعَلَ)، فمن القريب قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْأُنْثَى﴾ [النساء: ١٨] وقوله: ﴿الْأُنْثَى جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] ونحو قولك (استيقظ الطفل).

ومن البعيد، قوله تعالى ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

إن هذا الفعل يصلح لجميع الأزمنة، فإذا قلت (حضر أخوك) أحتمل أن يكون الحضور قريباً أو بعيداً، وليس مختصاً بزمن معين، جاء في (شرح ابن يعيش): «وذلك أنك تقول (قام) فيصلح لجميع ما تقدمك من الأزمنة»^(١).

٢- الماضي المنقطع: ومعنى الانقطاع أنه حصل مرة، ولم يتكرر، وذلك إذا وقع الفعل الماضي خبراً، لكان نحو (كان كذب) أي حصل مرة منه الكذب، ونحو (كنت كتبت له في هذا الأمر) قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ١٥].

وأما الفعل الماضي المجرد من كان، فهو قد يفيد الانقطاع، نحو قوله تعالى ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] وكفوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] ونحو (مات فلان) و(ذهبت الى محمد)، ويحتمل أن يكون

(١) «شرح ابن يعيش» (١١٠/٨) وانظر (١٤٧/٨).

قد تكرر، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالًا إِلَىٰ وَصَّحْتَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣] فمن المرجح أن النصيحة قد تكررت، ومثله قوله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فقد يكون الكلام تكرر، ونحو قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩] ولا شك أن الله يفعل ذلك باستمرار، فإن إنزال الماء وإخراج النبات مستمران.

ونحو قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا عَلَىٰ آلِكُمْ الْقَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] فهذا قد تكرر أيضاً طوال بقائهم في التيه.

٣- الماضي القريب: وذلك إذا صدر بقدر نحو (قد حضر خالد) وذلك أن قولك (حضر خالد) يدل على القريب والبعيد، فإذا قلت (قد حضر خالد) أفاد القرب من الحال جاء في (شرح ابن يعيش): «(قد) حرف معناه التقريب، وذلك أنك تقول (قام زيد) فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلا أن ذلك الزمان قد يكون بعيداً، وقد يكون قريباً من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قرنته بـ (قد) فقد قربته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن: قد قامت الصلاة، أي قد حان وقتها في هذا الزمان^(١)».

ويذكر النحاة لـ (قد) الداخلة على الفعل الماضي ثلاثة معان هي: التحقيق والتوقع والتقريب.

أما التحقيق فمعناه التوكيد، ومعناه أيضاً تحقق حصول الحدث في الماضي، فإن الفعل (فعل) قد يحتمل غير الماضي، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٨] فإذا جيء بـ (قد)، تعين كونه للماضي، ولا يجوز أن يصرف إلى الإستقبال بحال من الأحوال، ولذا لا يجوز أن تلي (قد) أداة الشرط، لأن أداة الشرط، تصرف الفعل إلى الإستقبال، وذلك نحو قولك (إذ جاءك محمد فآكرمه) ومعناه إذا يجيء ولا يصح أن تقول (إذا قد جاء محمد) لأن معناه سيكون على هذا أنه

قد جاء فعلاً، ولذا لا يصح أيضاً أن يؤتي بها في الدعاء، فأنت تقول (غفر الله لك) أي تدعو له بالمغفرة، ولا تقول (قد غفر الله لك) فإن معنى (قد غفر الله لك) أن المغفرة تحققت، وانت أخبرت بحصولها، وليس المعنى أنك تدعو له بالمغفرة، جاء في (المقتضب): «تقول (أما إن غفر الله لك)، وإن شئت (أما أن) على ما فسر لك في (أما)، أنها تقع للتنبية وتقع في معنى قولك (حقاً)، فالتقدير. أما أنه، وأما أنه غفر الله لك.

فإن قلت: فكيف جاز الاضمار والحذف بغير عوض؟.

فإنما ذلك لأنك لا تصل إلى (قد) لأنك داع ولست مخبراً^(١).

ومعنى التوقع أن الحدث كان متوقفاً قبل حدوثه، نحو قولك (قد حضر الاستاذ) لقوم كانوا ينتظرون حضوره، جاء في (الكتاب): «وأما (قد) فجواب لقوله (لما يفعل) فتقول: قد فعل. وزعم الخليل أن هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر^(٢)».

وجاء في (شرح ابن يعيش): «وفيها معنى التوقع، يعني لا يقال (قد فعل)، إلا لمن ينتظر الفعل ويسأل عنه^(٣)».

وأما التقريب فهو لتقريب الحدث من الحال كما ذكرت، جاء في (شرح الرضي على الكافية): «هذا الحرف إذا دخلت على الماضي أو المضارع، فلا بد فيها من معنى التحقيق ثم أنه ينضاف في بعض المواضع إلى هذا المعنى في الماضي التقريب من الحال، مع التوقع أي يكون مصدره متوقفاً لمن يخاطبه واقعاً عن قريب، كما تقول لمن يتوقع ركوب الأمير (قد ركب) أي حصل عن قريب ما كنت تتوقعه، ومنه قول المؤذن (قد قامت الصلاة). ففيه اذن ثلاثة معان مجتمعة التحقيق، والتوقع، والتقريب، وقد يكون مع التحقيق التقريب فقط، ويجوز أن تقول (قد ركب) لمن لم يكن يتوقع ركوبه^(٤)».

(١) «المقتضب» (٩/٣).

(٢) «كتاب سيبويه» (٣٠٧/٢)، وانظر المغني (١٧٢/١).

(٣) «شرح ابن يعيش» (١٤٧/٨).

(٤) «شرح الرضي على الكافية» (٤٢٩/٢) وانظر «المغني» (١٧٢/١).

وهذه المعاني قد تجتمع وقد تفترق، فمن اجتماعها قولك (قد حضر الاستاذ) و(قد خرج الأمير) إذا كان متوقعا ذلك، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. فقوله (قد رأيتموه) أجمع فيه التحقق والتوقع والتقريب، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ إِذْ لََّهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فهم كانوا يتوقعون النصر، لأن الرسول وعدهم ذلك، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وقد يتخلف بعض هذه المعاني، غير أن المعنى الذي لا يفارقها هو التحقيق فإن التحقيق لا يفارق (قد) البتة، وأما التوقع والتقريب، فقد يتخلفان أو يتخلف أحدهما.

فمن ورود (قد) لغير التوقع قوله تعالى ﴿قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] وهو غير متوقع منها- وهو لم يقع- بدليل قولهم ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمِّي بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] وهو غير متوقع، بدليل قولهم ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْزِي سَوْءَ تَكُمُ وَرِيثًا﴾ [الأعراف: ٢٦] وهم ما كانوا يتوقعون انزاله.

ومن تخلف التقريب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وهذا ولا شك موغل في القدم، كما أنه ليس فيه معنى التوقع، لأنهم لم يكونوا يتوقعون خلق السماوات، وقد خلقت قبل أن يخلق البشر، بل فيه معنى التحقيق فقط.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] فإنه ليس فيها توقع ولا تقريب.

٤- الدلالة على حدث ماضٍ بالنسبة الى حدث ماضٍ قبله. وذلك كما إذا وقع الفعل الماضي في جملة حالية قبلها فعل ماضٍ، نحو (دخلت وقد نام الناس) فنوم الناس

قبل الدخول ونحو (فجئت وقد نضت لنوم ثيابها) والمعنى أنه سبق نزع الثياب المجيء، جاء في كتاب (الفعل زمانه وابنيته): «وتصدر (قد) بناء (فَعَلَ) لتفيد أن الحدث ماض بالنسبة لفترة ماضية نحو: ثم قمت الى الوطن وقد ضربه برد الشجر^(١)».

٥- الدلالة على الحال: «وذلك إذا قصد به الإنشاء، كبتعت، واشتريت، وغيرهما من الفاظ العقود، إذ هو عبارة عن إيقاع معنى بلفظ يقارنه في الوجود^(٢)».

إنّ ثمة فرقاً بين قولنا (بعت) الخبري، و(بعت) الإنشائي، وكذلك (أشترت) وغيرهما من ألفاظ العقود، فقولك (بعت داري) معناه أنه سبق أن بعت دارك أي حصل هذا الفعل منك في الماضي.

وأما (بعت) الإنشائي فليس معناه ذلك بل معناه إني موافق على البيع، وذلك نحو أن تتبايعاً على سلعة، فتقول له (بعتك) فيقول لك: (قبلت) فالبيع لم يتم إلاّ بقبول المشتري، وكذلك قوله (زوجتك ابنتي)، فالفرق بين الخبري والإنشائي في هذا التعبير أن الخبري معناه سبق أن حصل التزويج مني، وتم، وأما الإنشائي فمعناه الموافقة على التزويج باللفظ، وأعلانها ولم يحصل تزويج فعلاً إلاّ بقبول المزوّج، فيقول (قبلت تزويجك)، فليس معنى (زوجتك) أنها صارت زوجك، ولا سبق أن تم ذلك، وإنما هذا قول يقوله الذي يريد أن يزوج ابنته، وتتم الصفقة بالقبول بقوله: قبلت.

وفي الحقيقة أنّ هذا الفعل ليس معناه الدلالة على الحال أيضاً، فهو لا يشبه المضارع الدال على الحال، وإنما هذا تعبير خاص، فقولك (بعت) ليس كمعنى (أبيع) ولا (زوجت) كمعنى ازوّج.

فقولك (أنا أبيع سلعتي) معناه إني قائم بالبيع الآن أو سأبيعها، وأما (بعت) الإنشائي فهو لفظ يراد به إمضاء صفقة البيع، وليس معناه أنك مستمر على البيع في الحال، كما تقول: (اقرأ كتابي) و(أحفظ قصيدتي) وليس معناه الاستقبال أيضاً.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «والفرق بين (بعت) الإنشائي و(أبيع)

(١) «الفعل زمانه وابنيته» (٣٠).

(٢) «الهمع» (٩/١).

المقصود به الحال، أن قولك (أبيع) لا بد له من بيع خارج حاصل بغير هذا اللفظ، تقصد بهذا اللفظ مطابقته لذلك الخارج، فإن حصلت المطابقة المقصودة، فالكلام صدق، وإلا فهو كذب فلهذا قيل أن الخبر محتمل اللفظ من حيث دلالة عليه، والكذب محتمله، ولا دلالة للفظ عليه.

وأما (بعت) الإنشائي، فإنه لا خارج له تقصد مطابقته، بل البيع يحصل في الحال بهذا اللفظ، وهذا اللفظ موجد له فلهذا قيل إن الكلام الإنشائي لا يحتمل الصدق والكذب، وذلك لأن معنى الصدق مطابقة الكلام للخارج والكذب، عدم مطابقته فإذا لم يكن هناك خارج فكيف تكون المطابقة وعدمها^(١).

والمحققون على أن هذه الأفعال ليس لها زمان معين، بل هي مجردة عنه^(٢)، وهذا هو الحق، إذ هي أفعال إيقاعية يراد بها إمضاء الحدث وأجراؤه، ولا تدل على مضي الحدث ولا على أنه يحدث الآن.

٦- الدلالة على الاستقبال: وينصرف إلى ذلك في مواطن منها:

أ- الإنشاء المقصود به الطلب^(٣) وذلك كالدعاء له أو عليه نحو (غفر الله لك) أي ليغفر الله لك، ونحو (ناشدتك الله إلّا فعلت) و(عزمت عليك إلّا فعلت)^(٤)، و(لما فعلت) أي: أفعّل، جاء في (الكليات): «الأفعال الواقعة بعد (إلا) و(لما) ماضية في اللفظ مستقبلة في المعنى لأنك إذا قلت: (عزمت عليك لما فعلت) لم يكن قد فعل وإنما طلبت فعله وأنت تتوقعه»^(٥).

ب- الوعد أو الوعيد نحو: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] ومن ذلك

(١) شرح الرضي على الكافية (٢/٢٤٩).

(٢) «المغني» (١/٢٢٧).

(٣) «الهمع» (١/٩)، «شرح الرضي» (٢/٢٤٩).

(٤) «الهمع» (١/٩).

(٥) «الكليات» (٣٣٨).

الإخبار عن الإحداث المستقبلية مع قصد القطع بوقوعها^(١) وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿وَنَادَىٰ أَحَبُّبُ الْجَنَّةِ أَحَبَّ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

والقصد من ذلك أن هذه الأحداث متحققة الوقوع مقطوع بحصولها بمنزلة الفعل الماضي، فكما أنه لاشك في حدوث الفعل الماضي الذي تم، وحصل، كذلك لاشك في حدوث هذه الأفعال، إذ هي بمنزلة الماضي في تحقق الوقوع.

ج- دخول أداة الشرط عليه ك (إن) و(إذا) نحو ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] ﴿وَلَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ [الإسراء: ٨] وقوله ﴿فَمَنْ زُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد يبقى على مضيه قليلاً نحو ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦] ونحو (إن كنت الممت بذنب فتوبى واستغفرى الله) وسيأتي لذلك بيان في باب الشرط.

د- دخول (ما) الظرفية نحو ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] أي مدة دوامي حيا، وهذا يشمل المستقبل أيضاً، ونحو (لا أكلملك ما طلع نجم وغرب) أي يطلع ويغرب، وهذا التعبير أدل على الإستمرار.

جاء في (شرح الرضي على الكافية) أن الفعل الماضي ينقلب إلى المستقبل بدخول «ما النائة عن الظرف المضاف نحو ما ذرّ شارق وما دامت السماوات لتضمنها معنى (إن) أي أن دامت قليلاً أو كثيراً. وقد يبقى معها على الماضي كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]^(٢).

(١) «شرح الرضي» (٢/ ٢٥٠).

(٢) «شرح الرضي» (٢/ ٢٥٠).

هـ- وينصرف إلى الإستقبال أيضاً إذا كان منفياً بـ (لا) أو (إن) في جواب القسم، نحو (والله لا كلمتك أبداً) ونحو ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَٰدِيَءٍ﴾ [فاطر: ٤١] أي ما يمسكهما ونحو:

ردوا فوالله لازدناكم أبداً

و:

والله لاعذبتهم بعدها سقر

فلا يلزم تكرير (لا) هنا، كما يلزم في الماضي المعنى^(١)، فإن الفعل الماضي لا ينفي بـ (لا) إلا إذا كررت، نحو (لا ذهبت ولا رجعت) ونحو ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١]. فإن كان مستقبل المعنى لم يلزم تكرار (لا).

٧- إحتمال المضي والإستقبال وذلك في مواطن منها:

أ- بعد همزة التسوية نحو قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] ونحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] ونحو (سواء عليّ اقمتم أم قعدت) «إذ يحتمل أن يراد ما كان منك من قيام أو قعود أو ما يكون من ذلك»^(٢).

ب- بعد حرف التخصيص نحو: هلاً فعلت، وإلا ذهبت إليه، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهذا يحتمل المضي والإستقبال^(٣).

جاء في (شرح ابن يعيش): «فأما قوله تعالى ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] فقد وليه الماضي إلا أن الماضي هنا في تأويل المستقبل كما يكون بعد

(١) انظر «شرح الرضي» (٢/٢٥٠)، «الهمع» (٩/١).

(٢) «الهمع» (٩/١) وانظر «شرح الرضي» (٢/٢٥٠).

(٣) «شرح الرضي» (٢/٢٥٠)، «الهمع» (٩/١)، «شرح ابن يعيش» (٨/١٤٤).

حرف الشرط كذلك لأنه في معناه والتقدير: إن أخرتني أصدق^(١).

ج- في الأحكام نحو قوله تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فإنه يحتمل الماضي والإستقبال.

د- بعد (حيث): فالماضي نحو ﴿فَاتَّوَهَّنَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

والإستقبال نحو ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ﴾ [البقرة: ١٤٩]^(٢).

هـ- بعد (كلما): فالماضي نحو ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

والاستقبال نحو ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]^(٣).

وهذا في الحقيقة يدل على الإستمرار، ولكن قد يكون الإستمرار في الماضي. كما في الآية الأولى، ونحو قولك (كلما جئتك عاتبتني) وقد يكون في المستقبل، كما في الآية الثانية.

و- إذا وقع صلة: فالماضي نحو ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والاستقبال نحو ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]. وقد اجتمعا في قوله: إني لآتيكم بذكر ما مضى واستيجاب ما كان في غد^(٤).

ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠] فقوله تعالى (تابوا وأصلحوا وبينوا) يراد به الإستقبال لأن (يكتمون) فعل مضارع وهذا بعده، فالتوبة بعد الكتمان.

ز- إذا وقع صفة لنكرة عامة فالماضي نحو (رُبَّ رَفِدٍ هَرَقَتْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ).

(١) «شرح ابن يعيش» (١٤٤/٨).

(٢) «الهمع» (٩/١).

(٣) «الهمع» (٩/١)، وانظر «شرح الرضي» (٢/٢٥٠).

(٤) «الهمع» (٩/١).

والاستقبال كحديث (نَصَرَ الله امرأَ سمع مقالتي، فوعاها فأدّاها كما سمعها) أي يسمع لأنه ترغيب لمن أدرك حياته في حفظ ما يسمعه منه^(١).

٨- توقع الحدث في الماضي: أي أنّ الحدث كان متوقّعا حصوله في الماضي، وذلك كأن يقع الفعل المضارع المقترن بالسين خبراً لكان، نحو (كان محمد سيكتب لك في هذا الأمر) أي كان متوقّعا منه أن يكتب لك في الماضي، أو بمعنى أنه كان ينوي فعله في الماضي، جاء في (الخصائص): «كان زيد سيقوم أمس أي كان متوقّعا منه القيام فيما مضى»^(٢).

٩- الدلالة على الإستقبال في الماضي: وذلك نحو قولك (كان من الأفضل أن تخبره) و(كان من الحسن بمكان أن تدعوه) وهذا يدل على المستقبل في الماضي، وإيضاح ذلك أنك تقول (من الخير أن تخبره) و(الأولى أن تسافر) فأخباره مستقبل بالنسبة إلى الحال التي أنت فيها، والسفر مستقبل أيضاً، فإذا سبق بكان أفاد المصدر المؤول الإستقبال في الماضي.

ويوضح ذلك أنك تقول (كان من الأفضل أن أخبرته) و(كان من الحسن بمكان أن دعوته) فأخباره ودعوته ماضيان، فأتضح بذلك أن هذا التعبير يفيد الدلالة على الإستقبال في الماضي.

قال متم بن نيرة:

وفقد بني أم تفانوا فلم أكن خلافتهم أن أستكين واسرعا

فقوله (لم أكن) ماض، و(أن أستكين) استقبال، فهو نظير مامز من الأمثلة، ومن هذا الضرب نحو قولنا (أراد أن يوبخه) فـ (أراد) يفيد الماضي، و(أن يوبخه) استقبال بالنسبة إلى فعل الارادة فهو استقبال في الماضي، كما هو ظاهر.

(١) «الهمع» (٩/١)، وانظر «شرح الرضي» (٢/٢٥).

(٢) «الخصائص» (٣/٣٣٢).

١٠- الماضي الحاصل في المستقبل: ويكثر ذلك إذا سبق الفعل الماضي بفعل الكون مضارعاً نحو (اذهب إليه فتكون قد سبقته بالفضل).

والمعنى أنك إذا ذهبت إليه كنت قد سبقته بالفضل، أي حصل سبقك بالفضل.

ونحوه أن تقول: (اذهب إليه فعسى أن يكون قد أنجز المعاملة) فالانجاز ماضٍ ولكنه واقع في المستقبل، وذلك أن خبر (عسى) استقبال، وهي تفيد رجاء وقوع الفعل فقولك (عسى خالد أن يحضر) مثلاً يفيد رجاء حصول الفعل في المستقبل، وكذلك قولك (عسى أن يكون قد أنجز المعاملة) فقولك (عسى أن يكون) يفيد ترجى وقوع الفعل في المستقبل، و(قد أنجز المعاملة) يفيد الماضي فهو ماضٍ واقع في المستقبل، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].

وذكر الدكتور إبراهيم السامرائي أنه «يأتي بناء (فعل) مسبقاً بفعل الكون المضارع، فيتأتى من هذا المركب اعراب عن المستقبل في زمان ماضٍ، وهو ما يدعى في الفرنسية Future- Anterior نحو: ما ذاك من شيء أكون اجترمته، وكقول المعربين في هذا العصر مثلاً: واقر اللص أن يكون سرق أثاث الدار»^(١).

والحق أن ذلك لا يختص بفعل الكون، فهو قد يقع بعد غيره، وذلك نحو قولك (لا تخرج إليه إلا وقد اعددت للامر عدته) و(لا تدخل عليه إلا وانت اعددت جواباً عن كل سؤال قد يسأله لك) فالخروج يكون بعد الإعداد، فالإعداد سابق وهو ماضٍ، بالنسبة إلى الخروج، وهو واقع في المستقبل، وكذلك الدخول في الجملة التالية.

ويقع أيضاً بعد فعل الأمر، وذلك نحو قولنا (اذهب إليه وقد حزمت امرك) أي اذهب بعد حزم الأمر، فالذهاب يكون بعد الحزم، فالحزم ماضٍ واقع في المستقبل.

ويقع أيضاً بعد غير ذلك، مما يفيد هذا المعنى، وذلك نحو قولك (إياك أن تخرج

(١) «الفعل زمانه وابنيته» (٣٠).

إليه إلا وقد حزمت أمرك) و(إياك أن تدخل اللجة إلا وأنت أحسنت السباحة) فكل من حزم الأمور، واحسان السباحة، حدث ماض واقع في المستقبل، كما هو واضح.

١١- الماضي المستمر: وذلك إذا دخلت (كان) على الفعل المضارع (كان يفعل) وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم: ٥٥] أي كان مستمراً على ذلك. ونحو ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣] ونحو ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

فهذا يفيد الدلالة على الإستمرار أو الاعتياد، جاء في (البرهان): «ومن هذا الباب الحكاية عن النبي ﷺ بلفظ (كان يصوم) و(كنا نفعل) وهو عند أكثر الفقهاء والأصوليين يفيد الدوام، فان عارضه ما يقتضي عدم الدوام مثل أن يروى: كان يمسح مرة ثم نقل عنه أنه يمسح ثلاثاً، فهذا من باب تخصيص العموم»^(١).

وقد سبق أن ذكرنا في باب (كان) أن سبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر في الماضي، ووقوعه بصورة متكررة، نحو ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم: ٥٥] أي كان مستمراً على هذا الفعل.

وقد يفيد أنه وقع مرة ولكن على أنه ماض مستمر في أثناء وقوعه، وليس معناه تكرر الحدث، نحو (كنت أقرأ ذات مرة في كتابي، فجاءني خالد) أي كنت مستمراً على القراءة وفي هذه الاثناء جاءني خالد، ونحو (كنت أسبح في النهر فطاردني تمساح) فليس في هذا ما يدل على تكرار الحدث.

فسبق الفعل المضارع بـ (كان) له دالتان: تكرر الحدث ووقوعه أكثر من مرة، والدلالة الأخرى أن الحدث كان مستمراً في ذلك الأخبار.

وقد تفيد (كان) الإستمرار، إذا كان خبرها شرطاً، نحو قولنا: (كان محمد إذا سئل أعطى) ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

١٢- الماضي المستمر المنقطع: وذلك نحو قولنا «كان لا يزال يلهو». و«كان ما يزال يكتب له» ومعنى ذلك أنه كان مستمراً على اللهو، ثم انقطع عنه، وكذلك المثال الثاني فإنّ معناه أنه كان مستمراً على الكتابة له، ثم انقطع بخلاف الماضي المستمر، فإنه لا يفيد الانقطاع.

١٣- استمرار الفعل واتصاله بزمان الاخبار: وذلك إذا دخل على المضارع فعل يفيد الإستمرار، نحو ما زال، وما برح، وما فتىء، وما أنفك، وبقي، وما إلى ذلك نحو (ما زال أخوك يكتب) و(بقي يدرس) أي هو بدا بالفعل في الماضي، ولا يزال الفعل مستمراً لم ينقطع حتى زمن التكلم.

غير أنّ هناك فرقاً بين الاستمرار في (ما زال) و(بقي)، فلا يصح إبدال أحد الفعلين بالآخر دوماً، وذلك أنّ (ما زال) وأخواتها تفيد توقع الانقطاع في الغالب، بخلاف (بقي) وذلك أنك تقول لولدك مثلاً (ما زلت صغيراً) ومعناه أنك ستكبر، بخلاف ما لو قلت (بقيت صغيراً) فإنه لا يفهم منه الانقطاع، وإنما هو إلى معنى الثبات والدوام على ما هو عليه أقرب.

وكذلك في المضارع، فإنّ قولنا (لا يزال صغيراً) يختلف عن قولنا (يبقي صغيراً) فإنّ الجملة الأولى يفهم منها أنه سيتغير ويكبر، بخلاف الثانية كما هو ظاهر.

١٤- مقارنة حصول الفعل وذلك إذا سبق الفعل المضارع بفعل يدل على المقاربة، كـ (كاد) و(أوشك) نحو (كاد يفرق) أي قرب من الغرق، ولم يفرق.

١٥- رجاء حصول الفعل: وذلك إذا سبق الفعل المضارع بفعل دال على الرجاء، نحو ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد: ٢٢] ونحو (حرى الغيم أن ينقشع).

١٦- شروع القيام بالفعل أي بدء القيام به نحو أخذ يكتب وشرع يدرس.

١٧- تلبس حصول الفعل بوقت من الأوقات نحو (أصبح يهذي) و(أمسى يستطيع الحركة).

١٨- قد تؤخذ من الفاظ الأوقات أفعال للدلالة على الدخول في زمن معين وذلك نحو أفجر بمعنى دخل في الفجر وأصبح بمعنى دخل في الصباح وأظهر بمعنى دخل في الظهر وأعصر بمعنى دخل في العصر واسحر بمعنى دخل في السحر وانهر بمعنى دخل في النهار واليل بمعنى دخل في الليل وغير ذلك.

١٩- تقليل حصول الفعل وذلك إذا سبق الفعل بما يفيد التقليل نحو ربما وقلما نحو (ربما راجعه في شأن من شؤونه)، ونحو (ربما من الفتى وهو المغيظ المحقق)، ونحو (قلما زرته)، وربما أفاد لفظ القلة النفي، نحو (قلما صدت) بمعنى لم أصد كما سيأتي بيان ذلك.

أستعملاته

١- الأصل أن يستعمل الفعل للدلالة على معناه الأصلي كقولنا (حضر محمد وجاء خالد).

٢- وقد يستعمل الفعل ويراد به الإنشاء، كقولنا بعت واشتريت، وكقولنا غفر الله لك.

ومن ذلك ما يراد به الأمر، نحو (أجزأ امرؤ فدانني بنفسه) و(أجاد امرؤ أحسن إليك) أي ليحسن إليك، و(فقه امرؤ رغب عنك) أي ليرغب عنك، ومنه قول الإمام علي رضي الله عنه: (أجزأ امرؤ قرنه آسى أخاه بنفسه)^(١)، أي ليواس أخاه.

ومن ذلك ما يراد به الاغراء، وذلك نحو قولهم (كذب عليك العسل) أي الزم العسل. جاء في (أمالي ابن الشجري): «ومما جاء فيه لفظ الخبر، بمعنى الاغراء قول عمر رضوان الله عليه (ايها الناس كذب عليكم الحج والعمرة) معناه عليكم بالحج والعمرة، ومثله قول معقر بن حمار البارقى:

وذيانية أوصت بنيتها بأن كذب القراطف والقروف

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٤٩-٢٥٠).

أي عليكم بالقراطف، وهي القطف وبالقروف، فاغنموها.

والقروف أوعية من آدم يتخذ فيها الخلع، وهو لحم يقطع صغاراً ويحمل في السفر... (ومثله).

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي

كذب العتيق أي عليك بالعتيق، وهو التمر، و(الشن) القربة الخلق^(١).

٣- قد يطلق الفعل ويراد به مقاربه ومشارفته نحو ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَنْ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١]، «أي فشارفن انقضاء العدة»^(٢).

٤- وقد يطلق الفعل والمقصود به ارادته «واكثر ما يكون ذلك بعد اداة الشرط نحو ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] ﴿وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] ﴿وَإِذَا قَضَوْا أَثَرًا فَلْيَايَقُولُ لَكُمْ كُنْ﴾ [آل عمران: ٤٧] ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]... وفي الصحيح: إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل»^(٣).

والمعنى إذا اردت قراءة القرآن فاستعد بالله، وإذا اردتم القيام الى الصلاة فاغسلو وجوهكم، والآ كان الغسل بعد القيام إلى الصلاة، والاستعاذة بعد قراءة القرآن، وهو غير مراد، ولا يصح.

٥- قد يجمد الفعل الماضي للدلالة على معنى معين، كاستثناء كما في خلا وعدا، وللدلالة على النفي، نحو (قلما سرت) وقد يراد بذلك السير القليل، وقد يراد به نفي السير^(٤)، والتعجب، كما في قوله تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]. والمدح، والذم، نحو نعم وبش وساء، وغير ذلك من المعاني.

(١) «أمالى ابن الشجري» (١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) «مغني اللبيب» (٢/ ٦٨٨).

(٣) «مغني اللبيب» (٢/ ٦٨٩).

(٤) انظر «الاصول لابن السراج» (٢/ ١٧٦).

الفعل المضارع

معنى المضارعة المشابهة، ويعنون بالمضارعة مشابهة الفعل المضارع للأسماء، فالمقصود بالفعل المضارع، الفعل المشابه للاسم.

ويعقد النحاة بينهما أوجهاً من المشابهة لسنا بصدد ذكرها الآن.

أزمته:

يدل الفعل المضارع على أزمنة متعددة، أشهرها:

١- الدلالة على الحال والإستقبال نحو (هو يكتب) و(هو يقرأ) فقد يحتمل أن يقصد به الحال والإستقبال جاء في (المقتضب): «زيد يأكل» فيصلح أن يكون في حال أكل وان يأكل فيما يستقبل»^(١).

وجاء في (المفصل): «ويشترك فيه الحاضر والمستقبل»^(٢).

٢- دلالة على الحال تنصباً: وذلك في مواطن منها:

أ- إذا اقترن بظرف يدل على الحال كالآن والساعة والحين^(٣)، نحو (هو يقرأ الآن) و(هو يكتب الساعة).

ب- إذا دخلت عليه لام الابتداء: نحو قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا مُرْكٍ﴾ [العلق: ٦، ٧] وهذا رأي الكوفيين وذهب إليه الأكثرون^(٤).

(١) «المقتضب» (٢/٢).

(٢) «المفصل» (١٣٧/٢).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٥٦)، «الهمع» (٨/١).

(٤) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٥١)، وانظر «الهمع» (٨/١)، «المغني» (١/٢٢٨).

وأعترض ابن مالك على ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤] وقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣] فالفعلان يفيدان الإستقبال.

وأجيب أنه نزل المستقبل منزلة الحاضر المشاهد^(١).

وهو نحو ما مر في تنزيل المستقبل منزلة الماضي، نحو: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] و﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الزمر: ٦٨].

ويبدو لي أنها تفيد التوكيد كما يقول البصريون، أما تخصيصها المضارع بالحال ففيه نظر لما ورد في القرآن الكريم من دلالة على الإستقبال معها.

وصرفه إلى الحال في الآية يحتاج الى دليل، وكما هو الحال في دخولها على المستقبل مع غير الفعل المضارع نحو قوله تعالى: ﴿وَلِنَأْتِيَنَّهُمْ مَّغْلِبًا صَاحِدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨] وقوله ﴿وَلِنَأْتِيَنَّهُمْ مَّغْلِبًا صَاحِدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨] وقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَآ أَلْضَالُونَ الْمُكَذِّبُونَ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

ج- ففيه بـ (ليس) أو (ما) أو (إن) عند الإطلاق نحو (ما خالد يكتب) و(ليس علي يقرأ)^(٢) فإذا كانت هناك قرينة تصرف الفعل المضارع الى غير الحال، كان ذلك بحسبها نحو:

وليس يكون الدهر ما دام يذبل^(٣).

و(ما محمد يسافر غدا). ومثله في غير المضارع (ليس خلق الله مثله) و﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨] وقوله ﴿وَمَأْتُمْ عَنْهَا بِغَائِيٍّ﴾ [الأنفطار: ١٦].

٣- دلالة على الإستقبال تنصيهاً. وذلك في مواطن منها:

(١) «المغني» (١/٢٢٨).

(٢) انظر «الهمع» (٨/١)، «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٥٦).

(٣) «الهمع» (٨/١).

أ- إذا اقترن بظرف يدل على المستقبل^(١) نحو غداً أو بعد يومين ويوم القيامة نحو (يقضي الله بين عباده يوم القيامة).

ب- النصب: فإن الناصب يصرف الفعل إلى الإستقبال، نحو (ارغب في أن تزورني). جاء في (الهمع): «ومن شأن الناصب أن يخلص المضارع الى الإستقبال»^(٢). وجاء فيه: «الناصب من مخلصات المضارع للاستقبال»^(٣). وجاء في (المقتضب) أن «حروف النصب إنما معناه من مالم يقع»^(٤).

وقال ابن الناظم: «فلو كان المضارع بمعنى الحال وجب رفعه لأن فعل الحال لا يكون المرفوعاً»^(٥).

وليس معنى هذا أن كل فعل مرفوع هو يدل على الحال، ولا كل فعل مستقبل يكون منصوباً، بل قد يكون المرفوع لغير الحال، وقد يكون الفعل المستقبل غير منصوب، نحو (سيحاسب الله الخلق).

ج- إذا دخل عليه حرف تنفيس^(٦) وهو السين أو سوف نحو ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ٥٦]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ٥٧].

د- إذا دخلت عليه نونان التوكيد^(٧) كقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقوله ﴿لَتَسْفَهَنَّا لِلْأَنصَارِ﴾ [العلق: ١٥].

(١) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٥٦)، «الهمع» (١/٨).

(٢) «الهمع» (٢/٦).

(٣) «الهمع» (٢/٩).

(٤) «المقتضب» (٢/١١).

(٥) «شرح ابن الناظم» (٢٧٦).

(٦) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧)، «الهمع» (١/٨).

(٧) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧)، «الهمع» (١/٨).

هـ- إذا دخلت عليه أداة شرط^(١) نحو ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُ﴾ [الإسراء: ٥٤] (إن ترني أكرمك) إلا (لو) الشرطية^(٢) فإنها موضوعة للشرط في الماضي نحو (لو زارني لاكرمته):

وهذا هو الغالب. ومن غير الغالب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] فهذا يحتمل الماضي والاستقبال.

و- بعد (لو) المصدرية، نحو قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ [القلم: ٩]^(٣). وذهب بعضهم إلى أنه لا تخصص المضارع بالاستقبال، بدليل، قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]^(٤).

ز- بعد (هل): وهي تخصص المضارع بالاستقبال غالباً، نحو (هل تسافر؟) بخلاف الهمزة نحو (أتظنه قائماً)^(٥). ومن غير الغالب قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقوله: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٥٩].

ح- إذا اقتضى طلباً كالأمر والنهي والدعاء والتحضيض والتمني والترجي^(٦)، نحو: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧] و(لا تخبره)، و(ليتني أجده) و﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ﴾ [غافر: ٣٦] و﴿لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٦] و﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] و﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي ليرضعن.

(١) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

(٢) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧).

(٣) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧).

(٤) انظر «الهمع» (٨/١).

(٥) «المعني» (٢/٣٥٠)، «الإيضاح للقرظي» (١/١٣٢).

(٦) «شرح الرضي» (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

ط - إذا أقتضى وعداً أو وعيداً، نحو ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠] وكقولك واعداً (أكرمك وأحسن إليك)^(١) و(أفعل ذلك).

ي - إذا اسند الى متوقع^(٢)، نحو (يحاسب الله عباده) و﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦] و(تقوم القيامة).

وغير ذلك من الصوارف الى الاستقبال.

٤ - الدلالة على حدث مستقبل بالنسبة الى حدث مستقبل قبله وذلك نحو قولك (سأذهب إليه وقد امتلا المجلس بالحضور وأرد عليه) فالذهاب يكون بعد امتلاء المجلس، وكلاهما مستقبل.

٥ - دلالة على الماضي وذلك في مواضع منها:

أ - إذا اقترن بـ (لم) أو (لما)^(٣) نحو: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

ب - إذا دخلت عليه (لو) الشرطية، نحو: ﴿وَلَوْ يَوَاسِئُكَ اللَّهُ النَّاسُ يَظْلِمُونَ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] وهو غالب^(٤).

ج - إذا دخلت عليه (إذ)^(٥)، نحو: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي قلت. وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] أي مكر.

(١) شرح الرضي (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

(٢) شرح الرضي (٢/٢٥٦).

(٣) شرح الرضي (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

(٤) شرح الرضي (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

(٥) شرح الرضي (٢/٢٥٧)، «الهمع» (٨/١).

د- إذا دخلت عليه (قد) الثقيلة، نحو (قد اترك القرن مصفراً أنامله) بخلاف ما إذا لم تكن للتقليل^(١).

وقد تأتي لغير المضي نحو (قد يشفى المريض).

هـ- إذا دخلت عليه (ربما): يقول النحاة لأنها مختصة بالدخول على الفعل الماضي فإذا دخلت على المضارع صرفت معناه الى المضي، وذلك كقول الشاعر^(٢):

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

وجعلوا من ذلك قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] والظاهر أنها ليست مختصة بالمضي، بل قد تدخل على المضارع في المعنى^(٣)، فقوله (ربما تكره النفوس) ليس نصاً في المضي، بل هو يحتمل الإستمرار والدلالة على الحقيقة، وكذلك قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل الإستقبال والله أعلم.

و- إذا وقع المضارع حالاً عامله فعل ماض^(٤)، نحو (أقبل خالد يضحك) ونحو (فقدم الملك آنذاك يسعى الغلمان بين يديه).

ز- حكاية الحال الماضية: والمقصود بحكاية الحال الماضية أن تعبر عن الحدث الماضي بما يدل على الحاضر استحضاراً لصورته في الذهن كأنه مشاهد مرئي في وقت الأخبار، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] فسوم فرعون بني إسرائيل سوء العذاب وتذبيح الأبناء أحداث ماضية، غير أنه عبر عنها بالفعل الذي يدل على الحال، وهو المضارع فقال (يسومونكم) و(يدبحون) وذلك لقصد احضار مشهد التعذيب أمام العين، فكانك تشاهد آل فرعون بأيديهم الممدى يذبحون الأبناء.

(١) «الهمع» (٨/١) وانظر «المغني» (١٧٤/١) - البيت (قد اترك القرن) عنده للتكثير وهو أولى.

(٢) «شرح الرضي» (٢٥٧/٢)، «الهمع» (٨/١).

(٣) انظر «المغني» (١٣٧/١).

(٤) «الهمع» (٩/١).

ومثله قوله تعالى ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: ٩١] فالقتل حصل فيما مضى الا ترى الى قوله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ ولكنه عبر عنه بالفعل المضارع استحضاراً لهذه الصورة الشنيعة من قتل أنبياء الله، فخلع على المشهد صورة الحياة والحركة بجعله ماثلاً أمام عين الرائي.

جاء في (المغني): «أنهم يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبرون عن الشيء الحاضر قصداً لاحتضاره في الذهن حتى كأنه مشاهد حالة الاخبار... ومثله ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ السَّحَابَ ﴾ [فاطر: ٩] قصد بقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَتُبْرِئُ ﴾ [أحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب تبدو أولاً قطعاً، ثم تتضام متقلبة بين أطوار، حتى تصير ركاماً»^(١).

وجاء في (البرهان): «قوله ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] أي (فكان) استحضاراً لصورة تكوّنهِ. وقوله ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مِثْلِكَ سُلَيْمَنُ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي ماتلّت... وقوله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي فلم قتلتم؟»^(٢).

وجاء في (الكشاف) في قوله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]: «فإن قلت: هلا قيل: وفريقاً قتلتم؟»

قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية، لأن الامر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب.

وان يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لانكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم»^(٣).

(١) «المغني» (٢/٦٩٠).

(٢) «البرهان» (٣/٣٧٣).

(٣) «الكشاف» (١/٢٢٦).

ونحو قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] «فعبّر بالماضي ثم قال ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فعدل عنه الى المضارع ارادة لتصوير اخضرارها في النفس، وعليه قول ابن معد يكره يصور شجاعته وجرأته:

فإني قد لقيت القرن أسعى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأخذه فأضربه فيهوي صريعاً لليدين وللجيران^(١)

ح- وربما أفاد المضارع المضي في غير ذلك، وذلك نحو قوله:

أن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عارا عليك ورب قتل عار
فقوله (أن يقتلوك) يفيد المضي، وذلك أن هذا الشعر قيل في رثاء يزيد بن المهلب.
ونحوه قوله:

فإن يهلك بئى فليس شيء على شيء من الدنيا يدوم
فقوله (أن يهلك) يفيد المضي، لأنهم قد هلكوا بدليل قوله:

كأن الليل مجبوس دجاء فأولاه وآخره مقيم
لمهلك فتية تركوا إباهم واصغر مابه منهم عظيم
ومن دلالة على المضي في غير الشرط، قول فارعة بنت شداد ترثي أخاها مسعوداً:^(٢)

ياعين بكى لمسعود بن شداد بكاء ذي عبرات شجوه بادي
من لا يذاب له شحم السديف ولا يجفو العيال اذا ما ضنّ بالزاد
ولا يحل إذا ما حل متبذراً يخشى الرزية بين الماء والباد

(١) «حاشية ابن المنير على الكشف» (١/٢٢٦) وانظر دلائل الإعجاز (١٦٠).

(٢) انظر «الإمالي للقالى» (٢/٣٢٤).

هو الفتى محمد الجبران مشهده عند الشتاء وقد هموا باخماد وكل هذه الأفعال تفيد المضي .

ومن دلالاته على المضي في غير ما مر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] فهم لم يهاجروا، وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] فهم لم يعقلوا بقلوبهم، فزمن (تهاجروا) و(تكون لهم قلوب) هو الماضي غير أنه لا يصح ابدال الفعل الماضي بهذين الفعلين، لأن المعنى سيتغير، ذلك أن المعنى في المضارع هنا عدم الحصول، والمعنى في الماضي يفيد الحصول، فإنه لو قال (ألم تكن أرض الله واسعة فهاجرتم) لكان معنى ذلك أن الهجرة حصلت، وكذلك لو قال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ [الحج: ٤٦]، لكان المعنى أنهم ساروا وكانت لهم قلوب يعقلون بها.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي تَنْتَلِي عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [البقرة: ٣١] فإنه أثبت لهم الاستكبار، وكذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي تَنْتَلِي عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهِمْ كَذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] فقد أثبت لهم التكذيب، ونحوه قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرْبِكْ فِينَا وَوَلَدْنَا وَلِئِمْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] فقد أثبت التربية واللبث فيهم.

ولو عطف بالفعل المضارع، لكان أيضا تقريراً معناه الأثبات، وذلك نحو قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] فالاستحواذ والمنع كلاهما حاصلان، وقوله ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] فالنهي والقول حاصلان. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، فهم ساروا ونظروا عاقبة الذين من قبلهم، ونحوه أن تقول (ألم تشمتني فتضربني) بالعطف فإن الضرب والشيمة حاصلان، وعلى ذلك يكون معنى قولك (ألم يعنك فتعينه) بالنصب أن الاعانة بعد الفاء لم تحصل، فإن أحدهما أعان والآخر لم يعن، وإن معنى قولك (ألم يعنك فأعنته) أن الاعانة حصلت

منهما جميعاً، وكذلك إذا قلت (الم يعنك فتعنه) بالعطف وهذه الازمنة كلها ماضية.

٦- الإستمرار التجديدي: وذلك كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وكقوله ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَیُمِیْتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ یَأْتِی بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله ﴿قُلِ اللَّهُ مَلِکُ الْمَلِکِ تُؤْتِی الْمَلِکَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِکَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۚ بِيَدِكَ الْخَیْرُ إِنَّكَ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ تُولِیْعُ الْاَیْلَ فِی النَّهَارِ وَتُولِیْعُ النَّهَارِ فِی الْاَیْلِ وَتُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیْتِ وَتُخْرِجُ الْمَیْتِ مِنَ الْحَیِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِعِزِّ حَسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦] فهذه الاحداث تتكرر باستمرار.

٧- الدلالة على الحقيقة من حيث هي غير مقيدة بزمن، وذلك كقوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَلْجَارَةٍ لَّمَّا يَنْفَجَّرْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَّا يَشْفُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤] وكقوله ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِیْ عَلَی بَطْنِیْهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِیْ عَلَی رِجْلَیْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِیْ عَلَی أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن یُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِی الْحَیْوةِ الدُّنْیَا وَیُشْهَدُ اللَّهُ عَلَی مَا فِی قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقوله ﴿اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِیْنَ كَفَرُوا أَوَّلَیَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ یُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ونحو قولنا (الإنسان يعجز) و(الحي يهرم) ونحو ذلك.

٨- الدلالة على أن الفعل حاصل وهو مستمر لم ينقطع، وذلك إذا سبق بفعل دال على الإستمرار نحو (لا يزال) و(لا يبرح) نحو (لا يزال يكتب) أي هو يكتب وهو مستمر على ذلك ونحو قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] أي هم قاتلوكم وسيقون كذلك (حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا). ونحو (هو يبقى يدرس) وقد بينا الفرق في باب الفعل الماضي بين (لا يزال) و(يبقى) في الدلالة على الإستمرار فلا داعي لاعادته.

٩- مقارنة حصول الفعل: وذلك نحو قولهم (يكاد المريب يقول خذوني) وقوله تعالى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ [النور: ٣٥] وقوله ﴿يَكَادُونَكَ يَسْطُونَ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله ﴿وَلَوْ يَكَادُ الْآلِیْنَ كَفَرُوا لَتَرَنَّكَ وَأَبْصَرْتَهُ﴾ [القلم: ٥١] وقول الشاعر:

يوشك من فر من منيته في بعض غراته يوافقها

١٠- تلبس حصول الفعل بوقت من الاوقات، نحو (يمسي العامل متعباً ويصبح

مستريحاً).

١١- الدلالة على الدخول في زمن معين، وذلك نحو قوله تعالى ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ

تُصْبِحُونَ وَحِينَ تَضِيحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] فمعنى (تصبحون) تدخلون في وقت الصبح ومعنى (تظهرون) تدخلون في وقت الظهر.

١٢- تقليل حصول الفعل، وذلك إذا سبق الفعل المضارع بما يدل على التقليل

وذلك نحو قولك (قد يصدق الكذوب) ونحو (قلماً اراه).

أستعمالاته:

١- يستعمل الفعل المضارع للدلالة على معناه، وهو وقوع الحدث في الحال، أو

في الإستقبال، وهذا هو الأصل نحو (ادرس كل يوم) و(أنا أقوم بواجبي).

٢- قد يخرج الى الانشاء وذلك كما في الدعاء، نحو ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾

[يوسف: ٩٢] و(يرحمك الله).

والأمر، نحو ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي

ليتربصن. ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي ليرضعن، وقد

أخرج الأمر مخرج الخبر للدلالة على أنهن يفعلن ذلك أمثالاً لأمر الله، وهذا شأنهن.

وهو أبلغ من صريح الأمر، ونظير هذا قولنا (تذهب الى فلان وتخبره كذا وكذا) على

معنى اذهب إليه، وهو الطف من الأمر الصريح، إذ لا يراد أحياناً المواجهة بالامر بل

يخرج مخرج الخبر تلطفاً بالسامع او اكراماً له، جاء في (شرح شذور الذهب) في قوله

تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾

[البقرة: ٢٣٣] وهذان الفعلان خبريان لفظاً، طليبان معنى، ومثلهما (يرحمك الله)،

وفائدة العدول بهما عن صيغة الأمر التوكيد، والاشعار بأنهما جديران بأن يتلقيا بالمسارعة، فكأنهن امتثلن فهما مخبر عنهما بموجودين^(١).

والنهي، نحو قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] بمعنى لا تسفكوا، ونحو (لا يكره المرء في الدين) بالرفع، ومعناه النهي أي لا تكرهوا، وقد أخرج مخرج، الخبر للدلالة على أن هذا هو الوضع الطبيعي، وإن هذا هو الذي يحصل، جاء في (الكشاف) في قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]: «لا تعبدون- أخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتفاء فهو يخبر عنه^(٢)».

جاء في (البرهان): «وقال النووي في شرح مسلم في باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها وقوله ﷺ (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يسوم على سوم أخيه) هكذا هي في جميع النسخ (ولا يسوم) بالواو (ولا يخطب) بالرفع وكلاهما لفظ الخبر والمراد به النهي، وهو أبلغ في النهي، لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد يقع مخالفته، فكان المعنى: عاملوا هذا النهي معاملة خبر الحتم^(٣)».

٣- يستعمل للدلالة على مشاركة وقوع الفعل كما مر في الماضي، نحو قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٠] أي والذين يشارفون الموت، وترك الأزواج يوصون وصية^(٤).

٤- إرادة الفعل نحو (متى تقم إلى الصلاة فتوضاً) والمعنى متى أردت القيام إلى الصلاة والا كان الوضوء بعد القيام إلى الصلاة، ونحو (متى تقرأ القرآن فاستعذ بالله) أي إذا أردت ذلك.

(١) «شرح شذور الذهب» (٦٩) وانظر «البرهان» (٣٢٠/٢).

(٢) «الكشاف» (٢٢٤/١).

(٣) «البرهان» (٣٥٢/٣).

(٤) «المغني» (٦٨٨/٢).

حروف النصب

أن

وهي حرف مصدري^(١) يدخل على الفعل الماضي، نحو ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] وعلى الأمر، نحو (ناديته بأن احضر). ويدخل على الفعل المضارع فيتنصب بعده ويصرفه إلى الإستقبال^(٢)، شأن النواصب الأخرى^(٣).

جاء في (المقتضب): «فمن هذه الحروف- يعني الحروف التي تنصب الافعال- (أن) وهي والفعل بمنزلة مصدره، إلا أنه مصدر لا يقع في الحال إنما يكون لما لم يقع إن وقعت على مضارع، ولما مضى إن وقعت على ماض»^(٤).

وجاء فيه أيضا: «ولا تقع مع الفعل حالا، لأنها لما لم يقع في الحال، ولكن لما يستقبل»^(٥).

تقول: (كتبت إليه أن لا تقل ذلك، وكتبت إليه أن لا تقول ذلك، فاما الجزم فعلى الأمر، واما النصب فعلى قولك لثلا يقول ذلك، واما الرفع فعلى قولك: لأنك لا تقول ذلك، أو بأنك لا تقول ذلك، تخبره بأنّ ذا قد وقع من أمره»^(٦).

(١) سبق أن رجحنا أنها في نحو (عسى محمد أن يقدم) ليست مصدرية بل هي للاستقبال فقط.

(٢) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٦٢).

(٣) انظر «الهمع» (٦/٢، ٩/٢)، «الرضي على الكافية» (٢/٥٧).

(٤) «المقتضب» (٦/٢).

(٥) «المقتضب» (٢/٣٠).

(٦) «سيبويه» (١/٤٨١).

وجاء في (معاني القرآن) للفراء، في قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ [آل عمران: ٤١]: «إذا أردت الإستقبال المحض نصبت (تكلم) وجعلت (لا) على غير معنى (ليس)، وإذا أردت: آيتك أنك على هذه الحال ثلاثة أيام رفعت فقلت: أن لا تكلم الناس، ألا ترى انه يحسن أن تقول: آيتك انك لا تكلم الناس ثلاثة أيام، إلا رمزاً»^(١).

وتقع بعد لفظ دال على معنى غير اليقين^(٢)، نحو أرجو، واخاف، وأخشى، وأطمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

أما الداخلة بعد أفعال اليقين والمنزلة منزلتها، فهي أن المخففة من الثقيلة نحو (عملت أن لا يقدم) برفع يقدم، ولا يصح نصبه، لأنها بعد فعل دال على اليقين.

جاء في (الكتاب): «وذلك قد علمت أن لا يقول ذاك، وقد تيقنت أن لا تفعل ذاك كأنه قال أنه لا يقول وانك لا تفعل، وليست (أن) التي تنصب الأفعال تقع في هذا الموضع، لأن ذا موضع يقين وإيجاب»^(٣).

وجاء في (المقتضب): «أما ما كان من العلم فإن (إن) لا تكون بعده إلا ثقيلة، لأنه شيء قد ثبت واستقر وذلك قولك: (قد علمت أن زيدا منطلقاً) فإن خففت، فعلى ارادة التثقيل، والإضمار، تقول: قد علمت أن سيقوم زيد ترد أنه سيقوم زيد»^(٤).

وقد تجيء الناصبة بعد العلم، على أن لا يراد به اليقين، وذلك نحو قولك: (ما على إلا أن تخبره) بالنصب، أي لا أرى إلا أن تخبره.

(١) «معاني القرآن» (٢١٣/١).

(٢) «المغني» (٢٧-٢٨/١)، «الهمع» (٢/٢) وانظر سيبويه (٤٨١/١).

(٣) «كتاب سيبويه» (٤٨١/١).

(٤) «المقتضب» (٣٠/٢ و ٣٠/٣) وانظر «المغني» (٣٠/١)، التسهيل (٢٢٨)، «الهمع» (٢/٢).

فإذا قلت (ما أعلم إلا أن تخبره) بالرفع كان المعنى أنا أعلم أنك تخبره، فبالنصب يكون المعنى أنك ترى ضرورة أخباره، وبالرفع، يكون المعنى أنك تعلم أنه يخبره أي هو قائم بأخباره فعلاً، فبالنصب هو لم يخبره، وبالرفع هو يخبره.

قال سيويه: «وتقول: ما علمت إلا أن تقوم وما أعلم إلا أن تأتيه إذا لم ترد أن تخبر أنك قد علمت شيئاً كائناً البتة، ولكنك تكلمت به على وجه الإشارة كما تقول: أرى من الرأي أن تقوم، فأنت لا تخبر أن قياماً ثبت كائناً، أو يكون فيما يستقبل البتة، فكأنه قال: لو قمتم. فلو أراد غير هذا المعنى لقال: ما علمت إلا أن سيقومون»^(١).

غير أن الذي يبدو لي أنها تصرف زمن الفعل المضارع الى الاستقبال غالباً، كما سبق أن قلت في موطن سابق، وقد تأتي لغير الاستقبال، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] فإنهم مؤمنون في الحال، ولا يراد به الاستقبال. ونحو قوله: ﴿أَفَقَتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وهو بقولها مستديماً لها. ونحو قوله ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وقوله ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] وهم لا يجدون في الحال، وقد يجدون في المستقبل، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقد ذهب قسم من النحاة الى أنها قد تأتي للتعليل، نحو قوله تعالى:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله: ﴿يُسَبِّحُ اللَّهَ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] وقوله: ﴿وَالْقَنَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

جاء في (المقتضب): «والحذف مع (ان) وصلتها مستعمل في الكلام لما ذكرت لك من انها علة لوقوع الشيء»^(٢).

(١) كتاب سيويه (١/ ٤٨٢) وانظر الجمل للزجاجي (٢٠٦).

(٢) «المقتضب» (٣/ ٢١٤).

وجاء في (الهمع) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَاقَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] وقال الأستاذ أبو علي دخلت (يعني أن) منبهة على السبب، وأن الاساءة كانت لاجل المجيء، لأنها قد تكون السبب في قولك (جئت أن تعطي) أي للاعطاء.
قال أبو حيان وهذا الذي ذهب إليه لا يعرف كبراء النحويين^(١).

وقد ذكر الزركشي في (البرهان) من حروف العلة اللام وكى وأن^(٢).

والجمهور لا يرون أنها تأتي للتعليل بل يتأولون ذلك.

وللنحاة فيما ورد منها للتعليل، ثلاث طرائق مشهورة.

الأولى: رأي البصريين وهو تقدير محذوف، نحو كراهة، أو مخافة، أو حذار، وما إلى ذلك مما يستقيم به المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، يقدرون كراهة أن تضلوا وكذلك في نحو قوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن نَّمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

الثانية: رأي الكوفيين وهو أنها تكون بمعنى (لثلا) وذلك نحو قوله تعالى ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لثلا تضلوا، وقوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن نَّمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي لثلا تميد بكم.

أو يكون ذلك على تقدير لام محذوفة قبل (أن) و(لا) بعدها^(٣).

الثالثة: تقدير لام التعليل، وذلك في نحو ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَمُنُّ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وقوله: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وقوله ﴿أَفَقَتَلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]^(٤).

(١) «الهمع» (١٨/٢).

(٢) «البرهان» (٩٢-٩٦/٣).

(٣) انظر «المغني» (٣٦/١)، «الهمع» (١٩/٢)، «البرهان» (٩٧/٣).

(٤) انظر «المغني» (٣٦/١)، «الكشاف» (٥١/٣، ٢١٩/٣).

والحق أنها تأتي للتعليل، وذلك لأن ذكرها يؤدي في التعليل معنى لا يؤديه حذفها واستبدال غيرها بها أحياناً، وأنه قد يضعف أحياناً تخرجها على الطرائق المشهورة، وذلك نحو قوله تعالى ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ونحو قولهم (أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه بها).

فأنه لا يصح تقدير (كراهة أن تضل أحدهما فتذكر أحدهما الأخرى)، وذلك لأن (تذكر) معطوف على (أن تضل) فيكون المعنى على هذا كراهة التذكير أيضاً، لأن المعنى (كراهة الضلال فالتذكير) ومثل ذلك قولك: (إني أكره أن تأتيني فأردك) أي تكره أتيانه فردّه، ومعنى ذلك أنك تكره الاتيان والردّ جميعاً.

ومثل هذا قولهم (أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه بها) فإذا قدرت: مخافة أن يميل الحائط فأدعمه بها، كان المعنى مخافة ميلان الحائط والدعم، فالميلان مخوف والدعم مخوف أيضاً لأنه معطوف عليه.

والزمخشري قدرها (إرادة أن تضل أحدهما فتذكر أحدهما الأخرى) فيكون الضلال على هذا مراداً، وقد اعتذر الزمخشري عن ذلك بقوله: «لما كان الضلال سبباً للاذكار والاذكار مسبباً عنه وهم يتزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما كانت إرادة الضلال المسبب عنه الاذكار إرادة للاذكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر أحدهما الأخرى أن ضلت، ونظيره قولهم (أعددت الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه) و(أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه)»^(١).

وجعل الضلال مراداً لله لا ينفك عن ضعف، ثم أنه لا يؤدي شيء آخر مؤداها في التعليل فأنك إذا أبدلت المصدر الصريح بها على تقدير الزمخشري، رأيت أنه لا يؤدي المعنى المقصود، فلو قلت (لإرادة الضلال فالتذكير) لم يؤد المعنى كما هو ظاهر.

وكذا اذا قدرت (لثلا) فإن المعنى يكون غير مستقيم أيضاً، فإذا قلت (لثلا تفضل أحدهما فتذكر أحدهما الاخرى) كان المعنى أن سبب التذكير عدم الضلال، لأن الضلال منفي، وكذا قولهم (اعددت هذه الخشبة لثلا يميل الحائط فادعمه بها) فإن المعنى يكون على ذلك أن سبب الدعم عدم الميل، أي حتى اذا لم يمل دعمته، وهو عكس المعنى المراد، في حين أن المعنى أنك تخشى ميلان الحائط، فأعددت له الخشبة حتى إذا مال دعمته بها.

جاء في (المقتضب): «اعددت هذا أن يميل الحائط فادعمه، ولم يعدوه طلباً لأن يميل الحائط ولكنه أخبر بعله الدعم، فاستقصاء المعنى إنما هو: أعددت هذا، لأن أن مال الحائط دعمته»^(١).

أو يكون العطف بقصد النفي، كالمعطوف عليه، نحو قولك: (لثلا تنهاه وتزجره) أي ولثلا تزجره، فيكون المعنى غير مستقيم أيضاً، لأن الفعلين منفيان، فيكون المعنى في الآية لثلا تفضل، فلا تذكر، وهو عكس المراد.

وعلى هذا فالتوجيهان باطلان أو ضعيفان.

جاء في (البرهان): «فإن قيل: كيف يستقيم الطريقتان في قوله «أن تفضل أحدهما فتذكر أحدهما الاخرى» فإنك إذا قدرت (لثلا تفضل أحدهما) لم يستقم عطف (فتذكر) عليه. وإن قدرت (حذار أن تفضل أحدهما) لم يستقم العطف أيضاً لأنه لا يصح أن تكون الضلالة علة لشهادتهما.

قيل: بظهور المعنى يزول الأشكال، فإن المقصود اذكار أحدهما الاخرى اذا ضلت ونسيت، فلما كان الضلال سبباً للاذكار، جعل موضع العلة.

تقول: (اعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فادعمه بها) فإنما أعددتها للدعم لا للميل، واعددت هذا الدواء أن أمرض فأداوي به ونحوه^(٢).

(١) «المقتضب» (٣/٢١٥)، وانظر «سيويه» (٤٣٠).

(٢) «البرهان» (٣/٩٧-٩٨).

والطريقة الثالثة: تقدير لام التعليل، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المنحنة: ١]، و﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، أي لأن تؤمنوا ولأن تؤمنوا ولأن يقول ربي الله.

وهذا التقدير صحيح مع ذكر (أن)، ولكن لا يصح تقدير اللام وحدها من دون ذكر (أن)، فلا يصح أن تقول (يخرجون الرسول وإياكم لتؤمنوا بالله ربكم) ولا (أقتلون رجلاً ليقول ربي الله) مع أن اللام عندهم على تقدير (أن)^(١) فإن قولنا (جئت لا استفيد) تقديره عند النحاة (جئت لأن استفيد) فمعنى قولنا: (يخرجون الرسول وإياكم لتؤمنوا)، أن المخاطبين والرسول غير مؤمنين وانهم يخرجونهم حتى يؤمنوا. فمعناها باللام أنهم غير مؤمنين ومعناها بـ (أن): أنهم مؤمنون.

وكذلك قوله ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فإنه لا يصح أن تقول للمعنى نفسه (أقتلون رجلاً ليقول ربي الله) مع أن اللام على تقدير (أن) وأن من الجائز اظهارها كما يقول النحاة.

فإن المعنى بـ (أن): اقتلونه لأنه يقول ربي الله: أي أن سبب القتل هو قوله (ربي الله) ومعناها باللام أنهم يقتلونه حتى يقولها، فمعناها بأن، أنه يقولها، ومعناها باللام، أنه لا يقولها.

فأنت ترى إن ذكر (أن) يؤدي معنى في التعليل لا يؤديه حذفها وابدال غيرها بها.

فالذي يترجح أنها للتعليل، والله أعلم، وقد سبق شيء من هذا في موطن سابق.

زيادة (لا) بعدها:

تراد (لا) بعد (أن) توكيدا، قال سيويه: «وأما (لا) فتكون كـ (ما) في التوكيد واللغو، قال الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي لأن يعلم»^(٢).

(١) انظر «المغني» (١/٢١٠).

(٢) «كتاب سيويه» (٢/٣٠٦).

ولا تأتي توكيدا إلا في الموطن الذي يؤمن اللبس فيه .

جاء في (الأصول): «ولا تكون توكيدا إلا في الموضع الذي لا يلتبس فيه الإيجاب بالنفي من أجل المعنى»^(١).

ومن ورودها زائدة مؤكدة في القرآن الكريم، قوله تعالى ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣] والمعنى ما منعك أن تتبعني؟ ولو لم تقدرها زائدة للتوكيد لكان المعنى: ما منعك من عدم اتباعي؟ أي هو يحاسبه على أتباعه في حين أن المعنى: ما منعك من أتباعي، أي لم لم تتبعني؟ ف (لا) زائدة للتوكيد، ومثله قوله تعالى مخاطبا إبليس ﴿مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] والمعنى ما منعك أن تسجد؟ وإلا كان إبليس ساجداً ويكون محاسباً على سجوده، لأنه سيكون المعنى: ما منعك من عدم السجود؟ أي لم سجدت؟ في حين أن المعنى هو: ما منعك من السجود أي: لم لم تسجد؟ يدل على ذلك قوله تعالى في سورة (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥] من دون (لا).

فزيدت (لا) في الأعراف توكيداً، ولم تزد في (ص) وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل في موضعه، وسياق كل من القصتين يوضح ذلك.

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحَرُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَبَكَدُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٩].

(١) «الأصول» (٢/ ٢٢٠).

وقال في سورة (ص):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجْدًا ۚ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أََمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُم مِّن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ لَّعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَا مَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧١-٨٥].

وبالنظر في سياق كل من السورتين يتضح سبب زيادة (لا) في الأعراف، دون سورة (ص)، فإن التوكيد في سورة الأعراف أكبر، فاقضي ذلك أن يؤدي بـ (لا) الزائدة المؤكدة، يدل على ذلك بدؤه القصة في سورة الأعراف بقوله (ولقد خلقناكم) و(لقد) مؤكدان هما اللام و(قد)، وهي أعني (لقد) جواب قسم عند النحاة، والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص)، فإنها تبدأ بقوله: (وإذ قلنا).

ثم أن المؤكدات في قصة الأعراف أكثر (لقد، وزيادة (لا)، أنك من الصاغرين، أنك من المنظرين، لا تعدن، لا تبينهم، لا ملأن جهنم منكم أجمعين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ثم أن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد والغلظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى إسمه فلم يذكره في (الأعراف)، فقال (قال ما منعك ألا تسجد) في حين ذكر إسمه في (ص) فقال: (قال يا إبليس ما منعك إن تسجد).

ويدل على ذلك صيغة الطرد في (الأعراف) قال (فأهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج أنك من الصاغرين) فقد كرر الطرد مع الصغار، (فأهبط) (فأخرج أنك من الصاغرين) وكرر الطرد مرة أخرى في الآية ١٨ قائلا (قال أخرج منها مذووما مدحورا).

وليس كذلك في سورة (ص)، فإنه قال (قال فأخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين).

ومما يدل أيضا على أن مقام السخط في قصة الأعراف اكبر، هو عدم التبسط مع إبليس في الكلام، بخلاف آيات (ص)، وإن عدم التبسط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك، أنه قال في (الأعراف) ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال في (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٣٨].

وقال في (الأعراف): ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف ١٥].

وقال في (ص): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ [ص: ٨٠-٨١]. فزاد الفاء وزاد (إلى يوم الوقت المعلوم).

وقال في (الأعراف): ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

وقال في (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، فزاد (رب) والفاء.

فإنه لما كان المقام مقام تبسط في الكلام، تبسط هو أيضا بخلاف آية الأعراف، فإنه لما كان مقام سخط كبير، حذف التبسط، وجعل الكلام على أوجز صورة، ولكل مقام مقال.

ثم إن القصة في (الأعراف) أطول مما هي في (ص)، فناسب ذلك زيادة (لا) أيضا فيها دون (ص).

وهناك جانب فني آخر حسن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص)، وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ (المص) وقد أنبه القدامي الى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر ترديدها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها^(١).

(١) انظر «بدائع الفوائد» (١٧٣/٣).

فناسب زيادة (لا) وهي لام والف مع السورة التي تبدأ بألف ولام، دون التي لم تبدأ بهما والله أعلم.

ثم أن جو السورة في الأعراف، يختلف عنه في (ص)، مما حسن تأكيد السجود في (الأعراف) دون (ص)، فإنه من الواضح لدارس القرآن أن لكل سورة من سورته جواً معيناً يسيطر عليها، ولعل الله ييسر لنا فرصة البحث في هذا الموضوع.

فإن مشتقات السجود كالمسجد، والساجدين، ونحوها ترددت في سورة (الأعراف) تسع مرات بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر، إلا ثلاث مرات.

فقد جاءت مشتقات السجود في الأعراف في المواطن الآتية:

١- ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

٢- ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

٣- ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٤- ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

٥- ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠].

٦- ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

٧- وختم السورة بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذا الموطن، وهي قوله:

١- ﴿فَقَعُوا لَّهُمْ سَجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

٢- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ [ص: ٧٣-٧٤].

٣- ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

فقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) ثلاث مرات.

فناسب ذلك أن يؤكد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم.

اذن

إذن جواب وجزاء^(١). يقول الرجل: سأزورك، فتقول: إذن أحسن إليك، فأنت أجبتَه وجعلت إحسانك إليه جزاء لزيارته، فالاحسان مشروط بالزيادة، فكانت (اذن) هنا جواباً وجزاء.

جاء في (المفصل): «يقول الرجل: أنا آتيك، فتقول: أذن أكرمك، فهذا الكلام قد أجبتَه به وصيرت أكرامك جزاء له على أتياه.

وقال الزجاج: تأويلها أن كان الأمر كما ذكرت، فإني أكرمك^(٢)».

وقد تتمحض للجواب فلا يكون فيها مجازاة، وذلك نحو أن يقال لك: أنا أحبك، فتقول: اذن أظنك صادقاً، فلا مجازاة هنا^(٣).

ويتنصب بعدها الفعل المضارع بشرط تصديرها واستقباله واتصالها بالفعل^(٤).

ومعنى التصدير أن تقع في أول الجملة، نحو قولك لمن قال لك: سأزورك، إذن أكرمك، بالنصب لا غير لأنها وقعت في أول الكلام، وكان الكلام مبنياً عليها.

(١) «كتاب سيبويه» (٣١٢/٢).

(٢) «المفصل» (٢١٦/٢).

(٣) «المغني» (٢٠/١).

(٤) انظر «المغني» (٢١/١).

فإذا لم يعتمد الكلام عليها، بل كان ما بعدها من تمام ما قبلها الغيت، وذلك في ثلاثة مواضع^(١):

الأول: أن يكون ما بعدها خبراً لما قبلها، نحو (أنا إذن أكرمك) و(إني إذن أحسن إليك) فهنا يجب رفع الفعل لفوات التصدير، وذلك أن الفعل فيهما معتمد على ما قبلها فهو خبر لهما، ووقعت (إذن) معترضة بين المبتدأ والخبر^(٢)، كأنك قلت: أنا أكرمك إذن.

الثاني: أن يكون جزاء للشرط الذي قبلها، نحو (إن تأتني إذن أكرمك) فأكرمك مجزوم لأنه جواب الشرط، وهي معترضة بين الشرط والجواب، وليس الكلام معتمداً عليها.

الثالث: أن يكون جواباً للقسم الذي قبلها، نحو (والله إذن لأخرجن) ف (لأخرجن) جواب القسم وهي معترضة بين القسم والجواب، وقد بني الكلام على القسم، وكذلك قولك (والله إذن لا أخرج) بالرفع فلا يجوز النصب هنا لأنه جواب للقسم بخلاف ما إذا قدمتها، فقلت (إذن والله أكرمك) فإن الفعل يتنصب بعدها، وذلك لأن الكلام مبني عليها، وكان اليمين معترضاً.

جاء في (كتاب سيبويه): «ومن ذلك أيضاً قولك (إن تأتني إذن آتاك) لأن الفعل ههنا معتمد على ما قبل (إذن)... ومن ذلك أيضاً (والله إذن لا أفعل) من قبل أن (أفعل) معتمد على اليمين، و(إذن) لغو وليس الكلام ههنا بمتزلته، إذا كانت (إذن) في أوله لأن اليمين ههنا الغالبة، ألا ترى أنك تقول إذا كانت (إذن) مبتدأة (إذن والله أفعل) لأن الكلام على إذن، و(والله) لا يعمل شيئاً.

ولو قلت (والله إذن أفعل) تريد أن تخبر أنك فاعل، لم يجز كما لا يجوز (والله أذهب إذن) إذا أخبرت أنك فاعل، فقبح هذا يدلك على أن الكلام معتمد على اليمين»^(٣).

(١) أنظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٦٤-٢٦٥)، «المفصل» (٢/٢١٦).

(٢) أنظر «شرح شذور الذهب» (٢٩٠).

(٣) «كتاب سيبويه» (١/٤١١-٤١٢).

وجاء في (المقتضب): «والموضع الذي لا تكون فيه عاملة البتة قولك: (إن تأتني إذن آتلك) لأنها داخلة بين معمول ومعمول فيه.

وكذلك إن كانت في القسم، بين المقسم به والمقسم عليه، نحو قولك: (والله إذن لا أكرمك) لأن الكلام معتمد على القسم، فإن قدمتها كان الكلام معتمداً عليها، فكان القسم لغواً نحو (إذن والله أضربك)، لأنك تريد (إذن أضربك والله).

فالذي تلغيه لا يكون مقدماً، إنما يكون في أضعاف الكلام، ألا ترى أنك لا تقول (ظننت زيد منطلق)، لأنك إذا قدمت الظن، فإنما تبني كلامك على الشك»^(١).

فهي - كما ترى - نظيرة (ظننت) واخواتها، فكما أن (ظننت) إذا اعتمدت الكلام عليها أعملت، وإذا لم بين الكلام عليها الغيت، كذلك (إذن) إذا اعتمدت الكلام عليها أعملت، وإذا لم يعتمد الكلام عليها الغيت.

فإذا وقعت في أول الكلام، كان الكلام مبنياً عليها، وإذا توسطت أو تأخرت، كانت معترضة ملغاة.

جاء في (المقتضب): «أعلم أن (إذن) في عوامل الأفعال كـ (ظننت) في عوامل الأسماء، لأنها تعمل وتلغى كـ (ظننت)، ألا ترى أنك تقول: (ظننت زيدا قائماً) و(زيد ظننت قائم) إذا أردت: زيد قائم في ظني، وكذلك (إذن) إذا اعتمدت الكلام عليها نصب بها، وإذا كانت بين كلامين أحدهما في الآخر عامل الغيت، ولا يجوز أن تعمل في هذا الموضع، كما تعمل (ظننت) إذا قلت (زيداً ظننت قائماً) لأن عوامل الأفعال لا يجوز فيها التقديم والتأخير، لأنها لا تتصرف»^(٢).

فإن كان ما قبلها واواً أو فاء، جاز نصب الفعل بعدها ورفعها باعتبارين مختلفين، وذلك نحو قولك: (أنا أزورك وإذن أنفعك) فهنا يجوز في (أنفعك) الرفع والنصب،

(١) «المقتضب» (١١/٢).

(٢) «المقتضب» (١٠/٢)، وانظر «كتاب سيبويه» (١/٤١٠-٤١١).

فالرفع على أنه معطوف على (أزورك) الذي هو الخبر وكانت (إذن) معترضة كأنك قلت: أنا أزورك وأنفعلك إذن، أو علي أنك تنفعه الآن في المستقبل أي أنك قائم بنفعه، لأنها لا ينتصب الفعل بعدها إلا إذا كان مستقبلاً.

والنصب على أنه جملة مستأنفة وليست خبراً، بل هي جملة مصدرية بإذن تنوي، بها نفعه في المستقبل.

جاء في (شرح ابن يعيش): «أن يكون ما قبلها واواً أو فاء فيجوز أعمالها والغاؤها وذلك قولك (زيد يقوم وإذن يذهب) فيجوز ههنا الرفع والنصب باعتبارين مختلفين، وذلك إنك إن عطفت (وإذن يذهب) على (يقوم) الذي هو الخبر، الغيت (إذن) من العمل وصار بمنزلة الخبر، لأن ما عطف على شيء صار واقعاً موقعه، فكأنك قلت: (زيد إذن يذهب) فيكون قد اعتمد ما بعدها على ما قبلها لأنه خبر المبتدأ، وإن عطفته على الجملة الأولى كانت الواو كالمستأنفة، وصار في حكم ابتداء كلام، فأعمل لذلك ونصب به»^(١).

ونحوه قولك: (إن تأتني آتاك وإذن أكرمك) فإن شئت رفعت (أكرمك)، وإن شئت نصبت، وإن شئت جزمته، وذلك بحسب المعنى والقصد، فالجزم على أنه معطوف على الجواب، فهو جواب مثله، والمعنى أن تأتني آتاك وأكرمك، إذن فالاتيان والإكرام مشروطان باتيانته هو، وإن نصبت فليس على أنه عطف على الجواب، بل على أنه جملة مستقلة، والمعنى أنه سيكرمه في المستقبل، وليس ذلك مرتبطاً بالجواب، والمعنى أنك أن تأتني آتاك ثم أخبرته بأنك ستكرمه في المستقبل، ونحوه أن تقول (من يُعِنْ ذا حاجة يعنه الله وإذن أعينك) فـ (إذن أعينك) لا تصلح جواباً للشرط، إذ لا يصح أن يقال: من سيأتي واذن أصرفك) لأن (أصرفك) لا يصح أن يكون خبراً عن (خالد).

ونحوه (كلما زرته أحسن وفادتي وإذن أكرمه) فإن جملة (إذن أكرمه) لا تصلح جواباً لكلما لأن جوابها ماضٍ، والمعنى ليس عليه أيضاً.

والرفع على أنها ملغاة والمعنى (أن تأتني آتك وأنا أكرمك إذن) فليس هو من باب العطف على الجواب، بل هو إستئناف، ونظيره قوله تعالى ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يَوَلُّوْكُمْ أَلَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] فلم يجزم (ينصرون) لأنه ليس معطوفاً على الجواب، بل هو إخبار جديد، ليس مشروطاً بالمقاتلة فكأنه قال: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، أو يكون على إرادة الحال، لا إستقبال، والمعنى أنا قائم بإكرامك الآن.

جاء في (الكتاب): «ويقول (إن تأتني آتك وإذن أكرمك) إذا جعلت الكلام على أوله ولم تقطعه وعطفته على الأول، وإن جعلته مستقبلاً نصبت، وإن شئت رفعت على قول من ألغى، وهذا قول يونس وهو حسن لأنك إذا قطعت من الأول فهو بمنزلة قولك (فإذن أفعِل) إذا كانت مجيئاً رجلاً»^(١).

وجاء في (المقتضب): «واعلم أنها إذا وقعت بعد واو أو فاء صلح الأعمال فيها والالغاء لما أذكره لك وذلك قولك (أن تأتني آتك وإذن أكرمك) إن شئت رفعت، وإن شئت نصبت، وإن شئت جزمت.

أما الجزم فعلى العطف على آتك والغاء (إذن)، والنصب على أعمال (إذن)، والرفع على قولك (وأنا أكرمك) ثم أدخلت (إذن) بين الابتداء والفعل فلم تعمل شيئاً»^(٢).

ومعنى أستقبله أن الفعل المضارع لا ينتصب بعدها إلا إذا كان مستقبلاً، شأن بقية النواصب، فإن كان للحال لم ينتصب، وذلك نحو (إذن أكتب) إذا كانت الكتابة في الحال و(إذن أظنك صادقاً).

جاء في (كتاب سيويه): «وتقول إذا حدثت بالحديث (إذن أظنّه فاعلاً) و(إذن أخالك كاذباً) وذلك لأنك تخبر أنك تلك الساعة في حال ظن وخيلة، فخرجت من باب

(١) «كتاب سيويه» (٤١٢/١).

(٢) «المقتضب» (١٢-١١/٢).

(أن) و(كي) لأن الفعل بعدهما غير واقع وليس في حال حديثك فعل ثابت... ولو قلت (إذن أظنك) تريد أن تخبره أن ظنك سيقع لنصبت، وكذلك (إذن يضربك) إذا أخبرت أنه في حال ضرب لم ينقطع^(١).

وجاء في (المقتضب): «وقد يجوز أن تقول (إذن أكرمك) إذا أخبرت أنك في حال إكرام لأنها إذا كانت للحال خرجت من حروف النصب لأن حروف النصب إنما معناه مالم يقع^(٢).

وجاء في (الأصول) لأبن السراج: «فإن كان الفعل الذي دخلت عليه (إذن) فعلاً حاضراً، لم يجوز أن تعمل فيه لأن أخواتها لا يدخلن إلا على المستقبل، وذلك إذا حدثت بحديث فقلت: إذن أظنه فاعلاً وإذن أخالك كاذباً، وذلك لأنك تخبر عن الحال التي أنت فيها في وقت كلامك، فلا تعمل (إذن) لأنه موضع لا تعمل فيه أخواتها^(٣).

وقال ابن النظم: «فلو كان المضارع بمعنى الحال، وجب رفعه لأن فعل الحال لا يكون إلا مرفوعاً، وذلك قولك لمن قال: أنا أحبك، إذن أصدقك^(٤).

والمقصود باتصالها بالفعل إلا يفصل بينهما فاصل، فلو قلت (إذن عبدالله يكرمك) ارتفع الفعل ولم يجوز نصبه^(٥). وأجيز الفصل بين (إذن) والفعل المضارع المنصوب بالقسم، نحو (إذن والله أكرمك)، والدعاء نحو (إذن رحمك الله أكرمك)، والنداء نحو (إذن يا زيد أكرمك)^(٦)، ولا النافية^(٧) نحو (إذن لا أذهب) وقرئ (وإذن لا يلبثوا خلافاً لا قليلاً)^(٨).

(١) «كتاب سيبويه» (١/٤١٢).

(٢) «المقتضب» (٢/١٣).

(٣) «الأصول» (٢/١٥٣-١٥٤).

(٤) «شرح الألفية» (٢٧٦).

(٥) انظر «كتاب سيبويه» (١/٤١٢).

(٦) «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٦٣).

(٧) «المعني» (١/٢٠).

(٨) «المفصل» (٢/٢١٦).

كي

ومعناها السببية، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَيِّ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣] وعند النحاة أنها إذا سبقت باللام، فليست حرف تعليل، بل التعليل مستفاد من اللام، وذلك نحو ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، لأنها لو كانت حرف تعليل لم يدخل عليها حرف تعليل^(١).

ويبدو لي أنها تعليلية على كل حال، سواء أفردت أم سبقت باللام، يدل على ذلك أنها لا تستعمل إلا في مقام التعليل، أما قولهم إن حرف التعليل لا يدخل على حرف التعليل فلا أراه سليماً، وذلك أن اللفظين اللذين يفيدان معنى واحداً قد يقترنان كما في التوكيد، نحو قوله تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] ف (كلهم) توكيد و(أجمعون)، توكيد ونحو (جاء أخوك بنفسه) فالباء زائدة للتوكيد و(نفسه) توكيد، ونحو (جئت أنا نفسي) ونحو (لا لا أذهب)، وكما في التشبيه نحو (ليس كمثله شيء) ف (الكاف) للتشبيه و(مثل) للتشبيه في قول، ونحو قول الشاعر:

فصيروا مثل كعصف مأكول

وكقولنا (هي كمثل البدر)، وهذا مثله.

ويدل على ذلك أيضاً أن كلاً من (كي) واللام مستعمل في التعليل في اللغات السامية والعربية الجنوبية.

فيقابل (كي) في العبرية Ki^(٢) والكاف في العربية الجنوبية^(٣)، وكذلك (اللام) فهي تدخل على المضارع في اللهجة الشمودية، وفي العربية الجنوبية لتبين العلة^(٤).

(١) انظر «المغني» (١/١٨٢)، «الهمع» (٥/٢).

(٢) «التطور النحوي» (١٣١-١٣٢).

(٣) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧/١٣٦).

(٤) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧/٢٠٧، ١٣٦).

فالراجع أنها للتعليل كـ (اللام).

وعلى آية حال هي لا تستعمل إلا في مقام السببية، سواء قلنا أنها للتعليل أم لا، أما الخلاف النحوي في أنها جارة أو ناصبة، فهذا لا يعنيننا هنا.

لام التعليل

وهي أوسع استعمالاً من (كي) فهي تدخل على الفعل المضارع وغيره، لبيان العلة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ونحو (جئت لطلب العلم).

وعند النحاة أنه يفيد التعليل، سواء اتقترن بـ (كي) أم لم يقرن، أما (كي) فلا تكون حرف تعليل إلا إذا لم تقترن باللام - كما أسلفنا -.

وعند جمهور النحاة أن لام التعليل تكون بعدها (إن) مضمرة، تنصب الفعل، يجوز أظهارها وإضمارها في غير لام الجحود، فإنها مضمرة وجوباً نحو ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وفي غير الفعل المسبوق بـ (لا) فإنها تظهر وجوباً، نحو ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]^(١).

غير أن الذي يظهر، أن التعليل باللام وحدها قد يختلف عنه إذا ذكرت معها (أن) أحياناً، وذلك نحو قولنا (ما قُتِلَ إلا لأن يقول ربي الله) و(ما قُتِلَ إلا ليقول ربي الله). فالأولى تفيد أنه كان يقولها، وما قُتِلَ إلا لأنه كان يقولها، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] أي لأنهم يقولونها. وباللام يفهم أنه قُتِلَ ليقولها أي أنه لا يقولها، وهو عكس المعنى الأول.

(١) انظر «كتاب سيبويه» (٤٠٧/١)، شرح ابن يعيش «(٢٨/٧)، «الهمع» (١٧/٢).

ونحو ذلك أن تقول (أتضرب رجلاً يعبد الله) و(أتضرب رجلاً ليعبد الله) فالأولى تفيد أنه يضربه، لأنه يعبد الله، والثانية يضربه حتى يعبد أي أنه لا يعبد. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] أي لأنه يقولها، ولو قال ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] أي لأنه يقولها، ولو قال (أتقتلون رجلاً ربي الله) أنعكس المعنى وصار أتقتلون حتى يقولها؟.

بل الذي يبدو على وجه التدقيق، أن التعليل بـ (أن) وحدها قد يختلف عن التعليل باللام وحدها، ويختلف عن التعليل بـ (أن) مع اللام في أحيان كثيرة. فقولك:

أقتله أن يعبد الله؟ يختلف عن قولك:

أقتله ليعبد الله؟ ويختلف عن قولك:

أقتله لأن يعبد الله؟.

فالأولى تفيد نصاً، أنه يعبد الله وأنه يقتله بسبب عبادته له، نظير قوله تعالى: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

وباللام وحدها تفيد نصاً أنه لا يعبد الله، وإنما تفيد أنه يقتله حتى يعبد الله.

وباللام مع أن نحو (أقتله لان يعبد الله) يحتمل المعنيين:

المعنى الأول أنه يعبد، وأنه يقتله بسبب عبادته له.

والآخر أنه لا يعبد، وأنه يقتله لأجل أن يعبد.

فجمع اللام مع (أن) دلالة على جمع المعنيين، فحمل كل من اللام وأن معناه، وهو من التعابير الإحتمالية الكثيرة في العربية.

وهذا يدل على أنها ثلاثة أساليب مختلفة، وليست أسلوباً واحداً كما يفهم من قول النحاة.

التعليل بـ (كي) واللام:

قد يرد سؤال على الذهن يحتاج إلى إنعام نظر وهو: ما الفرق بين اللام و (كي)؟، وهل التعليل بهما متطابق؟.

الحقيقة أنه لا يبدو هناك فرق واضح بينهما في التعليل، فهما متقاربان جداً، غير أن الذي يبدو لي أن الأصل في (كي) أن تستعمل لبيان الغرض الحقيقي، واللام تستعمل له ولغيره، فاللام أوسع استعمالاً من (كي) وهذا ما نراه في الاستعمال القرآني، فقد وردت (كي) في القرآن في عشرة مواطن هي:

- ١- ﴿فَأَثْبِكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَّا يُعْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].
- ٢- ﴿وَأَشْرِكُوا فِي أُمُورِي كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٢-٣٤].
- ٣- ﴿فَرَحَّحْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّغَ عَنْهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].
- ٤- ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].
- ٥- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمَمِهِ كَيْ تَفَرَّغَ عَنْهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣].
- ٦- ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٣٧].
- ٧- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠].
- ٨- ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

٩- ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيْنَا أَرْذَلُ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠].

١٠- ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ووردت اللام في مواطن كثيرة جداً، وبموازنة الإستعمال القرآني بينهما نرى أن القرآن خصص (كي) بالتعليل الحقيقي، وأما اللام فقد أستعملها له ولغيره، فمن ذلك مثلاً:

١- أن اللام وردت للتعليل المجازي في القرآن الكريم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. وهو الذي يسميه النحاة لام العاقبة، فإن هذا تعليل مجازي، وذلك أن آل فرعون لم يلتقطوه لذلك، بل لينفَعهم كما قال تعالى على لسان امرأة فرعون: ﴿قَرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولكن عاقبة التقاطه أن أصبح لهم عدواً وحزناً، فكانهم التقطوه لذلك، وهذا كما تقول (علمتك الرماية لترميني وعلمتك الشعر لتهجونني) أي كان ذلك عاقبة أمرك.

ولم يرد تعليل مجازي بـ (كي) في القرآن الكريم، فلم يقل مثلاً: (التقطه آل فرعون كي يكون لهم عدواً وحزناً).

٢- وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿خَمَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فهذا قريب من التعليل المجازي إذ من المحتمل أنه لم يكن غرض المفتري إضلال الناس، بدليل قوله تعالى (بغير علم) وبدليل قوله تعالى ﴿وَلَا كِبِيرًا يُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] ولكن المفترى على الله يضل الناس يقينا، ولا تشفع له نيته في ذلك، أيًا كانت بدليل قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥] فهو لا يشفع لهم اعتقادهم أنهم يحسنون صنعا.

فاستعمل التعليل هنا باللام ولم يستعمله بـ (كي)، وذلك أنه لو قال (أفترى على الله كذباً كي يضل الناس) كان المعنى أنه أفترى الكذب لهذا الغرض.

ونحو هذا أن تقول (سعى ليفسد في الأرض من دون أن يعلم) لأنه بـ (كي) يكون المعنى إن غرض السعي الذي سعه هو الإفساد، فكيف يصح أن يقال: من دون أن يعلم؟.

ويجوز ذلك في اللام لأنها للغرض عموماً.

٣- وقريب من ذا أيضاً قوله تعالى ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] ولا شك أن الله يعلم ذلك ابتداءً، والمقصود هنا العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، وليس مجرد العلم، فجعل التعليل باللام ولم يجعله بـ (كي) ولو قال (كي نعلم) لكان المقصود العلم لذاته، ومعنى ذلك أن الأمر مجهول له سبحانه، ولم يأت نحو هذا التعبير بـ (كي) في القرآن الكريم.

٤- والظاهر من الإستعمال القرآني أن (كي) تستعمل للغرض المؤكد، والمطلوب الأول، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [القصص: ١٣] فقد جعل التعليل الأول بـ (كي) (كي تقر عينها) والثاني باللام (ولنعلم أن وعد الله حق). والأول هو المطلوب الأول، والمقصود الذي تلح عليه الأم بدليل اقتصاره عليه في آية طه، قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

فالمطلوب الأول للام هو ردّ ابنها إليها في الحال، أما جعله نبياً مرسلًا، وهو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [القصص: ١٣]، فهو غرض بعيد، إذ هي محترقة لردّ ابنها الرضيع إليها.

وهذا غرض كل أم سلب منها ابنها، أعني أن يعاد إليها أولاً، سواء كانت الأم مؤمنة،

أم كافرة، بل هو مطلوب للآمات من الحيوان، ولذا عللها في الموطنين بـ (كي) ولم يعلله باللام.

ثم أن أم موسى تعلم أن وعد الله حق لا يتخلف، وقد وعدا ربها بأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]، معناه الإطمئنان، لا مجرد العلم، ولو قال (كي) تعلم أن وعد الله حق) لكان المعنى أنها تجهل أن وعد الله حق، وأنه رده إليها لتعلم هذا الأمر.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١] وهذا في أصحاب الكهف، وهم يعلمون أو وعد الله حق، ولا شك وكيف لا وهم فارقوا قومهم لإيمانهم بالله تعالى؟ فلو قال (كي) يعلموا) لكان المعنى ان هذا هو الغرض الحقيقي وقد كانوا يجهلون ذاك.

وأم قوله (كي) تفر عينها ولا تحزن) فهذا غرض حقيقي لا يتحقق إلا برد طفلها إليها، وهذا أشبه بما مر في النقطة السابقة.

٥- ومن أوجه الخلاف بينهما في الاستعمال، أن اللام تستعمل مع كان المنفية وهي التي تسمى لام الجحود، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقوله ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧] ولا يصح استعمال (كي) هنا. فلا تقول (ما كان الله كي يعذبهم) ولا (لم أكن كي أحضر). ومن الجدير بالذكر أن (كي) غير المقترنة بنفي لم ترد في التعليل، إلا في ثلاثة مواطن هي:

١- ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

٢- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣].

٣- ﴿وَأَشْرِكُوا فِي أُمْرِي كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذَرَكُ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤].

وهي كما ترى كلها في بني إسرائيل، واحدة في كلام موسى لربه، واثنان في رجعه الى أمه.

ومن المعلوم أن (كي) حرف تعليل عبري Ki فتخصيص أستعماله في القرآن الكريم لهؤلاء القوم تخصيص فني جميل، كأنه إشارة الى الحديث بلغتهم القدمى.

وهذا أمر جدير بالنظر فيه في دراسة التعبير القرآني، فإنه كثيراً ما يستعمل اللفظ الذي أصله غير عربي مع القوم الذين كانوا يستعملونه، كأستعمال المنسأة والسري وغيرهما.

يتبين ممّا مرّ أن (كي) تستعمل للغرض الحقيقي، أما اللام فهي أوسع أستعمالاً منها، وإن الجمع بينهما يفيد التوكيد والله أعلم.

لن

تدخل على الفعل المضارع، فتخلصه للإستقبال، وتنفيه نفيّاً مؤكداً «تقول: لا أبرح اليوم مكاني، فإذا وكدت وشددت قلت: لن أبرح اليوم مكاني»^(١).

وهي نقيضة (سوف)، فإذا قلت (سوف أفعل) فنفيه (لن أفعل)^(٢)، فسوف للاثبات و(لن) للنفي ولا يجمع بينهما، فلا يقال (سوف لن أفعل) ولا (سوف لا أفعل) كما هو شائع اليوم.

وذهب بعضهم أنّ نفيها يفيد التأييد^(٣). قال تعالى ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] وقال: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَن يَحْدِلْهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢].

والحق أنها لا تفيد، وإنما هي للإستقبال، وهذا الإستقبال قد يكون بعيداً متطاولاً، وقد يكون قريباً منقطعاً، بدليل قوله تعالى ﴿فَلَن أَكْلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]

(١) «المفصل» (٢/ ٢٠٠) وانظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٢٦٠).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/ ٤٦٠)، وانظر «المقتضب» (٢/ ٦) «شرح ابن يعش» (٧/ ١٥).

(٣) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٢٦٠)، «البرهان» (٢/ ٤٢٠).

فقد قيدها بيوم واحد وهو ينافي التأييد^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فهي هنا موقوتة بالمعركة.

لن ولا:

ذهب أكثر النحاة إلى أن (لا) كـ (لن) من حيث تخليصها المضارع للاستقبال، إلا أن (لن) أكد منها:

وخلاصة ما يذكره النحاة فيهما:

١- أن (لا) تخلص الفعل المضارع للاستقبال، كـ (لن) عند الأكثرين وخالفهم ابن مالك لصحة قولنا (جاء زيد لا يتكلم) فإن جملة (لا يتكلم) حال مع الاتفاق على أن الجملة الحالية لا تصدر بدليل استقبال^(٢).

٢- أن في (لن) توكيداً لانفيده (لا)، تقول «لا ابرح اليوم مكاني فإذا وكدت وشدت قلت: لن ابرح اليوم مكاني»^(٣).

وجاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] «فإن قلت: ما حقيقة (لن) في باب النفي؟».

قلت: (لا) و(لن) أختان في نفي المستقبل، إلا أن في (لن) توكيداً وتشديداً، تقول لصاحبك: لا أقيم غداً، فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غداً، كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم^(٤).

(١) انظر «المغني» (٢٨٤/١).

(٢) «المغني» (٢٤٤/١).

(٣) «المفصل» (٢٠٠/٢).

(٤) «الكشاف» (١٩٢/١)، وانظر (٥٧٤/١) في قوله تعالى (لن تراني).

وذهب ابن عصفور إلى أن هذا القول دعوى بلا دليل «بل قد يكون النفي بـ (لا) أكد من النفي بـ (لن)، لأن المنفي بـ (لا) قد يكون جواباً للقسم، نحو (والله لا يقوم زيد) والمنفي بـ (لن) لا يكون جواباً له، ونفي الفعل إذا أقسم عليه أكد منه إذا لم يقسم»^(١).

٣- إن النفي بـ (لا) أطول من النفي بـ (لن)، أي أن (لن) تنفي المستقبل القريب بخلاف (لا) فإنها تنفي المستقبل المتطاوّل.

جاء في (البرهان) أن بعضهم ذهب إلى أن «النفي بـ (لا) أطول من النفي بـ (لن) لأن آخرها الف وهو حرف يطول فيه النفس، فناسب طول المدة بخلاف (لن).

ولذلك قال تعالى: ﴿كُنْ تَرْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو مخصوص بدار الدنيا، وقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]^(٢) وهو مستغرق لجميع أزمنة الدنيا والآخرة، وعلل بأن الالفاظ تشاكل المعاني ولذلك أختصت (لا) بزيادة مدة.

وهذا ألطف من رأي المعتزلة، ولهذا أشار ابن الزملكاني في (التيان) بقوله: (لا) تنفي ما بعد و(لن) تنفي ما قرب، وبحسب المذهبين أولوا الآيتين في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧].

قلت: والحق أن (لا) و(لن) لمجرد النفي عن الأفعال المستقبلية، والتأييد وعدمه يؤخذان من دليل خارج»^(٣).

وجاء في (بدائع الفوائد) أن (لن) «تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها، كامتداد معنى النفي في حرف (لا) إذا قلت: لا يقوم زيد أبداً...

وتأمل حرف (لا) كيف تجدها لا ما بعدها الف يمتد بها الصوت، مالم يقطعه ضيق النفس، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها و(لن) بعكس ذلك، فتأمل أنه معنى بديع،

(١) «الإشباع والنظائر» (٩/٣-١٠).

(٢) والمقصود بالادراك الاحاطة.

(٣) «البرهان» (٢/٤٢٠-٤٢١)، وانظر «الهمع» (٢/٤).

وانظر كيف جاء في أفصح الكلام كلام الله (ولا يتمنونه أبدا) بحرف (لا) في الموضع الذي اقترن به حرف الشرط بالفعل، فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الازمنة وهو قوله عز وجل (ان زعمتم انكم اولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت). وقال في سورة البقرة (ولن يتمنوه) فقصر من سعة النفي، وقرب، لأن قبله (قل ان كانت لكم الدار الآخرة) لأن (أن) و(كان) هنا ليست من صيغ العموم^(١).

قليل: وهذا أيضا باطل، بل أن كلا منهما «يستعمل حيث يمتد النفي وحيث لا يمتد. فمن الأول في (لن) ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ سِتًّا﴾ [البقرة: ١٩] «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» [البقرة: ٢٤]، وفي (لا) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨].

ومن الثاني في (لن) ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، وفي (لا) ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [آل عمران: ٤٢]^(٢).

على أنه قيل بالعكس، فقد ذهب جماعة إلى أن (لن) تفيد التأييد، بخلاف (لا) كما أسلفنا.

٤- وذهب بعضهم إلى أن العرب تنفي المظنون بـ (لن)، والمشكوك فيه بـ (لا)، أي أنه إذا كان الشيء ممكناً عند المخاطب مضموناً وقوعه، نفي بـ (لن) وإذا كان مشكوكاً في وقوعه كان تقول: أياكون أم لا يكون؟ قلت في نفيه:

لا يكون^(٣).

هذا أبرز ما قيل في التفريق بينهما.

(١) «بدائع الفوائد» (٩٥/١-٩٦).

(٢) «الإشباع» (٩/٢-١٠).

(٣) انظر «الانان» (١٢/١)، «بدائع الفوائد» (٩٧/١).

ونقول:

أما أن (لا) تأتي للإستقبال فهذا مالا شك فيه، قال تعالى ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] وهذا أستقبال.

وقال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

وقال: ﴿وَلَا تُشَلُّونَ عَمَّا كَانُوا يَمَلُّونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهذا كله أستقبال.

وأما تخليصها الفعل المضارع للإستقبال، وأنها لا تنفي الحال، فهذا موضع نظر نازع فيه بعضهم مستدلاً بصحة قولنا (جاء زيد لا يتكلم) وبصحة قولنا (أتجبه أم لاتجبه) و(أنظن ذلك أم لاتظن)، ولا ريب أن ذلك بمعنى الحال، وبقولهم: مالك لا تقبل، وأراك لا تبالي. وينحو قول الله تعالى ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٤] و﴿مَالِكُ لَا أَرَى الْهَٰذِهِدْ﴾ [النمل: ٢٠] و﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]^(١) وهذا كله يفيد الحال.

والحق الذي لا مرية فيه أنها تأتي للحال، كما تأتي للاستقبال، وليست هي من مخلصات الفعل للمستقبل كما يذهب اليه الجمهور، يدل على ذلك الإستعمال الفصيح الكثير في القرآن الكريم وغيره.

قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وهذا للحال ولو ابدلت (لن) بها فقلت (والله يعلم وأنتم لن تعلموا) أنقلب المعنى الى الإستقبال.

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

وقال: ﴿رَبِّ إِنِّْي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥].

وهذا كله واضح في الحال، ولو قال مثلا (لن أملك الا نفسي) لتخلص الفعل للإستقبال.

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَاقٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال: ﴿وَتَرْتَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] ولو قال (لن تعلموا شيئا) لافاد ذلك المستقبل وهو لا يصح.

وقال: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْحَرُ بِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤، ٥] أي ألا يظنون الآن؟.

وغير ذلك وغيره مما لا يدع مجالاً للشك في أنها تأتي للحال.

ويدل على ذلك أيضاً قولنا (أنا لا أفهم ما تقول) أي الآن فإذا قلت: (لن أفهم) كان كان نفي الفهم في المستقبل، وقولنا (مالك لا تتكلم) قال تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢].

وتقول (أنا لا أحب هذا الطعام) و(أنا لا أشتهي الآن أن أكل) مخبراً عن نفسك في الحال، وتقول (أنا لا أظن أنه مسافر) مخبراً عن ظنك في الحال وغير ذلك.

وعلى هذا لا يصح قول الجمهور أنها تخص الفعل للاستقبال، بل هي تأتي للحال والاستقبال.

والحق أنها تنفي الفعل المضارع مطلقاً بكل أزمانه، الحال والاستقبال، المنقطع وغيره.

فالحال نحو ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَٰذِهِدْ﴾ [النمل: ٢٠].

والاستقبال نحو ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤].

والمنقطع نحو ﴿مَا يَتُوكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤٢].

والمستمر نحو ﴿فَلَا يَخْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

ونحو ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَمُنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧].

وتأتي مع الفعل الدال على الحقيقة نحو ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ونحو ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] و﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وما إلى ذلك.

فالخلاصة أن (لا) تنفي كل أزمنة المضارع، فهي لا تختص بزمان دون زمان.

وأما من حيث دلالة (لن) على التوكيد، فالأمر كذلك، تقول (لا أكلمك) فإن شددت وبالغت قلت (لن أكلمك) قال تعالى ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكْلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] وقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقال ﴿قَالُوا يَنْطُلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَيْكِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

وهذا كله مقام توكيد.

أما ما ذهب إليه ابن عصفور من أن النفي بـ (لا) قد يكون أكد من النفي بـ (لن) لأن النفي بـ (لا) قد يكون جواباً للقسم بخلاف المنفي بـ (لن)، فالجواب عنه أن ذلك لا ينفي التوكيد عن (لن)، فإن عدم وقوع (لن) جواباً للقسم لا يعني أنها غير مؤكدة، إذ ليس شرطاً أن تقع المؤكدات كلها في جواب القسم، فمن المعلوم مثلاً إن (أَنْ) المفتوحة الهمزة مؤكدة عند النحاة غير أنها لا تقع جواباً للقسم، فلا تقول (والله أَنْ محمداً حاضر) بفتح الهمزة وذلك لأن جواب القسم يكون جملة و(أَنْ) المفتوحة الهمزة مؤكدة عند النحاة، غير أنها لا تقع جواباً للقسم، فلا تقول (والله أَنْ محمداً حاضر) بفتح الهمزة وذلك لأن جواب القسم يكون جملة و(أَنْ) وما بعدها في تأويل مفرد، ولا ينفي ذلك كونها مؤكدة، وكذلك (لن) فإنها لا تقع جواباً لقسم، لسبب وهو إنها جواب لسوف و(سوف) لا تقع جواباً للقسم^(١) وكذلك منفيها.

(١) أي وحدها من دون اللام ولأفهي تقع معها نحو ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

والسبب الآخر في وقوع (لا) جواباً للقسم دون (لن) إن (لن) مختصة بالإستقبال و(لا) نفيها عام مطلق لا يختص بزمن دون زمن فتقول مثلاً: (هو والله لا يفقه) وتقول (والله لا احبه) ولا تصلح (لن) هنا، لأنّ هذا للحال و(لن) لا تكون للحال، فكون (لا) مطلقة لجميع الأزمنة هو الذي جعلها يُتلقى بها القسم دون (لن).

ولا يعني هذا أن ننفي عن (لا) التوكيد إذا وقعت جواباً للقسم، فقد تكون مؤكدة إذا وقعت جواباً للقسم.

ولا تقل كيف يكون الحرف مؤكداً في موضع دون موضع؟ فإن هذا له نظائر في كلام العرب وفي أحكام النحاة. فإن (لا) إذا وقعت جواباً للقسم كان لها صدر الكلام وإذا لم تقع جواباً للقسم لم يكن لها الصدارة عندهم، فأختلف حكمها إذا وقعت جواباً للقسم عنه إذا لم تقع جواباً للقسم.

و(إذا) تكون شرطية ظرفية معاً، وقد تكون ظرفية غير شرطية.

و(ما) تكون مصدرية ظرفية، وقد تكون مصدرية غير ظرفية.

والباء قد تكون مؤكدة، وقد تكون غير مؤكدة فكذلك (لا).

وتعليل ذلك أن (لا) أقدم حرف نفي في العربية، وكل حروف النفي الأخرى أحدث (منها)^(١)، وعلى هذا فهي كانت مستعملة في جميع الحالات، فلا عجب أن تستعمل في التوكيد وفي غيره بحسب ما يقتضيه المقام.

وأما قولهم: إن النفي بـ (لا) أطول من النفي بـ (لن) فهذا يحتاج إلى إيضاح، فإنهم إذا كانوا يقصدون أن النفي بـ (لا) يكون دوماً أطول من النفي بـ (لن) فهذا مردودة، قد يكون النفي بـ (لن) طويلاً أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

(١) أنظر «التطور النحوي» (١١٥).

فالحق أن كلا منهما يستعمل حيث يمتد النفي، وحيث لا يمتد، كما قال ابن عصفور.

ولكن مما لاشك فيه أن النفي بـ (لا) أوسع من النفي بـ (لن)، كما أوضحنا، فإن (لن) مختصة بالإستقبال، أما (لا) ففيها عام مطلق ينفي جميع الأزمنة، المستقبل وغيره، بل هي تنفي الفعل الماضي أيضاً، نحو قوله تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] ونحو قولنا (لا ذهب ولا رجع)، وتستعمل معه في الدعاء، نحو (لا أهلكه الله) و(لا فض الله فاك) وتستعمل مع الأسماء نحو (لا رجل) و(لا بد من ذلك)، وفي نفي النعوت، نحو قوله تعالى ﴿وَبَلَدٍ مِّنْ يَّحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤] ونحو قوله: ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذُلُولٌ﴾ [البقرة: ٧١].

فهي كما ترى أوسع نفيًا من (لن)، وسبب ذلك كما ذكرت يعود إلى أنها أقدم حرف نفي في العربية.

جاء في (التطور النحوي): «ونرى (لا) مستعملة في كل الحالات إلا الماضي.

وإذا راعينا أن (لم) ليست إلا (لا) بزيادة (ما) قلنا أن (لا) مستعملة في الجميع والسبب في ذلك أنها أقدم حروف النفي العربية، فكانت عامة ابتداءً، والباقية كلها أحدث وأخص»^(١).

بل لم يرد من أدوات النفي في الكتابات اللحيانية سوى لفظ (لا)^(٢).

«وأدوات النفي التي نعرفها من الكتابات العربية الجنوبية هي (ال) و(لم)، وتدخل (لم) على الفعل المضارع غير أن ذلك نادر، ومعنى (ال) (لا) ويرد بعد (الفعل سواء أكان ماضياً أم مضارعاً)^(٣).

(١) «التطور النحوي» (١١٥).

(٢) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (١٧٩/٧).

(٣) «تاريخ العرب قبل الإسلام» (١٣٧/٧).

فلا عجب أن تكون (لا) ممتدة النفي بهذا المعنى وبذلك تكون الملاحظة الطريفة في أن النفي بـ (لا) أطول من النفي بـ (لن) لأن آخرها ألف، وهو حرف يطول فيه النفس فناسب طول المدة بخلاف (لن) ملاحظة صحيحة.

وأما اختلاف النفي في الآيتين الكريميتين اللتين سبق ذكرهما في ورود إحداهما بـ (لن) والأخرى بـ (لا)، فهذا له سبب اقتضاه المقام، والآيتان هما:

١- ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥].

٢- ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعِمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَمَنَّوَنَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦، ٧].

فنفي الأول بـ (لن) (ولن يتمنوه) والثانية بـ (لا) (ولا يتمنونه)، وسبب ذلك أن الكلام في الأولى على الآخرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤]، وهي استقبال فنفي بـ (لن) وهو حرف خاص بالإستقبال.

وإن الكلام في الثانية عام لا يختص بزمن دون زمن ﴿إِنْ رَعِمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [الجمعة: ٦]، فهذا أمر مطلق فنفي بـ (لا) وهو الحرف الذي يفيد الإطلاق والعموم والله أعلم.

أما ما ذهب إليه بعضهم من أن العرب تنفي المظنون بـ (لن) والمشكوك فيه بـ (لا) فهذا كلام لا يقوم عليه دليل، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾ [الحج: ٧٣] ولم يظن أحد أنهم يتمكنون من خلق ذبابة، وكذلك بالنسبة لـ (لا)، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال ﴿وَلَا يَتُودُّوْا حِفْظَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهذا ليس مشكوكاً فيه، وقال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩] وقال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وليس في هذا شك.

فهذه- كما قلت- دعوى لا يقوم عليها دليل.

حروف أخرى ينتصب بعدها الفعل

وهي (أو) و(حتى) وفاء السببية، و واو المعية، وهذه الأحرف ليست حروف نصب عند الجمهور، بل هي حروف عطف و(حتى) حرف جر، ولذا يقولون أن النصب بـ (أن) مضمرة بعد هذه الأحرف، فقولنا (لا تأكل وتضحك) مثلاً فيه الفعل (تضحك) منصوب بـ (أن) مضمرة بعد الواو، والواو عاطفة و(أن) والفعل في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد قبله، أي لا يكن منك أكل وضحك، وكذا قولنا (أين بيتك فأزورك) يقدرّون قبل الفاء مصدراً متوهماً، يعطفون المصدر عليه، والتقدير لتكن منك دلالة على بيتك فزيارة مني، وكذلك (لزمك أو تقضيني حقي)، أي ليكونن لزوم مني أو قضاء منك لحقي^(١).

وبهذا التقدير يزول قصد التنصيب على المعية، والسببية، وتحقيق الوقوع بعد (أو)، فقولنا (لا يكن منك أكل وضحك) ليس فيه تنصيب على المعية، بل يحتمل المعية وغيرها فقد يكون النهي عنهما مجتمعين أو مفترقين، بخلاف قولنا: (لا تأكل وتضحك) فإن فيه تنصباً على المعية، وكذلك (لا تأكل كثيراً فتتخيم) فإن فيه نصاً على السبب بخلاف قولنا: (لا يكن منك أكل كثير فتخمة) فإن هذا التعبير يختلف عن التعبير الأول.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «ولو جعلنا الواو عاطفة للمصدر على مصدر متصيد من الفعل قبله، كما قال النحاة، أي ليكن منك قيام وقيام مني^(٢) لم يكن فيه نصوصية على معنى الجمع كما لم يكن في تقديرهم في الفاء معنى السببية»^(٣).

وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن العامل هي هذه الأحرف، وذهب آخرون إلى أن العامل هو الخلاف، أي مخالفة الفعل الثاني للأول، وذلك أنه لا يصح عطفه عليه من

(١) أنظر «المغني» (٢/ ٤٨٠)، «إبن الناظم» (٢٧٨)، «التصريح» (٢/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) «يعني في المثال» (قم وأقوم).

(٣) «شرح الرضي على الكافية» (٢/ ٢٧٣).

حيث إنه لم يكن له شريكاً في المعنى، فانتصب لذلك، وهذا القول أقرب الى المعنى من القولين الاولين كما هو ظاهر.

أو

الأصل في (أو) أن تكون لأحد الشئين، أو الأشياء نحو (هو يقرأ أوينام) أي يفعل أحد هذين الشئين، وهي حرف عطف يتبع المعطوف بها المعطوف عليه، نحو (لن أذهب إليه أو أخبره) أي لن أفعل أحد هذين الشئين.

وينصبون بعدها الفعل على إرادة معنى آخر غير معنى الأول، من حيث إنه لم يكن له شريكاً في الشك، بل على إرادة أنه محقق الوقوع أو راجحه تقول: (سألزمه أو يكتب لي في أمري) فإن معنى هذه العبارة بالعطف، سيكون احد هذين الأمرين، ومعناها بالنصب؛ سألزمه حتى يكتب لي في أمري أي تبقى ملازمتي له حتى تحصل الكتابة.

وهم يقدرون معناها إذا انتصب الفعل بعدها بـ (حتى) و(إلا أن) نحو: (لألزمك أو تقضيني حقى) و(لأضربك أو تسبقني) فالمعنى لألزمك إلا أن تقضيني حقى ولأضربك إلا أن تسبقني^(١) ومنه قوله:

وكنـت إذا غـمـزت قـناة قـوم كسـرت كـعـوبـها أو تـسـتـقيـما

أي: ألا أن تستقيم، ولا يصح تقدير (حتى) في البيت.

ومما يقدر بـ (حتى) قوله:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما إنفادت الآمال إلا لصابر

أي حتى أدرك المنى^(٢).

(١) أنظر «كتاب سيويه» (٤٢٧/١)، «شرح الأشموني» (٢٩٤-٢٩٥/٣).

(٢) «شرح الإسموني» (٢٩٥/٣).

ويجوز رفع الفعل بعدها على الإستئناف، نحو (لن أذهب إليه أو أخبره) بالرفع أي: (أو أنا أخبره)، والمعنى أنك نفيت الذهاب إليه، وأثبتت الاخبار، فأضربت عن الاول وذكرت أنك تخبره.

جاء في (المفصل): «وقال سيويه في قول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا
ولو رفعت لكان عربياً جائزاً على وجهين:

على أن تشرك بين الأول والآخر، كأنك قلت إنما نحاول ملكاً أو إنما نموت. وعلى أن يكون مبتدأ مقطوعاً من الأول يعني أو نحن ممن يموت»^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «إن معنى (أو) في الأصل أحد الشئين أو الأشياء، نحو (زيد يقوم أو يقعد) أي يعمل أحد الشئين، ولا بد له من أحدهما، فإن قصدت مع إفادة هذا المعنى الذي هو لزوم أحد الأمرين التنصيص على حصول أحدهما عقيب الآخر، وإن الفعل يمتد الى حصول الثاني، نصبت ما بعد (أو)، فسيويه يقدره بـ (الآ) وغيره بـ (إلى) والمعنيان يرجعان الى شيء واحد»^(٢).

وقال ابن الناطم: «فإن قلت: فلم نصبوا الفعل بعد (أو)، حتى أحتاجوا الى هذا التأويل؟»

قلت: ليفرقوا بين (أو) التي تقتضي مساواة ما قبلها لما بعدها في الشك فيه، وبين (أو) التي تقتضي مخالفة ما قبلها لما بعدها في ذلك، فإنهم كثيراً ما يعطفون الفعل المضارع على مثله بـ (أو) في مقام الشك في الفعلين تارة، وفي مقام الشك في الثاني منهما أخرى فقط. فإذا أرادوا بيان المعنى الأول رفعوا ما بعد (أو)، فقالوا (أفعل كذا

(١) «المفصل» (٢/١٤٠)، وانظر «كتاب سيويه» (١/٤٢٧). وليس في النسخة المطبوعة عبارة: «كأنك قلت: إنما نحاول ملكاً أو إنما نموت».

(٢) «شرح الرضي» (٢/٢٧٦).

أو أترك) ليؤذن الرفع بأن ما قبل (أو) مثل ما بعدا في الشك، وإذا أرادوا بيان المعنى الثاني نصبوا ما بعد (أو) فقالوا (لا نتظرنه أو يجيء) و(لأقتلن الكافر أو يسلم)، ليؤذن النصب بأن ما قبل (أو) ليس مثل ما بعدها في الشك لكونه محقق الوقوع أو راجحه^(١).

وجاء في (معاني القرآن) للفراء: «ومن العرب من ينصب ما بعد (أو) ليؤذن نصبه بالإنقطاع عما قبله، وقال الشاعر:

لتقعدن مقعد القصي مني ذي القاذورة المقلي
أو تحلفي بربك العلي أني أبو ذئالك الصبي
فنصب (تحلفي) لأنه أراد إلا أن تحلفي...

وأنت قائل في الكلام (لست لأبي أن لم أقتلك أو تسبني في الأرض) فت نصب (تسبني) وتجزمها، كأن الجزم في جواب: لست لأبي أن لم يكن أحد هذين، والنصب على أن آخره منقطع عن أوله. كما قالوا: (لا يسعني شيء ويضيق عنك) فلم يصلح أن تردّ (لا) على (ويضيق) فعلم أنها منقطعة من معناها^(٢).

من هذا يتبين أن ما بعد (أو) له ثلاثة أحوال:

١- العطف وهو أن يكون ما بعد (أو) مثل ما قبلها في الشك أي هما بمنزلة واحدة. وحكمه الأتباع نحو (لست لأبي أن لم أضربك أو أشتّمك أمام الناس)، أي لست لأبي إن لم أفعل أحد هذين، ونحو (لا أضربك أو أشتّمك) أي: لا أفعل أحد هذين الشئين. فالعلان منفيان.

٢- مخالفة ما بعدها لما قبلها فلا يشتركان في الشك بل يكون معنى (أو) (إلا أن) أو (حتى) وحكم الفعل بعدها النصب نحو (سأهجرك أو تكلمه في أمري) والمعنى سيستمر هجري لك حتى تكلمه في أمري، فقد جعلت الكلام سببا لعدم الهجر،

(١) «شرح الفية ابن مالك» (٢٧٨).

(٢) «معاني القرآن» (٧٠-٧١).

ولو قلت (ستكلمه في أمري أو أهجرك) بالنصب تغير المعنى وصار: ستكلمه في أمري حتى أهجرك، أي: سيستمر تكليمه في أمري إلى وقت الهجر.

جاء في (شرح ابن يعيش): «إذا قلت: (ستكلم زيدا أو يقضي حاجتك) فتنصب (يقضي) على معنى إلا أن يقضي فقد جعلت قضاء حاجتك سببا لكلامه.

وإذا عطفت فإنما تخبر بانه سيقع أحد الأمرين من غير أن يدخله هذا المعنى. ويوضح ذلك لك أن الفعلين اللذين في العطف نظيران أيهما شئت قدمته فيصح به المعنى فتقول: سيقضي حاجتك زيد زيد أو تكلمه إذا عطفت، فأيهما قدمت كان كان المعنى واحدا، وإذا نصبت اختلف المعنى فدل على السبب كما بينت لك، ولا يصح على هذا (سيقضي حاجتك زيد أو تكلمه) إلا أن تريد أن تجعل الكلام سبباً لابطال قضاء حاجته، فيجوز حينئذ كأنه يكره كلامه فهو يقضي حاجته أن سكت وأن كلمه لم يقضها»^(١).

٣- أستأنف ما بعدها وقطعه من الأول وحكمه الرفع وهو على تقدير مبتدأ محذوف عند النجاة نحو (لا تكلمه أو تخبره بما حصل) برفع (تخبره) ومعنى العبارة أنه ينهائ عن تكليمه ثم أستأنف حكما آخر فقال (أو أنت تخبره بما حصل) أي أنك ممن يخبره، ولو عطف لكان منهيًا عن التكليم والأخبار.

حتى

تدخل (حتى) على الفعل المضارع فيتصّب بعدها ويرتفع، وهو ينصب بعدها إذا كان مستقبلا، ولا يتصّب إلا إذا كان كذلك^(٢)، نحو (أطلع الله حتى يدخلك الجنة) ونحو (أنا سائر حتى ادخل البصرة)، ولها في هذه الحال ثلاثة معان:

(١) «شرح ابن يعيش» (٢٢/٧).

(٢) «المعني» (١٢٦/١) وانظر «كتاب سيبويه» (٤١٦/١)، «شرح الرضي» (٢٦٩/٢)، «الهمع» (٩/٢).

١- انتهاء الغاية بمعنى (إلى أن) نحو (سأسير حتى تطلع الشمس) ونحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

٢- التعليل، مثل كي نحو (كلمته حتى يأمر لي بشيء) و(أطلع الله حتى يدخلك الجنة) ونحو قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]^(١).

٣- مرادفة (إلا أن) في الإشتاء نحو قوله:

ليس العطاء من الفضول سماحة
حتى تجود وما لديك قليل
وقوله:

والله لا يذهب شيخي باطلا
حتى أير مالكا وكاهلا^(٢)
أي: إلا أن تجود وإلا أن أير.

ويرتفع الفعل بعدها إذا كان حالا ولا يرتفع إلا إذا كان كذلك^(٣)، وذلك نحو قولك (سرت حتى أدخل المدينة) إذا قلت ذلك وأنت داخل فيها، وكذا أن كان الدخول قد وقع وقصد به حكاية الحال الماضية، نحو (كنت سرت حتى أدخلها)^(٤) وكقولهم (مرض فلان حتى لا يرجونه) أي فهو الآن لا يرجى و(ضرب أمس حتى لا يستطيع اليوم أن يتحرك) ونحو (شربت الإبل حتى يجيء البعير يجربطنه) أي: فهو الآن يجربطنه^(٥).

(١) انظر «كتاب سيويه» (٤١٣/١)، «المقتضب» (٣٨/٢)، «شرح ابن يعيش» (٣٠/٧)، «المغني» (١٢٥/١).

(٢) «المغني» (١٢٥/١).

(٣) «المغني» (١٢٦/١)، وانظر «أمالي ابن الشجري» (٣٧٤/١).

(٤) «شرح ابن عقيل» (١١٤/٢).

(٥) انظر «سيويه» (٤١٣/١)، «المقتضب» (٣٩-٤٠/٢)، «شرح ابن يعيش» (٣٠/٧).

جاء في (شرح الرضي على الكافية): «إذا أردنا أن نبين متى يرفع المضارع بعدها ومتى ينصب؟».

قلنا ذاك إلى قصد المتكلم فإن قصد الحكم بحصول مصدر الفعل الذي بعد (حتى) أما في حال الأخبار أو في الزمن المتقدم عليه، على سبيل حكاية الحال الماضية، وجب رفع المضارع،... وإن قصد المتكلم أن مضمون ما بعد حتى سيحصل بعد زمان الأخبار، وجب النصب^(١).

وجاء في كتاب (الجمال) للزجاجي: «نقول (سرت حتى ادخل المدينة) بالنصب والرفع، فللنصب وجهان:

أحدهما أنك أردت سرت إلى أن ادخل المدينة فجعلت دخولك غاية سيرك، والآخر أن تريد معنى (كي) كأنك قلت: سرت كي أدخلها.

وللرفع أيضاً وجهان:

أحدهما أن يكون السير والدخول قد وقعا معاً، كأنك قلت: سرت فدخلت، فكل موضع صلح لك أن تقدّر الفعل الذي بعد (حتى) بالماضي والفاء جميعاً فارفعه.

والوجه الثاني، أن يكون السير قد وقع وانت تقول: أنك الآن تدخل، كأنك قلت: سرت حتى أدخلها الآن لا أمنع، ومنه (مرض حتى لا يرجونه) أي: حتى هو الآن لا يرجي.

وإذا كان الفعل منفياً غير موجب لم يجز فيما بعد حتى إلا النصب، كقولك: ما سرت حتى ادخل المدينة^(٢).

فخلاصة المسألة أنه إذا كان الفعل مستقبلاً بعد حتى نصبت، وإذا كان حالاً رفعت. فقولك (أسير حتى أدخل البصرة) إذا لم يتم الدخول نصبت الفعل فيه، وإذا حصل الدخول رفعت.

(١) «شرح الرضي» (٢/٢٦٨-٢٦٩).

(٢) «الجمال» (٢٠١-٢٠٢).

فاء السببية

يتصب الفعل المضارع بعد فاء السببية بشرطين:

الاول: أن تكون نصاً في السبب.

الثاني: أن يتقدمها نفي طلب كالامر، والنهي، والإستفهام، والتمني، وما الى ذلك نحو: (ما تأتينا فنكرمك) ونحو (لا تاكل كثيرا فتمرض).

ويذكر النحاة للفعل المنصوب بعد فاء السبب في نحو قولهم (ما تأتينا فتحدثنا) معنيين يجمعهما التنصيص على السبب:

أحدهما: ما تأتينا فكيف تحدثنا؟ أي: أنك لا تأتينا، ولهذا لا تحدثنا، ولو أتيتنا لحدثنا.

الثاني: أنك تأتينا ولكن لا تحدثنا أي: ما تأتينا إلا لم تحدثنا، والمعنى أنه يقع منك اتيان كثير ولا حديث منك^(١).

وعلى الوجه الأول، جاء قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]، أي: فكيف يموتون، ويمتنع أن يكون على الوجه الثاني إذ يمتنع أن يقضى عليهم ولا يموتون^(٢).

ويجوز رفع الفعل بعدها على معنيين:

العطف أي ما تأتينا فما تحدثنا، ونحو: (لا اذهب اليه فاشتمه) أي: لا اذهب اليه، فلا اشتمه.

والاستئناف، أي: أنك ما تأتينا، ولكنك تحدثنا، ونحوه: (اعطني فاشكرك) أي: فأنا ممن يشكرك على كل حال، والمعنى: أنا قائم بشكرك، وبالنصب يكون المعنى (اعطني لاشكرك) أي: انت لاتشكره الآن، وانما يكون الشكر مسيئاً عن العطاء.

(١) انظر «كتاب سيبويه» (٤١٨/١)، «المقتضب» (١٦/٢)، «الجمال» (٢٠٢-٢٠٣).

(٢) «المغني» (٤٨٠/٢).

والخلاصة أن الفعل بعد الفاء له ثلاثة أحوال:

١- النصب وذلك إذا قصد التنصيص على السبب نحو قوله تعالى: ﴿يَلَيْتَنِی کُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣] و﴿لَا یُقْضَىٰ عَلَیْهِمْ فِیمَوْئِلًا﴾ و﴿لَا تَضْرِبْ خَالِدًا فِیْهِنِکَ﴾.

وفي هذه الحال يكون معنى الفعل مخالفا لما قبلها، فقولنا (لم تزرنا فنكرمك) بالنصب معناه أنك لم تزرنا فكيف نكرمك، والمقصود أنك لو زرتنا لأكرمناك، ولو ابتع لكان الفعلان منفيين، وكان المعنى أنك لم تزرنا فلم نكرمك، ونحوه (هل يأتيك خالد فيعلمك) بالنصب والمعنى هل يجيئك ليعلمك؟.

وقد يراد بالإستفهام النفي أي: هو لا يأتيك فكيف يعلمك؟.

وبالاتباع يكون الاستفهام عن الايتان والتعليم جميعاً أي فهل يعلمك؟.

قال سيويه: «تقول (لا تأتيني فتحدثني) لم ترد أن تدخل الآخر فيما دخل فيه الأول فتقول (لا تأتيني ولا تحدثني) ولكنك لما حولت المعنى عن ذلك تحوّل الى الاسم كأنك قلت: ليس يكون منك ايتان فحديث»^(١).

وجاء في (الأصول) لابن السراج: «اعلم أن الفاء عاطفة في الفعل، كما يعطف في الاسم... فإذا قلت (زيد يقوم فيتحدث) فقد عطفت فعلاً موجباً على فعل موجب، وإذا قلت (ما يقوم فيتحدث) فقد عطفت فعلاً منفياً على منفي، فمتى جئت بالفاء وخالف ما بعدها ما قبلها لم يجز أن تحمل عليه، فحيثما تحمل الأول على معناه، وينصب الثاني باضمار (أن) وذلك قولك: (ما تأتيني فتكرمني) و(ما ازورك فتحدثني) لم ترد ما ازورك وما تحدثني، ولو اردت ذلك لرفعت ولكنك لما خالفت في المعنى، فصار (ما ازورك فكيف تحدثني)، وما ازورك إلا لم تحدثني حمل الثاني على مصدر الأول، وأضمر (أن) كي يعطف اسماً على اسم»^(٢).

(١) «كتاب سيويه» (٤١٨/١).

(٢) «الأصول» (١٥٩/٢) وانظر «المقتضب» (١٤-١٥).

٢- العطف وذلك إذا كان الثاني بمعنى الأول فيتبعه في اعرابه نحو: (لا تأتيني فتحدثني) أي أنت لا تأتيني فلا تحدثني، ونحو (أتأتيني فتحدثني) والمعنى: أنك تستفهم عن الاتيان والحديث و(أريد أن تأتيني فتحدثني) أي تريد الاتيان والتحديث، ونحو (لا تقم فتضرب محمداً)، أي: لا تقم ولا تضرب محمداً، ولو نصبت لكان المعنى لا تقم لأنك أن قمت ضربته، فإذا أردت هذا المعنى نصبت^(١)، ونحو (لم يدرس فينجح) أي: هو لم يدرس فلم ينجح، ولو قلت (لم يدرس فينجح) بالنصب لكان المعنى أنه لم يدرس فكيف ينجح؟.

٣- الإستئناف وحكم الفعل بعدها الرفع ومعناه يختلف عن المعنيين السابقين إذ هو على تقدير مبتدأ محذوف عندهم وذلك نحو (لا تكرم خالدا فيشتمك) أي فهو يشتمك والمعنى أنه يشتمك على كل حال أي هو قائم بشتمك، فلا تعطه ونحو (اتعطيني فأشكرك) بالرفع أي: أنا قائم بشكرك على كل حال، ولو نصبته لكان المعنى أنك أن أعطيتني شكرتك فتجعل العطاء سبباً للشكر، و(أعطني فأشكرك) أي: أنا ممن يشكرك، فالشكر ثابت سواء أعطاك أم لم يعطك، ولو قلتها بالنصب لكان الشكر غير حاصل وإنما يكون بعد العطاء، ويوضح هذا أنك تقول (ما زيد قاسيا فيعطف على عبده) أي فهو لانتفاء القسوة عنه يعطف على عبده^(٢)، ولو قلت (مازيد قاسيا فيضرب عبده) بالنصب لكان المعنى: ليس هو قاسيا فكيف يضرب عبده أي هو لا يضربه، ولا يصح الرفع لأن المعنى سيكون: ما هو قاسيا فهو يضربه دوماً.

وتقول: (حسبته شتمني فأثب عليه) إذا لم يقع الوثوب ومعناه:

لو شتمني لو ثبت عليه، وإن كان الوثوب قد وقع فليس إلا الرفع^(٣).

(١) انظر «المقضب» (١٥/٢).

(٢) «شرح شذور الذهب» (٣٧٠).

(٣) الرد على النحاة (١٤٧).

ومثله (ما تأتينا فتجهل أمرنا) أي: أنك لا تأتينا ولذا تجهل أمرنا والمقصود أنك تجهل أمرنا، ونحو (لم تقرأ فتنسى) والمعنى أنك لم تقرأ فأنت تنسى^(١).
ومنه قوله:

غير أنالـم تأتينا بيقين فنرجي ونكثر التأميلا
«كأنه قال فنحن نرجي، فهذا في موضع مبني على المبتدأ... وقال:
ألم تسأل الربع القواء فينطقُ وهل تخبرنك اليوم ببداء سملق
لم يجعل سبباً للآخر ولكنه جعله ينطق على كل حال كأنه قال: فهو مما ينطق كما
قال (اتنبي فاحدثك) فجعل نفسه ممن يحدثه على كل حال»^(٢).
«وتقول: (أريد أن تأتيني فتشمتني) لم يرد الشئمة ولكنه قال:
كلما أردت أتيانك شمتني، هذا معنى كلامه فمن ثم انقطع من (أن).
قال رؤية:

يريد أن يعربه فيعجمه

أي فإذا هو يعجمه»^(٣).

ولو عطف، لكان المعنى في الأول أنه يريد أن يأتيه ويشتمه.
ونحو (ما انت بصاحبي فأكرمك) فالرفع على معنى، انك لست بصاحبي، ولكن
أكرمك، أي: أنت قائم باكرامه، مع أنه ليس صاحبك.

(١) «المغني» (٢/٤٨٠).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٤١٩-٤٢٢).

(٣) «كتاب سيبويه» (١/٤٣٠).

والنصب على معنى: أنك لست بصاحبي فكيف أكرمك؟ أي: أنت لا تكرمه ولا يجوز لانه ليس قبله ما يصح عطفه عليه^(١).

قال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ [الحج: ٦٣]. «فإن قلت: فما له رفع، ولم ينصب جواباً للاستفهام؟»

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأنّ معناه أثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب الى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت فتشكر؟ إن نصبت نافية لشكره، شكك تفريطه فيه.

وإن رفعت فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الاعراب وتوقير أهله^(٢).

فاتضح بهذا أنّ لكل تعبير معنى، فقولك (لم تؤذه فيرهبك) بالجزم معناه أنك لم تؤذه فلم يرهبك، فالفعلان منفيان ماضيان في المعنى.

وبالنصب، معناه أنك لم تؤذه، فكيف يرهبك؟ أي ليس ثمة سبب لرهبتك فإنك لم تؤذه.

وبالرفع معناه أنك لم تؤذه وهو مع ذلك يرهبك أي هو يرهبك على كل حال.

وقد يدل الاستثناف على السبب قليلا نحو قوله:

فلقد تركت صبية مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع

أي لو عرفت الجزع لجزعت، ولكنها لم تعرفه فلم تجزع، وهذا أحد وجهي النصب وهو انتفاء الثاني لأنتفاء الاول^(٣)، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] فهذا يحتمل السبب.

(١) انظر «المقتضب» (١٧/٢).

(٢) «الكشاف» (٣٥٤/٢).

(٣) «المغني» (٤٨٠/٢) وانظر «شرح الرضي» (٢٧٢/٢، ٢٧٤-٢٧٥).

وبذلك يكون التعبير بالرفع تعبيراً احتمالياً، أي قد يحتمل أحياناً السببية، وقد يحتمل غيرها، أما النصب، فهو تعبير قطعي في الدلالة على السبب، وهذا شبيه بقولنا (أقبل محمد وخالد) فإنه بالرفع يحتمل المصاحبة وغيرها، وبالنصب يكون نصاً في المعية، وشبيه بقولنا (لا رجل في الدار) فإنه بالرفع يحتمل نفي الجنس، والوحدة، وبالفتح هو نص في نفي الجنس.

واو المعية

يتنصب الفعل المضارع بعد الواو، للدلالة على المعية نصاً، نحو (لا تأكل وتضحك) أي لا تجمع بين الأكل والضحك، ونحو قوله:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم
أي لا تجمع بينهما:

ويصح الاتباع على معنى آخر، وهو النهي عن كل واحد منهما على حدة، فيكون معنى المثال الأول ولا تأكل ولا تضحك، ومعنى البيت (لاتنه عن خلق ولا تأت مثله) وهو غير مراد لأنه ليس المراد أن ينهيه عن أن يخلق بل المراد أن يقول له: إذا نهيت عن خلق فلا تفعل مثله.

ويجوز الرفع على قصد الاستئناف، فإذا رفعت (تضحك) كان المعنى أنك اثبت له الضحك، أي (أنت تضحك) فهو ينهيه عن الأكل، ثم يقول له (أنت تضحك) أي هذا شأنك، أو على معنى إباحة الضحك له، أو على معنى آخر سنذكره في موطنه.

وإذا رفع (تأتي) كان المقصود أنه يفعل مثل ذلك الخلق، فيكون المعنى أنه ينهيه عن أن ينهي عن خلق، مع أنه مستمر على فعله.

ومنه المثال النحوي المشهور (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) بنصب (تشرب) والمقصود النهي عن الجمع بينهما، وإباحة أن يأكل السمك على حدة، وأن يشرب اللبن

على حدة، وإذا جزم كان المقصود النهي عن كل واحد منهما سواء، كانا منفردين أم مجتمعين، أي لا تأكل السمك، ولا تشرب اللبن.

جاء في (الكتاب): «ومنعك أن تجزم في الاول لأنه انما أراد أن يقول له، لا تجمع بين السمك واللبن، ولا ينهاه ان يأكل السمك على حدة، ويشرب اللبن على حدة، فإذا جزم فكأنه نهاه أن يأكل السمك على كل حال، او يشرب اللبن على كل حال»^(١).

وأما الرفع، فعلى النهي عن اكل السمك وإباحة شرب اللبن على كل حال^(٢).

وعلى هذا فإن ما بعد الواو ثلاثة أحوال:

١- الاتباع: ويكون حكمه حكم الاول أثباتاً ونفيّاً وغير ذلك، نحو: (لا تضرب محمداً وتشتم خالداً) أي لا تضرب محمداً، ولا تشتم خالدًا ونحو: (هل يأتي اخوك ويسافر ابوك؟) إذا استفهمت عنهما جميعاً، ونحو قول جرير:

ولا تشتم المولى وتبلغ اذاته فانك أن تفعل تُسَفِّه وتجهل

جاء في (المقتضب): «اعلم ان الواو في الخبر بمنزلة الفاء، وكذلك كل موضع يعطف فيه ما بعدها على ما قبلها فيدخل فيما دخل فيه، وذلك قولك: (أنت تأتيني وتكرمني) و(أنا ازورك واعطيك) و(لم آتكَ واكرمك) و(هل يذهب زيد ويجيء عمرو؟) اذا استفهمت عنهما جميعاً، وكقولك (أين يذهب عمرو وينطلق عبدالله؟) و(لا تضربن زيدا وتشتم عمرا) لأن النهي عنهما جميعاً.

فإن جعلت الثاني، جواباً، فليس له في جميع الكلام إلا معنى واحد، وهو الجمع بين الشيئين، وذلك قولك (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) أي: لا يكون منك جمع بين هذين»^(٣).

(١) كتاب سيويه (١/٤٢٥)، وانظر «المقتضب» (٢/٢٥)، «الأصول» (٢/١٥٩).

(٢) «التصريح» (٢/٢٤١).

(٣) «المقتضب» (٢/٢٥).

٢- النصب: ويفيد التنصيص على المصاحبة، نحو (ادع الى الخير وافعله، ولاتنه عن الشر وتفعله) أي اجمع بين الاولين ولا تجمع بين الاخيرين.

وهذه الواو نظيرة الواو التي ينتصب بعدها الاسم، في نحو (مشيت والجدار) أعني واو المعية أن لم تكن إياها إذ يفيد كل منهما التنصيص على مصاحبة ما بعد الواو لما قبلها.

جاء في (معاني القرآن) للفراء: تأتي بالواو معطوفة على كلام في اوله حادثة لا تستقيم اعادتها على ما عطف عليه ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله كقول الشاعر:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

ألا ترى انه لا يجوز إعادة (لا) في (تأتي مثله)، فلذلك سمي صرفاً اذا كان معطوفاً ولم يستقم ان يعاد فيه الحادث الذي قبله، ومثله من الأسماء التي نصبها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم (لو تركت والاسد لأكلك) و(لو خليت ورأيك لضللت) تهييوا أن يعطفوا حرفاً لا يستقيم فيه ماحدث في الذي قبله^(١).

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «وكذلك تقول في الفعل المنصوب بعد واو الصرف انهم لما قصدوا فيها معنى الجمعية نصبوا المضارع بعدها، ليكون الصرف عن سنن الكلام المتقدم مرشداً من أول الامر أنها ليست للعطف، فهي اذن اما واو الحال واكثر دخولها على الجملة الاسمية، فالمضارع بعدها في تقدير مبتدأ محذوف الخبر وجوباً فمعنى (قم وأقوم) أي قم وقيامي ثابت، أي في حال ثبوت قيامي، واما بمعنى (مع) وهي لا تدخل الا على الاسم، قصدوا ههنا مصاحبة الفعل للفعل، فنصبوا ما بعدها فمعنى (قم وأقوم) أي قم مع قيامي، كما قصدوا في المفعول معه مصاحبة الاسم، للاسم فنصبوا ما بعد الواو^(٢).

(١) «معاني القرآن» (١/٣٤).

(٢) «شرح الرضي» (٢/٢٧٣).

٣- الرفع على الاستثاف: نحو (لم تأتني وأكرمك)، والمعنى انك لم تأتني وأنا أكرمك على كل حال، أي أنني أكرمك وانت لم تأتني، فأكرمك له ثابت وبذا يكون المعنى نفي الاتيان واثبات الاكرام.

ولو جزم لكان الاتيان والاكرام منفيين، ولو نصب لكان نفي الجمع بين الاتيان والاكرام، وقد يكون اتيان ولا اكرام أو أكرام ولا اتيان.

ومثله (دعني ولا أعود) «أي فأنني ممن لا يعود، فإنما يسأل الترك وقد أوجب على نفسه أن لا عودة له البتة ترك، أو لم يترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك، وان لا يعود. وتقول: (زرني وأزورك) أي: أنا ممن قد أوجب زيارتك على نفسه، ولم ترد أن تقول: لتجتمع منك الزيارة وأن أزورك تعني لتجتمع منك الزيارة فزيارة مني ولكنه أراد أن يقول: زيارتك واجبة على كل حال، فلتكن منك زيارة»^(١).

قال تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥] أي نحن ونقر في الارحام^(٢) ولم يرد العطف على التعليل.

وربما جاء الرفع للدلالة على معنى المعية^(٣)، نحو: (قم ولا أقوم) ونحو (لا تأكل وتضحك) وهو قليل، فيكون النصب للدلالة على المصاحبة نصاً بخلاف الرفع فإنه ليس نصاً في المصاحبة، وهو نظير قولنا في الأسماء (أقبل محمد وسعيد)، فهذا يحتمل المصاحبة وعدمها، بخلاف النصب فإنه للتخصيص على المصاحبة.

(١) «كتاب سيبويه» (١/٤٢٦).

(٢) «كتاب سيبويه» (١/٤٣٠).

(٣) انظر «شرح الرضي على الكافية» (٢/٢٧٥).

فهرس الموضوعات

الواو..... ٨٨	حروف الجر..... ٥
المعاني المشتركة..... ٨٨	نيابة حروف الجر بعضها عن بعض..... ٦٠
التعليل..... ٨٩	التضمن..... ١٢
الظرفية..... ٩٣	معاني حروف الجر..... ١٦
زيادة (ما)..... ٩٦	الى..... ١٦
(ما) الكافة..... ٩٦	الباء..... ١٩
(ما) غير الكافة..... ١٠٠	التاء..... ٣٣
التقديم والتأخير..... ١٠٥	حتى..... ٣٤
	ربَّ..... ٣٧
تعلق الجار والمجرور..... ١١٣	ربة..... ٤٠
الإضافة..... ١١٧	حذفها..... ٤١
معنى الإضافة..... ١١٧	على..... ٧٤
نوعا الإضافة..... ١٢٣	عن..... ٥٣
المحضنة..... ١٢٣	في..... ٥٧
الأسماء الموغلة في الإبهام..... ١٢٦	الكاف..... ٦٠
الإضافة غير المحضنة..... ١٣٠	اللام..... ٦٤
إضافة المترادفين والصفة	من..... ٧٥
والموصوف..... ١٣٣	منذ ومنذ..... ٨٤

أكتساب المضاف التذكير والتأنيث من	النعت	١٨١
المضاف إليه	النعت الجامد	١٨٤
الظروف المعرفة بالقصد	النعت بالمصدر	١٨٩
حذف المضاف	الوصف بالجملة	١٩٢
حذف المضاف إليه	النعت المقطوع	١٩٣
المصدر	تعاطف النعوت	٢٠٠
المصدر الصريح والمؤول	حذف النعت	٢٠٢
الحروف المصدرية	البدل	٢٠٣
أنَّ	أقسام البدل	٢٠٤
أنْ	البدل وعطف البيان	٢١٣
ما	العطف	٢١٦
كي	حروف العطف	٢١٦
لو	الواو	٢١٦
أسم المصدر	أحكام الواو	٢٢٧
الاتباع على محل المضاف إليه	الفاء	٢٣١
أسم الفاعل	الفاء مع الصفات	٢٣٧
إضافة أسم الفاعل	ثم	٢٣٧
العطف على المضاف إليه	حتى	٢٤٣
صيغ المبالغة	أم	٢٤٦
أسم المفعول	أو	٢٥٠
الصفة المشبهة	أم وأو	٢٥٥

لكن	٢٥٧	الفعل	٣٠٨
بل	٢٥٧	الفعل الماضي	٣٠٨
لا بل	٢٦٢	أزمته	٣٠٨
أحرف الاضراب	٢٦٣	استعمالاته	٣٢١
لا	٢٦٤	الفعل المضارع	٣٢٣
العطف على اللفظ والمعنى	٢٦٥	أزمته	٣٢٣
المتعاطفان	٢٦٦	استعمالاته	٣٣٣
حذف أحد المتعاطفين	٢٦٨	حروف النصب	٣٣٥
حذف حرف العطف	٢٦٩	أن	٣٣٥
العدد	٢٧٠	زيادة (لا) بعدها	٣٤١
أحد وواحد	٢٧٣	إذن	٣٤٦
اسم الفاعل من العدد	٢٧٧	كي	٣٥٢
تميز العدد	٢٧٨	لام التعليل	٣٥٣
الممنوع من الصرف	٢٨١	التعليل بكي واللام	٣٥٥
سبب المنع من الصرف	٢٨١	لن	٣٥٩
رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى	٢٩٣	لن ولا	٣٦٠
العلم	٢٩٣	حروف أخرى تنصب بعدها الفعل	٣٧٠
الصفات	٢٩٨	أو	٣٧١
التأنيث	٣٠٠	حتى	٣٧٤
منتهى الجموع	٣٠٢	فاء السببية	٣٧٧
الغرض من التثوين	٣٠٤	واو المعية	٣٨٢
		فهرس المحتويات	٣٨٧